دور الأدب

في

معركة التحرر والبناء

مؤتمر الأدباء العرب الخامس

١٥-٢١ شباط ١٩٦٥

بغداد

القسم الثاني

الأدب والثورة

الأدب والبناء

دور الأدب

في

معركة التحرر والبناء

مؤتمر الأدباء العرب الخامس

١٥ - ٢١ شباط ١٩٦٥

بغداد

القسم الثاني

الأدب والثورة

الأدب والبناء

الناشــر
عبدالحميد العاني
مطبعة العاني - بغداد
١٣٨٤ - ١٩٦٥

أصدرته

اللجنة التحضيرية لمؤتمر الأدباء العرب الخامس

نسقه وأشرف عليه

الدكتور أحمد مطلوب عبد الله الجبوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدَب وَالثورَة

الثورة والأدب

بقلم

محمود سليم الحوت

قد يكون الفرنسيون من أشد شعوب الارض اعتزازا بقوميتهم ، ووثوقا من أنهم ، كرواد ثورة تحررية عالمية ، شعب أعطى للقارة الاوربية ، وغيرها من قارات الارض معاني جديدة للحرية ... وللديمقراطية السياسية التي سرت بعد الثورة الفرنسية ، وتحطيم الباستيل عام ١٧٨٩ الى شتى بلدان الغرب الاوروبي . فالعالم أجمع .

ومع ذلك فان حرب التحرير الجزائرية ، قد حملت قسيسا فرنسيا عائدا من الجزائر آنذاك ، على التصريح بما تردد على شفاه الكثيرين من جنود فرنسا المحاربين ، قائلين : « انه لمن المخجل ان يكون الانسان فرنسيا ! » .

وانني لعلى ثقة تامة ، من أية حرب تحررية صادقة ستجبر الاستعمار ، أياً كان نوعه ، على التصريح بمثل هذا القول . ولهذا فان كلمة الثورة .. الثورة الصادقة العارمة .. الثورة المنظمة الخلاقة ، يقوم بها شعب ... اى شعب مغلوب على أمره ، بعزيمة أكيدة ، وتصميم حاد صارم ، لجديرة بان تزعزع أركان المستعمرين ، وتلقي الفزع في قلوبهم ، ومن ورائهم الرجعيون ، والنفعيون ، وكل من لا يرى له وجودا الا بوجودهم ، وسلطانهم .

وقد يكون الاعلان العالمي لحقوق الانسان ... تلك الوثيقة التي أقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة في العاشر من كانون الاول ، عام ١٩٤٨ ، نتيجة حتمية لسلسلة من الثورات العالمية ، الدموية منها والفكرية . ونحن نعلم ان هذه الوثيقة انطوت على ثلاثين مادة منها ما يقول ان لكل

انسان الحق في مستوى من العيش كاف لضمان الصحة والهناء له ولاسرته ، ومنها ما ينص على انه لا يسترق ولا يُستعبد أحد ، ومنها ما يصرح بأن البشر كلهم يولدون أحرارا متساوين في الكرامة وفي الحقوق ... الى غير ذلك من مواد انسانية خيرة .

ومهما كان في ذلك من مكاسب للبشرية كلها ، الا ان الكثيرين يعتقدون بأنها حقوق نظرية ما زالت الامم المتحدة عاجزة عن اقرارها فعلا لا نصا بحيث تتمكن الشعوب ولاسيما المستضعفة ، والمغلوبة على أمرها ، من التمتع بها عمليا ، فلا تكون مخدرا من المخدرات التى اعتاد فرضها الاقوياء على الضعفاء . ولهذا فان على كل شعب حي ان يغتصب حقوقه اغتصابا ، غير منتظر من مستغليه في الداخل والخارج ان يتكرموا عليه ، في الوقت الذى يشاؤن ، بحق لا يكونون هم انفسهم بحاجة اليه ، أو أنهم لا يتنازلون عنه الا لدعاية مسمومة مغرضة ، تخدر من حماسة ذلك الشعب القومية ، أو تخفيف من أحقاد غيره من الشعوب .

* * *

والثورة التى نعني في بحثنا هذا (Revolution) قد أصيب مفهومها بفوضى استعمال ، لا في اللغة العربية فحسب ، بل وفي شتى اللغات الاجنبية كذلك . فكثيرا ما يستخدم الادباء والمفكرون من عرب وأجانب في هذا الميدان كلمات عديدة مثل التمرد ، والانقلاب ، والفتنة ، والعصيان ، وغيرها من الكلمات التي وان حملت بين طياتها بذور الثورة ، الا انها لا تعني الثورة في معطياتها الحديثة .

وقد يرى البعض ان الثورة في معناها المعاصر المعروف ، انما هي ذلك النضال المشبوب في سبيل تغيير السلطة الحاكمة من ايدي طبقة اقتصادية مغايرة ، كما يستعمل البعض الاخر كلمة الثورة للدلالة على تغيير أساسي جذرى في الحكومة أو دستور البلد السياسى ، يقوم به عدد كاف من الافراد ، بالعنف عادة ، وقوة السلاح ، نتيجة لاسباب داخلية ظالمة .

وكان فيكتور هيجو قد اجتزأ تعريفا للثورة فقال انها « فورة غيظ

الحقيقة » • والحقيقة هذه التي يعنيها ، تلك تأبى ان يكون الانسان عبدا للانسان ، وذلك لا يتم ، كما يرى نفر من فلاسفة الاجتماع ، الا بعد تمهيد علمي وتنظيمي ، ونشوء ايديولوجية ثورية مطلقة ، مما يضفي على بعض الحركات الانقلابية لونا من القداسة والايمان الحاد بها ، وذلك على الرغم من انها ليست بوحي ولا نبوة • وهم يرون كذلك ان هذه الايديولوجية هي طريق أية حركة ثورية الى انتصارها وسيادتها ، مما يعطي المجتمع تركيبا روحيا وماديا يجدد النظم والعلاقات الاجتماعية والسياسية ويقتلع جذور التركيب التقليدي البائد •

ولهذا لا يتفق أصحاب الرأي وبعض المؤرخين الذين أضفوا على حركات التمرد المعروفة التي عمت القارة الاوروبية عام ١٨٤٨ ، صفة الثورة •• فقد كان ينقص تلك الحركات المفهوم الثورى الكامل ، والاندفاع الشعبي المطلق ، وامثالها من حركات التمرد عبر عصور التاريخ الطويل •

ومع هذا وذاك ، فالثورة كانت حتى القرن التاسع عشر لا تعني أكثر من اضطراب شعبي ، وان قيل انها اتخذت معناها السياسي قبيل عام ١٧٨٩ • وعلى الرغم من انها اتخذت معنى حديثا خلال القرن التاسع عشر ، الا ان فلاسفتها يرون ضرورة خلق مبدأ فلسفي جديد ، ومفهوم شعبي عام يتمكنان من البلوغ بالثورة الى غاياتها الطبيعية المثلى •

ولست في موقف لتنفيذ ما يطلقون عليه اسم الثورة الصامتة التي تتحقق عن طريقها الديمقراطية الاجتماعية على يد المنظمات الشعبية الهادئة ، ومقارنة تلك الثورة بالتحرير الثورى الذى يتم بالقوة والعنف ، وان كان يجدر بنا التنويه بأن الديمقراطية الاجتماعية في نظر الطرفين النقيضين كليهما انما تهدف الى تحرير الفرد من الوان الطغيان والظلم ، وهو التحرير الذى يعطي الديمقراطية الحديثة وجهها الجديد • ولا يعني هذا ان ليس هنالك من نظام يجب ان يسود الا ما هو قائم في المعسكرين : الاميركي ـ الانجليزي من ناحية ، والسوفيتي من ناحية أخرى •

هذا ، ومهما اكتنف كلمة « الثورة » من اضطراب وغموض ، وتعددت تعاريفها في مختلف البلدان من شرقية وغربية ، فانهـا لا تعدو في مفهومي – كعربي قومي – كونها **الحياة العارمة الفوارة التي لا ترفض الظلم بشتى أنواعه من سياسي واقتصادي والاجتماعي وفكري فحسب ، بل تعمل بتنظيم مدروس جاهد للقضاء عليه قضاء مبرما ، لتحل محله الحرية والعدالة ، والمساواة ، وكل ما يؤدى الى سيادة الانسان العربي ، وسعادته بوحدته المطلقة في وطنه الكبير .**

* * *

ولسنا في حاجة الى القول بأن التاريخ مليء بالثورات . لا بل انهـا أقدم من التاريخ ، فقد عرفها الانسان في كل بقعة دب فيها من بقاع الارض ... انها شغل الانسانية الشاغل عبر الادهار ، حتى لتكاد كتب التاريـخ تحدثنا عن ثورة تحت كل نجم حقبة قصيرة أو طويلة من أحقابه العديدة . والثورات ، في شتى أشكالها ، لا تميز بين جنس أو لون أو دين أو طبقة.. فقد يقوم بها الاحرار كما يقوم بها العبيد ، وينتفض لها الايمان كما ينتفض الالحاد ، ويلتهب بها الابيض كما يلتهب الاسود والاصفر والاسمر . فالضغط والطغيان هما اللذان يولدان انفجار النفس البشرية في الافـراد والجماعات والشعوب والامم على اختلاف ما كلها ومشاربها ... حتـى جماعات الطير والحيوان تتحد في كثير من الاحيان وتعلنها ثورة شعواء مدمرة على الظلم الوحشي ، أو تهديد الحياة باسترقاق ومـوت فكيف بالناس يستعبدون وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

واننا لنرى ان الاسلام ، ان لم يكن أضخم ثورة عرفتها الانسانية جمعاء في تاريخ نضالها الطويل ، فهو من أعظم ثورات الارض ، وأشرقها ، وأسماها نتائج ، وأبعدها أهدافا وغايات . انه ثورة السماء والغبراء معا على أعداء الحياتين ، ثورة الضمير النير النابض على مسوديه وقاتليه ... ثورة الفـكر الشريف الحر على معهريه ... ثورة الايمان الهادى على الالحاد المضل الضال . ثورة الجمال والفضيلة والخير والنور على القبح والرذيلة

والشر والظلام ... انه ثورة الحق تطلعا الى الحق المطلق في كل زمان ومكان .

لامجال ، سيداتي سادتي ، لتعداد ثورات التاريخ .. والتاريخ اذا ما سار ببطء كلي خلال بعض القرون ، فانه يجدّ بالسير ويلهث جاهدا في بعض أعوامه وأيامه . وقد يحتاج المرء الى مجلد رحب واسع كثير الصفحات لذكر مجموعة واحدة من ثوراته العديدة . غير ان ذلك لا يحول دون التلميح ، على سبيل المثال بالثورات الكبرى التى عرفها العالم الغربي منذ القرن السابع عشر ، حيث نرى حتى في بلاد الدم الازرق البارد ، ثورة بعد أخرى للاطاحة بالوهية الانظمة القائمة . يثور كروموبل لينشيء الجمهورية الانجليزية (عام ١٦٤٨) ، وتشتعل ثورة أخرى (عام ١٦٨٨) لتؤدي الى « اعلان الحقوق » ، ولتشق الطريق الى الروح الديمقراطية التي أخذت تنتشر فيما بعد بأرجاء القارة الاوروبية ولاسيما بعد الثورة الفرنسية ... ويتزايد الضغط الانجليزي بجبروته المعروف على مستعمراتهم الاميركية ، فيهب الشعب الاميركي بقيادة جورج واشنطون ، معلنا حرب الاستقلال ، فيقهر المستعمر ويُستذل ، وتعلن الحقوق (عام ١٧٧٤) ويتبع الاستقلال في الرابع من تموز ، عام ١٧٧٦ .

وكأن هذا الشهر على موعد مع ثورات عارمة أخرى ... ففي فرنسا كانت بشاعة الظلم قد بلغت بالنفوس التراق ، فاحتدم الغليان وانفجر بثورة من أخطر ثورات الانسان على أعداء الانسان . انها الثورة الفرنسية التى بدأت فعلا في الرابع عشر من تموز ١٧٨٩ ، حيث انقض الثوار على حصن البستيل في باريس ودمروه وعصفوا بالانظمة البالية ، وزعزعوا أركان الملكية حتى مسحوها ، وأصبحت فرنسا جمهورية (عام ١٧٩٢) ، ومن ثم عمت روح هذه الثورة التاريخية الكبرى في سائر اوربا ، والعالم ، متمخضة بمبادىء الديمقراطية الحديثة ، ومنحصرة في كلمات ثلاث : « الحرية الاخاء ، المساواة » .

ولا عجب ان يطلق المؤرخون على عام ١٨٤٨ عام الثورات . فقد

واجهت انجلترا قلاقل عنيفة واضطرابات شديدة خطيرة ، وان تحدث فيها ثورة بمعناها الدامي ، وأما في فرنسا فقد أجبر الثوار والاحزاب التحررية ملكها لويس فيليب على التنازل ، معلنين فيها الجمهورية الفرنسية الثانية •• وانتفضت القارة الاوروبية بكاملها انتفاضة عنيفة عمت المانيا ، والنمسا ، وبولندة ، وبوهيميا ، وايطاليا ، وغيرها مما أدى بالنتيجة الى سن الدساتير الجديدة ، والنيل من قوة الحكم الفردي والحد من سطوته ، والتوسع في حريات الشعب ، وتوطيد النظم الديمقراطية العامة •• وناهيك بما أحدثته الثورة الصناعية في اوروبا ، بالاضافة الى أحداث الثورة السياسية، من تغييرات جمة في مفاهيم الحياة المادية والاجتماعية •

وتتقدم مع الثورات فيما بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر دخولا في القرن العشرين فتواجهنا ثورة البلقان (١٨٧٥ - ١٨٧٧) على الدولة العثمانية سعيا من تلك البلدان (البوسنة والهرسك والجبل الاسود وسربيا وبلغاريا) لاغتصاب استقلالها الداخلي ، كما تهب في وجه ما يسمى بالرجل المريض ثورات تركيا الفتاة ، منذ عام ١٨٧٦ لادخال النظام البرلماني ، واخضاع السلطان واجباره على اجراء الانتخابات ، وعزله في النهاية •• كما لا ننسى ثورة أتاتورك عام ١٩٢٣ التى أسفرت عن اعلان الجمهورية ، وبالتالي الغاء الخلافة وعزل آل عثمان (١٩٢٤) وفصل الامور الدينية عن المدنية في الدستور • وبالاضافة الى الحركتين النازية والفاشية في المانيا وايطاليا ، نشير الى الثورة الاسبانية (١٩٣٦) التى تمت بعد مراحل من استقالة الملكية ، واعلان الجمهورية ، ونشوب الحرب الاهلية ، بسقوط مدريد في يد البيض واعلان حكومة فرنكو في مطلع نيسان ١٩٣٩ •

ولا ريب ان أعظم ثورة اوروبية وقعت بعد الثورة الفرنسية ، وفرضت مفهومها وأيديولوجيتها على جزء كبير من العالم هى الثورة الروسية التى ابتدأت في بتروجراد في ١١ آذار ١٩١٧ •• فقد أخذت القاعدة الشعبية في تلك البلاد المترامية الاطراف تتسع وتعمق منذ أوائل القرن التاسع عشر ،

وتزداد فعالية الحركات الثورية فيها بازدياد صلتها مع الشعب ، الى ان وقع الانقلاب الشيوعي وانتهى حكم القياصرة ، واستلم البلشفيك زمام الامر بقيادة لينين وتروتسكي في ٧ تشرين الثاني من العام الذى بدأت فيه تلك الثورة الكبيرة ، التى جسدت الديمقراطية الماركسية ، وارادتها في اعطاء السلطة للكتل الشعبية ، وعملت على ان الشعب ليس صاحب تلك السلطة فحسب ، وانما هو الذى يجب ان يمارسها عن طريق منظماته المتفرعة الكثيرة .

* * *

وقد يطول الحديث ويتشعب في تناوله المراحل التى مرت بها ثورات العالم العربي في شتى بلاده وأقطاره طلبا للتخلص من الحكم العثماني وطغيانه ، والتحرر من الاستعمار الوحشي الكريه في جميع أشكاله والوانه ، من انجليزي ، وفرنسي وايطالي ، واسباني .. كأننا لم نكتف بمعاركنا الطويلة المريرة منذ أوائل القرن السادس عشر حتى اعلان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ أو اعلان الثورة العربية على الاتراك في الثانى من حزيران ١٩١٦ بعد ان علق جمال باشا والي سوريا السفاح ، وقائد الجيش التركي الرابع ، عددا من أبطال العروبة المناضلين وشبابها المثقفين الاحرار على أعواد المشانق في بيروت ودمشق ، اليومين المشؤومين ٥ آب ١٩١٥ و ٦ أيار ١٩١٦ . أما ظلام الاستعمار الغربي الجشع الرهيب فقد ران على دنيا العروبة وتمطى بصلبه ، واردف اعجازا وناء بكلكل وكأنه ليل امرىء القيس غفر الله له بهذا الوصف العجيب !! وانه لكارثة طامة عامة يعيش عليها المستعمر بنهبه الثروات المادية والبشرية في البلاد التي تبتلى به . والاستعمار كان وما زال متأكدا من ان عالمنا العربي ممر طبيعي يصل الغرب بالشرق والشمال بالجنوب ، ويعرف انه مركز استراتيجي لا مثيل له في الدنيا كلها ، ولا تفوته حقيقة ان هذا العالم ثروته هائله يقوم على رأس كنوزها النفط ومشتقاته ، فهو يستميت ، كما يقول صديقنا نقولا الدر في كتابه « هكذا ضاعت وهكذا تعود » في الاستيلاء عليه بكل

وسيلة ممكنة ••• ذلك « ان الله سبحانه وتعالى جعل بلادنا في اوضاع تمكن أهلها من التحكم في رقاب قارات ثلاث ، عسكريا وتجاريا ، برا وبحرا وجوا » •

فكيف لا يطمع بنا الاستعمار ؟ كيف لا يقتل كل وعي فينا ؟ كيف لا يرى في القومية العربية خطرا مميتا على حياته يهدد وجوده بالفناء ؟ كيف لا تصطك مفاصله ويدب الفزع في اوصاله من مجرد فكرة الوحدة العربية الشاملة ؟! ولا ريب ان « جون جلوب » في كتابه « بريطانيا والعرب » ، قد أبدع في وصف هذه المخاوف عندما قال : « ان دولة مقاتلة عظيمة ، ثابتة الدعائم في الشرق الاوسط ، يمكنها ان تضرب في اوروبا أو آسيا أو أفريقيا حسب رغبتها ••• أو ان تشن الهجوم ، في أية جبهة تشاء ، على اوروبا أو آسيا أو أفريقيا ••• وهى تستطيع ان تفصل اوروبا عن آسيا كلتيهما عن أفريقيا •• كما تستطيع ان تفرق الحلفاء بعضهم عن بعض ، وان تبيدهم الواحد تلو الاخر » •

وقد يكون « أبو حنيك » قد تخايلت في مجال أوهامه ، وهو يكشف الستار عن مخاوف الاستعمار ورعبه ، دولة كبيرة أخرى واقفة للمعسكر الغربي بالمرصاد ، غير انه لا بد كذلك مدرك تمام الادراك ، هو وغيره من أرباب الذهنية التي تخشى اتحاد العرب ، ما سيكون للقومية العربية ووحدتها من ثقل في موازين العالم كما كان لنا في سابقات العصور • ولا ريب أنه قد قرأ أمثال قول الشاعر العربي :

وتسير الفتوح فهي على السند ،   وفي الغرب فوق هام فرنسا
وتضج الشعوب بشرا كما لو   زف أهل الفتوح في الكون عرسا
أولم يحملوا المشاعل بالارض   ويعطوا الطغاة في العدل درسا
ويشيعوا روح الحضارة أنقى   جوهرا ، يا أخي ، واطهر حسا
أولم يدرس الزمان عليهم   كيف كانت قواعد الحق ترسى
ويعم السلام في الارض طرا   وتسر الشعوب قلبا ونفسا
سل رجال التاريخ يا غرب واذكر   من بنيك الكبار من كدت تنسى

يخبروك اليقين عن كل فعل معجز في الوجـود جنا وانسا
كيف قمنا به عصورا طـوالا لم ندنس يدا ولم نجن رجسا
واذا قامت العراقيـل طـودا لم نهن قوة ولم نشك يأسا
كان حكم العـروبة الفـذ للخلق حساما يذود عنهـم وترسا
وهـم رافلون مجـدا وأمنـا يستظلون راية العـرب خمسا
لم نـكن امة تجيـع البرايـا وتمص الدمـاء نهشا ولحسا
مثلما يفعلون في كـل قطـر حكموه فزاد شـؤمـا ونحسـا
قد حكمنا الانام بالامس لكن سلهم كيف حـكمنا كان أمسا
أو لم تصبح الجزيرة بعد الفتح ، والعـرب سادة ، فردوسا ؟[1]

هذه القوة الهائلة ، ولا سيما اذا تمكنت من ان تكون قوة ضاربة عند اللزوم ، ارتعب وما يزال يرتعب منها الاستعمار ، ولذلك لم يكد يبسط جناحه الثقيل على العالم العربي ، بالخديعة والغدر والقوة في أماكن الضعف ، حتى اخذ يثير النعرات والطائفيات ، ويغذي الشعوبية ، ويفسد الضمائر ، ويشتت الاذهان والفكر ، ويعمي البصائر ، ويحيك المؤامرة تلو الاخرى ، ويرسم المخطط الرهيب تلو المخطط الرهيب ، ويحتل ما يمكن احتلاله من دنيا العرب المجزأة ، ويفاوض الحـكام مبينا الغدر للشعوب ، ويدعم الموالين ، ثم يعمل بالنهاية على خلق دولـة في الصميم العربي يدربها على العدوان الدنيء وينقض منها على العرب أجمعين انى شاء وكيف شاء .

غير ان ذلك كله لم يبلغ به شأوه ، فلم يستطع ان يحقق جميع أهدافه ومراميه وان كان الواقع قد اوحى اليه بانه السيد المسيطر . قال أبو ذر الغفاري : « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه ! » ... هذا فيما يتعلق بالجوع وحسب ، فكيف بالعرب لا يثورون وقد شعروا ان قوتهم مهدد بالنهب ، وعرضهم مهدد بالعار ، وحريتهم مهددة بالاصفاد ، وكرامتهم مهددة بالذل ، وأمجادهم

(١) من ديوان « ملاحم عربية » ـ للمؤلف .

مهددة بالضياع ، وكيانهم كله مهدد بالدمار ؟!

ولا يضيرهم انهم مستضعفون عزل من السلاح الا سلاح الايمان ••• فقد قال المارشال فوش : « ان الروح البشرية المضطرمة ، أعظم أسلحة الانسان » فلا عجب ان نرى العرب في كل مكان ، وقد كانت روحهم تغلي كالبركان حقدا ونقمة ، وتطلعا الى الحرية ، يهبون هبة الاسود ديس عرينها ، فيضرمونها ثورة تحررية في مصر والشام ، وفلسطين ، وهذا البلد الامين ••• ولا يريحون الاستعمار في أى غيرها من الاقطار ، منذ ان رفرفت أعلامه البغيضة في العالم العربي بعد الحرب العالمية الاولى ، وقبلها في بعض اقطاره بزمن طويل •

* * *

والجدير بالذكر اننا لا نستطيع في هذا البحث المقتضب ان نلم بتفاصيل ثورات العرب في السنوات الاخيرة ، وان كان من المجدي ان نشير الى ثورات تحررية اربع كان لها الاثر الفعال في دفع القومية العربية نحو وحدة العرب الشاملة خطوات واسعة جبارة • فالفكرة الثورية التي تنطوي عليها قوميتنا لم تعترف بالواقع المريض ، بل تمردت عليه ، واعترفت بواقع قوي سليم يؤكد لها ان القيمة الحضارية الانسانية للشعوب العربية انما تكمن في وحدتهم ، ولهذا فقد أخذت تطلق تباشير قدرتها على تحرير الانسان العربي في كل جزء من اجزاء وطنه الكبير ، وعلى اقامة « مجتمع عربي متحرر من الاستغلال ، والاستبداد الداخلي ، والاستعمار الخارجي ، يظله ـ كما يقول كمال‌الدين محمود رفعت ـ نظام اقتصادى ، يهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين » •

ومهما قيل في القوميات ، ومفهومها الاجتماعى الذى يصعب تعريفه ، والنظريات العديدة التي تكتنف مقوماتها (كما بين ساطع الحصري في كتابه : ما هى القومية) كالنظرية الالمانية التى تعتمد وحدة اللغة أساسا ، والفرنسية التى تقول بمشيئة المعيشة المشتركة ، والستالينية التى ترى وحدة الحياة الاقتصادية أساس القومية الاول ، والدينية التى ترى وحدة الدين هى الاساس ، الى غير ذلك من عديد النظريات ، فان الكثيرين من مفكرينا

يعربون عن القومية بانها ماضينا المشترك ، وحاضرنا المشترك ، ومستقبلنا المشترك ، ويرون في وحدة اللغة ، ووحدة الارض والطبيعة والتاريخ المشترك ، والمصير المشترك ، ووحدة الثقافة ، ووحدة المصالح من اقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية وعسكرية ، مقومات أساسية للقومية العربية .

هذا ، وفي بحث للدكتور قسطنطين زريق بعنوان «دروس من الماضي» يقول : « واذا نحن درسنا الحياة العربية على ضوء تاريخها الماضي وواقعها الحاضر ، ومستقبلها المرجو ، وعلى ضوء التطور البشرى ، لم نجد فكرة يصح ان يلتف حولها ابناء هذه البلاد ، وان يكافحوا في سبيلها سوى الفكرة العربية القائمة على أسس قومية صحيحة ، الخالصة من كل شائبة ، المتغلبة على كل عصبية ، المتفتحة لنور العقل ، المتصلة بجذور الماضي السليم ، المتطلعة الى آفاق المستقبل المشرق » .

وفي الوقت الذى نرى بعض مفكرينا يعودون بمراحل القومية الى نهاية الدولة العثمانية ، حيث بدأت المرحلة العاطفية والتغني بالامجاد ، وشحذ الهمم ، نجد ان بعض المفكرين الاخرين يوغلون بتاريخ القومية العربية فيصلون بمرحلتها الاولى الى عصور الجاهلية ، ثم تتبعها مرحلة الاسلام ، فمرحلة الحكم التركي ، واخيرا مرحلة الاستعمار الذى هندس كارثة فلسطين ، ثم مرحلة الانطلاق العربي ، والثورات الحديثة الكبرى ، وعلى رأسها ثورة الضباط الاحرار في مصر عام ١٩٥٢ ، وهى الصرخة المدوية المجلجلة التى « قفزت بالدعوة العربية من عالم الفكر الى عالم الواقع المحسوس » .

ولقد عرف الدكتور منيف الرزاز القومية في كتابه « تطور معنى القومية » بقوله انها « شعور أبناء الامة الواحدة بان ثمة ما يجمعهم الى بعض ليكونوا أمة واحدة ، وما يميزهم عن الامم الاخرى ، سواء كانت هذه الميزات حضارية ، أو تاريخية أو اقتصادية أو سياسية » . ولا شك ان هذا الشعور العارم هو الذى دفع بالعرب الى الالتقاء في نضالهم المقدس ضد الاستعمار الغاشم فكانت ثورة جمال عبدالناصر الخلاقة ، وثورة أحمد بن بللا الجبارة ، وثورة عبدالسلام محمد عارف المدمرة البناءة ، وثورة عبدالله

السلال التحررية الانسانية التى اعادت للانسان العربي في الجنوب اليمني حريته وكرامته ، ومسحت عن جبين البشرية لطخة سوداء •

هذه الثورات الاربع التى خاضها العرب بتحد لم يدفع وتصميم صارم لا يعرف الهزيمة ولا يخشى الموت ، والتى شهدها العالم أجمع وهو يكاد لا يلتقط أنفاسه في سنوات ما بعد العقد الخامس من القرن العشرين ، برهنت للدنيا كلها على أن القومية العربية قوة غلابة تغذ السير رغم كل الصعاب والعراقيل نحو هدفها الاول وهو تحقيق الوحدة العربية للامة العربية جمعاء ، علما أكيدا بأن هذه الوحدة انما هى حياة العرب الكريمة ووجودهم الصحيح السليم •

وما هذه الثورات الا امتداد فوار موار لجهادنا الذى لم يكل ولم يمل ، اذ « ان كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ـ كما يقول قائد الثورة المصرية المظفرة ـ بناء يرتفع حجرا فوق حجر ••• وان ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للامل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في ان يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفي ان تكون له نفسه الكلمة العليا في مصيره » • ولا ريب ان هذه الثورة التى اصبحت في نظر العالم اجمع استاذة بين الثورات التحررية ، والتى جعلت شعارها منذ نشوبها « النظام ـ الاتحاد ـ العمل » ، قد اجترحت المعجزات وفعلت الاعاجيب كما انها أثبتت ـ على حد قول قائدها العملاق ـ ان لكل شعب ثورتين : « ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، او من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه ••• وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الامر فيها على ما يحقق العدالة لابناء الوطن الواحد » وقد اقتضت التجربة الهائلة التى امتحن بها الشعب العربي في مصر ان تعيش الثورتان معا في وقت واحد ، وبذلك أمكن خلق وعي مرهف في بلاد العرب كلها يتطلع بلهفة الى انبثاق فجر جديد •

وكما قامت هذه الثورة التحررية تقلب أسس المجتمع العربي في مصر ،وتنطلق به في طريق القومية العربية ، وتقضي على الاستعمار ، وتحطم موازينه ،وتقذف في وجهه بأهدافه وخططه وأساليبه ، وتنزل الضربة

تلو الضربة بعمليته الرجعية والشعوبية ، كذلك هبت ثورة الجزائر في وجه دولة من أوحش دول الاستعمار ، غير آبهة بما لها من قوة وعتاد ، ولا حاسبة لاسلحتها المدمرة المؤيدة بأسلحة حلف الاطلسي كله حسابا ••• حتى نيف عدد شهدائها الابرار على المليون ، وهي ثابتة في ميدان الشرف كأعظم ما يكون الثبات ، الى ان اغتصبت حقها من أشداق الوحوش ، ورفعت علم استقلالها خفاقا في سماء الحرية والكرامة ، بعد ان أثبت أبطالها أرجلهم في مستنقع الموت ، وقالوا لها من تحت أخامصك الحشر • وجميل ان يدرك ابن بللا واخوانه الاحرار الميامين ان مكاسب ما بعد الاستقلال ، وبناء صرح نهضته الشامخ ، والحفاظ على ما بين الاقطار العربية من اخوة ووحدة شاملة مرجوة لا تقل شأنا عن معركة الاستقلال ذاتها ، بنفس العزيمة الصادقة ، والايمان القوي ، والتصميم الحاسم ، والتضحيات تلو التضحيات •

أما الثورة العراقية الاخيرة التى ابتدأت مراحلها بضربتها الاولى في ١٤ تموز ١٩٥٨ والتى ما زالت تعمل بحزم وعزم واخلاص وتفان لتحقيق الوحدة بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة ، فالتحدث عنها لا يخرج عن التغني بقائدها العارف المختار ، واخوانه الميامين الاحرار ، الذين لم يرضخوا لطغيان ، ولم يثن عزمهم تهديد بموت ، ولكنهم وقفوا ، وما في الموت شك لواقف ، وقفة سوف تتحدث عنها الاجيال بعد ان تتحقق الوحدة الميمونة بين الجمهوريتين العربيتين الكبيرتين وتعلم الدنيا ان لا مناص من تحقيق الوحدة الكبرى ، والله أكبر ، والعزة للعرب •

ثم ما عسانا نقول في تلك الثورة العربية العنيدة في اليمن والجنوب العربي •• تلك الثورة التى قالت عنها حتى الصحف العالمية المعادية للقومية العربية ، انها ثورة نجحت في اعزاز كرامة الانسان ، وقضت على أعجب مظاهر الجهالة والتخلف في العالم ، ومسحت عن وجه البشرية لطخة القرون الاولى • وانها لمعركة أظهرت بوضوح للعالم أجمع طبيعة الحرب الضروس بين الوحدة والاشتراكية ، وبين الاستعمار والرجعية من جهة أخرى ، ولهذا تجلى ، دون عجب ، تأييد العرب في كل مكان لثورة اليمن ،

كما تجلى وقوف الثورة في الجمهورية العربية المتحدة ، الى جانب تلك الثورة التحررية المظفرة ، وبذلك برهن التقاء النضال العربي على قدرته في شطب المستحيل من قاموس القوة والارادة .

وبمثل هذا النضال تتضح امامنا الطريق .. طريق التحرر والاتحاد والتقدم ، وهى التى يقول فيها استاذ علم من أساتذة التاريخ (الدكتور قسطنطين زريق) انها « الطريق الوحيدة التي تكفل لنا البقاء وتضمن الحفاظ على الكيان . وقد نزل في أرضنا عدو غاصب واقام دولته في بقاع وطننا وأوسطها مركزا ، وأعد عدته لتمكين هذا الاغتصاب ، بل لتوسيع نطاقه ، وهو يهددنا كل يوم بسلاحه وعلمه وأثره في المحافل الدولية . فصراعنا واياه صراع موت أو حياة ، وزوال أو بقاء » .

ولا أظنكم في حاجة الى معرفة المزيد عن هذا العدو ، الذى بدأ الفلسطينيون ، بتأييد من أشقائهم العرب ، كل العرب ، يطرقون عليه أبواب صراع الموت أو الحياة . وانها لمعركة مريرة قادمة ، ان كتب لنا فيها النصر ، وسيكتب باذن الله ، انتقل بنا المنطق الثورى الى تحقيق أعظم هدف حلم به العرب منذ كان العرب .

* * *

في غمرة هذا النضال ... ترى أين أدباؤنا ، ومفكرونا ورجال القلم فينا ؟

ان وراء كل ثورة فى العالم مفكرين وادباء يتمردون على اوضاع ما قبل الثورة فيلهبون النفوس ، ويلهمونها ، ويبعثون فيها وعيا خلاقا يقف على الحقيقة المرة الاليمة فلا يرضى بها ، وانما يثور عليها بعد نقدها ايجابيا يشعر معه الشعب أخيرا بأن بقاء مثل تلك الحال من المحال . واذا ما عدنا مرة ثانية للثورة الفرنسية لوجدنا ان دعاتها من الادباء والفلاسفة والمفكرين كثيرون ، وبذلك لا يعود الفخر فى هذه الثورة الانسانية الكبرى الى قادتها من أمثال ميرابو ، ودانتون ، وروبسبير وغيرهم من الاعلام الثوريين فحسب ، وانما كان وراءهم من الاعلام الادباء من مهدوا للثورة اروع تمهيد، فتناولوا أنظمة الحياة كلها من سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية فعروها ،

وفضحوها ، وتهكموا عليها ، واعطوا الحياة من شعبيتهم وتقدميتهم بالاضافة الى واقعيتهم وتفاؤلهم بغلبة الانسانية فيما بعد ، ما عبد طريق الثورة الى النجاح ، وبالتالى دفع التيار الفكرى العنيف في العالم ، وحمل الشعوب على التفكير بتطوير مصير الانسان باسلوب ثورى جديد وجرأة لا تهاب الموت فى سبيل الحياة •

وقد بدأ الادباء الفرنسيون بث هذه الروح الجديدة منذ الربع الاخير من القرن السابع عشر لتتجلى فى القرن الذى يليه • وقد ظهر تطور كبير في روح النقد باعمال Pierre Bayle (١٦٤٧ – ١٧٠٦) وأعمال Bernard de Fontenelle (١٦٥٧ – ١٧٥٧) • على ان البارون دى مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧١٥) ربما كان أول مفكر كبير في القرن الثامن عشر ، فقد ضرب بمؤلفاته المثل الرائع فى التقريع ، ونقد الحياة الفرنسية ، وتحليل أسباب بزوغ الحضارة وسقوطها • أما كتابه الخطير « روح الشرائع L'Sprit des Lois » فقد درس فيه مميزات الانظمة الحكومية المختلفة ، من جمهورية ، وملكية ، ودكتاتورية ، كما نظر في متطلبات الديمقراطية ومخاطر التوتاليتاري ••• وكان لهذا الكتاب تأثير في تكوين النظرية القائلة بفصل السلطات (التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية) في الدستور الفرنسي •

ولا شك ان المارد الجبار في ميداننا هذا ، انما هو فولتير (فرنسوا ماري ارواة ١٦٩٤ – ١٧٧٨) • فهو أقوى صوت وداعية لفلسفة الانقلاب الاجتماعية طوال خمسين عاما ، فقد جعل هذا الاديب المفكر الثائر من الانظمة القائمة ، والطبقات الارستقراطية من سياسية ودينية تدعم تلك الانظمة ، اضحوكة القارة الاوروبية جميعها • ونحن اذا ما تركنا جانبا كل ما أنشأ هذا العبقرى من أعمال شعرية ملحمية أو فلسفية ، وما دبج من روايات تفقد أهميتها في الوقت الحاضر ، فاننا ما نزال أمام عدد من أعماله التى تعتبر من الروائع العالمية في النقد والتوجيه •

وقد يكون جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) من بين اولئك العباقرة الفرنسيين الثوريين ، أهم من شغل حيزا في النصف الثانى من القرن الثامن عشر • ولا ريب انه اختط طريقا أكثر ايجابية من فولتير نفسه ، فعالج

شتى العناصر التى تخلق المجتمع الجديد ، وكان لمؤلفاته الاثـر البليغ في نشأة الثورة الفرنسية ، والحركة الروماسية .. فكما كان Descartes (١٥٩٦ – ١٦٥٠) بشير عصر العقل ، فقد كان روسو بشير عصر الرومانس ، وأول من اعطاه تعبيره الـكامل . والمعروف ان أهم أعمال روسو كتاباه : « العقد الاجتماعي Le Contrat Social » و « أميل Emile » . وهو في الاول يحلل المفاهيم الرئيسية للحياة الاجتماعية ويؤكد على مبـدأ سيادة الشعب ، بينما يبني كتابه الثاني على التجربة لا على ما اكتسبه من المؤلفات . وأميله هذا يعتبر الاساس المكين للآراء العصرية في تطـور التعليم ... ولا عجب ان يعتبر روسو أحد الـكتاب الذين تمكنوا بافكارهم السياسية والتعليمية ، وشعورهم الرهيف بالطبيعة ، من الاسهام الـكبير في تكوين العالم الحديث .

وقد يكون من المفيد ان نشير في هذا الصدد الى تلك الموسوعة الفرنسية الضخمة ، موسوعة الفيلسوف الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ – ١٧٨٤) التى انشئت مـا بين (١٧٥١ ، ١٧٨٠) رغم العـديد مـن الصعوبات والعراقيل في خمسة وثلاثين مجلدا ، خلال ذلك العصر المضطرب الجياش ، فبرهنت على ما تستطيع جبابرة العقول به من عمل خالد . وقد يصح ان نذكر هنا عددا من مشاهير الـكتاب الفرنسيين آنذاك أمثال :

جان دالمبير (١٧١٧ – ١٧٨٣)

كلود ادريان الفتيوس Helvétius (١٧١٥ – ١٧٧١)

اتيان بونيه دي كونديلاك (١٧١٥ – ١٧٨٠)

بول هنري دولباخ d'Holbach (١٧٢٣ – ١٧٨٩)

فرانسوا كويسني Ouesnay (١٦٩٤ – ١٧٧٤)

آن روبير جاك تيرجو (١٧٢٧ – ١٧٨١)

اندريه مورلليه (١٧٢٧ – ١٨١٩)

كما يحسن ان نشير الى كل من المركيز دي كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤) وجوليان اوفروا دي لامتري (١٧٠٩ – ١٧٥١) ، وغيرهما ممن كان لهم أثر شديد فعال في الثورة الفرنسية ، بل في تطور جميع النظريات

الاجتماعية فيما بعد الثورة • واذا ما أردنا المزيد من اظهار ملامح ذلك العصر الصاخب بآرائه وافكاره واصلاحياته ، لابد لنا من الاشارة الخاطفة أيضا الى ان بير دي ماريفو (١٦٨٨ - ١٧٦٣) ، وكودرلوس دي لاكلو (١٧٤١ - ١٨٠٣) ، وآبي بريفوست (١٦٩٧ - ١٧٦٣) ، ونيقولا ادم رستيف دي لا بريتون (١٧٣٤ - ١٨٠٦) ، وجاك هنري برناردان دي سان - بيير (١٧٣٧ - ١٨٤) ، وغيرهم كثير •

والشيء الغريب يثير انتباه الباحثين ، ويرونه ظاهرة جديرة بالاهتمام ، هو ان ذلك القرن الثامن عشر لم يتمخض في فرنسا عن روائع شعرية مشهورة في عالم الشعر ، وان ظهر عدد من الاعمال الشعرية قد تكون أهمها قصائد الشاعر جاك دليلت (١٧٣٨ - ١٨١٣) التهذيبية ، كما شاهدت نهاية ذلك القرن الجياش بالاحداث شاعرا موهوبا ، هو اندريه دى شنييه (١٧٦٢- ١٧٩٤) الذى نجح في خلق مواضيع شعرية جديدة جعلته من طلائع المدرسة الرومانسية التى ظهرت في القرن التاسع عشر •

* * *

واذا ما انتقلنا الى ثورة ١٩١٧ الروسية التى مسحت وجودا بكامله واحتلت مكانه وجودا اخر ، نجد كذلك ، انه ظهر قبل ان يضرب لينين وحزبه ضربتهم الكبرى في تلك الثورة الاشتراكية ، عدد كبير من الادباء العمالقة الذين كان لاعمالهم الفكرية والادبية أثر عظيم في الاصلاح الاجتماعي وتمهيد السبيل لتلك الثورة الخطيرة في تاريخ الانسان ، وانتشار الشيوعية كمذهب جديد ذى وزن وثقل في الموازين الدولية • وقد تمكن هذا الرعيل من تصوير حياة الفاقة والضياع والبؤس والشقاء ، وغرس بذور الثورة في أعماق الحياة ، على طبقة الزعماء من قياصرة ونبلاء وحكام ورجال دين • ويأتي في طليعة اولئك الادباء الذين أصبحت لهم شهرة عالمية ، فيدور دوستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) ، صاحب « الجريمة والعقاب » ، و « الاخوان كرامازوف » ، و « المعتوه » وغيرها من القصص ذات التحليل السكولوجي العميق ، التى لم تكن بذات أثر شديد فى الحركة الروسية الفكرية فحسب ، وانما كذلك على كتاب القصة الاوربيين العصريين • ثم

ذلك الدرامي وكاتب القصة القصيرة انطون تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) ، وليوتولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠) ، ومكسيم غوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦) مصور الحياة الشعبية اروع تصوير بما وضع من مؤلفات مثل « حياتي وانا ولد » و « الشاردون » ، و « الام » واضرابها • ونيقولاى غوغول (١٨٠٩ - ١٩٥٢) ومن أروع قصصه « الارواح الميتة » ومسرحيته العظيمة « مفتش الحـــكومة » •

وفي بداية هذه الثورة الروسية التى اوشك ان يمر عليها نحو من نصف قرن ظهر عدد من الادباء الذين حملوا لواء المعارضة لادب ما قبل الثورة ، ومن هؤلاء الشاعر ن • س • جوميليوف (١٨٨٦ - ١٩٢١) ، والشاعرة حنة اخماتوفا (١٨٨٨ -) على ان هنالك فريقا ، يعـرف بالمستقبليين ، طالب بتدمير جميع التراث الادبي في سبيل خلق ادب جديد لحما ودما ، يقضي على « جمالية » الرمزيين ، و « اكاديمية » الكلاسيكيين ، وفي (طليعة هذا الفريق المتطرف ايجور سيفرياتين (١٨٨٧ - ١٩٤٢) وفيلمير خليبنيكوف (١٨٨٥ - ١٩٢٢) ، والشاعر الكبير فلاديمير ف • مايافسكى (١٨٩٣ - ١٩٣٠)الذى وسم بطابعه تلك الحـــركة الادبيـة الجديدة ، بتكريسه بعد عام ١٩١٧ كل ما لديه من موهبة وطاقة للثورة ، واعتقاده بأن كل شاعر سوفييتي يجب ان يستلهم الوحي الاشتراكي ويطيعه طاعة عمياء • ولم يكن ينافس ماياكوفسكي في شعبيته آنـذاك الا الشـــاعر سيرجي ا • أسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥) الذى كان يعتبر نفسه « آ خـر شعراء القرية » • والواقع ان أسينين كان يتمتع بشاعرية غنائية رائعة ، الا أنه كان عاجزا عن الانسجام مع النظام الجديد •

وقد ادى التضارب في المطالب الادبية خلال سني الثورة الاولى ، والحرب الاهلية الى ظهور تيارات أدبية دفع بها النظام البروليتاري لتوجيه الصراع في سبيل ثقافة بروليتارية على نطاق دولي ، حتى ان التاريخ الروسي الذى سبق الانقلاب قد أسقط من الحساب كانحراف انساني عام !! الى حـــد ان لوناشرسكي قوميسير التربية السوفييتية قد اوحى عام ١٩٢٣ « بالغاء تعليم التاريخ والادب الروسي ، واعادة كتابته من جديد ، لان تاريخ روسيا ، حتى

ولادة لينين ، وظهور الحركة البروليتارية ، كان تاريخ فوضى وجهل وظلام واستبداد لا يستحق ان يدرس • فتاريخ روسيا يبدأ بشكل واضح جدي منذ ابتداء الثورة ،لذا ، وجب نبذ ثقافة روسيا قبل الثورة ، لانها ثقافة اقطاعية ، بورجوازية ،بائدة » •

ومع ذلك فاننا نشاهد في تلك الفترة ظهور مدرستين جديدتين : الاولى معتدلة ، يؤيدها بعض الرسميين من ذوى المكانة الرفيعة وعدد من الكتاب والادباء الذين يرون انه من المستحيل خلق أدب بروليتارى بأمر رسمي ، وان قيما كثيرة يمكن ان تستمد من الادب البورجوازي والثقافة البورجوازية، والثانية متطرفة تؤيد فكرة الديكتاتورية الادبية الحكومية ، وتدعو لادب طبقي لا هوادة فيه •

والظاهر ان الفكرة المعتدلة سادت الى حين ، ففي عام ١٩٢٥ اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قرارا كان في مصلحة المعتدلين الذين تركوا احرارا يكتبون ما يشاؤون • وبذلك قل التأكيد في الادب السوفييتي على المواضيع التي تمليها الاحكام الاشتراكية • ومنذ عام ١٩٢٣ زاد التأكيد على القيم الدائمة ، والثوابت العالمية في التصرف البشرى • فعلى الرغم من ان الوجدان الشيوعي كان ما يزال سائدا في بعض الروائع الروائية ، كمواليد العاصفة ، وكيف ألينَ الحديد ، لنيقولاي اوستروفسكي (١٩٠٤ - ٩٣٦) ، فان مجالا واسعا في الروايات الاخرى قد أفسح للعواطف العادية ، والقيم الانسانية • كذلك نرى الحماسة قد ازدادت للقصص التاريخي الذى استخدم فيه المفهوم الماركسي لاعادة تفسير الماضي بغية مطابقته مع الحاضر ، كالرواية التاريخية الرائعة « بطرس الاول »التي عالج فيها تولستوي عهد ذلك القيصر العظيم كفترة انتقال مماثلة لفترة الجيشان الهائل في روسيا السوفييتية • ومن هذا الضرب الادبي اعمال ألكسي شابيجين (١٨٧٠ -) ، ا • نوفيكوف - بريبوي (١٨٧٧ -) وغيرهما • أما روايات يوري تنيانوف (١٨٩٤ -) التاريخية فذات اختلاف كبير ، فقد حاول تنيانوف فيها اعادة خلق شخصيات الماضي ، والعصر الذى عاشت فيه • وواضحة تماما في معظم هذا القصص التاريخي قوة الحافز الوطني مع التأكيد على بطولة

الماضي كمثل للحاضر السوفييتي . أما أثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد تطور هذا الاتجاه الى وطنية عنيفة ، لذلك نرى في العديد من قصص الحرب ، وقصائدها ، ومسرحياتها التى ظهرت بعد عام ١٩٤١ ، موضوعين تجليا وسادا وهما : حب تربة الوطن ، والكراهية المريرة للعدو . وعلى هذا الاساس نجد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، قد اخذت تلك الحرب العالمية الثانية تنكل بالكثيرين من مشاهير الكتاب السوفييت ذوي الميول البرجوازية ،وتأمر ببذل المزيد من الجهود ذات اللون الشيوعى .

* * *

بعد هذا العرض الموجز للثورة وادبهـا بصورة عامة ، نكرر سؤالنا : ترى أين يقف ادباؤنا ، ومفكرونا ، ورجال القلم فينا من ثورة القومية العربية في سبيل وحدتها بوطنها العربي الكبير ؟ لقد انتهت جميع مراحل قوميتنا ولم تبق الا ضرباتها الاخيرة . وانتهت كذلك الحركات الادبية التي واكبت تلك المراحل ، كما ان القصائد العربية من طراز « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » قد أدت واجبها في اثارة الهمم والعزائم ، وشحن الطاقات الوطنية ، والهاب الشعور القومى منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . ان مفهوم الادب للثورة قد تغير مع تغير التكتيك الثوري ، ومفهوم الثورة نفسها لدى الشعب العربي ، ولا سيما بعد ان قلمت أظافر الاستعمار وخلخلت أضراسه ، وعُقص ذنبه ، ولم يبق الا دق رقبته بتدمير ربيبته التي اقامها في فلسطين ، والقضاء على ما تبقى من آثاره في بعض الجيوب والمعاقل .

لقد اتضح لنا ان الوحدة العربية قضاء محتوم ، ومع هذا الاتضاح تبينت لنا معالم كل معركة يقدر لنا ان نخوضها ... انها ليست معركة شعب عربي منزو في قطر واحد من اقطار العروبة ، وانما استقر رأينا جميعا على أنها معركة الجماهير العربية كلها ضد الاستعمار ، والصهيونية ، وضد الرجعية والشعوبية في شتى الاشكال والالوان .

وطبيعي ان يتحتم علينا التنبه الى ثوبين مختلفين قد يتخفى وراءهما الاستعمار ، ويتظاهر معهما بالبراءة الكاذبة المصطنعة . اما الاول فهو الثوب الاقتصادي يلجأ اليه عادة بعد حمله عصاه ورحيله ... وهو استعمار جديد

يقوم على مص الدماء بطريقة غير مباشرة ، الثاني فهوالثوب العقائدي والغزو الفكري ، وهو في حد ذاته ثوب قديم قلما تنبهنا اليه لمغالاته في الظهور بالبراءة من جهة ، والتواء أساليبه وفنونه في البث والدس بغية التشكيك الخبيث بقيمة شعورنا الوطني القومي ، وقيمة ما لنا من تراث وأمجاد لغوية ، وفكرية ، وأدبية على مدى عصور التاريخ • وهو يعلم تمام العلم ما للغلة العربية المجيدة وتراثنا الضخم من أثر فعال جذري في وحـــدة الشعوب العربية ، وقوتها ، ومدى فعاليتها في تحقيق أهداف القومية العربية التـى شعر شعورا أكيدا بانها من أشد التيارات الاجنبية ، بالنسبة اليه ، قوة وعنفا ومصارعة لاهدافه وغاياته •

وقد ثبت لنا ، بما لا يدحض ، كيف انه ترك المجـال حتى للعقائـد المستوردة التي تنكرها أنظمة حياته ، وغض النظر عنها في أحايين كثيرة منذ نهاية الحرب العالمية الاولى • ولربما قال قائل ان الذين أخذوا بتلك العقائـد السياسية المستوردة قلة بالنسبة للقوميين العرب الاحرار ، وانهم لم يعتنقوها الا لشعورهم ، آنذاك بالفراغ السياسي الذى منيت به بلدان معينة فى عالمنا العربي • وجوابنا على مثل هذا القول ينطوي على شقين : الشق الاول هو أن القومية العربية التي تدين بها اليوم جماهيرنا الساحقة أصبحت معتقدا راسخا يملأ الفراغات ، والجيوب ، والمطبات في جونا السياسى كله ، والشق الثاني هو ان أية عقيدة سياسية مستوردة من اى مكان ، ولا تنبع من ضميرنا الحي ، انما تنطوي على خطورة ،وتؤدي مهما كان لونها واتجاهها الـى شيء من الضياع والتمزق في صفوفنا التى نريدها متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا •

واذا ما تناولنا غزو الاستعمار الفكرى وجدناه لا يقل خطورة ، ان لم يزد على الغزو العقائدي • والاستعمار في هذا الحقل فان استطاع ان يوحي للـكثيرين بان كل ما يأتي من الغرب فهو عظيم ، حتى اذا ما قبلناه واعتنقناه هان تحطيم التقاليد والعادات التى تعتبر دعامة من مقومات حياتنا وصخـرة ينهض عليها اعتزازنا بمثلنا العربية الشرقية • وكثيرا ما اوحى لنا ، لغرض في نفسه ، بأن المستشرقين قد قدموا لنا خدمات جلى ، بأبحاثهم ، واحيائهـم

الكثير من ذخائر تراثنا المدفون • وانا ، مع كل منصف ، لا أدفع ذلك ، ولا أنكره • فليس كل مستشرق صاحب غرض ، ولا كل من قام بمهمة فكرية أو أدبية أو تاريخية منهم مدفوعا ، أو يقبل الدفع لدس رخيص وافتئات على أمجاد عربية لا ينكرها منهم الا كل مضل ضال • لذلك وجب علينا ، ادباء ومفكرين التنبه الى مثل هذا النفر المعصوب العينين الذى يستوحي في ابحاثه الاستشراقية أهواء حكومته • فمنهم من شكك بالقرآن الكريم ومنهم من شكك باللغة العربية المجيدة ، ومنهم من حاول ان ينال من عظمة التاريخ العربي ، ومنهم من نفذ الى الشعر والادب موحيا بان شعرنا قاصر ومضمونا ، وادبنا فارغ خال من القيم الانسانية العالمية • وانها لدعوة ما لبثت ان ألقت ببذورها في تربة الشعوبيين الذين حاربوا الفصحى تباكيا على اللهجات المحلية ، وحاربوا القرآن لانه دين ••• والدين لله والوطن للجميع ! ••• وحاربوا الشعر العربي والادب العربي لانهما لا يستطيعان أن يؤديا ما تؤديه مفاهيم الشعر والادب الحديثة المستوردة التى نبذها حتى أصحابها الغربيون أنفسهم بعد ان ماعت خلال العصور منذ أيام طيب الذكر جان جاك روسو حتى أيامنا هذه •

وقد يضطرنا الموضوع الى التنويه بان ثمة جماعة من شعرائنا وادبائنا يخشى ان يكونوا قد ضاعوا في متاهات المذاهب الادبية التى عمل الاستعمار على بثها بروية وفن ، متظاهرا بحرية الفكر ، ومشجعا كثيرا من الافراد والفئات على اعتناقها ، والدعوة اليها والعمل على نشرها بغية الالهاء اولا ، والبلبلة ثانيا ، والضياع ثالثا واخيرا • ولهذا رأينا عددا من المدارس الفكرية، والفنية ، والادبية ، تنتشر بقدرة قادرة في شرقنا العربي بعد ان مجها ونساء بحملها عالمهم الغربي ، فاذا بنا نختلف من أجلها ونحترب لا بل يحمل بعضنا بهزء وسخرية على المفاهيم الاصيلة بغية التشكيك فيها ونبذها وبالتالى ، تنفيذا للمخطط المرسوم وتحقيقا لغاية من الغايات الاستعمارية الهدامة •

وانا لنرى جميع هذه المدارس الادبية ، قد ظهر منذ ظهور الاشتراكية ، ومنها ما هو اشتراكي بالفعل ••• الا ان الاشتراكية العربية الملائمة للوجود العربي تعلم تمام العلم ان ذلك الضرب من المدارس

الاشتراكية لم يوضع لنا قط ، ولا يناسب الواقع العربي في كثير من معانيه ومراميه • أما عدد تلك المدارس الادبية الدخيلة المستوردة فـكثير • وقد يكون أهمها نوعان : أما الاول ، فهو ما يدعى بالمدارس المثالية ، ومنها : ١) مدرسة الادب للادب ، أو مدرسة عبادة الجمال ، وهي تعرف أحيانـا بالمدرسة التعبيرية ٢) عابدة الاحساس ، أو المدرسة التأثرية ٣) الهيومانية أو المدرسة الانسانية الجـــديدة ٤) المدرسة الـكلاسيكية الجـــديدة ٥) السريالية وهي مدرسة من مدارس اللاوعي ٦) الوجودية • وامـا الثاني فهو ما يعرف بالمدارس المادية ، واهمها ١) مدرسة الادب الهادف ٢) مدرسة الواقعية الاشتراكية ٣) مدرسة الجبرية المادية ، او الحتميات الاقتصادية[١] •

والواقع ان الاديب العربي الذى يعيش هـذه الحقبة الثورية من تاريخنا الحديث ، له مفاهيمه الادبية الخاصة التي تنبع من ضمير قوميته ، ووحدته ، وامته • وهو اذ لا ينكر كل ما جاء في تلك المدارس الفكرية ، والفنية ، والادبية ، ولا يرفض فكرة انها ربما كانت يوما ما ، ذات جدوى في الارض التي نشأت عليها ، لا يرى قطعيا انها تطابق ما نحن عليه فـي عالمنا العربي وانها تلائم أهدافنا وغاياتنا ، وتخدم الفكرة العربية جملة وتفصيلا وكل ما عدا ذلك تفكير غير سليم لن يأتي لنا بأدب خلاق ينشر الوعي في الجماهير العربية •• ذلك الوعي الـكامل الذي أصبح اليوم ضرورة حتمية لمواجهة شتى مشاكل المجتمع العربي الوحدوى الاشـــتراكي التعـــاوني الجديد • هذا الوعي الذى نحن في أمس الحاجة اليه لا يتم الا بالدعوة المنظمة المدروسة الى الثورية الجماعية في كل مرفق من مرافق الحـــياة الفـكرية والاجتماعية والسياسية •• دعوة جامعة تشمل الطالب في مدرسته ، والعامل في مصنعه ، والموظف في مكتبه •• دعوة تتناول الفن والادب والشعر والقصة والغناء والموسيقى بحيث يأخذ أربابها بالتعبير عن مضامين الماضي المجيد ، والحاضر المتفائل بمستقبل الوجود الزاهر أفضل تعبير •

ولا أعتقد ان هنالك مجتمعا يخلو من نغمات نشاز • فللرجعية من

---

(١) يراجـع كتاب « الاشتراكية والادب » للدكتور لويس عـوض ، لتنفيذ هذه المدارس الادبية والرد عليها •

سياسية واجتماعية وفكرية أبواق قد يخفت صوتها تارة ويعلو تارة أخرى .. هذه الرجعية يجب ان يقف ادباؤنا لها بالمرصاد حتى يستطيعوا ان يخرسوا كل نبأة تصاعد من أنفاسها بين الحين والحين . ولنعلم ان الوجود القومي حي نابض ، ألا ان الوعي الفكري ، وهو أبرز مظاهر الحياة الكريمة الحرة ، لا بد ان يعمل بجهد وتركيز حتى يستطيع ان يأخذ بيد الشعور المنبثق من ذلك الوجود في طريق ايصاله الى حقيقة غاياته .

وللادب الثوري في هذه المرحلة وظيفة قد تكون من أخطر وظائفه العاملة ، الا وهي تعقب ما يرسم الحكام من سياسة ، وما ينفذونه من مخططات ، فيحاسبهم في سبيل الاصلاح ويضع أيديهم على كل خطأ اجتماعي ، وبذلك يؤدي رسالة قلما يحسن غير أدباء الثورة أداءها . ثم ان هؤلاء الادباء خير من عبر عن شتى عواطف الجماهير وأحاسيسهم .. وطالما نفست هذه الجماهير عن كل ما يختلج في نفوسها بألسنة الكتاب وأقلامهم . ولما كان الادب الثوري قادرا على تدمير العقائد الهدامة ، والافكار الرجعية البالية ، فانه يصمد كذلك في وجه التيارات الاجنبية في مجتمعنا ويمنعها من أخذ مجراها ، والتأثير في نفوس الناشئة من أبناء الوطن العربي . وهو عنيد جدا في حفاظه على مكاسب الشعب ومستطيع فعلا ان يرتفع بالثورة الفكرية الى مستوى الثورية السياسية .

والادب الثوري يتجه الى الشعب في تجربته الكبرى ، فالمعروف ان الثورة الفرنسية ، كما يلاحظ مؤرخوها ، ولم تتخذ حقيقتها كثورة ذات دوي عالمي الا عندما تركزت على الجماهير ، والا عندما استمدت من تلك الجماهير قاعدتها الشعبية . فكلما اتسعت القاعدة الشعبية وعمقت أغوارها ، كلما هان الالتقاء على النضال المشترك الذي لا يحول دون تحقيق أهدافه حائل .

ولنعلم أخيرا ان أمامنا معركة حياة أو موت .. معركة بقاء او زوال . وانا لخائضوها بكل ما أوتينا من عزيمة وقوة . والله معنا والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود سليم الحوت
من وفد فلسطين

الأدب والثورة

بقلم

عباس خضر

للثورة في الادب مفهومان رئيسيان :

أحدهما ثورة الادب على الادب حينما يرى حاملو لوائها عقم الالوان الادبية السائدة وسوء اتجاهها ، أو ركودها وقصورها في التعبير عن اهتمامات العصر ، واستهلاك طاقتها اما في الزينة الشكلية والجرى وراء الخيالات البعيدة عن الواقع ، واما في مواكبة القوى المسيطرة المعادية للتحرر والتقدم .

والمفهوم الاخر للثورة في الادب هو التعبير عن الثورة السياسية سواء في التمهيد لها واثارتها ، أو في تعزيزها ومتابعة خطواتها في تحقيق ما قامت له من اهداف قومية واجتماعية واضاءة طريقها وتعميقها في النفوس .

ولننظر بعد في المفهوم الاول ، لنرى هل نشأ ادب ثوري على مقتضاه في حياة العرب الثورية التحررية التي كان فجرها يوم **٢٣** يوليو سنة **١٩٥٢** والتي لا تزال في نموها المطرد ؟

أو نسأل بشكل آخر : هل لابست هذه الثورة أسباب فنية تدعو الى ان يثور أدب جديد على الادب السائد ، أو ان ما حدث انما هو تطور اقتضته طبيعة الاحداث والتحولات في الحياة العربية الجديدة ؟

لكي ندرك ذلك ، أو لكي نسلط عليه ضوءا كاشفا نستطيع ان نتبين

على هداه حقيقة الامر ، يحسن ان نعود قليلا الى اوائل النهضة الادبية العربية في العصر الحديث .

كان الادب غارقا في الحلي وأثواب الزينة وكان هم الادباء وقصاراهم أن يحاكوا القدماء لا في تعبيراتهم وتراكيبهم اللغوية فحسب ، بل كذلك في معانيهم وخواطرهم . وكانت أثقال الزينة والتقليد تعوق الادباء عن الحركة في الحياة الواقعة والتعبير عنها بجد وصدق .

وثارت على ذلك الاتجاه الاتباعي (الكلاسيكي) مدرسة أخرى هي ما سميت بمدرسة الابتداع (الرومانسية) تأثرا بالاصل في ادب الغرب . وكان مبعث هذه الثورة الرومانسية شعورالفرد بالتميز مع شعوره بالضياع والغربة ازاء مجتمع غارق في الظلام مغلوب على أمره ، لا يرى الاديب فيه متنفسا الا في الخيالات واجترار الآلام الفردية ، فيدفعه اليأس منه الى أجواء بعيدة عنه ، لم يستطع ان يتلائم معه فاغترب عنه .

ولـكن فريقا آخر ثار ثورة أخرى ، تأثرت هي ايضا بالاتجاهات الغربية ، ولـكن في الشكل دون المضمون . احس هذا الفريق بعوامل الضياع في البيئة كما احس بها في نفسه ، فلم يفصل بين آلامه وجروح المجتمع ، ورأى في الوقت نفسه الوانا من الآداب الاجنبية ترتبط ببيئاتها وتلتصق بانسانها العادى فتصور وتعبر على الواقع الملموس ويأتي تعبيرها نابضا بما في صميم الحياة من انتفاض أو ثورة على الركود .

هذا الفريق هو فريق الواقعية الادبية ، وهو ما سمى في النصف الاول من القرن العشرين بالمدرسة الحديثة ، ويتلخص مذهب هذه المدرسة في استعارة الشكل الادبي الغربي لمضمون عربي قومي ، وكان الشكل هو البناء القصصي بأنواعه...القصة القصيرة والرواية والمسرحية .والمضمون يتركز عند ابراز الشخصية العربية وتصوير البيئة العربية ، والتعبير عن الانسان العربي بمشكلاته وتطلعاته ، ولم يظفر الشعر بنصيب كبير من هذا الاتجاه لا في الشكل ولا في المضمون .

كانت الواقعية اذن في نهضتنا الادبية الاولى اوائل هذا القرن هي

الثورة الادبية المغيرة التي ثارت على الكلاسيكية متمثلة في العكوف على القديم واستهلاك الطاقة في محاكاة أساليبه وزخرف تراكيبه ، وعلى الرومانسية متمثلة في سوء اختيار ما يترجم الى العربية وفي ما يحاكي نماذجها الغربية المتقهقرة أمام زحف الواقعية في مواطنها ، وكانت تلك الثورة أساس التغيرات التي استمرت واتصلت بوقتنا الحاضر ، وان كانت قد تعرضت في سيرها الطويل لموجات من المد والجزر ، كان ابرزها عودة الرومانسية الى الظهور أو الاستشراء ، فانها لم تختف تماما في الفترة التي أعقبت الانتكاسات الوطنية وطغيان المستبدين من أنصار الغزاة المحتلين ، مما جعل بعض الادباء يستأنفون الهرب من الواقع الموئس الى الخيالات البعيدة ، وبعضهم وجد في التاريخ ملاذا اما للاستيحاء المطلق أو محاولة الربط بالحاضر والايماء اليه •

فلما كانت الثورة الاخيرة ـ سواء بعد انفجارها في ٢٣ يوليه أو في حالة كونها جنينا قبل ذلك ـ اتسعت رقعة الواقع وانحسرت موجة الهرب والخشية منه •

وهذا يسلمنا الى المفهوم الثاني للادب الثورى وهو كما سبق التعبير عن الثورة السياسية وما يلابسها من أهداف قومية واجتماعية واضاءة طريقها وتعميقها في النفوس •

لما كانت الثورة جنينا لم يتخل الادب عن رعاية الجنين بل غذاء بوسائل مختلفة ، منها أعمال تشريحية تومىء مثل قصص نجيب محفوظ التي تنتهي بالثلاثية المشهورة ، ومنها نقد صريح في بناء أدبي مثل الذى كتبه يوسف السباعي في قصة « أرض النفاق » ومسرحية « وراء الستار » وقصص قصيرة كثيرة ، وصور فيه بصفة خاصة مهازل الاحزاب السياسية والانتخابات والصحافة • وفعل عبدالرحمن الشرقاوى مثل ذلك في رواية « الارض » ولجأ علي أحمد باكثير الى الرمز في مسرحية « مسمار جحا » اذ شبه بهذا المسمار ما كان يتذرع به الاستعمار في البقاء •

وشارك الشعر بكثير من القصائد ، ونجد التزام الشعر بالاهداف القومية

في العراق أقوى واغزر .

وفي أعقاب انفجار الثورة انطلق الادب من عقاله ، وشارك في الثورة على الاوضاع القديمة وظفر بأعمال كبيرة عنيت بتصوير الجو الذى نبتت فيه الثورة وبيان حتميتها عن طريق التجسيد الادبي .

من تلك الاعمال رواية « أنا الشعب » لفريد أبو حديد ، ورواية « الشارع الجديد » لعبد الحميد جودة السحار ، ورواية « رد قلبي » ليوسف السباعي ، ورواية « شيء في صدرى » لاحسان عبدالقدوس ، ومسرحية « الصفقة » لتوفيق الحكيم ، « والمزيفون » لمحمود تيمور .

والواقع أن الكتاب القصصيين عنوا بتصوير ما كان قبل الثورة من آثار الاستعمار في فساد الحكم واستغلال النفوذ وسوء التوزيع أكثر مما اهتموا بما بعدها من انجازات قومية واجتماعية ومن تأثير هذه الانجازات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وصراعاتها وتطوراتها .

ومن القصص التي تناولت احداث ما بعد الثورة أو ما بعد انفجارها ـ فالثورة متجددة ولا تزال قائمة ـ عدد من الروايات ليوسف السباعي عني فيها بتاريخ مراحلها ، منها « نادية » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » ، ورواية نجيب محفوظ « السمان والخريف » ورواية « لا شيء يهم » لاحسان عبدالقدوس ، ورواية « أصابعنا التي تحترق » للدكتور سهيل ادريس .

ولعل مشاركة الشعر في هذا المجال أكبر ولاسيما شعر الاغاني ، فقد دخلت الاغنية المعركة بشكل ناضج في كثير مما قيل ، فحققت ارتقاء مستوى الاغاني الى جانب الوفاء بالاهداف القومية .

وظفرت الثورة من أجل فلسطين وابنائها المشردين بحظ كبير من اهتمام الشعراء في مختلف البلاد العربية ، سواء منهم من كان من فلسطين أم من سائر بلدان الوطن العربي .

كما ظفرت بورسعيد باهتمام كبير من جانب الشعراء .

ونستطيع القول بان محصول الشعر الثورى فيما تلا انفجار الثورة

وجهد الشعراء في هذا الميدان أوفر من المحصول القصصي • أما النقد فانه مع الاسف متخلف عن ركب الشعر والقصة لم يستطع أن لم ينشط بجد واخلاص لملاحقته وتتبعه • ومما يلحظ في هذا الصدد ان اتجاه معظم النقاد في الصحف الى الكتابة عن العروض المسرحية أكثر من عنايتهم بتناول الكتابة والعمل الادبي المقروء على وجه عام • حتى لقد غدا الكتاب بالنسبة للمسرح شيئا مهملا يولد ولا يحتفى به من جانب النقد ، وان كان يشق طريقه الى القراء دون أن يعوقه اهمال النقاد •

مما تقدم تبين ان معنى ثورية الادب في هذه المرحلة الثورية من الحياة العربية يتحقق بالنسبة لمفهوم الثاني للادب الثورى وهو التعبير عن الثورة والمشاركة في تغيير الاوضاع السياسية والاجتماعية ، يتحقق في هذا بشكل واضح يرجى ان يتسع ويكون أكثر وفاء بالاهداف والتطلعات أكثر مما فعل حتى الان •

وكان تأثير الثورة في الادب من ناحيتين : الاولى انطلاقه وحريته في تناول ما كان محظورا قبلها مما يمس المصالح الاقطاعية والاستغلالية والاستعمارية ، والناحية الثانية هي ان الادب وجد مجالا واسعا في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، فخاض فيه وان كانت التطورات والانجازات تسبقه وهو لا يزال يقف حيالها مشدوها أو يسير خلفها مبهور الانفاس • وهذه الحقيقة سجلتها اللجنة الثقافية بمجلس الامة في الجمهورية العربية المتحدة ، اذ قالت في تقرير لها :

« وتلاحظ اللجنة انه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت خلال الاثنى عشر عاما الماضية ، فان التحول الفكرى الذى ينبغي ان يصاحب التحول الاشتراكي ويسبقه ويبشر به ، في حاجة الى مزيد من الجهد ، حتى يسير التحول الفكرى ـ جنبا الى جنب مع التحول المادى في مرحلة الانطلاق القادمة » •

على أنه ينبغي الا نسقط من الاعتبار ان الادب يحتاج الى فترة يعايش

فيها الاحداث حتى تنضج وتختمر في وجدان الادباء وتفكيرهم • وهناك الى جانب هذا عوائق من مخلفات الماضي مصيرها الزوال المحتوم •

فاذا عدنا الى المفهوم الاول للادب الثورى ، وهو ثورة الادب على الادب والى التساؤل عن طبيعة التغيرات الفنية الملحوظة : هل هى ثورية او تطورية، فاننا اذا نظرنا الى معنى الثورة المقرر وهو ازالة اوضاع غير مرضى عنها واحلال اوضاع وقيم أخرى محلها ، فاننا نجد صفة التطور أليق بما في المجال الادبي من تغيرات فنية لعل ابرزها شكل الشعر فان ما يأخذ به أصحاب الشعر الجديد وما يقول به مناصروهم المعتدلون لا يعدو تطوير الاوزان العربية نفسها لمقتضيات في التعبير الشعرى عن الحياة المتجددة •

وفيما دون ذلك نرى الاتجاه الواقعي هو هو ، مع التطور الذي يتمثل في الاقتراب من المجتمع والارتباط به أكثر من ذى قبل والتخلص من هيبة الاوضاع الادبية الاتية من الخارج والهجوم عليها بجرأة تهدف الى التحرر مما لا يلائم البيئة العربية وموروثها والرجوع الى أصول هذه البيئة في تراثها وفنونها الشعبية والاتجاه الى دراستها واستيحائها •

ويتمثل التطور الادبي ـ من الناحية الفنية ـ كذلك في محاربة فلول الثورة الادبية الاولى التي لم يقض عليها تماما في الماضي ، ولاسيما الجمود التقليدى الذى يرمي الى اتخاذ الادب مجرد حلية شكلية ومتعة عقلية شعورية ، وقد استطاع الكفاح الجديد ان يحصر هذا الاتجاه في مجالات ضيقة لا فعالية لها في الاتجاه العام •

وانني اذ أقول ذلك لا أغفل عن محاولات لا تتجه الى الاهداف التحررية البنائية بل تحيد عنها الى التسكع في دروب ملتوية ، وتحاول ان تستنبت في الارض العربية ما لا ينبت فيها من الوان ادبية غريبة كان يمكن ان تروج قبل ذلك أيام الهرب من التبعة القومية • أما الان وقد وضع الاديب العربي قدميه على أرضه الصلبة فانه في مكانه يشارك في صنع الحياة الجديدة على هدى الاشتراكية العربية التي تستنبط مثالياتها من صميم البيئة واحتياجاتها •

ان المجتمع العربي الذى يعمل الان جادا في سبيل التقدم الاجتماعي والتحرر السياسي والتكتل القومي لا ينبغي ان يشعر فيه الاديب بالغربة عنه وعدم الانتماء اليه وليس فيه الان مجال للاهواء أو التمزقات الفردية التي يعلو صراخها في بلاد اخرى وفي ظروف مختلفة عن ظروفنا .

المجتمع العربي يجتاز الان مرحلة تحررية وبنائية تختلط فيها المفاهيم وتلابسها رسوبيات من الماضي المتخلف وتحاول ان تعوقهـا عناصر ترى صالحها الخاص في استمرار العفن ، أو تحاول ان تلبس للحال الجديدة لبوسها لتحصل على المكاسب نفسها ان لم تضف اليها جديدا من الحرام .

واننا نرى ان أهم ما يجب ان تتذرع به ثورتنا هو الفنون التي تجسد التجربة وتبث فيها الدلالات ، واهم هذه الفنون وأبلغها تأثيرا هو الادب ، ومفهوم ان الادب ليس مقصورا على ما يقرأ بل هو يشمل التمثيليات فـي المسرح والاذاعة والتليفزيون والسينما ، وكذلك الاغاني والاناشيد ، واذا كانت الوسائل الاخيرة كالمسرح والاذاعة ... الخ تعمل في نطاق واسـع فان القراءة تعمل في قطاع أعمق وان كان أقل سعة ، وهي التي تخرج القادة المفكرين .

يقول ميثاق الجمهورية العربية المتحدة في بيان الدور الثورى للادب والثقافة :

« ان العمل الديموقراطي سوف يتيح الفرصة لتنمية ثقافة نابضـة بالقيم الجديدة ، عميقة في احساسها بالانسان ، صادقة في تعبيرها عنـه قادرة بعد ذلك كله على اضاءة جوانب فـكره وحسه وتحريك طاقـات كامنة في أعماقه ، خلاقة ومبدعة ، ينعكس اثرها بدوره على ممارسـته للديمقراطية ، وفهمه أصولها ، وكشفه لجوهرها الصافي النقي » .

واذا كان معظم انتاجنا الادبي قد اتجه الى تصوير الماضي السيء ونقد الاوضاع التي كانت سائدة فيما قبل الثورة ، وكان ذلك ضروريا في وقته ، فاننا نرى الان انه يجب ان ينتقل الى مرحلة البناء ويصور صراعاتهـا

وتطلعاتها ويتأمل ما حدث من تغيير ثورى شامل وما جد من قيم ومثاليات •

ويتبادر الى بعض الاذهان أن وسيلة ذلك مقصورة على البحث عن النواحي الايجابية والنماذج البنائية •

ويتفرع عن هذا رأيان : احدهما يتحمس للقيم والنماذج الايجابية ويدعو الى ان يقصر الادب تناوله عليها ويسمى هذا « واقعية بناية » يرى خلالها محل « الواقعية النقدية » •

والاخر يبدى تخوفه على الادب ان يجـــــره التمسك بالنواحي الايجابية دون غيرها الى التخلي عن وظيفته النقدية التي تكسبه القوة •

وتقول لهؤلاء وهؤلاء : ان الواقعية النقدية ليست شيئا مغايرا للواقعية البناءة فالنقد المخلص البصير حين يلقى الضوء على المفاسد أو الاخطاء انما يرمى الى البناء عن طريق تبين الاخطاء فيما وقع وتجنبها فيمـــا يأتي ، فالواقعية النقدية حين تسلك السبيل الذى يسلك في هـــدم المباني الآيلة للسقوط على ساكنيها كى تبنى في أماكنها بيوت جديدة لا تكون الا واقعية نقدية بناءة في واقت واحد •

على ان الرواسب المتخلفة عن العهد البائد لا تزال تعيش بيننا وكثيرا ما تصطدم بالعناصر التقدمية ، واني اعتقد ان الرسالة العظمى للادب العربي الثورى في الوقت الحاضر هي تصوير الصراع بين القيم الايجابية والقيم السلبية التي تصطرع الان في حياتنا اذ تجاهد الاولى كي تتخلق وتكتمـل وتحاول الثانية ان تعوقها بل هي تتغلب عليها في بعـــض الزوايا المعتمة ، ومهمة الادب ان يسلط الضوء على هذه الزوايا ويكشف ما يجرى فيها •

وليس من شأن الادب ولا مما يليق به ان يتخلى عن النقد ، لان النقد هو عمله بطريقته الخاصة ، والادب كله نقد في نقد • فهـو اما نقد للحياة ، واما نقد « نقد الحياة » الاول هو الادب الابداعي ، والثاني هو ما يسمى بالنقد الادبي •

والادب كذلك في كل زمان ومكان ، اعني ان وظيفته هي النقـــد

دائما ، ولم تخل الحياة قط ، ولن تخلو ابدا ، من عنصري الخير والشر ، والايجاب والسلب ، والتقدم والتأخر ، وكل ما هنالك ان يغلب احد المتصارعين على الاخر • فليست اذن هناك فترات تستدعي ادبا ينقد فسادا ، واخرى تقتضي بحثا عن مواضع الثقة والامل • ففي أشد الاحوال سوءا نرى الادب الناجح الناقد للسوء لا يخلو من عنصر ايجابي يبعث الامل ، وفي أكثر الاحوال استقامة واتجاها الى القيم الايجابية لا ينبغي ان يخلو كذلك من تناول العناصر المعوقة عن مواصلة التقدم •

هذا وقد لاحظنا فيما تقدم ان الادب الثوري لا يزال حتى الان متخلفا عن ركب الاحداث الثورية واضيف الى ذلك ملاحظة مؤسفة أخرى ، هي ان العلاقة بين الادباء العرب والتجاوب بين الانتاج الادبي في مختلف بلاد الوطن العربي أو بتعبير واحد هي « الحركة الادبية العربية الواحدة » لا تزال هي الاخرى متخلفة عن ركب الحركة العربية العامة الواحدة ، ففي الوقت الذي نرى فيه القادة السياسيين على اتصال دائم ، والعمل القومي العام يتسق ويتقدم بخطى كبيرة وسريعة ، لا نرى مثل ذلك وعلى نفس المستوى في المجال الادبي ، فلا يزال الادباء متقوقعين في بيئاتهم المحلية ، وتكاد الحركة الادبية في كل بلد عربي تنعزل عن مثيلاتها في باقي البلاد • ولعل من ظواهر التباعد بين الادباء العرب في الفترة الماضية القريبة ان مؤتمرهم نفسه ظل معطلا نحو سبع سنين ، بعد انعقاد دورته الرابعة في الكويت سنة **١٩٥٨** ونحن لا نفقد ابدا روح التفاؤل ، كما أعتقد ان البذرة حية دائما في الحقل العربي ، فان طرأ ما يعوقها عن النمو فانها لا تموت ، وها هي ذي الان تنبت نباتا حسنا في بغداد العربية العريقة اذ يجتمع بها هذا المؤتمر ، ومما يدعو الى مزيد من التفاؤل ان مؤتمر الادباء يجتمع على أثر الخطوات الكبيرة السريعة التي تمت في الميدان القومي العام •

لذلك انتهز هذه الفرصة السعيدة فأقترح تكوين اتحاد عام للادباء

العرب يكون شعاره « الحركة الادبية العربية الواحدة » التي تسير جنبا الى جنب مع الحركة العربية القومية العامة وتعبر عنها ، بل تتولى قيادتها الفكرية ، فتعمق الاحساس بأهدافها ، وتحرك الطاقات الكامنة في الوطن العربي الكبير •

عباس خضر
من وفد المتحدة

الثورة والمجتمع العربي الجديد

بقلم

الدكتور محمد أحمد خلف الله

سيداتي • سادتي :

حين تصفحت الموضوعات التي أقرتها اللجنة التحضيرية التي أعدت لهذا المؤتمر ، لكي تكون موضع البحث ومحل الجدل والمناقشة ، توقفت عند هذا الموضوع الذى اخترت وسألت نفسي هذا السؤال •

هل كان اقتراح هذا الموضوع وطرحه للبحث والمناقشة قائما على أساس من تقدير اللجنة بأن هذه مشكلة قومية حية تحتاج الى حل سريع حاسم ، وان اعادة بناء المجتمع العربي على أسس جديدة لا يمكن ان يتم الا بالاعمال الثورية في كافة الميادين ـ من سياسية واقتصادية الى ثقافية واجتماعية ؟ أو كان ذلك على أساس تقدير آخر هو ان هذا الموضوع من المسائل النظرية البحتة التي تصلح كل الصلاحية لمؤتمر للأدباء يستثيرون فيه الهمم ، ويشحذون فيه الاذهان ، وينضجون فيه القرائح ـ شأنه في ذلك شأن كثير من الموضوعات التي يظهرون فيها براعتهم الفائقة ومقدرتهم الفنية على اقامة العمل الادبي العظيم ؟ •••

سيداتي وسادتي :

لقد أحسنت الظن باللجنة وقدرت انها غير عابثة ، وقدرت أيضا ان هذا الموضوع من الموضوعات الشائكة ، وانه يلائم فطرتي تلك التي جبلت على عدم التهيب مما يتهيب منه الآخرون ـ وذلك ايمانا مني بأن أمثال هذه الموضوعات هي التى تمكننا ـ ان أحسنا تناولها وأجدنا التفكير فيها ـ من استخلاص النتائج الحسنة المفيدة •

انها في عرفي غنية بالقيم الثقافية التي يمكن أن تقدم خيرا كثيرا للانسانية .

ومناقشتي لهذا الموضوع على انه مشكلة قومية وضرورة حتمية ، انما تبدأ من واقعنا . تبدأ من النظرة الواعية نلقيها على الاوضاع السائدة في مجتمعنا العربي ـ تلك النظرة التي أرشدتني فيما أعتقد الى الظواهر التالية :ـ

أولا :ـ ان الوطن العربي الكبير يحتوى دولا عديدة ، وان هذه الدول تختلف فيما بينها من حيث ايمانها بجدوى العمل الثورى في اعادة بناء المجتمع العربي على أسس جديدة . فبعضها قد اتخذ من العمل الثورى سلاحا ، وبعضها الآخر قد ارتضى الخطوات المتاقلة البطيئة وسيلة .

وهنا نسأل : أى الفريقين خير مقاما ، اولئك الذين اختاروا العمل الثورى أو اولئك الذين ارتضوا الخطوات الوئيدة ؟

اولئك الذين يؤمنون بحتمية الثورة أو اولئك الذين لا يؤمنون ؟

ذلك سؤال يحتاج الى اجابة . وتلك ظاهرة تحتاج الى تفسير ـ والا قامت مقرراتنا وتوصياتنا في هذا المؤتمر على غير أساس .

ثانيا :ـ ان هذه الدول العربية التي اتخذت من العمل الثورى سلاحا قد اختلفت فيما بينها : فمضى بعضها ، ولا يزال يمضى ، عاقدا العزم على ان يصل بالعمل الثورى الى غاياته ، وان يحقق به اقامة المجتمع العربي الجديد . وتوقف بعضها الاخر في أول الطريق ، أو اضطربت خطاه فأخذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

وهنا نسأل أيضا : أى الفريقين خير مقاما ، اولئك الذين عقدوا العزم وصحت منهم النية على المضي الى النهاية ، او أولئك الذين توقفوا واضطربت خطاهم ؟

ذلك سؤال يحتاج هو الآخر الى اجابة ، وتلك ظاهرة تحتاج هي الأخرى الى تفسير .

ومحاولتي الاجابة عن هذه الاسئلة ، ومحاولتي التفسير لهاتيك الظواهر تضطرانني الى ان ألقى نظرة ثانية على الاوضاع السائدة في عالمنا العربي . وهي نظرة قد أرشدتني هي الاخرى بدورها الى هذه الظواهر :ـ

الاولى :ـ أن الدول التي اتخذت من العمل الثورى سلاحا هي في الغالب الدول التي خاضت تجربة ثورية ضد الاستعمار ، ونجحت في هذه التجربة . انها التي خاضت تجربة ثورية في سبيل التحرر من الاستعمار ومما خلف الاستعمار من آثار . وانها التي لم تكد تفرغ من ذلك حتى التفتت الى الاوضاع الداخلية واخذت تعمل فيها الفأس هدما وبناء .

أما الدول التي ارتضت الخطوات البطيئة المتاقلة فهي الدول التي لم تخض معركة ـ أي معركة ـ في سبيل التحرر ، أو هي تلك التي كانت معركتها هينة لينة بحيث لم تقدم لها خيرا كثيرا .

ان الذى أريد ان ألفت اليه الذهن في هذا المقام هو ان التجربة الثورية الحقة هي التي تقدم القيم الثقافية التي ترشد الى الاعمال الثورية الاخرى ، ثم هى التى تكون الفيصل في التفرقة بين شعب وشعب .

الثانية :ـ ان الدول التي اتخذت من العمل الثورى سلاحا هي في الغالب الدول التي نالت من الرقي والتقدم حظا وافرا ـ وبعبارة أخرى هي الدول التي جددت بناءها الثقافي بحيث أصبحت قادرة على ان تقيم مدنية أو حضارة أو تأخذ منها بالنصيب الاكبر . وأما الدول التي ارتضت الخطوات الوئيدة فهي تلك التي لم تجدد بناءها الثقافي والتي لا تزال تعتبر من الدول المتخلفة نسبيا .

وهذا الكلام معناه ـ في اوله وفي آخره ـ ان المستوى الثقافي له دخل كبير في العمل الثورى . وذلك قول لاشك فيه .

ان العمل الثوري انما ينبت اولا في أدمغة الافراد . ينبت أفكارا وتصورات . والفرد حين لا يكون متمثلا لثقافة أمته ، متصورا لأحلامها وأمانيها ، لا يمكن ان يتصور البناء الجديد الذي ينادى باقامته ، ويعمل جاهدا على اقامته .

وهنا نستطيع ان نتصور العبء الملقى على عاتقكم معشر الادباء . انه عبء تثقيف ابناء الامة العربية بحيث يصبح كل فرد منهم قادرا على ان يساهم بنصيب في اقامة المجتمع العربي الجديد .

يقول أحد رجال التربية :ـ ان أهم شيء في العصر الحديث ـ في

ثروة الامم ـ هو القوة البشرية ، من حيث أن هذا المصدر من الثروة ، هو الذي يتوقف عليه تحويل المصادر الطبيعية الى أشياء مفيدة يحسن استغلالها ، وتدبيرها ، وتوجيهها الى خير المجموع •••

وان خلق الطاقة البشرية الواعية المنتجة لا يكون بالكلام وانما يكون بالعمل الذي ينقل الاشياء من طور الى طور ، ويترجم المفاهيم الجديدة الى سلوك يترتب عليه انتاج جيل اسعد ، واقدر ، واذكى ، من الاجيال السابقة •

ان في هذا خير ضمان لعدم انتكاس الوعي • وخير ضمان لكي تبنى الأجيال القادمة فوق الاساس الذى نحاول اليوم ارساءه •

ان علينا ان نوصي بالارتفاع بالمستوى الثقافي لابناء الامة العربية الى الحد الذى يمكنهم من الحياة الانسانية الكريمة •

* * *

وهنا نلتفت ايها السادة الى تلك الدول التي لم تمض في العمل الثورى الى نهاية الشوط وانما توقفت او اضطربت خطاها ـ مع كونها من الدول التي ارتفع فيها المستوى الثقافي الى حد لا بأس به •

هنا أتوقف لالقى نظرة ثالثة من داخل حدود هذه الدول • وهذه النظرة قد ارشدتني هى الثالثة الى ما يلي :ـ

ان هذه الدول من الدول التي لا تملك وحدة ثقافية عامة فقط فانما لها الى جانب الثقافة العامة ثقافات فرعية تجيء من الاختلاف العقائدي دينيا كان أو غير ديني • أو من الاختلاف المذهبي دينيا كان أو غير ديني • أو من الاختلاف العرقي • او من الاختلاف الطبقي والاجتماعي •

ان هذه الثقافات الفرعية هي السبب الاول والاخير في توقف هذه الدول او في اضطراب خطواتها •

وهنا نلمح عبئا آخر نلقيه على عاتقكم معشر الادباء • عبئا ثقيلا • لانه قد أصبح من الحتم عليكم ان تعملوا في سبيل القضاء على هذه الثقافات الفرعية واقامة الوحدة الثقافية التي تكفل لابناء الامة العربية تماسكا وانسجاما •

ان الثقافة الموحدة خير ضمان لنا • انها التي تحول بيننا وبين الاختلاف في الرأى فيما يتعلق بالمسائل الكبرى •

واتصور الان قائلا يقول انك لم تحدثنا الا عن جانب واحد هو أثر العمل الثقافي في العمل الثورى ـ خطة وتنفيذا ، ولم نسمع منك بعد شيئا عن حتمية العمل الثورى ـ ثقافيا وغير ثقافي ـ في اقامة المجتمع العربي الجديد •

وهنا أقول :ـ لقد أجبنا نحن في جمهوريتنا العربية المتحدة عن هذه المسألة • أجبنا عن حتمية العمل الثورى ، وأجبنا عن اقامة العمل الثورى على أساس من البنيان الثقافي •

ثان مما قلنا في الاول :ـ لقد أثبتت التجربة ، وما زالت تؤكد كل يوم ، ان الثورة هي الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال العربي أن يعبر عليه من الماضي الى المستقبل •

فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الامة العربية ان تخلص نفسها من الاغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها • فان عوامل القهر والاستغلال التي تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لن تستسلم بالرضا ، وانما لابد على القوى الوطنية أن تصرعها ، وان تحقق عليها انتصارا حاسما ونهائيا •

والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذى أرغمت عليه الامة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال ، فان وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على ان تطوى مسافة التخلف الذى طال مداه بين الامة العربية وبين غيرها من الامم السابقة في التقدم ، ولابد ـ والامر كذلك ـ من مواجهة جذرية للامور تكفل تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للامة لتحمل هذه المسؤولية •

والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدى الكبير الذى ينتظر الامة العربية وغيرها من الامم التي لم تستكمل نموها • ذلك التحدى الذى تسببه الاكتشافات العلمية الهائلة التي تساعد على مضاعفة الفوارق ما بين التقدم والتخلف ، فانها بما توصلت اليه من المعارف تيسر للمتقدمين

أن يكونوا أكثر تقدما ، وتفرض على الذين تخلفوا ان يكونوا ـ بالنسبة اليهم ـ أكثر تخلفا برغم كل ما يبذلونه من جهود طيبة لتعويض ما فاتهم •

ان الطريق الثورى هو الجسر الوحيد الذى تتمكن به الامة العربية من الانتقال بين ما كانت فيه ، وبين ما تتطلع اليه •

وكان مما قلنا في الثاني :ـ والثورة العربية تحتاج الى ان تسلح نفسها بقدرات ثلاث تستطيع بواسطتها ان تصمد لمعركة المصير التي تخوض غمارها اليوم ،وان تنتزع النصر محققة أهدافها من جانب ، ومحطمة جميع الاعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر •

وهذه القدرات هي :

اولا :ـ الوعى القائم على الاقتناع العلمي النابع من الفكر المستنير ، والناتج عن المناقشة الحرة التي تتمرد على سياط التعصب أو الارهاب •

ثانيا :ـ الحركة السريعة الطليقة التي تستجيب للظروف المتغيرة التي يجابهها النضال العربي ـ على ان تلتزم هذه الحركة باهداف النضال وبمثله الاخلاقية •

ثالثا :ـ الوضوح في رؤية الاهداف ومتابعتها باستمرار ، وتجنب الانسياق الانفعالي الى الدروب الفرعية التي تبتعد بالنضال الوطني عن طريقه وتهدر جزءا كبيرا من طاقته •

كما قلنا :ـ ان العمل الثورى لابد له أن يكون عملا علميا •

ان الثورة ليست عملية هدم انقاض الماضي ، ولكن هي عملية بناء المستقبل • واذا تخلت الثورة عن العلم فمعنى ذلك انها مجرد انفجار عصبي تنفس به الامة عن كبتها الطويل ، ولكنها لن تغير من واقعها شيئا •

ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية • ثم هو السلاح الذى يحقق النصر الثورى •

ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التى يتصدى شعبنا اليوم لمواجهتها لابد لها من حلول علمية •

اعتقد انا نستطيع الآن ان نقرر ان الثورة ضرورة حتمية في خلق المجتمع العربي الجديد • وان هذه الثورة لن تؤتي أكلها الا اذا استندت

الى الفكر يخطط لها ، ويقودها الى النصر في معركة التقدم .

ومعنى ذلك كله ان الثورة الثقافية هي الخالقة أو الباعثة على كل تفكير ثوري وكل تنفيذ ثورى في أى مجال من مجالات الحياة وفي أى ميدان من ميادينها .

وهذا يدفعنا الى التفكير في الثورة الثقافية . في مقوماتها وفي وسائلها .

فليست كل ثقافة بقادرة على خلق الروح الثورية . فمن الثقافات ثقافات رجعية ، وثقافات جامدة غير متحركة . وأمثال هذه الثقافات محتاجة الى من يحركها فضلا عن أن يحدث بها دفعا ثوريا .

الثقافة القادرة على بعث الحياة في الامة العربية هي الثقافة المتصلة بالحياة النامية المتحركة ، والتي تحترم فيها كرامة الانسان وتقدس انسانيته .

انها الثقافة التي تساعد على استثمار الموارد الطبيعية والبشرية استثمارا حسنا تخلق به رفاهية مادية ، وتحقق به انتصارات فكرية .

والثقافة لن تكون من هذا النوع الا اذا آمنت بالعقل البشري ، وبقدرته على الوصول الى اكتشاف الحقائق واكتشاف ما قد يقع فيه من أخطاء .

ان الايمان بهذا العقل هو الذى يطلقه من عقاله ويجعله قادرا على ان ينتج ثقافة حية متمثلة في العلوم ، وفي الفنون ، وفي الآداب .

وهذه الثقافة الحية لن تصبح قوة فعالة في خلق الروح الثورى الا اذا تمثلها الكثيرون من أبناء المجتمع . ومن هنا يصبح من الواجب علينا احداث هذه القوة .

من الواجب ان تمتد الثقافة طولا وعرضا حتى تشمل كل فرد من أفراد هذه الامة .

ومن الواجب أن تمتد هذه الثقافة عمقا حتى تستطيع ان تقدم للمواطن تفسيرات جديدة عن الحياة وعن دور الانسان في هذه الحياة .

وهذه الواجبات لن تتم الا اذا قمنا بثورة ثقافية . ثورة تنقذ فيها فكر الانسان العربي من خرافات العصور الوسطى ، ومن اوهام الدجالين والمخرفين .

ثورة تنقذ بها كرامة الانسان من عدوان الظلم ، وحريته من الاستعباد

والاسترقاق •

ثورة نرتفع فيها بالمستوى الثقافي للانسان العربي حتى يسلك طريقه المستقيم نحو التقدم ونحو المستوى الافضل في الحياة ـ دنيوية واخروية •

ثورة تضع الانسان العربي في الموضع اللائق الكريم وتجعله العنصر الفعال في تحقيق كل تقدم في اى مجال من مجالات الحياة وفي اى ميدان من ميادينها •

* * *

سيداتي وسادتي :

ان التخطيط لهذه الثورة انما يكون بعد ان يستقر في الاذهان انا في حاجة الى مثل هذه الثورة •

واشير هنا وفي ختام هذا البحث الى خطين رئيسين لا يمكن تجاهلهما •

الاول :ـ كيف نحدث الثورة الثقافية ، وكيف نضبط قواها ، بحيث تحقق اهدافها ولا تنقلب الى فوضى •

الثاني :ـ كيف نصل بالزاد الثقافي الى المواطن العربي في كل بقعة من بقاع العالم العربي ـ علما منا بان الاكثرية الكاثرة من أبناء الوطن العربي الكبير ممن لا تجيد القراءة •

ان الامر الثاني يمكن تحقيقه بالوسائل السمعية لاسيما ونحن نعلم جميعا ان تعاليم الانبياء والمرسلين انما استقرت في اذهان الناس ، واصبحت قيما تضبط عقولهم ، وتحرك أعمالهم ، وتربي ملكاتهم ، عن طريق السمع • أما الامر الاول فتحقيقه يحتاج الى العصبة اولى القوة من المفكرين •

انه من الامور التي لم تنضج بعد في ذهني ـ ومن هنا آثرت التوقف حتى يحين الوقت المناسب ، ويكفيني في هذا المقام ان أشير اليه ، وان استثيره في الاذهان وان ادفعكم الى التفكير فيه •

والسلام عليكم ورحمة الله •

الدكتور محمد أحمد خلف الله
من وفد المتحدة
وكيل جامعة الثقافة الحرة
الجمهورية العربية المتحدة

الأدب والثورة

بقلم

سعيد الشيباني و محمد الشرفي

المقـــدمة

مسؤولية حماية الانسان ملقاة ـ اليوم ـ على الفن الثوري ، يرى الانسان اليوم أن العلم في تطوره التاريخي يتجه اتجاهين اتجاها في خدمة الانسان وحماية بقائه على الارض ، واتجاها آخر في خدمة (العدم) وطالما كانت المجتمعات البشرية تنقسم الى طبقات مستغلة وطبقات مستغلة فان الصراع بين الوجود والعدم وستبقى البشرية ـ أبدا ـ تتقاتل في سبيل ان تأكل الطبقة المترفة الطبقة الكادحة •

ويقول المستغلون لمجهود البسطاء أن الغنى والفقر سنة الحياة وارادة السماء وجعلوا من أنفسهم في الارض وكلاء للسماء ، وبنوا الكنائس والمعابد لتكون منابر الدعاية لهم •

وقبل أن تدخل السماء في شؤون الارض كان الانسان يعمل متضامنا ويطعم مجهوده جماعيا ، ولما ظهرت الكهنوتية وتعمدت الكنيسة وأرست أركانها تحملت عبء مسؤولية السماء وقامت ببيع الصفقة الروحية على عباد الله الطيبين الذين لا يملكون شيئا سوى الصلاة أما مجهودهم العضلي فقد كان ملكا للمترفين وللكنيسة ، وكم باعت الكنيسة صكوك الغفران لعباد الله الطيبين ؟ وكم قبلت اعترافات ؟ وكم أدانت ، وكم أعدمت من هؤلاء البؤساء ؟ ولكن في سجلها لم تدن يوما ما في تاريخها غني ؟ لماذا ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا سوى قداسة البابا !؟

ولم يتحمل مسؤولية الدفاع عن عباد الله الطيبين سوى الادباء الذين يصارعون بالحروف ، فهم لا يملكون البلطات ، ولا السيوف ؟ بل كان سلاحهم مجموعة من الكلمات المضيئة ، واليوم تقع مسؤولية الدفاع عن مخلوقات الله البائسة على هؤلاء الادباء الذين يحملون بذور الانسانية القادمة والذين يعتبرون أرقى أحساس المجتمع •

وفي واقعنا العربي يتحمل الادب اليوم المسؤولية العظمى في سبيل اعادة حقوق المتعبين الذين هضموا طوال التاريخ ولم يعد هناك اليوم من يستطيع أن يقول ان الغنى والفقر سنة الحياة سوى اولئك الذين يملكون كل شيء ولم يعد مطلب الاشتراكية جريمة الا في دساتير الدول البورجوازية التي هي أداة قمع طبقية تحمي المترفين من غضبة البؤساء تحمي الرأسمالية من العمال وتحمي الاقطاعيين من الفلاحين ، وتحمي السادة من العبيد ، اذن مفهوم ثورة الادب لدينا ليس كونه يعظ المترفين أن يرحموا المعدمين فتلك وسيلة سلفية من بقايا سيطرة الكنيسة والمعابد ، فاذا رأى راء عاريا يسير حافيا وراء شخص حسن الهندام فلا يجب أن يقول أن هذا شيء طبيعي لانه حتى هذه المرحلة التاريخية من تطور البشرية ليس هناك شيء أو وضع اسمه (طبيعي) فكل شيء في نظرنا لا يزال غير طبيعي ، والذين يملكون المبررات هم الذين ارتكبوا الجريمة ، فالمحامون غير الثوريين مثلا في نظرنا هم شركاء القتلة واللصوص لان وظيفتهم ليست أكثر من تبرئة المجرم وادانة البريء ، لان المجرم يملك أتعاب المحاماة أما البريء فلا يملك سوى حقه في كونه (انسانا حقيقيا شريفا) والانسانية الشريفة بكل أسف ـ شيك بلا رصيد لا تقبل النقابات ولا البنوك صرفه في أي مصرف والامن العام والاستخبارات أليست وظيفتهما تتبع المجرمين واللصوص في المجتمع ؟ ولكن من هم المجرمون ومن هم اللصوص ؟ اذا أردنا أن نعرف ذلك فحق علينا أن نكون شرفاء وكوننا شرفاء يجعلنا في قفص الاتهام ؟ لان المجرم لا يخاف مجرما مثله بل يخاف ضده وهو المواطن الصالح !

فمثلا ؟ لماذا صلب المسيح ؟ ولماذا صلب اسبارتاكوس ؟ ثم لماذا اعتبر

فلاسفة الاسلام ومفكروه الاول زنادقة ؟ حتى الآن لم يجد الشرفاء جوابا سليما ؟ ولماذا أعدم لوركا ؟ ولماذا طرد شارلي شابلن من نيويورك رغم أن تمثال الحرية فيها أجمل تمثال في العالم ؟ ولماذا طرد بول روبنسن من الولايات المتحدة ؟ ومن هو الذى قتل كندي ؟ وروزفلت ؟ ومن الذى شرد ناظم حكمت ؟ (وقتل الورار) وغيرهم ؟

ان الذين يملكون الجواب الحقيقي عن كل هذه الصور من الجرائم البشرية هم وحدهم الذين يعتبرون في نظر القتلة مجرمين تماما مثل المقتولين •

(فهواردفاست ، وشارلي شابلن ـ مثلا ـ يعتبران مجرمين خطيرين في نظر السيد مكارثي والسيد دالاس ـ ؟

وفي وطننا العربي يوجد نفس الشيء طالما فيه مخلوقات بشرية واشباه مخلوقات بشرية •

فثورة الادب تعني في نظرنا الثورة على المجرم الحقيقي عدو الشعب وعدو الشعب العربي لا يختلف عن عدو الشعوب الاخرى مطلقا ، فنحن نرى أنه باسم الشعب تعدم طلائع الشعب ، وباسم الشعب تنهب أموال الشعب وباسم الشعب نفسه يحارب الشعب ؟ فهل يمكن القول أن الذين يستغلون الشعوب هم الذين يدافعون عن حقوق الشعب ؟ ان ذلك اشبه بمن يأتمن الذئب على القطيع : ولكي يكون الادب ثوريا فعليه أن يناضل لتغيير المجتمع كيفيا وهذا يعني الا يصبح المجتمع قسمين قسما منتجا وقسما مستهلكا بل يجب أن يكون المجتمع قسما واحدا أى منتجا ومستهلكا لانتاجه ، فالمجهود الذى يبذله العامل والزارع يعود اليه بشكل منافع متنوعة متبادلة •

ربما يرى البعض أن هذا خلط" في الامور ، فيقول أن لا دخل للادب في الاقتصاد والسياسة والفلسفة ونحن لا نرفض هذا الاعتراض بل نحن موافقون عليه لكن موافقتنا مشروطة بشرط موضوعي هام ، وهو أن نلغي عقولنا وبالغاء عقولنا فقط نكون متفقين ، لاننا اذا ابقينا عقولنا فانها

- أي عقولنا - كثيرة الفضول فسوف تحشرنا في الفلسفة وتقول لنا أن الانسان ثمرة التاريخ والتاريخ لا يعمل الا بواسطة الانسان فهما مترابطان وكل شيء مترابط ، فالغني مرتبط بالفقير والرابط بينهما هو عنصر استغلال الغني للفقير ، وهكذا تصبح الحياة المجتمعية مترابطة في علاقات وشروط ذاتية ، وخارجية ، وحينما نقول أو نصل الى هذه القوانين العلمية فأين نضع(اللامنتمين - والعدميين الخ) هذه المصطلحات الفنية الجديدة ، وبدون أن ندري نصبح بقدرة قادر بشرا مجرمين في حق الشعب ويصبح تطبيق نصوص الدساتير والقوانين الجنائية لازما علينا لاننا نفكر وتلك مصيبة الادباء في وطننا العربي وفي كل وطن بورجوازي ، ولا يسعنا بعد ذلك الا أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يصلح أمور العباد طالما كانت ممارستنا للاصلاح جريمة ولكننا نحن معشر الادباء لا نستطيع الا ان نكون مجرمين في نظر المترفين فتلك فريضة تاريخية علينا والا ما كان بامكان الشاعر سعيد الشيباني أن يقول :

لن نغمد السيف حتى يذهبا بددا ... من أرضنا مترفاها ، غاصب وغبي
حتى يعود الى الضيعات مالكها ... ويصبح الحقل ملك الفالح التعب
والمصنع الزاخر الانتاج يغدو الى ... عماله صانعي الخيرات والطيب
حتى يلاقي في أمن وفي دعة ... محبوبة حبها ، معتزة وأبي
حتى نحرر بالقبلات موعدنا ... في الحب من موجة الارهاب والريب
لن نلطم الخد ان جارت مصائبنا ... فليس من يلطم الخدين بالعربي
لن نلقي القلم المسموم ثانية ... حتى نرى ظالمينا أعجب العجب
حتى نعيد الى الكلمات قيمتها ... في العلم والفن والتاريخ والأدب
وان شموس أفاقت من مراقدها ... فأي ثلج على القمات لم يذب

فمهمة الادب الثوري هو التصدي لكل التحركات الساعية ضد مصالح الشعب الذي يشرب المترفون دمعه خمرة ويرفعون له الشعارات باسمه •

والادب العربي في كل فنونه تقصد الادب الثورى - قد التزم وسيبقى

أبدا ملتزما الدفاع ضد القوى الشريرة التي تسعى الى تدمير العالم ، والقوى التي تحارب وحدة العالم العربي وحريته وحقه في اختـــيار الطـــريق الديمقراطي والسلامي وهي ليست قوى خارجية عن الوطن العربى فقط بل ان ركائزها داخل الوطن العربي هي أشد خطورة وأشد شراسة وكل حـبة لا تجد تربة صالحة لا تنمو ، وما كان في استطاعة الاســتعمار أن يقتحم الوطن العربي ما لم يجد المترفين والرجعيين يروون مزرعته وصباره في حقل الشعب ، والحقيقة أن الادب العربي الثوري لم يقف متفرجا بل ناضل بجسارة ضد الطغاة والجلادين والدخلاء والعملاء ، ونستطيع من هنا أن ندرك الدور الذى يقوم به الادب الثوري في تحول المجتمعات ولان الاديب انسان فان فعاليته غائبة وهي جعل المجتمع المتناقض مجتمعا منسجما والفن عامة ـ أى الفن الثوري له فعاليته في وجدان المجتمع فأغنيتا (فيروز) مثلا (سوف أحيا) و (سنرجع يوما الى حينا) واغنـية عبدالوهـــاب (فلسطين) تعمل في الوجدان العربي أكثر مما تعمله مليون خطبة تلقى في مركز السياسة العربية ، فعالية الفن في المجتمع العربي ايجابية ثورية صلبة ، واذا عدنا الى الماضي وجدنا تاريخ الادب العربي يعرفنا أن مولد شـــاعر لقبيلة عربية كان يعني مولد القبيلة ذاتها وأن بيت هجاء لشاعر يدمر قبيلة وبيت مدح لشاعر آخر يرفع قبيلة لم تكن معروفة على مدى طويل وحتى العصر الحديث لا يزال للادب فعاليته الموضوعية وأقرب دليل هو قصيدة نزار قباني (خبز وحشيش وقمر) لقد احدثت ضجة عظيمة في سوريا ولا يستطيع أحد أن ينـكر خوف السياسين الرجعيين وربهم الاستعمار من الادباء الثوريين في الوطن العربي وغيره لقد كان (ناظم حـــكمت) يهـز بشعره كراسي الاسياد في تركيا ، و (بابلو نيرددا) لا تزال كلماته تردد في شوارع امريكا الجنوبية وعلى شواطىء الكاريبي وقناة بنما ، وما كان يرهب قيصر الفولجا سوى جوركي ومایاکوفسكي ، ولم يلق نوري السعيد وعبدالاله وقاسم سوى حروف شعراء العراق العمالقة رغم أنهم لا يملـكون أكثر من الشعر ، وحينما نفكر بثورة العراق يقفز الى أذهاننا طلائع هـــذا الشعب الثوري ، كالرصافي ، والجواهري والبياتي وخالد الشواف ، وعلي

الحلي ، والسياب ، ونازك الملائكة ، وكاظم جواد وهلال ناجي وعدنان الراوي وغيرهم فعدنان الراوي حينما يقول :

والملوك الطغاة بدعة قوم يرثون الطغيان بالاسباب
يا بلاط الكفر المقيم نهدم يا بلاطا أقيم بالاسلاب
أضباب يملأ اليأس قلبي وغوي يستذل جرابي
يا روابي (دمشق) يا (حلب الشهباء) يا وميض كل شهاب
يا دماء في ميسلون كموج في حمى (اللاذقية) الصخاب
ناصري" أنا يقيني بالله وبالشعب وحدة الغلاب
ستعود الاعلام اعلامنا الشماء مرسومة على الاهداب

لم يقل ذلك ابتغاء مرضاة ملك أو بلاط ، بل من أجل الشعب الذي هو يقينه والشاعر خالد الشواف حين يقول :

يا ساسة العرب سقيتم شعوبكم من كرمة الخور القتال ما فصدا
ملأتمو مسمع الدنيا بجعجعة جوفاء ليس لها في العالمين صدى
أن الشعوب اذا ضاقت بواترها فما تقوم الا بالدم القودا
ماذا تقولون للتاريخ ويلكمو اذا بعار الليالي حدث الابدا

فهو لم يكن لينذر الساسة العرب ، بل كان يستحث الشعب العربي على الثورة ضد هؤلاء الساسة الاستعماريين العملاء ، وعبدالوهاب البياتي الذي منح حياته للحرف الشريف المعذب لم يكن الا مدا ثوريا لشعب ثوري .

أيها الحرف الذى علمني حب الحياة
أيها الحرف الاله
آه لا تطفىء مصباحك آه
كل ما اكتبه محض صلاه
لك ، للعلم ، ما اكتبه محض صلاه

وسلاحي في يدي ضد السلاطين واحفاد الغزاه
أيها الحرف المعذب
أينما تذهب أذهب

ثم ينهي قصيدته بقوله :

لتهب العاصفة
لتهب العاصفة

وما العاصفة سوى الثورة ضد السلاطين واحفاد الغزاة وكل قطر عربي يرتبط في ذهن الشعوب في ذهن الجماهير الكادحة بأدبائه وفنانيه .

وكما يرتبط العراق بفنانيه كذلك السودان والجزائر ، و ج.ع.م وتونس واليمن وكل الاقطار العربية الاخرى فصورة السودان الثورة نجدها في شعر محمد الفيتوري ، ومحيي‌الدين فارس وجيلي عبدالرحمن وتاج‌السر الحسن كطلائع مثقفة تقود نضال هذا الشعب الذي عبثت به أيدى المستعمرين وحاولوا تجزئته كما جزأوا اليمن والمغرب والشام ، والفيتوري لم ير في السودان جزءا منفصلا عن باقي شعوب أفريقيا العربية والافريقية ففي قصيدته (البعث الافريقي) يحرض أفريقيا على الثورة ضد السادة المستعمرين :

أفريقيا
أفريقيا استيقظي
استيقظي من حلمك الاسود
قد طالما نمت ألم تسأمي ؟
ألم تملي قدم السيد
قد طالما استلقيت تحت الدجى
مجهدة في كوخك المجهد
مصفرة الاشواق ، معتوهة
تبني بكفيها ظلام الغد
جوعانة تمضغ أيامها

كحارس المقبرة المقعد
عريانة الماضي بلا عزة ،
تتوج الاتى ، ولا سؤدد

وارتباط الادب بقضية الشعب أصبح مطلبا بل واجبا انسانيا والفيتوري هذا الشاعر الانسان لم ير في تونس زعماءها ولـكنه رأى الشابي ذلـك الشاعر العملاق الذي غدا شعره يدوي في الوطن العربي ويردد صوت النذير بانكسار القيد ، ويخاطب الشاعر السوداني الشاعر التونسي العظيم ، كما خاطب البياتي ناظم حكمت قائلا :

يا معجز الارض بفن السماء
ومعجز الموت بسر الخلود
كم زحزحت كفاك من صخرة
سدت على الفجر طريق الصعود
وكم مشت روحك في هوة
صاحبها خلف الزوايا طريد
وكم حضنت الشوك مستغرقا
في فـكرة مملوءة بالورود
وعشت كالمنبوذ في أمة
هدت قواها مومياء الجمود
ومت لـــكن الذي لم يمت
هذا البناء الضخم ، هذا القصيد
شعر كاشواقك يغزو السماء
أمداده كالسنديان العتيد

والشابي مفخرة الشعر العربي الثورى وعمود ضخم من أعمدة الادب الثوري الحق ، وكما ناضل الادباء العرب في قضايا بلادهم العربية والانسان العربي المتطلع فقد ناضلوا من أجل الانسان اينما حل ، ولذلك يتساءل الشاعر اللبناني خليل حاوى عن مولد بطل السلام والانسانية ذلك البطل

الذى هزم قياصرة (روما دون رماح ودون سيوف) •

انه يبحث عن البطل العربي الذى يخلص هذا الانسان العربي المعاصر من مأساته السوداء ويقفز به الى صباح الخير والسلام :

أترى يولد من حبي لأطفالي وحبي للحياة

فارس يمتشق البرق على الغول ، على التنين

دب ماذا هل تعود المعجزات ؟

بدوى ضرب القيصر بالفرس

وطفل ناصري وحفاة

روضوا الوحش بروما

سحبوا الانياب من فك الطغاة

رب ماذا ،

رب ماذا ؟ هل تعود المعجزات

أما صلاح عبدالصبور فلم يكن حواره للغاصبين حوار سياسي محترف بل كان يمثل صوت الشعب الحقيقي الذي يواجه الغاصبين بكل صلابة وجبروت وعناد وقد خاطب عدوه بلغة الشعب

سأقتلك

من قبل أن تقتلني سأقتلك

من قبل أن تغوص في دمي أغوص في دمك

وليس بيننا سوى السلاح

وليحكم السلاح بيننا

واننا اذا تذكرنا مواقف العرب التحررية البطولية سنجد بور سعيد رمزا لبطولة الشعب العربي وقد كان الادب الثوري العربي لا سيما الشعر سلاحا رهيبا في هذه المواقف ضد الغزاة والطامعين كما أنه ارتبط ارتباطا قويا بمطالب الشعب العربي في التحرر والاشتراكية والوحدة فليس هناك شاعر ثوري لم يناضل بحروفه الشريفه ضد الغزاة المستعمرين في فلسطين الحبيبة وفي جبال وهران الصامدة وفي بور سعيد العتيدة وفي اليمن السعيدة وعلى النهرين ودمشق والنيل من أجل الحياة الكريمة ومن أجل

العروبة الموحدة ومن أجل الانسان العربي العملاق ، وكما غنى الشاعر سليمان العيسى في سوريا بالوحدة العربية :

ويمور الحشد اطفالا وشيبا وشبابا
ينسجون الوحدة الكبرى دماء وغلابا
لوحوا بالنير من بغداد يستدني الرقابا
فتركناه ولما يبد في الافق سرايا
ومضينا نهب الساح كما شئنا خضابا

كذلك غنى بها شعراء اليمن ورددتها السنة الادب في كل ميدان يقول الشاعر عبدالله البردوني :

أنا توحدنا هوى ومصائرا وتلاقت الاحباب بالاحباب
أترى ديار العرب كيف تظافرت فكأن صنعاء في دمشق روابي
وكأن مصر وسوريا في مارب علم وفي صنعا أعز قبـ..
اليوم القي في دمشق بني أبي وأبث أهلي في الكنانة مابي
وأبث اجدادي بني غسان في ربوات جلق محنتي وعذابي
وأهيم والانسام تنشر ذكرهم حولي فتنضح بالعطور ثيابي
دعني أغرّد فالعروبة روضي ورحاب موطنها الكبير رحابي
فدمشق بستاني ومصر جداولي وشعاب مكة مسرحي وشعابي
وسماء لبنان سماي واهلها أهلي وأصحاب العراق صحابي
بل اخوتي ودم الرشيد يفوز في أعصابهم ويضج في اعصابي
فاترك جناحي حيث يهوى يحتضن جو العروبة جيئتي وذهابي

ويقول الشاعر محمد الشرفي :

يا وحدة الامال أنا ها هنا في كل درب
أمل تداعبه أنامل موكب نشوان صب
يهفو لوحدته الكبيرة بين أشواق وحب
فنطل من أفق القلوب كأنها خفقات قلب

تزهـــو بركب شـــامخ الاضواء يجرى أثـر ركـب
فيـكاد يغشـى الناظرين صياحهـا الاسـنى ويصبى
أهـــلا بقافـلة العروبـة يلتقي شـعب بشـعب
وتمـــر تيــارا يزاحـم منكب الدنيـا بجنب

هذا واننا نستطيع أن نقول بجرأة وثقة أن اتجاه الادب العربي اليوم هو اتجاه ثوري واقعي يجمع بين عكس الواقع الصادق وبين التحـويل الثوري لهذا الواقع ونقصد بالواقعية في الفن تأكيد حوادث الحياة الموضوعية المتراكمة وأمام الادب اليوم جبهات نضال متعددة ، فليست الحرب على القديم هو هدف الفن ، بل هدفه تحويل الواقع العربي الحالي الى واقـع أفضل ونرى أن مؤتمرات الادباء العرب يجب ان تتحول الى جبهة عربيـة موحدة وان تتخذ موقفا ايجابيا في سبيل الدفاع عن مبادىء الانسان العربي والعالمي والعمل على تحقيق انسانية هذا الانسان والا كانت هذه المؤتمرات ضجيجا في صحراء لا صدى له •

لسنا نؤمن بأن الادب للادب ، بل الادب من أجل الكادحين ليس رقليأوه بل ليتخذوه سلاحا ضد استغلال الانسان لاخيه الانسان ، وضد السلطات الغاشمة التي تتحكم بمصائـر الجماهير الديمقراطية الشـعبية من أجل حرية العمال والفلاحين المنتجين وهذا يعني أن الادباء سـوف يواجهون جميع السدود المجتمعية والاسوار ، ولـكن يجب اقتحـام جميع الاسوار في سبيل فجر الانسان العربي ، فقد آن للذين استضعفوا في الارض أن يثوروا ليملـكوا زمام مصيرهم ، وعلى الادباء وحدهم تقـع مسؤولية توعية الجماهير العاملة وتنظيمهـا للقيام بدورها التاريخي ضد عدو الانسانية الثنائي الاستعمار والرجعية •

ان الوجدان القومي العربي غدا حقيقة موضوعية لا خيال شاعر ولا نغم موسيقى ، بل ممارسة عملية لبناء وطن عربي واحد تحت راية واحدة ، ولواء واحد ، تلك حتمية التاريخ والذين لا يؤمنون بالتاريخ فانا ندعوهـم أن يتصدوا للتاريخ ، والذين ينطلقون من ذاتيات طبقية مريضة عدمية ،

هم وحدهم الذين يحفرون لانفسهم قبرا بأيديهم ، ونحن سوف نساعدهم بكل امكانياتنا على ردم قبورهم ، وأدباء اليمن يمدون أكفهم الى أدباء الوطن العربي بصلابة واصرار وجرأة متحدين القيود والحدود كافرين بالجمود والتعصب والذرائع والاقليمية الضيقة .

واذا تناقضت الوسائل فلا يجب أن تتناقض الاهداف الواحدة والذين لا يؤمنون بحتمية الوحدة العربية هم وحدهم مسئولون عن عدمهم لأنهم دمى في أيدى الاستعماريين والرجعيين يفلسفون لهم ويطورون مفاهيمهم في محاربة الشعب العربي وجوابنا اليهم هو انهم :

لن يردموا أبدا نهر الحياة وقد تدافعت فيه كالحمى سواقينا
ان العروبة قد قامت قيامتها فليشمخ الشعب ولتسقط اعادينا

سعيد الشيباني

الفصل الاول

الثورة في الادب اليمني

بقلم : محمد الشرفي

ان الثورة في الادب معناها الارتفاع بمستوى الادب عن كل ما من شأنه تشويه الحياة الجميلة وثورة الادب معناها الحياة الجميلة التي تدعو لها الانسان .

حياة العدل والسلام حياة الخير والجمال ـ حياة المجتمع الاخلاقي الكريم وثورة الادب معناها الادب المسئول الذي يعيش مع واقع الحياة فيتلمس جوانب الخير والحق والجمال فيها ويحاول أن يبلورها في أذهان المجتمع الذي يعيش فيه ويفضح من يحاول تشويهها أو دفن ضوئها ولمعانها .

والادب المسئول هو أدب الثورة ، وهو الادب الذي ينطلق من التقوقع والانعزال وينزل الى الواقع ثورة عارمة ضد العقليات المتخلفة والتقاليد الجامدة والطغيان المستشري والباطل المستحكم والجمود المفروض .

انه الادب الذي ينزل الى الشعب الى المجتمع ينير طريق المستقبل ويلهب جلود المتسلطين والمستعبدين والرابضين على جراح الشعب وانينه بسياطه اللاهبة ويصب على المتخلفين بالشعب والآكلين حقوقه والناهبين خيراته حمما ونارا تقذف بهم من عروشهم الطاغية الى حيث يجب أن تضعهم ارادة الحياة الجميلة والى المكان الذي يجب أن يكونوا فيه فكل تشويه للحق والخير والجمال ليس له في أدب الثورة الا الموت والاحتقار .

وكل التقاليد المختلفة الجامدة يحكم عليها أدب الثورة بالاعدام .

وان الطغاة والجلادين الذين يحاولون طمس ارادة الحياة وتفتحها ويحاولون كبح جماح زحفها المتطلع انما هم في نظر أدب الثورة حشرات سامة وأوبئة منتنة ولصوص في هذه الحياة لا يستحقون حياة أنهم في محكمة أدب الثورة جناة ليس لهم مصير لديه الا القبور .

ان أدب الثورة أدب انساني يتمتع فيه الانسان بكل الحقوق كانسان

فلا عبودية ولا ظلم ولا قهر ولا استغلال ولا استعلاء لكل انسان حريتـــه وكرامته وآدميته ، ولهذا فأدب الثورة دائما هو وحده لسان الشعوب المظلومة وحنجرة الجماهير الكادحة وهتاف الانطلاق والتقدم •

انه صوت الحقيقة المكظومة وانة الحياة التي يجب أن يحياهـــا كل انسان على هذه الارض ،

وهو بالتالي ثورة على الادب المتقوقع أو ما يسمى بالادب (البرعاجي) ذلك الادب الضيق المنعزل الذى يهرب من الحياة ويتقوقع في مكان بعيـد لا يتحدث فيه الا عن نفسه ولا يرى الا ذاته يناجيها وتناجيه •

ان الادب الثورة ثورة على أدب الابراج العاجية ، فأدب الابراج عنده أدب جبان يهرب من موجهة الحقيقة وينفر من الرسالة الملقاة عـــلى عاتقه سيما في المجتمعات المتخلفة والشعوب المبتلاة بأعداء الحريات أعـداء الحيـــاة •

ولا يجوز لادب ما في مجتمع متخلف تهيمن عليه ارادة اعدائه • أن يهرب عنه وينزوي في برجه دون أن يقوم بدوره في فضح هؤلاء الاعداء وكشف اضاليلهم وتعميق معنى الثورة في نفوس المجتمع الذي يعاني منهم كل شر ووبال •

لا يجوز للادب أن ينعزل عن مجتمه المحاط بأعدائه فانعزاله هروب عن رسالته في توعية الجماهير ودفع عجلة التحرر الى الامام ،

وانعزاله أيضا رضاء بالقبح والتشويه لمعنى الحياة ومشاركة لمعاول الهدم والتخريب التي لا يهمها الا ان تبقى ولو على أشلاء الحياة وحطـــام الوجـــود •

لهذا فأدب الثورة مصنع الجمال والحق والخير فهو لا يهرب وانما يغوص في أعماق الواقع يبارك الجمال والحق والخير ويحـــارب كل من ينحرف ويهبط بمستواها الاخلاقي الـكبير •

ورجال أدب الثورة أدباء انسانيون لان أدبهم انساني ، أدباء احتضنوا واقع مجتمعاتهم واحسوا باحساسهم ومشاعرها أدباء لم يهربوا من آلامهـا الى مكان لا ألم فيه •

ولم ينفروا عن جراحها بحيث يبقون بلا جراح .

ولم يغطوا اعينهم عما يجرى فيها من جمود عن التقدم ورضوخ للأوضاع المتخلفة وانسياق مع دعاة التاخر والتقهقر الى الوراء ولم ينافقوا بغية جاه ولم يستسلموا للذل بغية تقرب من ظالم أو مستعبد .

ولم يمرغوا جباههم على أعتاب ملك متسلط أو أمير متكبر ، ولم يرضوا لانفسهم أن يكونوا معاول هدم وتخريب في ركاب طاغية أو سلطان.

انهم جعلوا انفسهم مشاعل تمزق الظلام وتهتك استاره . لقد باعوا حياتهم للحقيقة حقيقة الخير والحق والجمال فاندفعوا في طريق الهدى عمالقة شامخي الرؤوس ينقبون عن الحقيقة ويتحملون كل تعب والم في سبيل اكتشافها ليهدوها لمجتمعاتهم وشعوبهم الرازحة تحت عقليات حكامها المتخلفة وتحت تأثير تقاليدها الموروثة وتحت نواميس الضلال والأنطواء والانعزال ، هاموا بالحرية فهتفوا لها وتغنوا بالحانها الجميلة فرددها الشعب معهم .

كرهوا الظلم والظلام فتهاوى على اقدامهم اشلاء ممزقة تبصقها وتلعنها الاجيال .

تعشقوا العدل والسلام والكرامة الانسانية فعاشوا لها واعطوها عصارة افكارهم وعقولهم لانهم كرهو ان يعيشوا بلا ضمائر لهذا فنحن نجدهم في كل شعب طلائع ثورية مهدوا للثورة وفتحوا لها طريق الانطلاق والتقدم .

فأدباء فرنسا فولتير وديدروا وغيرهم هم طلائع الثورة الفرنسية الكبرى .

وأدباء روسيا مكسيم غوركي وغوغول وتشيكوف ودوستويفسكي وغيرهم هم طلائع ثورة لينين الاشتراكية وحين قام جورج واشنطن بالثورة الامريكية ضد الاستعمار البريطاني كان قد مهد لثورته أدباء أمثال توم پين وبنيامين فرانكلين حيث كانوا بأدبهم يفضحون مظالم الاستعمار البريطاني لامريكا ويدفعون الشعب كي يناضل ويثور ويستميت .

ان أدباء الثورة في كل مكان هم المحركون للشـــعوب والمفجرون لاحقادها في وجه الظلام انهم دينمو الثورات في كل مكان ونقصد بادبـاء الثورة هنا أولئك الرجال الذين امتزجوا بروح الشعب وغاصوا في اعماقه وقدموا له من عصارة أفكارهم وخلاصة جهودهم وعيا ومعرفة سليمة بواقعه المرير واضاءوا لـه الطريق السليمة لزحفه المقدس •

انهم الادباء الذين عاشوا للحقيقة وكرســوا جهودهم لتعميقها فـي اذهان الشعب •

أما الادباء دعاة الهدم والتخريب الذي لا يقصدون بأدبهم ســوى بعث الفتن ونشر الفوضاء دون أن يستمدوا ثوريتهم من روح الشعب ومن صميم حياته فليسوا بادباء ثورة انهم آلات مسخرة في يد الشر والباطل تنخر في جسم الشعب وتدفعه الى هاوية سحيقة ليس له فيها ارادة ولا اختيار •

ان ادباء الثورة هم الذين ليس لهم من هدف سوى كشف الحقـائق للشعب والنهوض به من مدارك الجهالة والظلال كي يثور على واقعـــه المزري ويستبـــدل به واقعـا أنسانيا كريمـا • واذا كان كــل شعب من شعوب العالم يفاخر بأدبه الثوري وادبائه الثـــوريين ، فان الوطـن العربي يفخر أيضا بادبائـه الثوريين وادبهم الثوري ، واليمن كجزء من الوطن العربي يفاخر بادبه الثورى وادبائه الثوريين •

(بداية الثورة في الادب اليمني وأول مرحلة من مراحله) •

في عام ١٩١٩م ١٣٣٧هـ كان جلاء الاتراك الاخير من اليمن وســيطر الامام يحيى بن محمد حميدالدين على البلاد سيطرة كاملة وتجاوبت معه اليمن كلها لامور •

منها انه قاد المعارك ضد الاتراك وخاضهـا بنفسه حتى أجلوا عـــن اليمن وسحبوا كل قواتهم منها •

ثانيا : تنصيبه اماما شرعيا لانه من اسرة علوية فاطمية التي لا تكتمل شروط الامامة بدونها •

ثالثا : لما عرف عنه الشعب اليمني من ذكاء وقدرة على قيادة المعارك وتصميمه في جلاء الاتراك عن اليمن •

رابعا : لان الشعب والامام كلاهما يتمتع بعقليات متخلفة يرجع عهدها الى خمسمائة قرن حيث انعزل فيها الشعب انعزالا تاما عن كل ما يحدث في العالم من تطور وافكار وتجديد ومحاولات لرفع مستوى الانسان من ظلمات القرون الوسطى وبقى مسرحا للتنازع القبلي وصراع الائمة فيما بينهم فما ان يقوم امام في منطقة حتى يقوم آخر في منطقة أخرى وكل يدعي انه أحق بأخذ الامامة من غيره لخصائصه التي لا تتوفر في منافسه وكان يجد كل منهم مؤيدين ومناصرين • خامسا نكبة البلاد العربية كلها بالاستعمار وتأخرها وتحالف قوى الاطماع عليها فلم يجد الشعب اليمني من حوله الا ظلاما دامسا اينما توجه •

سادسا : انشغال الشعب بالحروب والقتال فيما بينه وفيما بينه والاتراك أخيرا مما أدى الى رسوخ العادات القبلية والتقاليد الجاهلية في نفسيته وبقى شعبا قبليا عشائري الحكم عميق الصلة بروابطه القديمة المتخلفة واذا كان الاستعمار في البلاد العربية الاخرى استطاع أن يغزوها ويدخل فيها شيئا من الحضارة فقد صعب عليه غزو اليمن لطبيعتها الجبلية وشراسة أبنائها أمام الدخيل •

لهذه الاسباب وغيرها انقاد شعب اليمن للامام يحيى وحكمه بسلطة روحية جافة متعصبة لكل قديم وكان ذكيا في قيادة الشعب بها مع ظروف أخرى كانت تساعده منها الاسباب الاولى •

وقد اعتمد في أوائل حكمه على بضعة نفر من الاتراك لتنظيم المالية والاقتصاد والشئون العسكرية فقدموا اليه مشروعات اقتصادية زراعية وصناعية كما تضمن بناء مدارس وضرورة ارسال بعثات الى الخارج لتلقي بعض متطلبات الحياة في محيط البناء والعمل والنهوض بالشعب فارسل بعثتين الى العراق ثقافية وعسكرية وبعثتين الى ايطاليا للطيران والطب نجحت الاولتان وتخلفت الاخريتان أو لم تذهبا •

وتردد في بناء المدارس ولكن بعد الحاح بعض حاشيته قام ببناء أو فتح مدرسة دار العلوم اثبت منهج الدراسة فيها على ما يريد فقرر فيها

دراسة كتب الفقه التي تتحدث عن اختلاف الفقهاء في مسائل الدين وعن آل البيت والتشيع بهم ومحبتهم ومنع كل علم حديث من جغرافيا وهندسة وحساب ولغات وغير ذلك لئلا يهتم الجيل بشيء من متطلبات القرن العشرين ومنع كل كتاب حديث اجتماعي أو سياسي في المدارس وفي السوق •

وعادت البعثتان العسكرية والثقافية من العراق وعند اعضائها المام بالتطور والحضارة في العالم وقد اكتسبو شيئا من التفكير والوعي لاساليب الحياة الجديدة •

وتخرج في مدرسة دار العلوم رجال متفقهون في الدين الا انهم استطاعوا ان يحصلوا على كتب حديثة ويطالعوها وكانوا يسمعون همسات قليلة عن تطورات العالم الحديث من خلال الحروب العالمية وما كان لديها من امكانيات حربية هائلة ومصانع وآلات لاسيما والاستعمار البريطاني بدأ يتسلل بقواته وامكانياته للاستيلاء على الجنوب اليمني المحتل ويسيطر عليه منطقة منطقة بعد دخوله الى عدن اليمنية بأساليب الخداع والمكر عام ١٩٣٩م •

ومن هنا استغل الشباب وجود مطبعة كانت للاتراك فاصدر السيد أحمد عبدالوهاب الوريث أول مجلة سميت (مجلة الحكمة) ظهر فيها لاول مرة الحديث عن الادب وعن الشعب والاستعمار وعن السياسة بصورة قليلة ، الا ان الامام رضي عنها لتحدثها عنه وعدم مناقشتها لمتطلبات الشعب بصراحة ووضوح وعدم اهمالها لما يقال فيه من مدائح وفي هذه الفترة ظهر لاول مرة شعر يتضمن كلمة (شعب) (اصلاح) وبدأ يتبلور نوعا ما الوعي بالظروف والتأخر الذي كان يعيشه الشعب اليمني آنذاك وبدأت المجلة تطرق مواضيع جديدة كان لها أثرها القيم في نفوس طلائع الشباب •

أما البعثتان التي جاءتا من العراق فقد أهملها الامام اهمالا كاملا كانت النتائج عكسية في غير صالحه فقد انضمتا الى الشباب الذين تلقوا دراستهم داخل اليمن وواصلوا جميعا السيرة الى وعي أعمق ومقارنة واقعهم

بواقع الشعوب الاخرى وعرفوا أن الامام متعصب للافكار القديمة متحجر أمام كل جديد ، ويأتي دور الادب في هذه المرحلة .

كل الادب في هذه الفترة لم يطرأ عليه شيء من التجديد الا كلمات قليلة ظهرت في المقالة والشعر ،والشعر بصورة خاصة محصور في مدح الامام أو مرثاة لصديق أو قريب أو تهنئة بمولود أو عيد في أساليب المتنبيء وابي تمام والبحتري وغيرهم من الشعراء القدماء وفي نفس الصياغة والاوصاف مع انعدام شيء واحد وهو استهلال القصيدة بالغزل كما كان عليه الشعراء القدماء ، الا انه حدث تجديد قليل في موضوع القصيدة المادحة على أيدي الشباب أمثال احمد عبدالوهاب الوريث والسيد زيد الموشكي والسيد محمد محمود الزبيري وغيرهم فقد كانوا يدعون الى الاصلاح وبناء الشعب من خلال مدح الامام تمشيا مع افكارهم الجديدة . وتبلور الوعي عندهم أكثر من الادباء الاخرين المتحجرين والمنغلقين على انفسهم ، وتعد هذه التجربة اولى مراحل الثورة في الادب .

يقول الزبيري في مدح الامام :

يا حامل الشعب الكبير بقلبه ... الشعب في طيات قلبك يخفق
جدد له عصر الجدود بعزمة ... لو مست الماضي لجاءك يشرق
لاتبنه حجرا ولكن فيلقا ... ينساب فيه للمنايا فيلق
خذ بالقلوب ففي يديك زمامها ... والقلب يقرن بالولاء ويوثق
وانشر ضياءك في سبيل حياتنا ... فمسيرنا في غير نورك موبق

(تجربة أخرى مع الامام)

وفهم الشباب الواعون محاربة الامام يحيى لهم واهمالهم ولا سيما أدباؤهم وعرفوا ان استجداء الاصلاح بواسطة المدح لا يجدي شيئا ولا يغير من عقليته المتحجرة مثقال ذرة واخذوا في مصارحته بضرورة الاصلاح وبناء مدارس وادخال العلوم الحديثة عليها والاخذ بيد الشعب الى مستوى أرفع لكنه عرف تفتحهم الفكري وتبلور عقلياتهم وتمردها على اوضاعه

البالية فالصق بهم تهمة (اختصار القرآن) ورماهم في السجون معتمدا في ذلك على الشعب الذي لا يعرف الا الامام ولا يكذبه في شيء ووقفوا أمام عقلية تعتبر التغير والتجديد والعلوم الحديثة كفرا وخروجها على مبادىء الاسلام مروقا عن الدين كما هالهم أكثر من ذلك تشديده على كل واع ومنعه دخول المجلات والصحف والكتب الحديثة الى اليمن في المدرسة أو في السوق كما حرم دخول الراديو الى اليمن وآلات الطرب لان الدين يمنع الغناء ويمنع استعمال آلة مصنوعة بأيدي النصارى يقول الاستاذ الزبيري في كتابه ثورة الشعر واصفا طبيعة المرحلة (كانت طليعة الشباب الاحرار اليمنيين قبل الحرب العالمية واثنائها يقتحمون بافكارهم الشابة المتفتحة عالما ضخما معقدا جديدا عليهم مليئا بالالغاز والاحتمالات والمتاهات هم ينتمون ببيئتهم واسرهم ومجتمعهم وعواملهم الوراثية ودولتهم الى ما قبل خمسمائة عام أو تزيد لكن كتب عليهم ان يفتحوا اعينهم على عصر آخر غير العصر الذى ينتمون اليه وان يكونوا جسرا يعبر الشعب عليه ويقطع مسافة قرون طويلة وتلك رسالة من أصعب الرسالات التي يتحملها جيل من الاجيال) •••

فكيف يستطيع الادب والادباء ان يؤدوا رسالتهم في هذه الظروف الهائلة التي أحاطت بالشعب ، ان أمامهم عقبات :

١ ـ عقلية الشعب المتخلفة •

٢ ـ استحواذ الامام على مشاعر الشعب وتمسك الشعب بوجوده والتأمين على كل ما يقوله ويفعله •

٣ ـ عدم وجود أي وسيلة في ايديهم لنشر الوعي في صفوف الشعب واذا وجدت افتراضات وجدت افتراضا فمن ذا الذي يسمح بوجودها •

يقول الزبيرى :

انه جيل محاط بعوامل ضغط هائلة من عالمين اثنين •

عالم شعبه المعرق في القدم الذى تسوده نواميس الموت والتحجر •

وعالم الشعوب العصرية الحديثة التي تلوح له بسحر حياة لا يستطيع ان يحياها بطريقة طبيعية كما هي مهما تكلف وتكيف ولو عاشها فانه بدون شك سيعيشها انسانا غير متكامل لانه سيكون مخلوقا شائها ينقصه الضمير وينقصه الخلق أيضا •

ومن هذا الواقع المرير خرج الاحرار ينصحون الامام ويصارحونه ولكنه رماهم في السجون بدعوى (اختصار القرآن) وبتهمة (الحرية) التي كان مجرد ذكرها جريمة لا تغتفر واخذ الاحرار يستعطفون الامام بالشعر لعله يفكهم من الاسر ليبدأوا تجربة أخرى ضمن محاولاتهم الاصلاحية •

يقول الزبيري :

(وقد نجح الشعر هنا في اقناعهم باننا لسنا لهم من الاعداء فاطلقوا سراح البعض بعد تسعة أشهر ولكنهم ظنوا اننا سنرضى عنهم ونتعايش معهم بمجرد ان يغدقوا علينا من أموال الدولة ومناصبها فلم يتغيروا بعد اطلاقنا من السجن في شيء ما غير الاستعداد لمساومتنا من الناحية الشخصية) •

واعادوا التجربة مع الامام بواسطة الفكر الديني الذى كان يدعيه ويحكم الشعب ويسجن ويقتل باسمه طمعا في تليينه واستجابة لمطالبهم ولكنه كان متحجرا جامدا يأخذ من قصائدهم المدح ويرمي ما في طياته من توسل واستعطاف للنهوض بالشعب والاخذ بيده فهو اذا سمع •

أنت الخليفة بعد جدك أحمد فانهض بشعبك واصلح الاحوالا

حفظ الشطر الاول واصم اذنه عن الشطر الثاني •

وقد كانت اوضاع اليمن في هذه الفترة اوضاع نفاق ومحاربة لكل تفكير وتفتح كما كانت فترة انغلاق وعدم وجود اي مفهوم للحرية السليمة في اذهان المجتمع فكما نجد معروف الرصافي الشاعر العراقي يصف اوضاع العراق في أيام المستعمرين في قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » فيقول :

يا قوم لا تتكلموا ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز الا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفاهم جانبا فالخير ان لا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا

* * *

من شاء منكم ان يعيش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة الا الاصم الابكم

* * *

واذا ظلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلموا
ان قيل هذا شهدكم مر فقولوا : علقم
أو قيل ان نهاركم ليل فقولوا مظلم

فاننا نجد نفس الاوضاع في اليمن كما نجد الادب هنا يضج بنفس الشكوى ويحترق بنفس الالم لتلافي المأساة انذاك في الوطن العربي كله لوجود التحالف الرجعي الاستعماري في الشعوب العربية وها هو شاعرنا الاستاذ محمد الزبيري يعكس لنا صورا قاتمة من المرحلة ويردد نفس الجروح في قصيدته (مصرع الضمير) .

مت في ضلوعك يا ضمير وادفن حياتك في الصدور
اياك والاحساس فالدنيا العريضة للصخور
لا تطمئن الى العدالة فهي بهتان وزور
لا تنسبن الى الثقافة فهي داعية الثبور
حطم دماغك انه يؤذي الخليفة والامير

لا تنطقن الحق فهي خرافة العصر الغرير
لا تنتصر للشعب ان الشعب مخلوق حقير
لا تطمحن فلست أكثر في الحياة من الحمير
لن ترتدي غير اللجام ولن تذوق سوى الشعير
واحذر تصدق رؤية العينين أو نبض الشعور
فاذا نظرت دجى فأعلن انه الصبح المنير
واذا ترى الشيطان عربيدا فقل ملك طهور

(تجربة أخرى)

عرف الاحرار اليمنيون تحجر الامام وجمود عقليته وانه لا يمكن ان يستسلم لمطالبهم مهما حاولوا سواء بالاستعطاف والمدائح أو بواسطة الدين وانهم لن ينالوا منه الا التعذيب والتنكيل لكن ماذا يعملون ؟ ان الشعب في أيدي جلاديه يسيرونه على ما يريدون نتيجة تغلغل حكمهم واوضاعهم وافكارهم في نفسيته ونتيجة عزلهم له وحرمانهم من كل فتح وتطور فكل تحد يقوم به الاحرار للطغاة انما يقضي عليهم دون ان يحققوا للشعب أي فائدة وانتقلوا الى مرحلة جديدة ، لقد ظهر في ايام الامام يحيى ولي عهده أحمد وكان نائبه في تعز ظهر على الاحرار وفي اذهان الناس رجلا حازما قويا متطورا من خلال ما كان يقوله من وجوب الاصلاح ونقد سياسة أبيه والتبرم من اوضاعه كما كان يرفض في كثير من الاحيان أوامر أبيه فظن الاحرار به خيرا وانقلبوا اليه في تعز يعيدون نفس التجربة •

لقد كانوا يمدحونه شعرا ويدمجون مطالبهم في مدائحهم واظهروا شيئا من التجديد في أساليب المدح لكنه خاف •

يقول الشاعر الزبيري :

(ان القضية ولدت هناك في تعز في صورة قصائد طنانه كنا نلقيها على الجماهير في محافل الاعياد الضخمة لولي العهد لقد كان عملنا يومئذ يعتبر تقدمية ونهضة وجرأة على تطوير الاساليب القديمة في الادب والشعر

وجرأة على الظهور والطموح والتبشير بوجود عصر حديث لم يكن للناس به في بلادنا علم وقد فطن ولي العهد أحمد الى هذه المغزى العميق لحركتنا • هناك كنا ندرك اننا نهز طموح هذا الرجل ساعات من الوقت ولكنه عندما يعود الى عنصره المستبد ورواسب طغيانه كان يجزع ويتألم لان الجماهير عرفتنا ولان الادباء قدموا الينا شعرا ونثرا واظهروا اعجابهم بملامح الادب الحديث • وانقلب ولي العهد على مر الايام الى طبيعته وخلع ازياءه المسرحية وصرح على الملأ بانه سيلقى الله ويده مخضبة بدماء الادباء وان من يقرؤون كتب طه حسين والعقاد والرافعي سيلقون الموت) •

لقد مر الاحرار مع ولي العهد أحمد بنفس التجربة التي مروا بها مع والده وقدموا له نفس المدائح التي تمجده وتطالبه بتغيير الاوضاع والظاهرة البارزة في أدب هذه التجربة انه قل عنصر الاطراء والمدح في القصيدة وكثرت الاشادة بالقادة الذين يصلحون شعبهم ويحاولون تطويره والاخذ بيده كما نرى في شعر الاستاذ زيد الموشكي في قصيدة الى ولي العهد ابن الامام يحيى يبدأها بقوله :

هناك يخلد من عزت به الامم … نجم تضيء به الدنيا وتبتسم

ثم يقول :

الناس حولك قد جاءوا بأنفسهم … حرصا على ان تعيد اليوم مجدهم
يهدونك الطاعة العميا لتنقذهم … ممن شكوه الى من سمعه صمم
وذاك واجبهم يابن الامام لكم … فأين واجبكم بالله نحوهم
الجهل قد ساد والامراض مطبقة … والفقر منتشر والحبل منصرم
والعالمون بمرآنا ومسمعنا … نغشاهم دوننا الخيرات والنعم
ان الخلافة قد جاءتك راضية … تهتز نحوك من شوق وتبتسم
والناس راضون والايام مقبلة … والكل متفق والشمل ملتئم
وأنت ماذا الذي تنويه ان ملكت … كفاك يوم انعقاد التاج أمرهم
هل الجهالة عنهم سوف تكشفها ؟ … وهل تزول بك الامراض والالم
وهل تبيد الاسى والبؤس عن وطن … قاسى من البؤس ما يعمي وما يصم

ثم يظهر لنا الشاعر زيد الموشكي الامل الذي عقده الاحرار على ولي العهد أحمد :

حاشاك تهنا ومن ترعاه في تعب وتستريح وفي احشائه ضرم

ومن هنا انزوى ولي العهد أحمد عن الاحرار ومكث يحاربهم ويؤلب عليهم ويتخذ معهم نفس أساليب والده وهم في صنعاء وكاشفهم بالعداء وانه لا يمكن ان يسكت عنهم ما داموا لم يكونوا كغيرهم من دعاة النفاق والاقلام المأجورة يمدحون ويطرون دون ان يتدخلوا فيما لا يعنيهم •

كان يريدهم ان يظلوا عبيدا خاضعين لجموده وتحجره وان يهيلوا التراب على تفتحهم الفكري وتطلعهم الحضاري لكنهم احرار ثوار وافكارهم وادبهم ومبادئهم ثورية لا يمكن ان يهنوا ويرضوا بواقع الشعب الاليم وان يهادنوا جلاديه وظالميه ، لقد كانوا في اوضاع تتلخص فيما يلي :-

١ - حكام متعصبون للقديم يحاربون كل جديد ينفرون من كل تفتح فكري ومن كل تجديد في أى ناحية من نواحي الحياة •

٢ - اعتمادهم على الدين واستغلاله كأداة يضللون بها الشعب ويحكمون باسمها الجماهير فما ان يحسوا بالخطر من طليعة الشباب حتى يلصقوا بهم التهم وينشروها في اذهان الشعب الجاهل تمهيدا لتعذيبهم وسجنهم أو قتلهم ، من تلك التهم (اختصار القرآن) الصقوها بالاحرار لئلا يتقبل منهم الشعب اي فكر جديد واى دعوة للتغيير •

٣ - تصميمهم على عدم بناء مدارس وتطعيمها بالعلوم الحديثة اذ فتحوا مدرسة دار العلوم ولم يقروا فيها الا الكتب الصفر وكتب التشيع وغيرها من العلوم الجامدة ليبقى الشعب متمسكا بالامامة الظالمة جاهلا لكل التطورات السريعة التي يعيشها العالم في الربع الاول من القرن العشرين •

٤ - تحريم كل وسائل التوعية الحديثة فليس هناك صحف وليس

هناك مطابع الا صحيفة واحدة ومطبعة قديمة خلفها الاتراك خاصة بالامام ونشر عفوناته وتحجره كما منع دخـــــول الراديو الى اليمن في بداية انتشارها ومنع دخول الصحف والـكتب الحديثة وحــرم استعمال آلات الطرب لئلا تنقل الانسان اليمني الى عالم آخر مستندا الى الدين فــــي تحريم الغناء .

٥ ـ تغذية النظام القبلي المتعصب والتقاليد العشائرية الجاهلية واقرار الحدود بين قبيلة وبين قبيلة أخرى وتسليط الشيخ على ابناء القبيلة وتشجيعه بمرتب يتقاضاه كل عام من خزانة الدولة اضافة الى ذلك تغذية الفـوارق المذهبية والطائفية والعنصرية .

فكيف يصبر الاحرار على هذه الاوضاع ؟ وكيف يرضون بهؤلاء الحكام ؟ وكيف يستطيعون ان يجذبوا اليهم الشعب والشعب في أيـدى طغاته وجلاديه لا يصدق الا الامام ولا يتفاهم مع أحد غير الامام وليس لهم أية وسيلة لتوعيته بواقعه وتعميق معنى الحرية والتقدم في اذهانه فمـاذا يعملون ؟

لقد وضحت المعركة بينهم وبين الحكام فالبوا عليهم الناس تمهيـدا للفتك بهم والاطاحة بحياتهم وهنا انفلتوا من قبضة الطغيان وانتقلوا بأفكارهم الثورية الى مدينة يمنية خارجة عن حكم الامامة الى عدن حيث يوجد فيها الاستعمار البريطاني في أولى مراحله الاحتلالية للجنوب اليمني المحتل .

الادب في مرحلة اليقين الثوري :

لقد اكسبت هذه التجارب الأحرار الادباء يقينا ثوريا كبيرا ووسعت مدارك الادباء اكثر واكثر وفتحت لادبهم آفاقا جديدة من التبلور والنضج كما خلقت أدبا ثوريا رائعا متفجرا بروح الشعب صاخبا مزمجرا في وجه أعداء الشعب ، فقد وصل الاحرار اليمنيون الى عـــــدن اليمنية المحتلة مطاردين ومصممين على بدء حركتهم الثورية من هناك ، وكان من بينهم السيد زيد الموشكي والسيد أحمد محمد نعمان والسيد محمد محمود الزبيرى وكلهم أدباء ثوار .

فما أن يصل الشاعر محمد الزبيري الى عدن اليمنية المحتلة حتى يحس بانه خرج من سجن رهيب تعشش فيه ظلمات القرون الوسطى حيث تلجم الافواه وتكبت الحريات وتخمد المشاعر فيقول :

خرجنا من السجن شم الانوف ... كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف ... ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة اذا دنست ... بعسف الطغاة وارهابها
ونحتقر الحادثات الكبار ... اذا اعترضتنا باتعابها
ستعلم أمتنا أننا . . . ... ركبنا الخطوب حنانا بها

وهناك في عدن اليمنية تكونت الجمعية الكبرى وكان من أعضائها أحد ابناء الامام يحيى السيف ابراهيم شارك الاحرار في نضالهم ضد أوضاع أبيه وذلك في عام **١٩٤٣** وظهرت أول صحيفة باسم الاحرار اليمنيين سميت (صوت اليمن) ومن هنا بدأ الادب الثورى يؤدى رسالته الكبيرة فظهرت القصيدة الثورية والمقالة الثورية ، لهذا نحن نلمس في الشعر الثورى انطلاقة كبيرة جديدة في ميدان التجديد فهو شعر شعبي انسانى قوى العبارة رائع المعنى نارى الاسلوب يناقش مشاكل الشعب اليمني بكل حرارة وقوة وينزل على الطغاة ضربات قاسية يوسعهم تقريعا وتهديدا ويحدد مصائرهم ويفضح اوضاعهم البالية ويستنهض الشعب لمواجهتهم ويلومه على تبعيته لهم والرضوخ لاسواطهم وأساليبهم الوحشية فنرى السيد زيد الموشكي يقول في قصيدة تزيد على سبعين بيتا يخاطب طاغية اليمن .

ستقرع بعد اليوم ندم سنا ... اذا ما فؤاد الشعب باح بما جنا
ولبى أباة الضيم أصوات هاتف ... بهم اسمعت اصواته الانس والجنا
ينادى باعلا صوته قائلا لنا ... ألا استيقظي يا أمة اليمن الوسنى
لقد طال هذا النوم حتى كأنكم ... أوى منكم الاقصى الى الكهف والادنى
ولكنه كهف شديد ظلامه ... مخوف واهل الكهف نالوا به أمنا

ألا ايقظـــوا احلامكم وتنبـــهوا — فما الغرب أولى بالعلا في الدنى منا
ألا فانهضوا فـــورا ليسلم عزمكم — وكونوا يدا كيما نذود الردى عنـــا
أميطوا جلابيب الجهالة عنـــكم — وعن عزكم واستنطقوا الضرب والطعنا
فما في الحياة الذل خير لعاقـــل — وفي موته بالعـز ليس يرى غبنـــا
أما فيكم من غيرة وحميـــة — على الدين والارحام والارض والابنا

وانطلق الادب اليمني الثورى من أحضان الضراعات والاستعطاف والمدائح فلم يعد محصورا ساجدا على أعتاب طاغية ولم يعـــد متمسحا راكعا لصاحب الجلالة ولمولانا الامام فما ان انتقل الاحرار اليمنيون الى عدن اليمنية التي جعلوها مركز اشعاع لهم وما ان تفلتوا من قبضة الطغاة بأدبهم وافكارهم وروح شعبهم اليها حتى نرى الادب اليمني يدخل مرحلة جديدة في معركة نضالية عنيفة تخلد فيها وتداولتـه الالسـن في كـل اليمن • أما الادباء الذين رضوا بان تبقى جباههم متمرغة في الاوحال وان يبقى ادبهم محنطا راكعا على أقدام الابتهالات والمدائح في امجاد طـاغية فقد انتهوا وانتهى ادبهم ودفنتهم كبريـاء الادب الثـوري في المكان الذي اختاروه لانفسهم بين الاوحال وعفونات صاحب الجلالة ومولانا الامام ولم يبق خـــالدا على السنة التاريخ تردده خناجر الثورة والشعب الا أدب الاحرار المتمردين على نواميس العبودية والذل أمثال شاعر الثورة الكبير الاستاذ محمد محمود الزبيرى •

كفرت بعهد الطغـــاة البغـــاة — وما زخرفـــوه وما زيفـــوه
وأكبرت نفسي عن ان أكـون — عبـد الطـــاغية توجـــوه
وعـن ان يـراني شـعبي الذى — يعـذب عـــونا لمن عـــذبوه
وعـــن ان يراني شـــعبي الذى — يعذب عونا لمـن عـــذبـــوه
أأجثوا على ركبتي خاشـــعا — لجثة طـاغية حنطـــوه ؟
أألعـــقه •• خنـــجرا قاتـــلا — لشـــعبي وأكثر فيه الولـــوه ؟

أتعنو لطاغية جبهتي ؟ فمن هو ؟ من أصله ؟ من أبوه

« آفاق جديدة للادب اليمني »

لقد كان الشعر في اليمن في الربع الاول من القرن الحالى محصورا في مدح طاغية أو التهنئة بمولود أو مرثاه لميت او تهنئة فقيه لفقيه بمولود أو بعيد كما كان الادب العربي كله قبل الثورة الحديثة ولكنه تخطى هذه الموضوعات في خلال الربع الثانى من القرن الحالى على أيدي فريقين من الشباب •

١ ـ بعثة ثقافية درست في العراق ورجعت •

٢ ـ مجموعة من الشباب استطاعوا ان يتأثروا بالحضارة والتطور والتجديد في الحياة من خلال مطالعاتهم للكتب الحديثة والادب الحديث في تلك الفترة رغم منعها ومؤاخذة من يستوردها او يقرأها كما اسلفنا •

وقد قلنا ان الادب بدأ يتطور على مراحل ••

١ ـ مرحلة تجارب الادباء مع الامام يحيى وولي عهده احمد وفيها اصبح الادب الثورى خليطا من المدح والثورة •

٢ ـ مرحلة اخرى اكثر صراحة من المرحلة الاولى اكسبت الادب معاني اكثر فقد كانت تناقش القصيدة فيها مأساة الشعب من ظلم وجهل وفقر ومرض وتدعو الحكام للالتفات اليها وهذه المرحلتان لم تكسب الادب الا الفاظا وعبارات جديدة اما الفنية والجمال والقوة فقد انعدمت منه •

٣ ـ اما المرحلة الثالثة فهي الطفرة الكبيرة بالادب نحو التجديد وتبدأ من بعد مطاردة الحكام الاحرار وانتقالهم الى عدن في اوائل العقد الخامس من القرن الحالي وقد قدمنا ان الادب ولا سيما الشعر خرج

بتجارب كثيرة في المرحلتين الاولين اكسبته قوة في العبارة وحرارة في الاسلوب وروعة في المعنى وتدفقا في الخيال وابداعا في خلق صور جديدة وقد تجلت هذه الظاهرة الحية اكثر ما تجلت على يد الشاعر الكبير محمد محمود الزبيري الا لان المرحلة مرحلة ثورة فقد اتسم الادب بطابع خاص هو التمرد على الطغيان وفضح أساليبه واستنهاض الشعب للثورة مع قليل من مشاركة الوطن العربي في نضاله وانتفاضاته ضد الاستعمار والاحتلال الاجنبي ولا نستطيع ان نسجل من ادب هذه الفترة الا الشـعر وكذلك بالنسبة للمراحل التالية وقد ظهرت المقالة الثورية وظهر كتاب كثير اثر صدور صحيفة « صوت اليمن » في عدن اليمنية ، الا انه ليس لدينا منهـا اي نص نعرف به تطورها ومن المفهوم ان المقالة في هذه الفترة خرجت عن أساليب الفقهاء وتمردت على اساليب الخطب من سجع الخطب ومقابلـة وتمبق بحكم الرسالة الثورية التي حملها الاحرار اليمنيون على عاتقهـم فهم يكتبون لا للفن الادبي وانما يكتبون للثورة التي تتطلب من الكاتب ابراز المأساة على حقيقتها امام جماهير الشعب وعلى اي حال فهو انطلاق بها من قوالب السجع واساليب الخطب وكتابة العلوم ففيها الوضع وفيها التناسق وفيها الموضوعية البحتة ٠

اما القصة والمسرحية او الملاحم فلم تظهر في هذه المرحلة وقد ظهرت فيما بعد ولكنها قليلة جدا والذي نعرف من ادب القصة « مأساة واق الواق » قصة للاديب الكبير محمد محمود الزبيري قص فيها احداث اليمن واوضاعه وثوراته على شاكلة رسالة الغفران لابي العلاء المعري ٠

ولم توجد المسرحية الكاملة بالمعنى الحديث لانعدام المسرح في اليمن الى اليوم فقد كان الحكام يمنعون كل شيء من اساليب التوعية حتى السينما. لم تغز اليمن الا بعد ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م ٠

(ثورة الشعر)

لقد ابتلى الشعب اليمني بالامـامة الرجعية المتعفنة منذ قـرون وقد ورث عنها جمودا في الفكر وتصلبا في العقيدة وتعصبا للتقاليد الموروثة •

وكانت هذه الامامة تحكمه بسلطة روحية دينية جامدة تدعي لنفسها انها ظل الله في الارض وان بقاءها مستمد من ارادة الله فلا يجوز ان يناوىء متقلديها احد ولا ان يلصق بها احد شيئا من المساوىء لعصمتها ومشيهـا في الطريق الاقوم وتدعي انها لا تعمل ولا تحكم الا بحسب توجيهات الله وارشاداته فكل عمل وقول منها ان هو الا وحي يوحى فهي امامة خاصة وملك لاسرة واحدة لا لوم عليها أن عزلت الشعب عن العـالم وتركته في احضان الثالوث الرهيب ، الفقر والجهل والمرض ولا لوم عليها اذا حرمت على الشعب اليمني كل نور يتسلل اليه من حضارة القرن العشرين فهي معصومة عن كل خطأ وكل ما تفرضه على الشعب من تخلف وظلام انما هو من الدين ونابع من الاسلام وقوانينه •

لقد جعلت الدين ركيزتها الاولى وعمودا لها ، فما أن وصل الاحرار اليمنيون الى عدن المحتلة حتى بدأوا في تعرية دين الطغاة الزائف فيقول الشاعر محمد محمود الزبيري

أيها الظـالم الـذي يتبـاهى　　　انه أبن الوحي او سبط طه
تشهد الناس يركعون حواليك　　　دهورا ويخفضون الجباهـا
تتوخى بان تكـون شـريك الله فيهم او ان تكـون الله
لا تبالي سـمعت انغام موسيقى تغنيـك أو سـمعت الآها
كلها لـذة الالوهية النكـرا　　　ء في سمتها وفي معناهـا
واذا جئت للمصلي رأينـاك　　　نفاقا موحـدا أواهـا
ان تكن انت مؤمنا بالـه　　　فلماذا تكون انت الالـه

وكان حكم الامامة يضلل الشعب بانه لم يبق على الدين الاسـلامي الحنيف الا اليمن اما الشعوب العربية فليست الا بلاد كفر وأباحية •

يقول الزبيري

فيا ملكا لج في بطشـــــه   وداس البلاد واخنى بهـــا
ودب لامته في الظـلام   دبيب اللصوص لاسلابهـــا
وذر الغبـــار باجفانهــــا   وصب السموم باعصابهـــا
وقال لها مصر أرض الفجور   تفيض الخمور بابوابهـــا
وبغداد عاصمـة الملحديـــن   ومكة نهـب لاعرابهـــا
وما الارض الا لنا وحدنـــا   ولكنهـم غالطـونا بهـــا

وتمضي الامامة في غيها تذبح وتقتل وتسجن مدعية ان ذلك مـن الدين وتسمي الناصح لهـا والثائر على اوضـاعها البالية « باغيا كافرا » وكانت تسمي متفتحي الافكار والمتطلعين الى حياة حضارية تقدمية تسميهم « احرارا » أي مارقين عـن الدين فتنزل بهم الضـربات القاسية وتقول للجماهير ان وحشيتها دين وقتلها وسجنها عدل يقول الزبيري

طغناته قدسـية نزلت بهـا البركات والآيات والاحـكام
عمل الورى في رأيه كفر وما   يأتيه فهو شريعة ونظـام

ويمضي في نفس القصيدة يفضح الامامة المتألهة ويكشف للشـعب فرديتها وظلمها وبطشها واحتقارها للجماهير ومجازاتهم بالاحسان والوفاء والطاعة والمؤازرة بطشا وتنكيلا •

وتذل أمتنا لفرد واحـــد   لا تستقاد لمثلـه الانعـام
نسدى له اموالنا ونفوسنـا   ويرى بانا خائنون لئـام
نبني له عرشا يسود فيبتني   سجنا نهان بظله ونضـام
كم سبحته ألســن فتجرعت   منه مذاق الموت وهـو زؤام
كم من اب واسى الامام بروحه   باتت جياعا بعـده الايتام
يمتص ثروة شـعبه ليميته   جوعا ليسمن آله الاعـلام

وكانت الامامة أيضا تحرم على الناس نصحها فنصحها جريمة لاتغتفر اذ كيف ينصح الرجل أسرة معصومة تقدسها السماء وتباركها الارض فهي أسرة منحدرة من صلب النبي عليه الصلاة والسلام ورثت عنه اخلاق النبوة وطهر الانبياء الا أنها من المؤسف أدعت لنفسها العصمة التي أنكرها النبي عليه الصلاة والسلام بحكم انه بشر يخطىء ويصيب •

يقول الزبيري

تظن السموات تعنوا لهـــا	وتحثوا خشوعا لاحسـابها
وأن النبوءة صارت لهـــا	تتيـه بهـا وبألقابهـــا
وانا عبيد خلقنا لهـــا	لنبقى سجـودا باعتابها
وليست بشيء سوى أنهـــا	عجوز تجـن بألعابهـــا
تغذى البـلاد بأســواطها	وتسقي الرعية من صابهـــا
رجالهـم عند سجانهـــا	واموالهم عند سلابهـــا
نصحت فقالوا هدمت البـلاد	وزلزلت بنيـــان أقطابهـــا
وما أنت والنصح في أســرة	تنال الســماء بأسبابهـــا
وقد نزل الوحي من أفقهـــا	وحل النبـــي بأثوابهـــا
وما الحق والعلم والعالمــون	الا قرابيــن محرابهـــا
حذار الخطابة ان السجـون	تهش اليك بترحابهـــا

ولان الدين كما قلنا هو العمـود الفقـرى لحكم الامامة فقـد ركز عليه الشعر تركيزا كبيرا فما تقرأ أي قصيدة للشعراء في تلك المرحلة حتى تجد فيها اهتماما خاصا بدين الطغاة •

وقد بدأ الاحرار في عدن اليمنية المحتلة يمهدون لثورة عارمة تكتسح الطغيان وتنقذ الشعب من ضلاله وتجاوب معهم احرار من الشباب في صنعاء فكانوا ينشرون الصحف والمنشورات ويتلقفها في صنعاء شباب يوزعونها على الشعب خفية وعلى الرغم من تخريب بيوت الاحرار أثر انتقالهم الى عدن

كبيت الاستاذ محمد الزبيري والاستاذ زيد الموشكي الا انهم قابلوا ذلك بلا مبالاة وما زادتهم اجراءات الامام التعسفية من هدم بيوتهم وطرد صغارهم منها وتشريدهم الا قوة وتصميما ومضيا في أثارة الشعب وتحفيزه واستنهاض حميته واحفاده بقول الاستاذ زياد الموشكي من قصيدة طويلة

ساد في ذا الزمان كل خميس سافل واستكان كل رئيس
أصبحت زمرة النفاق بعز •• وأولو الفضل في عناء وبوس
يابني شعبنا نهوضا فقد طال ثواكم بين ذلة ونكوس ••

التمهيد لثورة ١٩٤٨

وعندما عنفت الحركة الثورية على يد الاحرار في عدن اليمنية المحتلة بدأ التخطيط للثورة المقبلة في صنعاء وفي عدن وقد قام الاحرار في صنعاء بجذب مشايخ القبائل وتأنيبهم وتغييرهم في أمكنة سرية ودفعهم الى الثورة والقضاء على الحكام الظالمين وتجاوب معهم بعض من المشايخ بالتوعية المباشرة وانضم اليهم بعض من حاشية الامام يحيى وبعد ان ضمنوا قتل الطاغية على أيدى بعض المشايخ فكروا فيمن يرشحونه خلفا للامام •

واستقر رأيهم على ترشيح عبدالله الوزير لاسباب :

١ ـ منها مراعاة لتقاليد الشعب في القائد فقد ورث عن بيت حميد الدين ان من شروط قائد الشعب ان يكون اماما من اسرة علوية فاطمية •

٢ ـ مراعاة للقبائل المتشيعة ولأن لاسرة آل الوزير اتصالا بقبائل كثيرة يثقون بها كما قيل •

٣ ـ على الرغم من ان المرشح الجديد يتمتع بعقلية متحجرة جامدة كالامام الا انه روعي فيه ظهوره امام الشعب كما قيل كشخصية كبيرة بجانب الامام يحيى من جهة ومن جهة اخرى ليواجه الشعب برجل له مميزات الامامة في الحسب والنسب والكفاءة وقد قيل ان الاحرار ارادوا ان يجعلوا هذا التغيير كخطوة أولى في طريق البناء السياسي والاجتماعي تليها خطوات ويدرسون الشعب ونفسيته ومدى وعيه واستعداده لتقبل الثورة وكان من

ضمن الاحرار في صنعاء الرجل العظيم فضيل الورتلاني الجزائري والقائد العسكري العراقي جمال جميل الى جانب البعثة العسكرية التي عادت من العراق ولاقت من الامام يحيى كل اهمال •

لكن نجاح الثورة القادمة لم يدرس دراسة كاملة الا ان الاحرار اعتمدوا على بعض المشايخ الذين استطاعوا ان يجذبوهم اليهم وعلى ما يقال من ان المرشح الجديد له شعبية عند الكثير وعلى الوعي الضئيل الذى خلقته حركة الشباب في بعض الناس فمن خلال صراعهم العنيف مع الامام يحيى وولي عهده ايام وجودهم في صنعاء وتعز ثم من خلال حركتهم الثورية في عدن •

لكن اكثر المشايخ في شمال اليمن والمواطنين في انحاء اليمن ليس لديهم علم بأي شيء من هذه الاحداث اضافة الى أن الرجعية العربية محيطة باليمن من كل جانب •

ولم ينس الادب اليمني في تمهيده للثورة القادمة الاقلام المأجورة والالسنة الموبوءة التي مازالت تمجد طغاة الشعب وتسبح بحمده وتنسى مشكلة الوطن ومأساته واتعابه فنرى شاعرنا الاستاذ محمد الزبيري يلمح الى هؤلاء :

باعوا الضمائر للمهانة مثلما ... تبتاع للحمل الثقيل سوام
واذا ثوت بين الضلوع بهائم ... قويت على حمل العصا الاجسام
يتطاولون الى شؤون مالهم ... علم بمعناها ولا المام
لا يحسبون الدين الا انه ... عند الامير دراهم وطعام
كتبوا وما هذا الذي بمقالهم ... الا وباء في النهى وسقام
ساموا الصحائف ان تنوء بجيفة ... نفحت فظنوا انها الهام
يتشدقون فتسخر الفصحى بهم ... ويحررون فتضحك الاقلام
تالله ما عز امرؤ ودعاته ... نفر كاشباح الظلام طغام
يعفون عن طغيانه وبلادهم ... تلحى على أناتها وتلام

ويقدسون خناجرا فتحت لها ... جرحا بقلب الشعب لا يلتئم
سيحاسبون فقد دنا لحسابهم ... يوم يسوء الخائنين ظــلام
وســيندم المتزلفون ندامـة ... الوثنى يوم تحطـم الاصنـام

وظهر الادب في آخر المرحلة أدبا يتفجر ثوورة ، ومستنهضـا بقوة وحرارة وعنف الى جانب أنه أخذ في تعبير الشعب لبقائه راضخا مستسلما للطغاة بالرغم من بطشهم وتنكيلهم به وليس عندنا من النصوص الا القليل لاستشهاد ادباء تلك المرحلة عقيب ثورة **١٩٤٨** وضياع انتاجهم الادبي وليس أمامنا الا الشاعر الزبيري الذي استطاع أن يفلت من بين مخالب الطغيان ويطبع انتاجه خلال العامين الســابقين وهو بحق صورة حية لأدب المرحلة ومن ابرز ادبائها وشعرائها •

يا قوم هبوا للكفـاح وناضلـوا ... ان المنام عند الذمـام حــرام
تستسلمون الى قسـاة مالهـم ... خلق ولا شرع ولا أحكـام
ولقد صرتم ثلث قرن لم يصـن ... اعراضكم صبـر ولا استسـلام
لن يبرح الطغيان ذئبا ضاريـا ... ما دام يعرف أنـكم أغنـام
فتكلموا كيما يصدق أنكـم ... بشر ويشـعر أنه ظــلام
وتحركوا كي لا يظن بأنكـم ... موتى ويحسب أنكم اصنـام
طار الورى متسابقين ومالكـم ... في السبق أجنحة ولا أقـدام
ان لم تطيروا للسماء فكيف لـم ... تمشـو وتمشـي الشـاء والانعام

ويدعو الشعب الى التسلح بالعلم لانه الســلاح الوحيد الذى يمكن أن تقوض به عروش الطغاة وفي الدعوة الى العلم نلمس مأساة الجيل اليمني في ذلك العهد ذلك الجيل الذى اشقاه جهله وتركه ينساق للطغاة ويؤازرهم على مطاردة وسجن وقتل الاحرار طليعته الواعية المتفتحة يقول الزبيري :

علموا النشء في الحياة الصعودا ... واخلقوهم بالعلم خلقـا جديدا
وابعثوهم من وهدة قبع الاباءفيها ... دون الانـــام رقـــودا
قنعوا بالاحلام حينا من الدهـر ... فبادوا وخلفونـــا عبيـدا

لم نجد مذ جئنا الى الارض الا الجهل والليل والظلام الشديدا
ما نرى في الظهور الا سـياط العسف أو في الاقدام الا القيودا
أمة في الفلاة ضيعت النـور فضلت فيها ضـلالا بعيـدا
واستمرت في حيرة تقطع العمر ولم تلـق للفـلاة حـدودا
موهت حولها الحقائق بالوهـم فلم تلق للحيـاة وجـودا
فتجلت لها البغادث نسـورا وترأت لها القـرود أسـودا
وترى حية فتحسبها سـبحة مستغفر يطيـل السـجودا
ليس الا بالعلم يستيقظ الشعب ويمحوا عنـه الخطوب السوداء
ان في العلم بلسم العالم الرازح تحت الشقاء دهـرا مديـدا

« ثورة عام ١٩٤٨م »

في عام ١٩٤٨م انتفض الشعب اليمني بقيادة طلائعه الثورية في أول ثورة دستورية عربية تقوم ضد الملوك الرجعيين في العالم العربي كله وقضت على الامام يحيى واعلن أول ميثاق وطني في البلاد العربية وأعلن أول دستور لليمن منذ فجر الاسلام وتشكلت حكومة الثورة بزعامة الامام عبدالله الوزير وجاء الاحرار من عدن اليمنية المحتلة وقد عين كثير منهم في حكومة الثورة فماذا حدث ؟

لقد كان أمام الثورة عقبات ذكرناها فيما قبل رجعية عربية وشـعب جاهل وحكم حميدي متغلغل في أعماق الشعب ، اضافة الى أن اغتيال الطاغية يحيى الذى يقدسه عوام الشعب أثار كثيرا من الحميات الجاهلية والعقيدة المتغلغلة ، فما أن تفرق أولاد الامام المقتول في القبائل وتفلت ولي عهده احمد من قبضة الثوار الى منطقة لواء حجة حتى بدأوا في تضليل ابناء الشعب العوام واستنهاض عاطفتهم الدينية للاخذ بثار ابناء رسول الله الذين انتهك حرماتهم « الاحرار الدستوريون » وقتلوا الرجال منهم وفضحوا « نساءهم الشريفات » و « افسدوا في الشعب » .

وسرعان ما تعاونت الرجعية العربية والاستعمار مع جهالة الشعب واقطاعية وفوضائه واصحاب المصالح فيه وكتبوا للقبائل الجائعة حوالة بنهب مدن اليمن وأخذ ما فيها من تجارة واموال فاذا بنا نرى مدينة صنعاء عاصمة الثورة تحاصر ثلاثة أيام وتدخلها القبائل تنهب وتسلب بيوت المواطنين الامنين وتعتقل وتسجن كل من يأمر أولاد بيت حميد الدين باعتقاله وسجنه فما بقى بيت الا ونهب ولا متجر الا وأخذ ما فيه ولم يكتف الناهبون بأخذ الاثاث والاموال بل عمدوا الى استباحة النساء وهتك الاعراض وارتكاب أفضع الجرائم في جانب ابناء الشعب الامنين ولما أنتهى المغيرون من نهب كل شيء رجعوا الى البيوت يهدمونها ويأخذون ابوابها ونوافذها وعمت الفوضى والتدمير والخراب كل بيت وشارع وسوق فلم يراع احد من ابناء الشعب ولم تراع حرمة ولم يقم للانسان أية قيمة •

وافعمت السجون بالمعتقلين ومن بينهم الامام الجديد عبدالله الوزير وكثير من الزعماء العسكريين والمدنيين والقبليين وظهر الامام احمد الذى كان ولي عهد أبيه وقبل أن يصدر أحكامه بالقتل والذبح أصدر أمره بالعفو عن كل مشترك في الثورة وصدق الناس كذبته فظهر منهم من صدق وفر الكثير •

وهنا بدأ يقتص لابيه من رجال الثورة فقطعت الرؤوس وامتلأت ساحات الاعدام بجثث ورؤوس الاحرار الشهداء وجرت على الشوارع والأسواق في كل مدينة وتركت للكلاب والوحوش تأكلها امعانا في الارهاب والتعزيز واستوى الطاغية على عرشه وفي كل بيت مأتم وفي كل شارع جنازة والسجون مملوءة بالرجال كل منهم منتظر دعوة الجلاد ليساق الى ساحة الاعدام بدون محاكمة أو استجواب • أضافة الى هذا فقد انتفضت أحقاد الناس فيما بينهم وسيطرت على الموقف الغوغاء والفوضى فكانوا يأخذون من يريدون الى السجن والقتل بحجة أنه (دستورى حر) أي من جماعة الاحرار الذين أرادوا نقل اليمن من النظام القبلي العشائرى والحكم الفردى المتأله الى اوضاع دستورية حضارية واصبحت كلمة (دستورى) لعنة يهرب

منها كل انسان وخيم على الشعب سحابة سوداء من الرعب والخوف واستعاد اصحاب المصالح المصالح مركزا أقوى واعنف وانساق في ركاب الطغيان الرؤوس واستجابة المحارب ونهب المدن اليمنية بانه عمل انساني استوحاه من الدين و الاسلام وان الثورة ما هي الا فتنة أراد بها البغاة نقل اليمن من الاسلام الى الكفر •

وأخذ عامة الناس يرددون مع الاذناب واعداء الشعب بطولات الامام ومواقفه البطولية في أيام والده وبعدها من هذه البطولات أنه يستخدم الجن والعفاريت وأنه يصفد الاحجار ويكبل الاشجار ومنها أنه كان شجاعا متمردا حتى على والده القتيل فكان يخالف اوامره ويتحدى ارادته وسمى في بعض المناطق (أحمد الجني) بعد معركة دارت بينه وبين قبائل تهامة الزرانيق في حملة وجهه معها والده لقمع المتمردين •

ومن هنا نعرف أن حكم الامام الجديد لم يستقر الا على جثث القتلى والارهاب وافعام السجون بالرجال وعلى التنكيل بالمواطنين الابرياء ونهب بيوتهم،وتهديمها بالاضافة الى التركة التي خلفها ابوه وجده في الشعب وهذه التركة تتكون : من الجهل والفقر واستغلال الدين كسلاح يضرب الشعب به ويضربه بالشعب ثم بقاء التقاليد القديمة الامامة لها وهذه التقاليد القديمة وتغذية الامامة لها وهذه التقاليد الموروثة هي القبلية والمذهبية والعنصرية والطائفية •

والطاغية أحمد هو نفسه الذى تحدثنا عنه في أيام ولاية عهده وهو أشد وأضرى وأعنف بعد انتصاره على ثورة ١٩٤٨م وقد قام خطيبا فيجموع المهنئين له بالنصر في تعز قائلا :

(وهل ترضون بأن نخرج المعادن وننقب على البترول ونستعين بالنصارى ونحن مسلمون ؟ هل ترضون بأن نأتي بتقاليد النصارى وافكارهم الى بلادنا ونحن مسلمون ؟)

هنا أعلن للشعب عن حكمه وانه لا يمكن أن يتقدم بالبلاد أو أن يرفعها الى مستوى القرن العشرين ولا لأن يصلح من احوالها شيئا لان الاصلاح

كما يزعم لا يكون الا بواسطة النصارى الذين لا يجوز أن يمشوا بأقدامهم على أرض الشعب لانهم كفرة مدنسون .

وأعلن مرة أخرى بعد انتصاره متحديا للشعب قائلا (أنني لابد أن أنفذ أمرى ولو كان أعوج من رجل الكلب)

هذا هو الامام الجديد وهذا هو عرشه وطغيانه فماذا موقف الشعب منه ؟ أما الشعب فهو مشدود الى تقاليده وغارق في جهالته ليس بيده شيء فقد خرج من نكبة **١٩٤٨**م ميلادية وهو على ما تركه الائمة السابقون الا أنها اكسبت طلائعه الثورية الوليدة وجيله الجديد شيئا من الوعي والتفتح .

أما عامة الناس من المواطنين أصحاب المصالح والانتهازين فهم هم قبل الثورة وبعدها . لكن ما موقف الادب من هذه الفترة وبماذا خرج ؟

أدب الثورة بعد نكبة **١٩٤٨**م ميلادية

من الادباء من قطعت رؤوسهم واستشهدوا ومنهم من فروا الى عدن اليمنية المحتلة أو الى بلاد اجنبية أخرى امثال الاستاذ محمد محمود الزبيري والاستاذ عبدالكريم العنسي والاستاذ عبدالله عبدالوهاب نعمان والاستاذ احمد المعلمي والاستاذ علي عبدالعزيز نصر .

ومنهم من نجا من سيف الطاغية ومكث في السجن أمثال الاستاذ احمد بن حسين المروني وابراهيم الحضراني ومحمد بن على المطاع وظهر على أيديهم عقيب النكبة أدب مأساوى حزين يصور مرحلة يائسة مرعبة ليس فيها الا أشباح الضحاياوجثث الشهداء وهي تجر في الشوارع والاسواق والا صرير القيود والاصفاد والا الاحرار وهم في ساحة الاعدام وفي أيدى الزبانية والغوغاء اسرابا اسرابا يزجون منهم في السجون المظلمة القائمة بعد أن قطعوا المراحل وطافوا على الشوارع في سلسة تضم مجموعة منهم مشكوكة على اقدامهم ورقابهم وفي أيديهم ومغالق مقفلة لا يستطيعون أن يتحركوا الا جرا وسحبا ، يقول الشاعر الزبيري في تصوير

هذه الحالة الرهيبة :

وطوقوهم جميعا ضمن سلسلة ... من الحديد يهول الناس مرآه
يكب بعضهم بعضا بمنكبه ... وتلتقى أرجل منهم وافواه
اذا تحرك فيهم واحد صرخوا ... واستفحلت فيهم الالام والآه
كل امرىء منهم خطب لصاحبه ... يؤذيه وهو برىء حين آذاه
ضاقت رقابهمو في الغل واحترقت ... اقدامهم من رحيل طال مناه
اذا أستغاث أسير من متاعبه ... لبته بندقة الجندى ورجلاه
فن من البطش والتعذيب مبتكر ... (خليفة الله) للاجيال أهداه
سيقوا جياعا ولم يسمح معذبهم ... أن يستعدوا بزاد يوم بلواه
وسار من خلفهم جند زبانية ... اذا أتو خزية من أمرهم تاهوا
يستمنحون من الاسرى ما كنهم ... يالؤم من راح يستجدي ضحاياه

ويصف عسكري الامام

والعسكري بليد ما له فطن ... كأن ابليس للطغيان رباه

كما نرى الشاعر عبدالكريم العنسي الذى نجا من قبضة الطغيان وفر الى عدن اليمنية يسأل أحد اليمنين وقد عاد من جولة في الاقطار العربية عندما وجد هناك وهل رأى الفضائع التي تركها طغاة اليمن •

وما الذى شمت في أرض الكنانة من ظلم وجور على شرع السموات
كيف (الجباية) كيف الكشف عندهم ... كيف « التنافيذ » في جمع الاتاوات
كيف الولاة وكيف الجند حولهم ... للانتهاب وتنكيل الجماعات
ماذا بسورية صف لي وما شهدت ... عيناك بالله من من قهر واعنات
كيف (المغالق والاسكاك) ماذا ترى كيف القيود لاقدام بريئات
كيف السياط واعقاب البنادق في ظهر الهداة الميامين الطويات
وما بلبنان من ظلم ومن سغب ... ومن هناء ومن خسف وويلات
وهل هناك دعاة العلم قد عشقوا ... فن النفاق وتلفيق افتراءات
وهل بلبنان يا مولاى حامية ... عاثت ولاثت كأجاد العصيمات
ان انفذوا واحدا منهم لأرملة ... قاموا جميعا يهزون الهروات

ويصف ابراهيم الحضراني تفاهة المتصرين ونذالتهم حين قدم البطل العراقي جمال جميل أحد محركي الثورة في اليمن ساحة الاعدام فيأتي له أحد أولاد الامام فيضربه بالسوط في فمه وهو يتحدى الطغيان ويعدهم بثورة أخرى •

وسطا على الضرغام كلب أجرب   اذ صار رهن قيوده الضرغام
هلا برزت اليه (اسماعيل) اذ   لا الكف موثقة ولا الاقدام
قالوا تلبس بالجريمة ويحهم   ألِلى الملائك ينسب الاجرام
زعم لعمري يسخر التاريخ من   ترداده وتقهقه الأيام

وقد مال بعض الادباء بعد النكبة الى الرمزية فنرى أحدهم يصف المأساة في قصيدة بعنوان (النور الشهيد)

حطمت مصباحي
والليل يرزح تحت وطأته الوجود
وخنقت صوتي في فمي
وصهرت لحني في دمي
وكسرت قيثاري
والكون يصغي للنشيد
وارتميت على التراب
أبكي بلا دمع
وأنوح بالصمت البليغ
وأريق سؤر الروح
فوق حطام آمال الشباب
وأ ذيب لحن الثكل
فوق رفات اشلاء الرباب
ودعت افراحي
والشمس تدلف للغروب
والبحر ساجي الموج

يرهب ظلمة الليل العنيد
يهفو الى النور الجريح
ويدع الضوء الذبيح
والافق في شفق الاصيل
نشوان كالحلم الجميل
وأنا المعذب بالدجى والنور
حيران لا أدرى
ماذا وراء الليل ؟
الفجر ؟
لا
الفجر مقتول السنا
خنقته كف الهول
وهو يمهد فرحته وليد
يا دمعة الافق الطريد
ذوبى على الفجر الشهيد

ويصور الشاعر نفسه اليأس الذى أطبق على جماهير الشعب والخيبة التي منوا بها والضباب الذى تكاثف أثر النكبة يقول :

في هوة اليأس
حيث الافاعي السود تنفث بالسموم
والخير يجأر موثقا
والشر يزأر محنقا
أشعلت نبراسي
وجثوت اوقده بزيت عواطفي
وأصد عنه مطبقات مخاوفي
والقلب يخفق حائرا
والروح يصرخ ثائرا

الا انه على الرغم من النكبة والارهاب والتنكيل الذى أعقب الثورةفاننا نجد أدب الثورة لم يهن يستسلم ولم يخضع لانه أدب شعبي انساني ثائر ولانه دائما يعيش مع الامل يستلهم منه قوته وارادته والامل في أدب الثورة ليس الا الشعب القوى الجبار الذى لا يمكن أن يغلب أو تقهره ارادة الطغاة وجبروت الطغيان ان ادب الثورة يؤمن بالشعب ايمانا قويا كيفما كانت ظروفه ومهما لاقى الادباء الثوار منه .

فنحن نرى الشعب اليمني يشد في عضد الطغاة ويساعدهم على القضاء على ثورة ١٩٤٨ ويأتي بالاحرار الى الطغاة للقتل والسجن لكننا لا يمكن أن نفكر به لانه في ذلك كله مشدود الى عوامل تاريخية عديدة ومنها الجهل الذى فرضه عليه حكامه قرونا طويلة وعزله عن العالم واقرار كل مخلفاته ورواسبه الجاهلية العمياء ، ثم ان فشل الثورة لا ينحصر في هذه العوامل المحلية وانما عوامل خارجية كان لها أثرها الكبير وابرزها الرجعية العربية والملوك الرجعيون في السعودية ومصر أيام (فاروق) لهذا فالادباء الثوار وادبهم الثوري لم يكفر أبدا بالشعب ولكنهم مضوا في طريقهم يبنون مرحلة جديدة من الكفاح والنضال من أجله يقول الشاعر الزبيري :

وآمنت بالشعب يوم جثا — أمام الطغاة على ركبتيه
ويوم انبرى في ذهول الهوان — يرمي مكاسبه من يديه
ويوم مددنا شعاع الصباح — له فانزوى وحمى مقلتيه
ويوم عصرنا رقاب الطغاة — ذئابا علينا صلالا عليه
فاطلقهم من هوان الاسار — ذئابا علينا صلالا عليه

ويرجع أدب الثورة يحرك غضب الشعب على الطغاة ويستنفره للقضاء عليه والخروج من واقعهم المزري يقول الشاعر ابراهيم الحضراني :

حتام ياوطني اراك تضام — وعلى أديمك تعبد الاصنام
والام يرتع الطغاة ويعتلي — عرش التبابع معشر أقزام
حتام يمضي للرزية والاسى — عام ويأتي بالفجيعة عام
اليوم بالزفرات عام قد مضى — ولى تشييع نعشه الآثام

ولي وقد طعن السعيدة طعنة ... يرجى لها الاحـرار لا تلتـام
نصبت على الاعواد فيه جهرة ... جثث الاسود كأنها أغنـــام

ويقوم الشاعر عبدالكريم العنسي مستنهضا الشعب ومذكرا له بأعدائه :

انسيت الهوان اذ خلع السوط على ظهرك الجـــريح وساما
أنسيت القيود والسك والاغلال والركل والعـــرى والسقاما
أنسيت السجون تمتهن الاعـراض فيهـا وتستحـل الحـراما
وتبيد الشباب جهلا واسرا وتبيـح الثـكلى وتبـكي اليتـامى
خيم الجهل فيك فأنتفض الآن وحطـم عرش الطغـاة انتقـاما

ويقول في قصيدة أخرى

ان ياشعب أن نفك القيـودا ... وترينـا بطولـــة وصمــودا
وترى الدهر حادثا يترك الدنيا ... حديثـا مدويـــا وتشـــيدا
وتذيق العدى الحمام وتصلى مهجة الظالم العنيد وقودا

كما نجد أحد الادباء عبدالله نعمان من عدن اليمنية المحتـــلة يهنيء الاحرار السجناء بسجنهم وعملهم الجبار الذى قاموا به من أجل شعبهم في ثورة ١٩٤٨ م

هوت الصواعق وأرتمى الاعصار ... فتفجرت من جانبيه النـــــار
وتدافعت كتلا على أصواتهـــا ... البركان والهلكات والاخطـــار
فتركتموها باســــمين كأنمـــا ... فرشت لكم في متنها الازهـــار
ومشيتموا شم الانوف كأنكـــم ... قدر تهاب لقاءه الاقـــدار
سيروا وحسبكم فخار أنكــــم ... في وجه طاغية الورى ثـــوار

الادباء الشباب :

خيم على اليمن صمت رهيب ويأس خلال اربعة أعوام بعد ثورة ٤٨ لم نسمع فيه الا صرخات الادباء المشردين تأتي مدوية عالية من مهاجرهـم تستنهض الشعب وتلومه على رضوخه وبقائـه في ظلامه الـكثيف تحـت أسواط الجلادين وفي داخل الشعب وخارجه أدباء شباب يتلمسون طريقهم في الظلام يفتحون أعينهم الى خارج وطنهم فيجدون حضارة القرن العشرين

تغمر الارض خصبا وتفتحا وينظرون شعبهم فلا يرون الا ظلاما مخيفا يقفز بهم الى الوراء الف عام ويصغون فلا يسمعون فيه الا أنين الشعب وجراحه الدامية .

وتقوم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م في مصر وتنقل العالم العربي الى آفاق جديدة من التفتح والانطلاق وتصل أصداؤها القوية الى اذن كل شاب يمني في الداخل وفي الخارج فايقظت النفوس وبعثت فيها أملا كبيرا للحياة الجديدة التي يتطلبها كل انسان كما كشفت عن حقيقة الشعب العربي وانه لا يمكن أن يخضع لاية رجعية أو استعمار وأن مصيره ليس بأيدي جلاديه .

هنا رأى الادباء اليمنيون المشردون ملجأ يؤون اليه ومكان يحتمون به لمواصلة كفاحهم ونضالهم فاتاحت لهم ثورة مصر العربية الكبرى مجالا للتحدث في صوت العرب وسمحت لهم باصدار صحيفة صوت اليمن التي كانت تصدر في عدن قبل ثورة ١٩٤٨ فتحدثوا الى الشعب اليمني كثيرا من خلال الاذاعة والصحافة .

كل ذلك والادباء اليمنيون الشباب يعون ما يسمون ويتأثرون بما يشاهدون واذا بنا بعد فترة قصيرة نفتش على الادب والادباء فنجد طليعة شبابه من أقوى الطلائع الثورية أخذت رسالة النضال والكفاح الى جانب طليعة الشعب الاولى من الادباء والاحرار وتتلمس الحياة على ايديهم فنجدها شابة متفتحة مندفعة ثائرة .

أما الادب فقد احدثوا فيه ثورة كبيرة قفزوا به الى الاداب العالمية بكل قوة واندفاع ومن طليعة الادباء الشباب في شمال اليمن وجنوبه الاستاذ عبدالله البردوني ولطفي جعفر أمان وعبده عثمان وابراهيم صادق وسعيد الشيباني ومحمد الشرفي ومحمد عبده غانم ومحمد سعيد جراده ويوسف الشحاري .

(مدارس الادباء الشباب)

وقد انقسم الادباء الشباب الى أقسام بحسب البيئة التي أثرت فيهم وتأثروا بها وبحسب منابع التعليم التي غرفوا منها :

١ ـ القسم الاول أدباء درسوا داخل اليمن في مدارسها المتخلفة

وفي مناهجها التعليمية المحصورة في الفقه والفروع والكتب القديمة الا أنهم استطاعوا أن يتأثروا بالكتب الحديثة ويأخذوا منها ويعرفوا تطور الادب والتجديد فيه من خلالها اضافة انهم عاشوا في قلب مأساة وطنهم يحسون المجتمع من حولهم يائسا كل واحد من المتزلفين والمنافقين يحاول أن يتقرب الى الامام ويقدم له ما استطاع عليه من شعر أو نثر مستجديا رضاه ومغفرته •

فانساق بعضهم مع المتزلفين أول الامر فقدموا قصائد المديح والنفاق لغرض الظهور والبروز أمام الناس وقد كان أي أديب لا يظهر كشاعر أو ككاتب الا اذا بدأ انتاجه بهذه الواسطة لانعدام الصحافة الحرة ولانعدام وسائل النشر حتى برزوا وعمق وعيهم وشعروا بمأساة وطنهم تعنف من يوم الى يوم وانصرفوا عن هذى الطريق فمنهم من رجع الى نفسه يناجيها وتناجيه في أدب رومنتيكي حزين مع قليل من أدب الثورة الواقعي ومنهم من رجع الى الشعب يصف اوضاع الامام ويفضح أساليبها في حكم الشعب ومن رواد الادب الرومنتيكي في شمال اليمن الشاعر عبدالله البردوني ، وديوانه من أرض بلقيس شعر رومنتيكي حزين كله ألم وشكوى وحنين وخلود الى الطبيعة وجمالها ، وهو أول من بدأ في انتاج الشعر الغزلي بالصورة المعروفة حاليا بعد ان كان محرما وجوده في تقاليد الطغاة وكفرا وخروجا عن التقاليد الاسلامية •

٢ ـ القسم الثاني أدباء تلقوا دراستهم في الخارج واتصلوا بالحضارة الحديثة اتصالا مباشرا فتأثروا بانتاج أدبائها وشعرائها وعكسوا صور التجديد والتلوين على أدبهم •

٣ ـ القسم الثالث أدباء تلقوا دراستهم في الخارج أو في عدن اليمنية المحتلة وعاشوا هناك وهم في أدبهم كأدباء القسم الثاني تجديدا وتلوينا الا انهم كانوا أكثر تأثرا بمأساة بلدهم لوجودهم ما بين فكي رحى الاستعمار في الجنوب اليمني المحتل والامامة الرجعية المتعفنة في الشمال وأبرز أدباء القسم الثاني والقسم الثالث الشاعر عبده عثمان والشاعر

لطفي جعفر أمان ففيهما تتجلى أصالة الموهبة الشعرية والابداع في انتاجهما .

الا اننا لا ننسى هنا ان ننبه الى ان كل الادباء الشباب في الداخل وفي الخارج مع أدباء المرحلة الاولى المشردين قد اتسم ادبهم بطابع خاص لا يمكن أن ينعدم في أى واحد منهم هذا الطابع هو الحديث دائما عن مأساة الشعب اليمني فقد شدتهم اليها شدا كبيرا حتى اننا نرى أدبائنا في الخارج يشقون بالحضارة التي يعيشونها لانها في بلد غير بلدهم ولانها من نصيب أمة غير أمتهم العربية في اليمن .

ومن هنا ظهر على أيدى الادباء اليمنين في الخارج ادب خاص يمكن أن نسميه « أدب الغربة والتشرد » وهو ادب ثرى متفجع مأساوى ثائر .

كما اننا لا ننسى ان نقول أن الادب اليمني ككل أخذ يواكب التجديد في الادب العربي منذ ظهوره على أيدي ادباء الاقطار العربية الذين تأثروا بالاداب العالمية وذلك رغم العزلة المفروضة على اليمن ، وهذه المواكبة جاءت من طريقين :

الاولى : تأثر بعض الادباء بالكتب الحديثة التي بدأت تحطم الاسوار وتصل الى اليمن بكثرة رغم محاربتها ومنعها .

الثانية : تلقى البعض الاخر من الادباء تعليمهم في القاهرة وغيرها وتأثرهم بالحضارة تأثرا مباشرا .

« واقع الشعب في هذه الفترة » .

الشعب في عهد الامام احمد هو نفسه الذى عرفناه في عهد الامام يحيى واوضاعه امتداد لاوضاعه القديمة الا ان الوعي أزداد في اليمن لاسباب :

١ ـ تلاحق الاحداث والانتفاضات في الشعب ضد الطغاة ومواجهتهم له بكل عنف وبطش .

٢ ـ تلاحق الثورات العربية ضد الاوضاع المتخلفة والاستعمار وأهمها ثورة **٢٣ يوليو العربية الاصيلة** •

٣ ـ تكاثر المهاجرين اليمنيين وهروبهم من الفقر والجوع والظلم والكبت والحرمان •

أما أوضاع اليمن فتتلخص بما يأتي :

١ ـ التقاليد المتوارثة من مذهبية وعنصرية وقبلية وتعصب جاهلي وتغذية الحكام لها •

٢ ـ الدين ما زال هو السلاح الوحيد في أيدى الطغاة يضربونه بالشعب ويضربون الشعب به •

٣ ـ تصميم الحكام على عزل اليمن وفرض الثالوث المخيف الجهل والفقر والمرض على الشعب اليمني فلم يغيروا في نظامهم البالي ولم يحاولوا تصنيع البلاد أو شق الطرق أو احياء الزراعة أو اخراج المعادن أو عمارة المدارس الحديثة •

وهذا هو الواقع المرير الذى واجهه الادباء الشباب منذ نعومة أظفارهم وبدأوا في تقويضه ومحاربته فمنهم من واجهه اول الامر مواجهة متخفية وانتج ادبا قليلا في مناهضته الا ان المأساة كانت فوق احتماله فتهرب منه واستسلم لليأس ورجع الى نفسه وظهر أكثر انتاجه أدبا رومنسيا حزينا مثل الشاعر عبدالله البردوني كما قدمنا اذ نراه في ديوانه من أرض بلقيس شاعرا رومنسيا من الطراز الاول وقد قفز بالادب اليمني قفزة كبيرة في قصائده الباكية والغزلية ، يقول في قصيدته راهب الفن :

ساهر الجرح لم ينم ... كيف يغفوا على الضرم
مؤلم كلما بكى ... سخر الجرح وابتسم
لا تسل عنه أنه ... ضاع في زحمة الظلم
شاعر يعزف الشقا ... ويغنى الدجى الاصم
حار في الحب قلبه ... حيرة الصمت في القمم
راهب الفن صدره ... للصبابات مزدحم

أو قصيدة أنا ومنها :

ما بين ألوان العنا • وبين حشرجة المنى
ما بين معترك الجراح وبين أشواك الفنا

ما بين مزدحم الشرور اعيش وحدى هاهنا
لم ادر ما السلوى ولم اطعم خيالات الهنا
الحب والحرمان زادى والغذاء المقتنى
وحدى هنا خلف الوجود وخلف أطياف السنا
وهنا تبتني الحياة وما الحياة وما هنا
أنا من أنا الاشواق والحرمان والشكوى أنا
أنا فكرة ولهى معانيها التضني والضنا
أنا زفرة فيها بكا الفقر وأثام الغنا

وقصيدة • فلسفة الجراح • ومنها :

متألم مما أنا؛ متألم حار السؤال وأطرق المستفهم
ماذا أحس وآه حزني بعضه يشكو فاعرفه وبعض مبهم
بي ما علمت من الاسى الدامي وبي من حرقة الاعماق مالا أعلم
بي من جراح الروح ما أدري وبي اضعاف ما أدرى وما أتوهم
وكأن روحي شعلة مجنونة تطغى فتضرمني بما تتضرم
وكأن قلبي في الضلوع جنازة أمشي بها وحدى وكل مأتم

واذا رأينا الشاعر البردني يشكو هذه الشكوى المرة ويتقطع آلاما وحرمانا فانما يصور الفترة التي عاشها الشعب اليمني بعد نكبة **١٩٤٨** م وانينه انما هو انين الشعب المحروم الجائع لقد كان يمر الشعب اليمني بمرحلة من أسوأ المراحل بؤسا وحرمانا ويأسا وفي القرن العشرين الذى ظهرت دول العالم تفيض بالخيرات على بنيها بينما لا يجد الانسان في اليمن الا كوخه المظلم ومزرعته القاحلة اولا يجد شيئا الا الارض العراء فراشا والسماء ظلالا بينما الطغاة في قصورهم منعمون بين شهواتهم ولذاتهم لا يعيرون الشعب ادنى التفات لا يفهمون كيف يصلحون ويرفعون من

مستوى الفلاح والعامل وانما يعرفون ارسال لصوصهم من الجباة والكشاف والجنود يرسلونهم على الشعب ينهبون ويسلبون كل ما تغل الارض من ثمار ومحاصيل حتى لا يبقى للكادح أى شيء ، ولهذا فالبردوني يتأثر لمنظر شيخ متسول في الطريق ليس له مأوى ولا حياة يقول :

مررت بشبح أصفر العقل واليد — يمر على ظهر الطريق ويجتدي
ثقيل الخطى يمشي الهوينا بجوعه — واحزانه مشي الضرير المقيد
ويمضي ولا يدرى الى اين ينتهي — ولم يدر قبل السير من أين يبتدي
ويزجي الى الاسماع صوتا مجرحا — كئيبا كاحلام الغريب المشرد
ويستنهض الصوت النحيل كأنه — رفات حنين في بقايا تنهد
تراه على عكازه نصف ميت — يطل عليه الموت من كل مشهد
ويسئل أين القبر لكن بينه — وبين سكون القبر اخلاف موعد
يمد اليد الصفرا الى كل عابر — ولم يجن الا اليأس من مدة اليد
فيلقى على الكف النحيل جبينه — ويسئل هل في الارض ظل لمنعد

ثم يعكس لنا صورة المجتمع الذى يعيش فيه انذاك ويصف لنا الواقع الذى يرى الارض كلها شرا وويلات :

هو الشر ملء الارض والشر طبعها — هو الشر ملء الامس واليوم والغد
وهذا غبار الارض آهات خيب — وهذا الحصى حبات دمع مجمد
واحقاد مظلوم وآثام ظالم — وذلة مهزوم وأوزار معتدي

وهذه الابيات انما هي صورة لليأس المطبق الذى خيم على الشعب آنذاك حتى لم يبق في الارض ظل من الخير ولا بصيص من النور والامل .

وتمر فترة من الزمن وتأتي أحداث في اليمن تخرج كل أديب من عزلته وتدفعه للمشاركة في تقويض اوضاع الامامة الرجعية فاذا بنا نرى الادباء يبدأون في مواجهة الواقع مواجهة صريحة لا غموض فيها ولا لبس فقد عرفوا أن أهم ما ترتكز عليه الامامة انما هو التعصب للتقدم وتغذيةالتقاليد المتوارثة فأخذوا في مناهضتها وتعريتها أمام الشعب ليصحو من غفوته

ويستيقظ على ما تحيكه له الامامة من شر وحرمان وعزلة لهذا فنحن نرى الشاعر البردوني يخرج من عزلته ويكشف جانبا من طبيعة المرحلة وما ورث فيها الشعب من تفاخر بالجدود ومن حقائق مغلوطة نتيجة الجهل المفروض فيقول :

يابن أمي أنا وانت سواءٌ ... وكلانا غباوة وفسوله
أنت مثلي مغفل نتلقى ... كل أكذوبة بكل سهولة
فنسمي بخل لرجال اقتصادا ... والبراءات غفلة وطفوله
ونسمي شراسة الوحش طغيانا ... ووحشية الرجال بطوله
ونقول الجبان في الشر أنثى ... ووفير الشرور وافي الرجوله
ونرى أصل عامر تربة الارض ... وسعدا نرى النجوم اصوله
فنادى هذا هجين وهذا ... فرقدى الجدود سامي الخؤوله
نزعم الانتقام حزما وعزما ... وشروب النجيع حر الفحوله
لا تلمني فلم الملك .. لماذا ؟ ... يحسن الجهل في البلاد الجهوله

ويصف في قصيدة أخرى نوعية حكم الائمة ووحشيته وتحجره وتغذيته للتقاليد الجاهلية في عصر يمد اجنحته الوارفة الى كل شعب والى كل أرض .

وما حكمهم جاهلي الهوى ... تقهقه من سخفه الأيم
واسطورة من ليالي جديس ... رواها الى تغلب جرهم
ومطعمهم رشوة والذباب ... اكول اذا خبث المطعم
ودولتنا كل ما عندها ... يد تجتني وحشا يهضم
وغيد بغايا لبسن النظار ... كما يشتهي الجيد والمعصم
وسيف أثيم يجز الرؤوس وقيد ومعتقل مظلم
وطغيانها يلتوي في الخداع ... كما يلتوي في الدجى الارقم
وكم تدعي عفة والوجود ... باصناف خستها مفعم
وآثامها لم تسعها اللغات ... ولم يحو تصويرها ملهم

ويصرخ الشاعر علي عبدالعزيز نصر في وجه التفرقة المذهبية باسم شوافع وزيود فطالما أحدث الائمة بسببها صراعا عنيفا بين ابناء الشعب الواحد وأثاروا بها احقادا وضغائــن بين أبناء جـــنوب اليمن المنتمين الى المذهب الشافعي وابناء الشمال الزيديين وطالما غذوا في الشمال تقاليد القبيلة مـــن حب للقتال وحمل السلاح وصرفهم عن الارض والزراعة وسلطوهم عــلى أبناء الجنوب الوادعين في أرضهم الخصيبة بصفة .
« جنود أو عرايف »

أبدا وأقسم يا ثعالب
ان البلاد بلادنا
فيها ترعرع شعبنا
وبحبها أبد سيجتاز المتاعب
عبر القرون
ما زال يلهمنا البطولة سد مأرب
في أرضنا عشنا ومازلنا
وفيها لن نخون
عهدا سيرعاه البنون
أنا أولو بأس : وأقسم يا ثعالب
ان سوف يمحو شعبنا
ليل المتاعب
يا من تثيرون الزوابع
نحن اليمانيين كل رجائنا
في أرضنا
ان ينقضي ليل المطامع
ان ينقضي العهد الذى
بذر الشقاق
« فرق تسد »

كانت ومازالت
سياسة غاشـــم
بذر الشقاق
في أرضنا
يامن تثيرون الزوابع
هل تعلمون ؟؟
تهتم وسوف يلفــكم ليل المتاعب
أبدا وأقسم يا ثعالب
ان البلاد بلادنا
والشعب شعبي
كلنا فيها حبايب
في الجهل : في الحرمان في سجن المظالم
تحيا « ذمار »
كما تعيش « تعز »
بل تحيا « الحديدة »
لا فرق بين الظلم
في بلد تدير شؤونه أيد بليدة
لا فرق الا اننا متسكعون
متشردون نحيا كقطعان السوائم
زادى وزاد أخي البطالة والضياع
وسوى النزاع
لا شيء في ارضى فماذا تحسدون
وفي المذاهب أي شي تنكرون
هل ادخلتكم سجن حجة
أو يريم تلك المذاهب
أنا في (حريب) وفي (العزاعز)

أنا في « الطويله »
في « وصاب » أعيش
أنسانا يماني التراث
فلا زبود ولا شوافع
يامن تيرون الزوابع
والارض لم تنبت وما نبتت مذاهب

أما الادباء اليمنيون الذين تشردوا الى خارج اليمن أو درسوا فنلمح في أكثر أدبهم تجسيدا لمأساة وطنهم حتى انهم يشقون بحضارة البلد الذي يعيشون فيه ومن الخصائص التي أكسبوها في الادب التلوين في الشعر والخروج عن الاوزان التقليدية والشعر الكلاسيكي الى أساليب جديدة وهي المعروفة في الشعر الحديث بالتفعيلات كما جددوا في الموضوع وتعمقوا في المعنى أكثر وابرز ظاهرة نراها في شعرهم هي مأساة الغربة والشرد وهذه قصيدة للشاعر عبده عثمان بعنوان القيود :

أمشي ولا أعي
كأنني أمام مصرعي
أقول مقطعا
لكنني أرثي به ضياع مقطع
ياوترا يئن بين أضلعي
أخاطب الجدار والجدار لا يعي
ولا يبوح
وحدى أنا وراءه أنوح
ويا قلوبا كلها جروح
مشاعرى لا تستطيع حملها
أو تغلق الابواب دونها
كم مرة حاولت ان أكون كالاصم
نزحت خارج الحدود

فتشت عن قبو من الجليد
لكنها ظلت تشدني قيودي
يا أجرفا كأنها حبال
مشاعري مشدودة لها
لـكنني أحبها أحبها
جعلت من قلبي مواطنا لها
زرعته بالبن بالنخيل
بما حواه باوزير او تبن
زرعته أسكنت
في رحابه اليمن

كما نجد أيضا الاستاذ محمد الزبيرى طليعة شعراء الثورة في الفترة الاولى يصور لنا قصة التشرد ومأساته في قصيدة (الحنين الى الوطـــن) أبرع تصـوير وأدقه يصور لنا الانسان الثائر البعيد عن وطنه المعـذب المطارد عن شعبه وشعبه في مخالب الطغيان والجبروت •

ذكريات فاحت بريا الجنان — فسبت خاطري وهزت جنانـــي
عمر في دقيقـــة مستعاد — ودهور مطـلة في ثوانـــي
فكأن الماضي تأخر في النفســ — أو استرجعت صداه الامانـــي
ما وجـدنا وراءها غـير غابات وحـوش من الدماء قواني
لم تهوم للنوم عين ولم تهــدأ — لنا مهجة من الخفقـان
ما يهب النسيم الا وجـدنا — طيه زفـرة من الاوطـان
تحمل الطل للـــرياض وتذكى — في الحشا لفحة من النـيران
آه ويح الغريب ماذا يقاســي — من عذاب النوى وماذا يعـانى
كشفت لي في غربتـي ســوءة — الدنيا ولاحت هناتها العيانـــي
كلما نلت لـذة انذرتنـــي — فتلفت خيفة من زمانـي
واذا رمت بسمة لاح مرأى — وطني فاستفزني ونهانـــي

زفراتي طــــوفي سماء بلادي | وانهلي من شعاعها الــريان
اطفىء لوعتي بها واغمسي روحى | فيها وبردى ألحـــــاني
وصلى جيرتي وأهلي وأحبابـي | وقصى عليهمو ما دهــــاني
وانثرى في ثراهم قبــــلاتي | واملأي رحب افقهم من حنـاني
وسليهم ما تصنع الروضة الغنا | وأدواحها الطـــوال الدواني
هل رثاني هزارها هل بكانـي | ورقها هل شجاه ما قد شجانـي
وطني أنت نفحة الله ما تبرح | لاعن قلبي ولا عن لســـاني
صنع الله منك طينة قلبـــي | وبرى من شذاك روح بيـــاني
هاك ما قد طهرته لك في دمعي | وما قد صهرته في جنانــــي
شعلة القلب لو أذيعت لقالـــوا | مر عبر الاثير نصل يمانــــي

وكان أدباء اليمن في الخارج مشـــدودين بالطبع ليس الى شمالهم المستقل الرابض تحت كابوس الامامة بل والى الجنوب اليمني المحتـــل والى الوطن العربي ككل كاخوانهم الادباء في داخل اليمن فنرى الشاعر سعيد الشيباني عندما يخرج من آفاق «اشواقه المراهقة» ويصغي الى شعبه في الجنوب اليمني المحتل يصف الوحشية والقرصنة من رجال الاحتلال الانكليزي وذلك في قصيدته رسالة (تي اس اليوت) الشاعر الانكليزي الـكبير •

تعـــال
الى أرض الضنى والعذاب
أريك ما لم تـكن
من قبل قد أبصرت
عيناك في دنياك أو في الخيال
لا في الرجال الجوف لا في اليباب
يا شائخا يرثى ذهاب الشباب
تعال نفتح هاهنا في الجحيم

بابا على عينيك من ألف باب
كيما ترى ذاك (الفنيقي) الذي
أرداه ماء البحر ضد العباب
أود يا شاعري
حقا هنا أن ترى
اني يرد الجميل
مواطنا يأكل (صبارة)
وغاصبا يحرق تمر النخيل
مزارعا يجثو على ضيعة
في حقله أراده كف الدخيل
تعـــال
الى أرض الضنى والخراب
لـكي ترى عيناك نهر العذاب
نهارها المصلوب صلب المسيح
وليلها في نعمة يستريح
وليس فيها ضباب
ولا ركام الثـلوج
فالشمس في أفقهـــا
مصلوبة لا تدور
تلقى على أرض لهيب الهجير
أقدم ولا ترهب اليهـا الولوج
أرض الضنى والعذاب
مقبورة خلف سور
حراســـها
قوم غـــلاظ مغول
من أرضـــكم ـ ياشاعري ـ قادمون

جاؤا كما قالوا الينا بنور
يطاردون الليل يستعمرون
ما خرب الحادون والجاهلون
أرضي أنا يا شاعري قد غدت
من فضلكم حقا بلاد الخراب
فليس في افقها شيء يسمى نجوم
حتى عصافيرها سفاحة كالصقور

وظل ادباء اليمن في المهجر يراقبون أحداث وطنهم وانتفاضاته وبطولاته التي تتجلى من حين لاخر على أيدي ابنائه المتحدين للطغيان في قمة بطشه وجبروته والملازم محمد عبدالله العلفي عندما يتحدى مع زميله الملازم عبدالله اللقية الطاغية أحمد ويصبان عليه الرصاص فينتحر الملازم محمد العلفي عندما علم بان الطاغية لم يمت بعد ويقبض على البطل الملازم ويربط بينه وبين الملك اليمني ذى نواس الذى اقتحم بعربة البحر القيود والسلاسل لعله يعترف بزملائه المشتركين معه في الحادثة ويلاقي كل عنف وارهاب بقلب شجاع وتحد كبير فكما سجل هذه البطولة المجسمة في شخص اللقية والعلفي أدباء اليمن في الداخل نرى شاعرا في القاهرة يعيش معها ويتلظى بمعانيها الحساب ويتأثر بانتحار البطل محمد العلفي عبدالله اللقية ليتلقى على أيدى الجلادين أنواع العذاب والتنكيل والتجويع واثقال لم يجد من يتجاوب معه وهو الشاعر عبده عثمان فيقول في قصيدته (واحد من الناس) :

معذرة اذا غمست في دماك ريشتي
حلقت في سماك باحثا عن أمتي
يا فارسا ماذا تركت لي

ماذا اذن بعد الذى صنعته أقول
شوقتني للضرب والطعان
حفرت لي معارك الـــكلام
ما كنت قديسا ولا مسيح
بل واحدا كالاخرين
تثقله الانات والجروح
ونظرة تبكي وعين لا تبوح
وتمتمات ذلة وهمسة انكسار
ياليت عاصفا يمر
ياليته يحرك السحاب
يا فرحة الحقول لو يطل أب
وظل ما يلوح في طريقه
عواصفا تزيد من حريقه
الضيم والهوان
والخوف ان يقال انه جبان
والثأر أي صيحة تطارد النسيان
ما كنت شاعرا جواده الاوهام
أو طامعا طارت به الاحـلام
التاج والقصـــور
وموكب عليه تنثر الزهـور
وانما كنت السجين في القيـود
والغائب الذي يود أن يعود
يصيح في بحار التيه
وطفلنا الـــذي
يستفهم المساء عن أبيه
« أخيليا » الذي

طـال انتظاره
واستفهمت طروادة عنه الرياح
وكم وكم تشوقت الى شهيد
قيثارة تمنحه قيثـــارة
يا روعة النشـــيد
ومادرت بأن واحـدا
من حيشها المهزوم
في صدره معارك وفي عيونه وجوم
يهم أن يدمر الحدود والتخوم
وذات ليلة كادت تطل في سمائها النجوم
وكادت الغيوم أن تهاجر
صنعاء تنفست دورا حدائقا منائر
وراح ذو نـواس
يعلن باسم الشعب ساعة الخلاص
يا سيفه المصنوع من دمـا
وصوته المنسوج من رعود
لكنها ودياننا
جبالنا أضاعت الصـــدى
ولم يجد وراءه جـدار
فاقتحم البحار غاضبا حزين
لعله يلقى هناك ثائرين

وهذه قصيدة تسجل حدثا هاما في تاريخ الشعب اليمني وهو عملية تحدى الطاغية احمد من قبل الشهيد محمد العلفي ورفيقه عبدالله اللقية بينما كان الطاغية يظن أنه قد أمات الشعب وقهره ودفنه حتى لم يبق فيه ثائر ولم يوجد فيه بطل وقد كان هذا الحدث من عوامل تفتح الوعي الثـوري وتعميق معنى الثورة في نفوس الشعب اليمني وكما سجل هذا الحدث الهام

الشاعر عبدة عثمان كذلك خلدها بشعره الشاعر سعيد الشيباني فيقــــول بعنوان (دفقة الشروق) مخاطبا هذين البطلين :

كأغصن الزيتون خضرة رأيت أجنح الحمام
جوادك الذي امتطيته بلا لجـام
وضعت سيد الاقدار في مجاهل المجهول دون باب
ما عاد خالدا كما سبق
جهنم ابتنى أسوارها
لتحرق العصاه في عشية بها احترق

يا دفقة الشروق والبروق والمطر
اجتزت شائك الدروب والجبال والحفر
أقسمت لو أتوا بالشمس في اليمين
وبالشمال لو أتي قمـر
ما أنت تارك سبيلك الذي بدأت والسفر
لا يومها فكرت كيف ترسم المآب
ولا يئست رغم طعنك السماء من ظفر
يا فارسا مزقت بالمشاعل الغسق
لولاك خافق الكلمات ما خفق
ولا لسان الشعر أرسل الحروق أو نطق

وقد كان الادب الثوري بعــد الانتفاضات المتلاحقة يتنبأ للثــورة في كل يوم وينادى بها ويحفز شعور الشعب لها فلا ترى أى شاعر يتحدث عن الطغاة الا ويتوعدهم بيوم الثورة المقبل بيوم الخلاص المجيد حتى أنه يشعر الانسان من خلال الادب الثوري أنه لم يبق بين الشعب وبين الثورة الا ثوان معدودة حتى تتفجر أحقاد الشعب في وجه الطغاة والجلادين ، يقول الشاعر محمد الشرفي في قصيدة بعنوان (مع الثورة) :

روي غليلي وامسحي مدمعي
وانتفضي كالعاصف المفـزع
يا ثورة الأحرار هبي فمـــا
للحر بعد اليوم من مضجـــع
وابتسمي للنور وأمضي علـى
ومض الدم المهدور كالزعـزع
واكتسحي عنف الدجى فالمنـى
تحرق ولهان في الاضـــلع
فطالما أمتد على أفقنـــا
يأكل دنيانا ولـــم يشبع
يجتر في أعيننا حرقـــة
كالافعوان الهاجـــم المفجع
نغفو وأشباح المنـى حولنـا
ظامئة للجـــدول المترع
نحلم بالنعمى وما حلمنـا
الا سراب جائـع البلقـع
ونعبر الدرب وفي خطونـــا
ذل المهين الخائـــف الموجـــع
يا ثورة الاحرار يا من بهـــا
حلم الصباح الحـــالم الاروع
هيا فركب النور مهتاجـــه
فيه جراح الموكـب المبـــدع
وشعلة الحق تصب السنـى
في مقلة الزحف وفي المسـمع
فانتفضي في الظلم واطوي بـه
صحيفة العرش المدمي الدعـى
وطهري منه شموخ الحمـى
من رجسه من ليله الاشـــنع
وامحي ظلام الشعب دكي الدجى
لن تبقى من دنياه الا النعـــي
دعي زحوف الفجر تنساب في
مواكب الشعب ضياء دعـــي

وهكذا ظل الادب الثوري يساير الحـــركات والانتفاضات الشعبية ويسجلها ويهدد الطغاة بها حتى وصل الطغيان الامامي الى مرحلة الانهيار والضعف والخوف من الشعب اذ أصبحت أشباح الاحرار تقض مضاجعهم وتزلزل بقاءهم بلا يهدأون الى أحد الا الى مجموعة من الزبانية المرتزقة وحتى الحرس الخاص كانوا يغيرونهم من يوم الى يوم خوفا من الشعب الثائر فهم يحسون في كل واحد حقدا عليهم وفي كل فرد ثورة تتفجر في وجههم حتى بلغ بهم الحد في يوم من الايام أن أصبحوا يتهمون الخـدم والعبيد والجواري أنهم يدبرون ضدهم المؤامرات أو يقومون بأخذ الاسرار الملكية واعطائها للاحرار فحياتهم كلا حياة ووجودهم كلا وجود .

« احتضار الطغاة » :

وظل الادب الثورى في اليمن يؤدي رسالته الثورية في توعيةالجماهير ومناهضة الطغيان الامامي وفضح جرائمه وتجاوب الادب بين الادباء في الداخل وفي الخارج فوجهوه وجهة واحدة تندد بأوضاع الامامة المتخلفة وتصب عليها سياط اللعنات حتى بدأ الطغيان مرحلة الاحتضار .

وبينما كان أدب الثورة ولا سيما الشعر يقال ويتداوله الناس بصورة متخفية وبأيد مرتعشة من الخوف والرعب اذا به يواجه الطغاة مواجهة صريحة ويتناشده الناس علانية دون خوف أو وجل دون أن تستطيع الامامة وزبانيتها اتخاذ أي شيء من القمع والارهاب وقد أخذت تجارب في الفترة الاخيرة فهي اذا اتخذت أى أجراء عقابى ضد الادباء فانما تزيد الطين بلة وتضرم النار على نفسها .

وقد أذهل الطغاة وأرهبهم تلاحق الثورات والانتفاضات والتحديات من ابناء الشعب اليمني ضدهم كما أذهلهم الاندفاع الثورى وثورات الشعوب العربية من حولهم على جلاديها وطغاتها وملوكها ومستعمريها .

فكما اثرت فيهم وأقضت مضاجعهم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م الثورة العربية الاصيلة كذلك ارهبتهم ثورة العراق الخالدة في ١٤ تموز ١٩٥٨م وثورات سوريا المتلاحقة على الحكام المفسدين .

أما الثورات والتحديات لهم من قبل الشعب فقد خوفتهم وهدمت احلامهم وعرفتهم أن الشعب أقوى من طاغية وأنه لا يمكن أن يستسلم للحديد والنار فقد انتقل بهم الشعب من ثورة ١٩٤٨ الى انتفاضة ١٩٥٥م بقيادة المقدم احمد الثلايا الى انتفاضة المشايخ في عام ١٩٦٠ الى العمل البطولي الذى قام به البطلان الشهيدان عبدالله اللقية ومحمد العلفي لقد أحسوا بعنف الشعب وقوته من خلال هذه الاحداث حتى دفعت الطاغية أحمد الى الاحتجاب والانعزال في قصره وترك ولي عهده البدر يداري ويجامل ويخادع ويمكر دون أى جدوى وحتى دفعت بالعرش الحميدى وزبانيته الى مرحلة الاحتضار وهي مرحلة كان يرتكز فيها حكمهم على

أوهام ضعيفة وبقايا خوف وارهاب من ماضيهم الاسود الدامي •

ونلمس ضعف حكمهم وانهياره من خلال الادب الثوري فنحن نرى الشاعر عبدالله البردوني يأتيهم في مناسبة من مناسباتهم وفي عيد جلوس الطاغية ليخاطبهم قائلا :

عيد الجلوس أعر بلادك مسمعا | تسألك أين هناؤها هل يوجد ؟
تمضي وتأتي والبلاد وأهلها | في ناظريك كما عهدت وتعهد
ياعيد حدث شعبك الظامي متى | يروى وهل يروى وأين المورد
حدث ففي فمك الضحوك بشارة | وطنية وعلى جبينك موعد
فيما السكوت ونصف شعبك هاهنا | يشقى ونصف في الشعوب مشرد

ويتحدث عن الثورة الكامنة في نفس الشعب :

ولقد تراه في السكينة انما | تحت السكينة غضبة وتمرد
تحت الرماد شرارة مشبوبة | ومن الشرارة شعلة تتوقد

ويرمي الطغاة بهذه القذيفة على مسمع منهم ومرأى :

فليكبت المستعمرون بغيضهم | وليخجلوا وليخسأ المستعبد

ويتحرج الشاعر قليلا من مهاجمتهم فيحاول ان يتخلص من المأزق ولكن بعد أن صب عليهم سياط الثورة خوفا من انتقامهم أو تخفيفا من العقاب فيما لو أخذوا عليه هجومه فيقول :

فالشعب يطغى كالسيول يقوده | ملك كأن الشعب فيه مجسد
ملك اذا انتضت الحسام يمينه | لفظ المنية والحسام هو اليد

ولكنهم لم يتخذوا معه اجراءا عقابيا خوفا من اضرام السخط عليهم وزيادة حقد الجماهير على تصرفاتهم فأي تصرف عقابي لا يزيد الثورة الا عمقا ولا يزيد حقد الشعب الا تأججا •

وكانوا يسمعون هتاف الثورة من فم الادباء فلا يعملون شيئا يسمعون الشاعر محمد الشرفي وهو يقول :

يا أخي لاتنم على الظلم وانفض | مرقد الذل والكرى الفضاح
وانطلق في الظلام كالعاصف الجبار | كالموت كانطلاق الرياح

وابتسم للمنون يبسم لك الحلم ثغورا على وميض الكفـــاح
وانهل العز من ميادينك الحمر فحمر الدماء مرقى النجـــاح
لا تدع عصبة اللصوص بدنيـــاك جحيـــما من العـــذاب الماحي
تخنق الفجر في صـــدور الملايـــين وتهـــنأ بحقهـــا المستبـــاح
فاستفق للكفاح فالشعب أن ثار انتهى كل ظالم ســـفاح

أو يقول مثلا مندداً بالمتزلفين من الذين كانوا يمرغون جباههم في مدح طاغية ويعتصرون افكارهم شعرا للتحدث بأمجاد جلاد في المناســبات والاعياد كذبا وزورا ونفاقا :

بدعة الذل ان تراني أهنـــــي تاج لص بسيغ أكلي ودفـــي
لست يا عيد مادحا من أراه شدق وحش يقتات جرحي وحزني
يكتسي سندس الملابس في العيد وجسمي من لفحة الشمس محني
وأبنه رافل على ملعب الصـــفو وأبني لم يبـــلغ القـــوت مـــني
وأنا في الجراح أشكو من البؤس وأطوى من شقوتي الف لـــون
وطريقـــي مرصع بالجراح الحمر بالشوك بالشـــقاء المعني
هل أهني ياعيد عرشا من الظلم تراخى في عيشه المطمئن
لو رآني (قرشا) لأخمد انفاسي على لمعـه وأغمـض جـــفني
أو رآني أكابد الموت لارتاح وأنهي بقية الروح مـــني
فرحة العيد عنده ذلة الشعب وان ينطوى على كل سجن
ولذيذ الحياة ان يلمح الحر على سيفه بقية مفني ...

وتتحد وجدانات الادباء في داخل اليمن وخارجها ويعبرون عن هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الطغاة في شعرهم تعبيرا صادقا فيه أرهاص بالثورة وفيها وعد للشعب ووعيد للجلادين فيصرخ الشاعر سعيد الشيباني مـــن القاهرة مهجر دراسته في قصيدته « النور والديجور والفجور » مبشـــرا بالثورة المقبلة :

ناديـــت :
لكن صوتي الذاوي يموت بلا رجيع

يا شمس أيلول الجميلة
روح « الوار »
ماياكوفسكي
هل ضن الصبـــاح
أن تطلعي حتى ولو بعد الغروب ـ ولو شعاع
صنعا تموت تموت في ليل الرياح
ضاعت منائرها مع الاصدقاء مذ ضاع الصباح

وبعد شكوى عنيفة من طول الليل وجبروت الظلام في قصيدته الطويلة يقول أخيرا تحت عنوان النداء الأخير :

ورجعت أصرخ من جديد من جديد
يا شعب يا غابات أزهار وسور من حديد
قم واشعل الشمس السديمة من لهيب الجرح
يا صحو النشـيد
يا شعب يا بركان فيزوف
متى بشراي يوم الاندلاع
هذي موانينا ببحر الشوق تحلم بالشراع

أما الشاعر الكبير عبده عثمان فيصرخ من القاهرة بهذه الصرخـــة المدوية في قصيدة بعنوان ((عندما نلتقي)) :

لابد أن يعود « ذويزن »
ونلتقي في مأرب وحضرموت في عدن
يا صرخة التراب ياوطن
غدا ترى سنابك الخيول
تدوس آلهه
وتنتهي حكاية الدخيل أبرهه
وتختفي عيون ليلة المشوهه

ويقول فيقصيدة أخرى بعنوان (ليس الا الثورة) مخاطبا الشعب وفيها

صوت الثورة العميق وقوته وتفجره العنيف :

بالله أما قاسيت الموت
ما عطشت روحك للدم
اني أدعوك لشرب الدم
أشربها خمــرة
أشرب وأبن اليمن الحره
فوق الانقاض
فوق قصور الاســياد
يا شعبا يا جيشا ما وجد القاده
اني أدعوك الى الثوره

ولم تمض أيام بعد تدهور العرش الامامي وتضعضعه ومرحلةاحتضاره حتى تتحفز المشاعر وتستعد لثورة قوية مجتاحة وتحركت ضمائر الشباب من الضباط الاحرار وهبوا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م في ثورة اليمــن الخالدة يحطمون قصور الامامة الرجعية المتعفنة ويعلنون ارادة الشــعب واهدافه العربية الاصيلة •

ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ :

كانت ثورة ٢٦ سبتمبر هى الثورة الحاسمة في تاريخ اليمن الحديث فقد قامت في أعقاب ثورات وانتفاضات كثيرة أكسبتها تجارب واكســبت الشعب وعيا ثوريا وأعدت له طليعة قوية من الشباب المثقف والضباط الشباب الواعي وتجاوب مع الثورة كل الشعب اليمني في شماله وجنوبه على الرغممن الظروف المحيطة به من الرجعية والاستعمار التي ظهرت بعد أيام من قيام الثــورة •

ولا ننسى هنا أن نقول شيئا وهو ان الجنوب اليمني المحتل بما فيه عدن بصورة خاصة أصبح بعد قيام ثورة الشمال اليمني بركانا ثائرا على المستعمرين والعملاء فما أن سمع ابناء عدن والجنوب اليمني ثورة الشمال

في صنعاء على الامامة الرجعية حتى التهب دم التراب الواحد وتحرك وجدان الشعب الواحد وتمردت وحدة اليمن الطبيعية فاذا بهم يهبون هبة رجل واحد لمؤازرة الثورة ومقاومة الرجعية والاستعمار وحمايتها من كل عدو وأجنبي مؤمنين بأن الثورة اليمنية هي ثورة الجنوب والشمال وانها ثورة على الرجعية والاستعمار متحدين بذلك الاحتلال البريطاني ساخرين بارهابه وطغيانه •

ومع فجر يوم الخميس في ٢٦ سبتمبر نرى الادب يتحرك لمباركة الثورة ويهنيء الشعب بثورته وفجره الجديد ففي الساعات الاولى التي نسمع فيها أصوات الثوار يعلنون مبادىء الثورة واهدافها نسمع في الوقت نفسه الادب جنبا الى جنب •

وهذه قصيدة للشاعر محمد الشرفي بعنوان (أنا الشعب) أذيعت من راديو الثورة في صباح يوم الثورة :

أنا الشعب زمجرة من رعود ... واشودة في شفاه الخلود
اذا احتدمت ثورتي فالطغاة ... بقايا رماد على كل بيد
اضمد جرحي بجرح جديد ... وامضي لارساء فجر جديد
خبرت الرزايا ورضت الصعاب ... وجزت الحتوف وصمت اللحود
ولقنني الدهر من بطشه ... معاني الطموح وبأس الصمود
وعرفني من أنا فانتفضت ... وحطمت سجني وقيد ركودي
والهبت عزمي بجمر الجراح ... واشعلت حقدي بعزمي الحديدي
وأومأت للشعب ان تستريح ... وترقب مني اجتياح السدود
وأن تنظر اليوم ما أبتني ... لنفسي من المجد رغم القيود
وما أصنع اليوم من معجزات ... تنوء بأعبائهن حدودي
فحسبي انحناء لسوط اللصوص ... وحسبي رضوخا لحكم العبيد
فلا الصمت من خلقي لا ولا ... سجود الجباه طبيعة عودي
قرونا تمزقت فيها على ... مخالب ذئب ووحش عنيد
ودارت على كؤوس الحتوف ... دهاقا وعانيت كل شديد

وما اليوم الا التهاب القرون وبعث الحقوق ونفض الرقود
أنا الشعب لم أنته لم أمت وفي اضلعي عاصف من وقود
ولم استكن والصباح الجميل على مقلي قبل من نشيد
أأعفو الا أنها وصمة وكفر بحق ورفض عهود
وما هجعتي في جراحي سوى جحود بآمال يومي المجيد
مشاعل نوري تنير الطريق فهل أنحني للظلام البليد
ساسخر بالظلم والظالمين بما حشدوه لسحق وجودي
أنا الشعب لن تستكين الشعوب ارادتها فوق كل مزيد
صراخ الملايين نور الحياة على كل شعب ومرقى الصعود
وحقد الجماهير نار تثور وفجر يرف واحلام عيد
أنا الشعب أن ثرت صار الدجى بكفي أشلاء عمر فقيد
صنعت العروش أنا وأنا أمزقها لعنة في الوجود
وما العرش لولا أناما الملوك وما هم سوى طغمة من عبيد
فدمعي أنا سود الخائنين وشدت كراسيهم من جهودي
سأغسل أدناسهم من ثراى كما تغسل النار رجس الحديد
تمادوا باجرامهم وانتهت مخازيهم السود في لا حدود
وشادوا القصور العراض الطوال وساموا دجى الكوخ ذل السجود
وعاشوا على شقوة الكادحين ودمع الثكالى وجوع الوليد
وناموا على أنة المتعبين وحزن الاسارى وشكوى الطريد
أنا الشعب لم استكن للطغاة ولم يطفىء الظلم مني وقودى
فلن أقف اليوم بين الدموع أقبل لصي وأهوى مبيدى

وكما تحدث الشاعر محمد الشرفي في يوم الثورة تحدث كل الادباء أمثال الاستاذ عبدالله البردوني وعبده عثمان وسعيد الشيباني وعلي بن علي صبره ويوسف الشحارى واحمد الماخذى وعبدالرحمن قاضي وتغنوا بالثورة المجيدة وجسدوا في شعرهم قوة الشعب وجبروته وأنه لا يمكن أن يستكين للطغاة مهما تسلطوا ومهما تجبروا ومد في عمرهم طغيانهم

يقول عبده عثمان في قصيدة بعنوان « عندما يتكلم الشعب » :

كان السكوت كأبواب مسمرة — وراءها يختفي سر ويعتصم
بالليل يلقي وشاحا من غلائلـــــه — فيرتديه حقول الكرم والقمـم
حتى اذا ومضت في الأفق بــادرة — فاجفل الصمت والاطراق والظلم
تساءل الشارع المذعور في عجـــب — من فارس الليل ؟ ما الاتي ؟ أيانقم
ولم تمر ساعة الا وقد نطقـــت — مرارة الامس والاحقـــاد والالـم
تلفت القصر مأخـــوذا على لهـب — على دوي على الجدران تنهـــدم
على طريد دعا أفراد حاشـــية — فلم تجبه ولم تسمع له خـــــدم
فلاذ بالكوخ بالاحـــراش معتصما — فيصرخ الكوخ في عنف ويحتـــدم
لم يبق في الارض في الدنيا لكم وطن — ولا حمى أرضي السماء غدى لكم
يامن رقصتم على أشلائنا زمنـــا — أليس من دمنا قد وقع النغــــم
موتوا لتحيا على عز وفي شـــرف — تلك الجموع التي بالحقد تضطرم
اليوم قد بعثت واسترجعت نفســا — فهبت اليوم تفنيكم وتلتهـــــم
آمنت بالشعب بركانـــا وعاصفـة — ريحا تهاوى على اصدائها صنـــم
اليوم قد علموا بالامس ما جهلـــوا — وقد رأوه وداستهم له قـــــدم
أني أراه وكل الناس تســـمعه — أحنت له دول وصـــــفقت أمم
اني اراه يسبر فـــوق مقبـــرة — تحكي لمن لم يزل في سمعه صمم
وأقبل الفجر مختال الخطى مرحا — يوزع النور والافـــاق تستـــلم
وصفقت قبب راحت مآذنهـــــا — تعانق الشمس في شوق وتبتسم

ويصف الشاعر عبدالله البردوني التقاء ثوار القاهرة بثوار صنعاء في يوم ٢٦ سبتمبر مبادئا واهدافا وثورة :

والتقوا يغسلون بالنار دنيانـــا — ويمحون بالـدم الاوحـــالا
واضاءوا والليل يبتلع الشهـب — وأم الهلال تطـوى الهـــلالا
فتناغى ومض المــآذن ماذا — أي فجر أشتم فيـــه بــلالا

والرؤى تسأل الرؤى كيف ضج الصمت واستفسر الخيال الخيالا
من أطلو كصحو نيسان يكسون الربى الجرد خضرة واخضلالا
ومضى الثائرون يفدون شعبا يتحدون باسمه الآجالا
كالقلاع الجهنميات - ينقضون يرمون بالجبال الجبالا
ويشبون ثورة رمت التاج وهبت تتوج الاجيالا
ومشت والشروق في خطوها الجبار ينثال في الدروب انثيالا
ومددنا المنى فكانت عطاء سرمديا تجاوز الآمالا
فظفرنا الى الحياة كموتى دفعتهم قبورهم أطفالا
وبدأنا الشوط الكبير وأعددنا لاحداثه الكبار « جمالا »
واهتدينا به فكان دليلا وأبا يحمل الجهود الثقالا
وبلونا فيه أخا لم ترده لهب الحادثات الا صقالا
ودروب الكفاح تنبيك عنه كم طواها وأتعب الاهوالا
وثنى الموت في القتال والقى في أساطيله الحريق ارتجالا
وزمى الغزو والغزاة رمادا تخبر العاصفات عنه الرمالا
وفلولا تكابت الروح فيها مثلما تكبت العجوز - السعالا

ويأتي صوت من القاهرة من الشاعر اليمني سعيد الشيباني يتساءل عن الحدث الضخم وماذا يسمع في وطنه اليمني وماذا يحس من يقظة واصداء وماذا حدث ؟ لقد أذهلت ثورة ٢٦ سبتمبر (ايلول) كل أبناء العروبة لانها قامت في وقت وظروف ما كان ينتظر أن تقوم فيها يقول سعيد الشيباني في قصيدته بعنوان « صحوة الجماهير » :

دع المحبين واخبرني عن اليمن هل قام من قبره «سيف ابن ذي يزن»
أم ذو نواس أعاد الخيل صاهلة من رحلة التيه في الاباد والزمن
أم جيش بلقيس قد ثارت هوائجه غضبان (حمير) كالاطواد كالقنن
الله أكبر يا صنعاء ما صنعت يداك بالظلم والطغيان والفتن
دكت عروش الأُلى ظنوا بأنهم هم الخوالد عبر الدهر في اليمن

ظن الطغاة بان السوط يخضعـــا نسوا بأن قناة الشعب لم تلـــن
وان شعبي طوال الدهر أجمعــه لم يرتض الظلم لم يخضع ولم يهن
تلكم جماهيرنا نـــار مدمـــرة تحرق الظلم في سهلي وفي مدنـي
وارسلت من عبير البن موجتــه تذرى بكل بقايا التاج من عفـن
بوركت ياشعب يا جبار يا جبلا من الجماهير تحمي ثورة الوطـن
سيلا من النار والبركان محـرقة طقوس ما خلقت أسطورة الوثـن
ياصوت صنعاء قد هيجت بي‌شجني ياشوق قلبي الى أهلي الى يمنـي

هذه نماذج حية لادب الثورة اليمني وفيها واكبنا الثورة اليمنية من أول مراحلها وكيف بدأت وكيف تطورت في نفوس الجماهير وكيف كان الشعب اليمني ينتقل من ثورة الى ثورة ومن انتفاضة الى انتفاضة متحـديا طغيان الامامة ساخرا بأرهابها هازئا بجبروتها وبطشها وأن القارىء ليلاحظ أن أدب الثورة اليمني سجل حافل لهذه المراحل كلها وقد كان الشعر هو المتنفس الوحيد الذي سجل لنا كل شيء عن الطغاة وأساليبهم في الحكم كما صور لنا عقلياتهم المتعفنة ومبادئهم الرجعية والمتآكلة ، كما أنه واكب الاحداث الثورية فلم تفلت منه حادثة ولم يترك انتفاضة أو ثورة الا وسجله لهذا فيمكن أن نقول ان الشعر سجل لتطور الحياة في اليمن كما كان الشعر الجاهلي سجلا حافلا للحياة الجاهلية ، ولم نحاول أن نتعمق في دراسة الادب الثورى في اليمن والظروف المحيطة به والملابسات الموجودة لضيق الوقت وصغر البحث وعلى أى حال ففي الفصل نماذج هامــة قد تدل المتعرف أو الباحث على أدب الثورة في اليمن بصورة خاصة وعلى الادب بجميع مذاهبه بصورة عامة فهناك من الادباء العرب من ينكر وجود أدب يمني والسبب في ذلك انعزال اليمن اكثر من سبعين عاما عن العالم وعدم وجود الوسائل الممكنة لنشر انتاج ابنائها الادبي ونبات أفكارهم الفنية فمما لاشك فيه ان الادب اليمني يبدأ تاريخه منذ بداية العصر الحديث ولا نستطيع أن نقول أنه تخلف كثيرا عن الاداب الحديثة والتجديد والتطوير

في الادب ، انه أخذ يواكب التلوين والتجديد ويتأثر بانتاج الادباء المعاصرين العرب والعالميين رغم العزلة ورغم التخلف الذي فرضه الطغاة عليه وانعدام المدارس فيه وذلك من خلال مطالعة أدبائه للكتب الادبية الحديثة والادباء المعاصرين وفي الفصل الثاني سنبين ارتباط أدب الثورة اليمني بقضايا الوطن العربي وقضايا الانسان المعاصر وموقف الادب العربي ـ اليمن خاصة منه ـ من المجتمع العربي الجديد ومدى التزامه بقضايا الانسان العربي المعاصر وقد حاولنا التركيز على الشعر اليمني واضعين ضمنه بعض نماذج للشعراء والشاعرات في الوطن العربي وجعلنا موقف الشاعر اليمني الثوري نموذجا للاديب الثورة العربي في كل الاقطار العربية •

محمد الشرفي

عضو وفد اليمن في مؤتمر الادباء العرب

في دورته الخامسة

ويقول في قصيدة أخرى :

مستغل الاسلام حتى كأن الدين يبدو كسلعة (أحمديه)(*)
وكأن الشرع الشريف كما شاءت امانيه للمخازي مطية
وكأن الاله ـ حاشاه ـ في « صالة » (عكفيه)(*) بلا ماهية

أما رواد المدرسة الابداعية (الرومانسية) فقد انجرفوا وراء تيار ذاتي وانعزلوا عن المجتمع بل جعلوا المجتمع مطية للوصول الى اهدافهم ، وهكذا نجد الشاعر لطفي جعفر امـان في ديوانـه بقايا نغم ـ (والدرب الاخضر) و (كانت لنا ايام) وهو آخر دواوينه ، ففي قصيدة (أنا لست وهما) يقول لطفي :

علي عتبات الليالي يجد بي
أراقت يد الفجر آخر قطرة ضوء
على رمل دربي
فاقفلت شباك قلبي
فاظلم حبي
ومات وقد كان ربي

وعكسا على ما سبق نجد الفئة الثالثة أي رواد الشعر الواقعي الذين لم يقنطوا من الشعب رغم المآسي التي يعيشها ورغم القيد والسجن والسجان فنجد الشاعر عبده عثمان يقول :

ياليل يانعشا هنا ، وحدي وراءه أنوح
ويا قلوبا كلها جروح
مشاعري لا تستطيع حملها
أو تغلق الابواب دونها

(*) منسوبة للامام (أحمد)　　(*) عكفية رتبة عسكرية (عكفى)

الفصــل الثاني

الثورة والمجتمع العربي الجديد

بقلم : سعيد الشيباني

يظل وعي الانسان خاليا من كل مضمون حتى يحتك بالعالم الواقعي ليجد محتواه مستعينا بالتجربة ويفقد الفن كل محتوى منذ اللحظة التي ينفصل عن الواقع ولكون الفن ذاته معتبرا شكلا من اشكال الوعي الانساني، فقابليته لعكس الحقيقة بصورة موضوعية يغدو أمرا اساسا وانعدام الهدف الواضح للفن يدل دلالة واضحة على المعرفة السطحية للعالم وما لم يفهم الفنان جوهر الواقع وجوهر الاشياء فان انتاجه الفني يغدو بلا أثر ولقد خدم الوجدان الاجتماعي المجتمع الانساني كسلاح للنضال ضد الطبيعــة وضد الواقع الاجتماعي الجامد لدفعه الى الحركة بواسطة الممارسة التعبيرية عنه والمواقف الايجابية ومن جهة هذه النظرة سوف تنظر الى الادب العربي وفي القطر اليمني خاصة وسنناقش معنى الثورة في الادب والثورة في الادب التي أريد أن أناقشها هي ما يدعي في المجال الفني (بالالتزام) ولست أعني أن هناك أدبا ملتزما وأدبا غير ملتزم بل ان كل أدب هو ملتزم ولكـــن الالتزام ليس التــزاما مجتمعيا بل هـــو التــزام طبقــي ففنانــو كــل طبقة اجتماعية يلتزمون الدفاع بانتاجهم الفني ـ عن واقع طبقتهــم ضد الطبقة الثورية النامية وكما يصح هذا على الواقــع الرأسمالي يصــح أيضا على الواقع الاشتراكي فادب ـ أو بصورة أعم ـ فن النظام الرأسمالى يلتزم الدفاع عن الرأسمالية ضد الاشتراكية والفن الاشتراكي يدافــع ـ عن طبقة العمال والفلاحين والكادحين ضد الطبقة الرأسمالية ويكــون القانون العام للفن هو أن كل فن هو فن طبقي ولن يكون هناك فن من أجل الشعب كله الا في المرحلة التي يكون المجتمع كله طبقة واحدة .

واذا نظرنا الى الفن بكل فروعه في الوطن العربي لوجدنا أن القانون

العام الطبقي للفن ينطبق على الادب العربي فهناك مدارس فنية طبقية ومن هنا سننطلق لتحديد مفهوم الثورة في الادب ومدى اتحاد الادب بالواقع العربي والواقع الانساني وسنأخذ القطر اليمني من خلال انتاج أدبائه كجزء لكل في الوطن العربى وما يحل بمشاعر الادباء لكل حدث أو فعل مجتمعي في العالم العربي وفي العالم •

فرض النظام الاقطاعي سيطرته السوداء على الشعب العربي في اليمن خلال خمسين عاما على الاقل فجمد كل شيء في سبيل آن يطول به البقاء ولكن القانون العلمي يقول ان كل شيء متحرك في ذاته وان بدأ جامدا •

وهكذا كان الشعب اليمني متحركا في صمته فكانت حركة الاحرار في سنة ١٩٤٨م ولكن الحركة لم تكن ثورة بالمعنى العلمي بل كانت ثورة الاقطاعيين المتحركين ضد الاقطاعيين المحافظين ولم تنجح الحـــركة لان الشروط الموضوعية الخارجية « واقع العالم العربي وواقع العالم » ـ لم تكن متوفرة كما أن الشروط الذاتية الداخلية للمجتمع اليمني لم تكن متوفرة ولهذين السببين فشلت الحركة في عام ١٩٤٨ وكذلك سنة ١٩٥٥ وعلى عكس هذا كانت ثورة ٢٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٢م •

وقد سبق في الفصل الاول تحليل الوضع الاجتمـاعي والسياسي في القطر اليمني خلال هذه المرحلة التي تعتبر تطبيقا لاوضاع العصور الوسطى في اوربا فقد كان المسجد أشبه تماما بالكنيسة وكان اللاهوت يسيطر على كل شيء وبنيت المساجد وهدمت المدارس وانتشر المرض واقفلت المستشفيات وأنهكت السلطة الاقطاعية الشعب بالضرائب فهاجر الى خارج اليمن باحثـا عن الرزق وهاربا من مواجهة واقعه فكانت المأساة وكان الادب في اليمـن ـ أعني الشعر فقط حيث لا يوجد غير الشعر وانتـاج الادب خليط من شعر البلاط ، ونفثات أنينية صامتة لا تسمع ولا تتعدى أذن صاحبها •

الثورة والمجتمع اليمني :

نعني بالثورة ـ التغيير لكل المجتمع تغيرا كيفيا والا اعتبرناها اصلاحا لا ثورة واذا طبقنا هذا المفهوم على الادب العربي في اليمن مثلا لوجدنا أن

الادب ـ الشعر ـ في اليمن لوجدنا الشعراء ينقسمون في انتاجهم الى ثلاث فئات كل فئة تعبر عن الثورة بمقدار فهمهما لها :

الفئة الاولى : المصلحون الاجتماعيون السلفيون : وهم شعراء المدرسة الاتباعية •

الفئة الثانية : الذاتيون المنفصلون عن الواقع : وهم شعراء المدرسة الابداعية •

الفئة الثالثة : الثوار : وهم شعراء الواقعية •

فنجد رواد الشعراء الاتباعيين يناضلون بشعرهم من اجل اصلاح المجتمع على اساس ديني يطبق الشريعة الاسلامية الغراء ، ويرون أن انحراف الحكم عن الدين الصحيح هو مصيبة البلاد وان اصلاح الواقع وتحريكه لا يمكن أن يكون الا بتطبيق الشريعة الصحيحة والرجوع الى الكتاب والسنة ، وكان هؤلاء الشعراء يثورون ضد الاقطاع المحافظ الجامد في سبيل تحريكه ويأتي على رأس هؤلاء الشعراء الشاعر الكبير الاستاذ محمد محمود الزبيري وابراهيم الحضراني وزيد بن علي الموشكي واحمد الشامي والعنسي وعبدالله عبدالوهاب نعمان واحمد حسين المروني وعبدالرحمن الارياني وغيرهم من الشعراء المصلحين السلفيين الذين تأثروا بثقافة السيد جمال بن الافغاني والشيخ محمد عبده وحسن الزيات وحسن البناء وغيرهم من علماء الدين وما كان بمقدرة هؤلاء الادباء تخطي واقعهم وثقافتهم الدينية وكانوا ثوارا بالنسبة للجمود المطلق في واقع اليمن يومئذ ويظهر هذا في قول الشاعر محمد محمود الزبيري :

من لايمانه وقد ملأ الكعبة كفار حراسها الاغبياء
تركوا بيت الله يحتله الاعداء والمشركون والشركاء
يقشعر التسبيح من حرم الله اذا همهمت به الحنفاء
من لتشريعه الرحيم ودين القوم فيهم تناحر ودماء

كم مرة حاولت أن اكون كالاصم
نزحت خارج الحـدود
فتشت عن قبوٍ من الجليد
لكنها ظلت تشدني قيودي –
يا أحرفا كأنها حبال
مشاعري مشدودة لهـا
لكنني أحبها .. أحبها
جعلت من قلبي مساكنا لها
زرعته بالبن والنخيل
بما حواه (ياوزير) أو تبن
زرعته اسكنت في رحابه اليمن

وقد ظل الشاعر عبده عثمان مرتبطا باليمن (بشعبه) وظلت القيـود والحبال تشده اليها رغم ليلها ، وما كانت القيود والحبال الا الاحساس بالمسؤولية الوطنية تجاه شعبه .

وابراهيم صادق في قصيدته الطويلة (عودة بلقيس) وقصيدته (اليمن) تجده يخاطب اليمني كالآتي :

يا أيها اليمـني
قد طال الكرى
قد آن أن نحيـا
وأن نتحررا
كي نهـدى ،
اليمن (السعيد) حضارة ،
ونعيد للدنيا (معين وحميرا)

والشاعر سعيد الشيباني حينما يخاطب السفاحين (الامام والرجعيـة والاستعمار) :

لم ينع الشعب ولم يطلب من محمد أو من المسيح أو من الله أن

ينقذوا الشعب من مأساته بل قال :

يا تركة شبت بلحم الشباب
شاخت ولما تـذق
طعم الاسى والعـذاب
ما أنتم الا بقايا كـلاب
مسعورة تعوى على كل باب
ما عاد من عمرها ،
في حوزة التاريخ الا القليل
فأن اردت البقاء
تقاسمين الدخيـل
خيرات حقل البن تمر النخيل
فلتقلعي الاقمار من أفقنا
ان تقدري ولتصلبي المستحيل

هذه نماذج للشعراء اليمنين بفئاتهـم الثـلاث (المدارس الثلاث) ونستطيع أن نستنتج (الموقف) المجتمعي للشاعر من خلال انتاجه الفني ومن هنا نستطيع ان ندرك مفهوم الثورة في الادب العربي اليمني :

الثـورة والمجتمع العـربي الجـديد

لم يكن الادب بمعزل عن المجتمع العربي ـ سواء في اليمن أو خارج اليمن أى في باقي الاقاليم العربية ونستطيع أن نخص أن الشعر في العراق والسودان كان ثورة ضد الاوضاع السياسية الرجعية وداعية للثورة سواء في الشيوخ أو الشبان ويمكن مثلا بالنسبة للعراق أن يجد القارىء الكثير في شعر الرصافي والزهاوي والجواهري ـ وهم من الشيوخ الذين يهزأون بالاوضاع والحكام ويدعون الى الثورة ، وفي الشباب هناك شعراء لايحصرون في العـراق (خاصـة) ومنـهم شعـراء عقائـديون ملتزمـون عرفـت مواقفهـم الثـورية الصلـبة ضـد الطغـاة وكانـوا منـارا للشـعب ليكسح اصنام بغداد ورثة هتلر والتتار فالبياتي وخالد الشواف والسياب ،

وعلي الحلي ، وعدنان الراوى ، والكنعاني ، وهلال ناجي وكاظم جواد ، ونازك والسماوى وغيرهم فقد كان لكل منهم مواقف وطنية كل من خلال طبقته ومعتقداته وحدوده الذاتية ، ومنهم من ثبت ومنهم من تغير ولكن الموقف العام كان ضد الطغيان وكانوا طليعة الحركة الثورية عام ١٩٥٨ .

وهكذا كان الحال في السودان فان (محمد الفيتورى وجيلي عبدالرحمن وتاج السر الحسن ومحيي الدين فارس) لم يكونوا مطمورين بل برزوا من خلال الاحداث ، وفي الجزائر لم يختف اسم الشعراء (محمد العيد) مالك حداد ومفدى زكريا) فقد كانوا بحق شعراء الثورة الجزائرية العملاقة ولسنا بحاجةالى نماذج في هذا الشأنفدواوينهؤلاء الشعراءوغيرهم في الاقطار العربية موجودة فنجد سوريا تقترن أبدا بشعر شوقي بغدادي وسليمان العيسى وبعض اشعار نزار قباني وفي لبنان وهي منبع الفكر العربي نجد الشعراء يتمردون على ميعة الحياة ويطلبون الثورة ويبدو ذلك واضحا في شعر خليل حاوى وفي مصر (ج.ع.م) لم ينكر أحد قدرات شعر كمال عبدالحليم وعبدالمعطي حجازي وبعض اشعار صلاح عبدالصبور ، والشاعر الشعبي صلاح جاهين وكمال عمار وفؤاد حداده ولا نود أن نسرد كثيرا من الاسماء وقد حاولنا أن نقتصر على الشعر فقط باعتباره أرقى احساس المجتمع ولم نلتفت لباقي فنون الفن أو فروعه (كالرواية والقصة ، والنقد الادبي والموسيقى والنحت والتصوير والرسم وغيرها) .

ونستطيع أن نستنتج أن الادب كان مشعلا لاضاءة السراديب المظلمة التي يختفي فيها الرجعيون والاستعماريون ولكن لا يجوز التعميم فقد كان الادب في الوطن العربي ينقسم الى أقسام ثلاثة :

(أولا) أدب رجعي تغلف بالرمز واللامبالاة وخدم مصالح الطبقة البورجوازية بدفاعه عن المثل القائل (لا جويد تحت الشمس) . (ثانيا) أدب ذاتي : وأعتبره أيضا أدبا رجعيا التزم بنبش مآسي الذات وفجر مستنقعاتها مناديا الكون والدنيا متشبثا بلا شيء ساخطا على الحياة بينما منتجوه في بحر الترف والنعيم .

(ثالثا) أدب ثوري : وكان منتجوه عرضة للتشريد والسجون والعذاب

والتمزق ولكنهم لم يقطنوا بل ازدادوا اصرارا واصرارا رغم أن سيوف البورجوازية على اعناقهم وانتصروا وسينتصر أدب الثورة لانه ثمرة نضال عادل من أجل حياة أفضل ومن أجل الكادحين الحقيقيين الذين لهم وحدهم حق الحياة لان وجودهم يساوي عملا منتجا •

الادب للحيـــــاة :

كان الادب الشعر خاصة ـ مفروضا عليه أن يسير في ضروب محدودة له مقدما • فما كان للشاعر أن يكون شاعرا الا اذا استكمل الاقلاع في كل بحور الخليل بن احمد ، وأرسى سفينة في كل خليج من خلجانها وكانت خلجان الشعر هي (المديح والرثاء والغزل ، والهجاء الخ ••) وكان قسط كبير من ملوك العرب الدجالين وامراء هذه الامة المغلوبة على أمرها المنكوبة المسلوبة بايدي الاقطاعيين وحلفائهم المستعمرين ، يتمتعون بكثير من الاوصاف الجميلة الرائعة وتعب الشعراء في نحت الصفات العالية لسفاحي الشعوب متخذين من ذلك بأدبائهم واجدادهم اسوة وطالما كانت القصيدة ذات قافية طنانة فهي (شعر في نظر النقاد ـ لارحم الله من ماتوا بل واعقبهم بمن بقوا على قيد الحياة ـ وكان يستوى الحال سواء في شعراء بلاط الرياض أم (بغداد) أم بلاط (مولاهم) باى (تونس) أم جلالة (ملك مصر والسودان) واستوى عند بعض الشعراء بدون وعي ـ المهدي والمرغني ، وكرومر وجلوب واستولى شعر البلاطات على الشعر العربي في أغلب البلاد العربية التي كان المسجد فيها تؤم الكنيسة أما في اليمن فقد كانت عجب عجاب لان أغلب الانتاج الادبى كان شعرا وكان كله منصبا في مدح (مولاهم أمير المؤمنين الناصر للدين يحيى حميد الدين ثم نجله وشبله وولى عهده وامام اليمن أمير المؤمنين احمد بن يحيى حميدالدين) ولعل ملوك وامراء العرب بما فيهم (عبدالكريم) قاسم لم يجدوا ما وجد الائمة في اليمن فقد كان الشعر في هذه المرحلة في اليمن ليس من أجل الحياة بل من أجل العدم ـ من أجل السفاح (يحيى واحمد) ذرية النبي محمد (عليه السلام)

ونرى من قصيدة للنظامة احمد الشامي في ديوانه (النفس الاول) :

اذا لم تكن أنت الخليفة بعــــده وفاءا وشكرا بل قضاء محتمــــا
فلا نبضت للشعب روح ولا علت له راية حتى يكب جهنمــــا
أعيد بلادي أن تحيد عن الوفـــا فتجحد من أسدى الجميل وانعما

ونرى أنه ما لم يكن (الامام البدر) وكان يومئذ وليا للعهد ـ خليفة بعد أبيه فليذهب الشعب جهنما وقد أوفى هذا الشاعر واحترم كلماته وحارب الشعب اليمنى وانضم الى خليفته البدر ، أما الجميل الذي اسداه الشعب ، فهو ليس سوى المشانق والجهل والفقر والمرض ، وتعد هذه القصيدة من اروع القصائد التي يتغنى بها وارثو الجبات والعمائم بعد الامـام • وكل شعراء اليمن الشيوخ بل بتعبير أدق (نظامو اليمن) مدحوا الامام حتى عجنوا اللغة عجين الخباز غير المتمرن ، ولكن بعضهم شفع له موقفه مع الشعب بعد ذلك فاعتبرنا مدحه مرحلة مراهقة ، ولما رشد عاد يناضل مع الشعب ضد الامام ويندرج تحت هذا الوضع بعض شعراء ونظـامي اليمن الشيوخ ، كالزبيرى ، والمروني ، والموشكي ، ولكن الشعراء الشباب كانوا بالمرصاد للطغيان ولتجار الحروف والدماء فجعلوا من الشعر في اليمــن سلاحا فنرى عبده عثمان الثائر الذي يعد في طليعة الشعراء الشباب يقول :

قعدت وعندي من العزم شيء يهد الصخور
وعندى براكين حقد وصيحات رعد وصور
فلي : أن أدوى بصوتي وارعش تلك القبور
وأن اطلق الوحش أدعو الى جموع النسور
وان استجيش الدياجي لاطفاء في القصر نور

ألست بمن كبلوه ودقوا عليه القيود
ألست بمن الهبته سياط تشل الجلود
وأمسي يحدق في الافق يخشى قدوم الجنود
وقد آن لي أن أهز القلوع الى برها كي تعود

من أجل هذا كان الشعر .. لم يعد شعر بلاط ، ولم يعد للشاعر الشاب غير مذهب واحد هو الادب للحياة ، كل حرف وكل كلمة من اجل الشعب ، من أجل الحفاة العرايا من أجل الصبيان والصبايا والزهور ومن أجل حقول البن ، ومحمد الشرفي الذي لم يجاوز عمره الرابعة والعشرين لم يذهب مذهب المراهقين بل جعل شعره من أجل الشعب من اجل الحياة من أجل الثورة :

يا أخي لا تنم على الظلم وأنفض — مرقد الذل والكـرى الفضـاح
وانطلق في الظـلام كالعاصـف — الجبار كالهول كانطـلاق الرياح
وابتسم للمنون يبسم لك الحـلم — ثغورا على وميض الكفـاح

لا تدع عصبـة اللصوص بدنيـاك جحيـما من العـذاب الماحـي
تخنق الفجر في صدور الملايين وتهنأ بحقها المستبـاح
عصبة همها امتصاص دم الشعب وسلب الفقـير والفـلاح
فاستفق للكفاح فالشعب ان ثار أنتهى كل ظالم سـفاح

ويمجد الشاعر علي عبدالعزيز نصر في ديوانه (كفاح الشعب)الجموع البائسين الذين سيصدون المترفين الذين اغتنوا بفقرهم :

اليتـامى ،
وحشة في عمق ذاتي
ترامـى
والثكالـى
انة حيرى بأفقي
تعـالى
ودموع الابريـاء
في دمائي ثورة تحتدم
وأنا في القيد عزم ملهم
وسلاحي ـ ما سلاحي ؟
نبضات بأحاسيس الجموع

في ضـلوعي
تغتلي شوقا الى الفجـــر
فهيا يا رفاقي
حطموا القيد وسيروا
فهنا بات أســير
صامتا يرتعــد
كلما لاحت على البعد يد
هب في القيد ينادي ؟
يا رفاقــي
سوف أمضي مائجا اصطخب
وغدا في مطلع الفجر يكون الموعد

ونرى من هذا أن الشعر لم يعد ذاتيا فرديا بل اصبح في خدمـــة الحياة الكريمة سلاحا للشعب ضد جلاديه وعتاته ويظهر التحدى الصارخ للطغاة والمستعمرين اعداء الانسانية في قصيدة (العمال في السعيد) لسعيد الشيباني التي **يقول فيها :**

لن نغمد السيف حتى يذهبا بددا — من أرضنا مترفاها غاصب وغبـــي
حتى يعود إلى الضيعات مالكهـــا — ويصبح الحقل ملك الفالح التعب
والمصنع الزاخر الانتاج يغدوا الى — عماله صانعي الخـيرات والطيب
حتى يلاقي في أمن وفي دعـــة — محبوبة حبها ، معـــتزة وأبـــى
حتى نحرر بالقيلات موعـــدنا — في الحب في موجة الارهاب الريب
ما يصنع السافحون اليوم في بلدى — غدا يلاقون فيه أي منقلـــب
لن نلطم الخدان جارت مصائبنـــا — فليس من يلطم الخدين بالعربـــي

لن نلقي القـلم المسـموم ثانيـــة — حتى نرى ظالمينا أعجب العجـــب
حتى نعيد الى الكلمات قيمتهـــا — في العلم والفن والتاريـخ والادب
حتام هذا علينا في ضمائرنـــا — بالحرف نصنع فجر الكادح العربي
وان شموس أفاقت من مراقدهـــا — فأي ثلج على القمات لم يـــذب

وتغيير وعي الشعب وعلم أن الشعر الحقيقي هو ذلك الذي ينفث ما في نفسه ذلك الذي يمجد قوته ويدعوه الى النضال ضد الجلادين والسفاحين من أجل أن يعيش في أرضه ويتمتع بخيراتها ، ولم يكن الادب العربي في الاقطار الاخرى أقل نضالا ضد الظلم والاستعمار وسنرى في الاتى موقف الادب العربي في معركة البناء والتحرير :

طوفـان النيـل :

كانت مصر تمثل القوى الرئيسية للشعب العربى ولكن هذه القوى ظلت تحت القيود وظلت تيجان الملوك والامراء ترصع بعيون الحفاة والعراة وظل نبيذهم دموع البائسين ـ كما هو الحال في بعض الاقطار العربية ان لم تكن أغلبها أو كلها ـ ولهذا ظل الوطن العربي كله شركة مساهمة يتمتع بها الملوك وامراء المؤمنين (كحامي الحرمين وحامي قميص عثمان) ولما قامت حركة **١٩٤٨** في اليمن ارسلت مصر سلاحا جويا بقيادة عبداللطيف البغدادي لضرب الثورة وعملت السعودية ما عملت في سبيل اخماد الحركة الوطنية في اليمن الشمالي مستعينة بنهابيها الامريكان والانجليز ، ولم يختلف موقفها الان عن موقفها سنة **١٩٤٨** وهذا على العكس بالنسبة لموقف مصر المتحررة التي وضعت بيد حكومة اليمن كل امكانياتها في سبيل الجمهورية ، وحينما استنجد الاحرار اليمنيون سنة **١٩٤٨** بمصر والجامعة العربية لم تزد سوى أن ساعدت الرجعية السعودية والامريكان والانجليز على اخماد الحركة الوطنية في اليمن فلم يكن الوعي القومي العربي قد بلغ قدرا يكفي لحماية مكاسب الحركات الوطنية ، ولم تكن مصر يومئذ سوى آلة من آلات الهدم بيد الملك فاروق والانجليز ، وفي هذه التجربة المأساوية يقول الشاعر سعيد الشيباني في قصيدة **(غيث الفحم) .**

فاستمطر الطغيان حامي الحرم
واستنجد الفرات والهرم
(والنيل) يومها أجاج

و (دجلة) حراسه (تيمور)و (الحجاج)
وفي الحشا من (بردى) مهشم الزجاج
يا خيبة العروبة
نستنجد الضياء من شموعها
فترسل الظلام يستبيح شمعتي
ويطلق الجفاف غازيا لربوتي
تشرد (اليمانية)
بكل قفرة وبرزخ خليج
ما بين باهت المنى وأحدب عريج
وبين قابض لجرحه وقلبه الضريج
فضيعوا ما بين عالم الدجى وعالم ضرير

ولا زال جزءا من هذا واقعا فالرجعية العربية والاستعمار الامريكي والانجليزي لا تزال تشرد اليمنيين من الشمال والجنوب ولكن (النيل) و (الفرات) اليوم أصبحا زلالا ويمكن لشعب اليمن أن يردهما للاستسقاء •

فالحركة الوطنية في (مصر) سنة ١٩٥٢ كان لها أعظم الاثر فيالوطن العربي واصبحت (ج•ع•م•) اليومقائدة وحاميةللحركات الوطنية في الوطن العربى واسيا وأفريقيا ، ولم يكن الادب بمعزل عن هذه الاحداث •

ولعل اليمن كانت أول الشعوب العربية تفاؤلا بالحركة الوطنية في مصر وحينما طرد فاروق واعلنت الجمهورية في مصر تنفس اليمنيون وكأنهم قد طردوا الامام من اليمن وكان ذلك حقا ، وما كانت طردة فاروق الا الخطوة الاولى لطرد جميع الملوك من الوطن العربي وطرد دعائمهم من الرجعية والاستعمار ، وان كانت الثمالة لا تزال في الكأس فان الساقي سوف يغسلها غدا • واذا كنا قد اقتصرنا أن نحدد موقف الادب في اليمن من المجتمع العربي فما ذلك الا نموذجا للاقطار العربية التي قام الادب فيها بنفس الدور من قبل جميع الفنانين الشعراء الذين وهبوا وجدانهم للشعب العربى في كل مكان وكان الشعر في اليمن ثورة عارمة على الطغاة

من خلال طوفان النيل وعواصف الجزائر ، وفيضان الرافدين ، ولم يقتصر الشعر اليمني في النطاق القومي فقد تعداه وناضل في سبيل الانسانية ، في (الكونجوا رامزا اليها بلومبا ، وبكوبا ، رامزا اليها بشـواطىء الكاريبي ، وبيان ديان فو وماوماو ، وأيوكا) وكل الحركات الثورية في العالم وهكذا كان الشعراء العرب تقريبا وهذا ما يدلنا دلالة قاطعة على وحدة الانسانية وهدفها في الوصول الى الانسانية بحق وسنضع الان الادب في اليمن بالنسبة للحركات التحررية في العالم العربي ٠

٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢م :

لم يشذ شاعر يمني في الجنوب والشمال عن تمجيد الشعب العربي في مصر وعن نضاله الى جانبه ليس بحروفه فقط بل أيضا باستعداده الذى أبداه الشعراء الشباب خاصة في القاهرة وتطوعوا لحماية الثورة العربية في مصر ضد الاخطبوط الرأسمالي الصهيوني لقمع حركة التحرر في الشرق الاوسط ، ويقول الشاعر اليمني محمد الشرفي ممجدا ثورة العروبة في مصر :

ومشيت عاصفة تهدد كل ليل بالدمار
وتذود عن شرف العروبة عاديات الانهيار
يا مصر ما كنا سوى شبح يدور بلا مدار
ونجول ما بين الظلام بلا اتجاه أو شعار
حتى أنبثقت الى الحياة سنا يشع هدى انتصار
فغزوت بالانوار والوعي المهذب كل دار

ولم يكن الشرفي وحده في المعركة العربية بل كان كـل الشعراء والادباء العرب في الميدان ، وفدوى طوقان في قصيدة (شعلة الحرية) ترى فى ثورة **٢٣** تموز **١٩٥٢** فجر العروبة :

هبة الله السخية
هذه الشعلة أرث البشرية

ارفعيها أنت يا مصر أرفعيها
للملايين الذين
ما حنى اعناقهم ذل السنين
أرفعيها للملايين الذين لم يزالوا ظامئين
لينابيع الضـــياء

وللشاعر اليمني عبده عثمان قصائد لا تعد في ثورة مصر العظيمة ، وحينما يخاطب طغاة النيل (فاروق وعصابته) وجميع الطغاة لا يخشى سيف طاغية في وطنه (الامام) بل يقول بشجاعة واصار :

موتوا لتحيا على عز وفي شرف تلك الجموع التي بالحقد تضطرم
اليوم قد بعثت واسترجعت نفسا فهبت اليوم تفنيكم وتلتهم
آمنت بالشعب نيرانا مدمرة ريحا تهاوى على اصدائها صنم
اليوم قد علموا بالامس ما جهلوا وقد رأوه وداستهم له قدم

ويقارن الشاعر الســـوداني محمد الفيتوري بين أمس المستعمرة والمستعبدة تحت ظل الاستعمار والاستبداد الملكي واليوم بعد ثورة ١٩٥٢م :

بالامس مرت بأرضي خمس وسبعـــون عامـــا
مرت فصفت علـــيها الطغـــاة والاصنـــاما
وصبت الـــدم والدمع في حلوق اليتامى
وولولـــت في دمائـــي تمـــردا وانتـــقاما

بالامس ناديـت أرضي فاستيقظت من كـــــراها
استيقظت تحجب الشمس أوجهـــا وجباهـــا
استيقظت تنفض القيد صاغـــرا من خطاهـــــا
وتسترد بطولاتـــهـــا وتعـــلي عـــلاهـــا

وأما شعراء مصر فلا ينكر مواقف الشاعر كمال عبدالحليم وعبدالمعطى حجازي وصلاح عبدالصبور في نضالهم ضد الملكية الفاسدة ، فلم يصـــنع أحدهم قصيدة في الملك فاروق كما صنع الشاعر محمود حسن اسماعيـــل

ديوانا كاملا اسماه (الملك) بل ناضلوا بشعرهم كما ناضل نجيب محفوظ والشرقاوى في رواياتهم ويوسف ادريس في قصصه ، ناضلوا ضد الطغاة في سبيل انتصار الشعب العربي في مصر ضد الرجعية والاستعمار وضد الاستغلال البورجوازي للعمال والفلاحين ، فالادب أبدا في المعركة أدب الشعب لا أدب صالات (هيلتون) والاوبرج وغيرها •

فلسطين :

مأساة صنعها الاستعمار والرجعية ضد الشعب العربي ، لتكون عظمة حنجرة للحركة الوطنية في الوطن العربي ، ودعماها (بالعروش) والامارات التي لا تزال بعضها قائمة تدافع عن بقائها بحرارة وعناد ، والذين يقولون ان الاستعمار قد رحل بعصاه وأن القرن العشرين هو عصر الشعوب ، هم ينكرون حقيقة موضوعية من حقائل التاريخ ، لان الاستعمار في الحقيقة لم يرحل ، كما أنه لم يحمل عصاه بعد ، بل ان الاستعمار اليوم هو استعمار (مثقف) بالعلم ومستند الى قاعدة متطورة هي الرأسمالية المعاصرة ، التى يتشدق نظامها السياسي بالديمقراطية ، وكان لزاما على الادب أن يقف موقفا مشرفا يفضح الدجل الجديد والحيل الجديدة للاستعمار • ان العصر عصر الشعوب لا شك في هذا ، ولكن هذه الشعوب ـ في أغلب كياناتها ـ يحكمها الاستعمار بواسطة عملائه السياسيين • ولا يمكننا ان نقول أن الاستعمار حمل عصاه ورحل الا حينما تصبح الشعوب جميعها تحت ظل نظام اشتراكى ويحس الانسان في أي بقعة من بقاع الارض أنه ليس فرد ضمن مجتمعه بقدر ما هو فرد ضمن كيان المجتمع الانساني كله ـ بصرف النظر عن القوميات والدين ـ فجوهر الانسان هو في كل الدنيا وانما مزقت عضويته البشرية مصالح مستغلة وسيطرة الانظمة الاستغلالية اللا انسانية منذ أقدم التاريخ •

ومظهر من مظاهر الاستعمار (اسرائيل هذه الدولة التي صنعها رأسمال الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ودول الغرب والشرق الرأسمالية لتكون

منفذا الى تجميد الوطن العربي كسوق لمنتجاتها •

والادب الثوري العربي – في معركة البناء والتحرير – لم ينس مأساة فلسطين ولكنه لم ينظر اليها مجردة بل نظر اليها نظرة تاريخية جدلية وربطها بقوى الاستعمار • ويختلف موقف الاديب الثوري العربي في نضاله ضد (اسرائيل) عن موقف الاديب الرجعي العربي في نضاله ضد (اسرائيل) أيضا • فالادباء الرجعيون يرسلون الاشعار الحزينة النادبة السوداء ويرثون حياة اللاجئين ويتوعدون اسرائيل بالاكتساح والتدمير ، بينما الموقف الذى يقفونه من قضية فلسطين هو موقف (تجار) تماما كموقف نورى السعيد وعبدالاله ويدعون أنهم من أبناء الرسول الاعظم عليه السلام • بينما موقف الاديب العربي الثورى تاريخى متفائل ببرتقال يافا وعندليبها المغرد ، فهم يرون أن (اسرائيل) ليست سوى الاستعمار الغربي فهي اشبه بفرع لشركة رأسمالية في الولايات المتحدة أو بريطانيا أو المانيا الغربية أو فرنسا أو غيرها من الدول الاستعمارية ، والثوري اليمني ، أقصد الشاعر – الاديب – اليمني حمل صليب المأساة أكثر من غيره لانه يعيش في وطنه مأساة النظام الاقطاعي (الامامي) والرأسمالي (الانجليزي) ولاجئو فلسطين هم صورة للاجئين اليمنيين في المهجر ولهذا كانت (فلسطين) اشبه بواقع (صنعاء) و (عدن) خلال السنوات المظلمة وكل شاعر يمني – حتى شعراء قصر الامام يحيى وأحمد – تحدثوا عن مأساة فلسطين في بلاط الامام ، وناضل الشعراء الشباب عن فلسطين رابطين واقع المأساة بمأساة وطنهم ، وكان الادباء العرب الثوريون يرون أن واقع العالم العربي الرجعي هو الدعامة الاولى لبقاء (اسرائيل) ولا يمكن القضاء على (اسرائيل) بالخطب الطنانة الرنانة التي نسمعها من الاذاعات صباح مساء ، ولا بالتنكيت والسخرية (باسرائيل) لان هذه الوسائل أصبحت (قذرة) وقذرون هم أولئك الذين يطقلونها في الجماهير الجائعة الضائعة العاطلة من العمل الحافية العارية • فقبل التشدق بالقضاء على (اسرائيل) يجب أن يقضي الشعب العربي على مستغليه وعلى المنتفعين باسهم (اسرائيل) في البورصة

السياسية ، فالمأساة كامنة اذن في واقع الوطن العربي الدجال لا في (اسرائيل) والذين يلقون الكلام على كواهنه هم المنتفعون بوجود (اسرائيل نفسها فكيف يمكن لبعض الدول العربية أن تقاوم (اسرائيل) وهي تحت سيطرةالاستعمار الغربي ؟ ان الشعب العربي الكادح هو الوحيد الذي سيحرر فلسطين حينما يصل الى الحكم لانه وحده الذي يحس بالمأساة ويتألم لها .

موقف الادب العربي من مأساة فلسطين :

كسابق المسيرة في البحث سنحدد بالنصوص موقف الادب ـ الشعر ـ في اليمن من مأساة (فلسطين) وسبق القول أن الشعراء في اليمن ـ جنوبـا وشمالا ـ لم يبخلوا بحروفهم في سبيل فلسطين فالشاعر محمد محمـود الزبيري وهو من شعراء المدرسة الاتباعية ـ نظم قصائد كثيرة في فلسطين ومنها القصيدة (في سبيل فلسطين) التي أخذناها نموذجا لشعراء المدرسـة الاتباعية (كأحمد المروني ـ وابراهيم الحضراني ، ومحمد عبده غانم ، وزيد الموشكي وعبدالكريم العنسي الى آخر القائمة) والقصيدة في ذاتهـا انشاء رائع للالفاظ وفيها الوعظ ، والخطبة ، أي أن الشكل هو كل شيء بينما المضمون تقريري انشائي ولنر :ـ فهو يبدؤها كالاتي :

مراجل في أثير الشعر تضطـرم وصيحة في سـماء الحق تحتدم
وضجة في صماخ الدهر صاخبة لها بكل بلاد مسمع وفـــم

ويطول الانشاء ويطول القصيد حتى تتحول القصيدة الى خطبة :

يا قادة العرب والاسلام قاطبـــة قوموا فقد طال بعد الصبح نومكم
شيدوا لنا في سموات العلى حرمـا نطوف حول ثرياه ونستلـــــم

فهو يخاطب قادة العرب ، ولم يخاطب الشعب ، ومهـما كان فان وجدانه قد ثار لهذه المأساة وأدى واجبا قوميا ، ولكن الشعر كان مجردا من عمق المضمون ، فقد اعتمد على الحماسة والارهاص اللفظي ، ويختلف هذا عن الشاعر الشاب عبده عثمان الذي يمثل الجيل الثوري الحقيقـي والذي يعتبر مأساة فلسطين مرتبطة بالنظام العالمي الاستعماري فهو يربط

قضية فلسطين بقضية الكونجو رامزا (بلومبا) ومعركة الجزائر ، وباليمن ، بل بالانسانية الكادحة ففي قصيدته (من أرض الاله والعبيد) وقد كانت نتيجة لتجربته في أوربا الاستعمارية يقول :

لا (يمنى) وجدتها هنا
ولا سمعت صوت ثائر
وبرتقال (يافا)
وعندليبها المهاجـر
حكاية قد أغلقوا عليهـا
نوافذا ، واسدلوا ستائر
كم شوهوا (لوممبا)
كم هتفوا بالموت للجزائر ،
يا غربتي يا وحشة الضمائر
في عالم غريب
وليس من يرثيه غير عابر
أما الالى في الظلام تاهوا
قد جهلوا ما لليل ما وراه
أضاعهم من فوقهم اله

وفي قصيدته (غزة المنتصرة) ويرمز بها لفلسطين لم ينثر الدمع ويلبس الحداد بل قال :

أي عين لم يمت فيها البريق ؟
لم يزل بعد منارا في الطريق
ورؤاها تتنسم
من عبير الشمس ما يحدو خطاها
أبدا ما روع الليل سناها
لا ـ ولا الغيلان يحتل رباها
أي اصرار حداهـا

حين تحلم
دون قبر ، أو على اصداء مأتم
تحت سقف يتهدم
أو بخيمة
كل ما فيها ثكالى
ويتيم ويتيمه
ومساء يتجهم
أبدا ما توج النجم جبينه
أى اجواء حزينه ؟
أي قلب خفقت فيه الضغينه
أنت (يا غزة) يا من تهزين
بعذاب اللاجئين
وعويل الامهات
لتظل الكبرياء
وتظلين سما
ويدمن سجن (عكا)
ويدمن (بيت لحم)
رفعت نحو السماء
لتظل المعركة
تفتح الباب الكبير
ويعود الغرباء
ومصابيح الديار
لحقول البرتقال
فمتى يحمر أفق ؟
ويضيء الليل رشاش وبرق !
وعلى أبواب (حيفا)
قبضة سوف تدق !

ولم تكن المأساة لدى الادباء مأتما يتوارثونه كما يتوارثه السياسيون العرب ، بل كانت وقعا اليما على وجدانهم فبدأوا يفضحون السياسيين الذين تاجروا (بفلسطين) وقبضوا ارباح تجارتهم من المستعمرين ، وقصيدة الشاعر العراقي خالد الشواف (يا ساسة العرب) تفضح الساسة العرب وتعريهم أمام الشعب العربي بتآمرهم على فلسطين ، ولقد صنع (خالد الشواف) القصيدة في وضع كان الحكم الاسود الاستعماري في العراق أشد جبروته ولكنه لم يرعبه حبل المشنقة ولا سوط الطاغية (نورى السعيد) وعبدالاله وفيصل وبريطانيا) كما صنع البياتي والجواهرى والسياب وهلال ناجي وكاظم جواد وكاظم السماوى والرصافي وعدنان الراوى وجميع شعراء العراق الثوريين ، ويجدر بنا ان نلاحظ أصالة الشعر العراقي والسوداني خاصة أقصد الشعر الحديث ، فشعراء العراق يتمتعون بجرأة حاسمة وقصيدة خالد الشواف هي نموذج لشعراء العراق في مأساة فلسطين وفي (ديوانيه) لفلسطين كثير كثير كغيره من شعراء العراق ، بل ان الشاعر عبدالوهاب البياتي قد أصدر ديوانا كاملا عن مأساة فلسطين وهو ديوانه (المجد للاطفال والزيتون) وخالد الشواف لم يشتم اليهود كما يصنع السياسيون العرب بل رجع الى الواقع العربي وأبدى السبب الحقيقي للمأساة :

الى م نشكو الى الدنيا ظلامتنا — ولم يسمنا سواها البؤس والنكدا
وكيف نستصرخ الايام حاجتنا — وهي التي دفعتنا أن نمد يدا ؟
ان المؤامرة الكبرى مدبرة — فان طوتنا فلا بعث لنا أبدا
بالامس كانت فلسطين قضيتنا — والقدس في يومنا والباقيات غدا
ياساسة العرب سقيتم شعوبكم — من كرمة الخور القتال ما قصدا
ملأتمو مسمع الدنيا بجعجعة — جوفاء ليس لها في العالمين صدى
ان الشعوب اذا ضاقت بواترها — فما تقوم الا باليد القودا
ماذا تقولون للتاريخ ويحكمو — اذا بعار الليالي جدت الابدا

يؤكد خالد الشواف ما سبق ان قلته ان الخطب الجوفاء لن تحرر فلسطين وحتى الان لازلت معتقدا ان بواتر الشعوب فقط هي التي ستحرر فلسطين .

والشعراء الشباب في الوطن العربي كانوا وما زالوا أكثر وعيا لقضيه فلسطين التي تمتد جذورها الى كل (دكان) من دكاكين التجار العرب والاستعماريين على السواء ، وفي قصيدة الشاعر اليمني سعيد الشيباني (مقابر ومنابر) صورة لهذه المأساة ، على لسان لاجيء يغرد من أعمال مقبرته مبشرا بالصباح :

اني أغردا من اعمال مقبرة … أضحت خيوط المني حولي تعابينا
هذي خيامي بقصر ما لها وتد … تمضي مع الموت حينا والبقا حينا
(يافا) طوت سفرها أيدى اليهود وما زالت بلابلها الصداح تشجينا
اني ذكرت هنا (يافا) وما بيدى … غير القوافي وما جدوى قوافينا
(بغداد) أوراس كم بالقلب من كلم … كمثل (عكا) كمثل (اللد) تدمينا
فيها الملايين قتلى تلك جيفتها … تروى الى الدهر والدنيا ما سينا
تلكم (فلسطين) قلبي ، انها كبدى … تناهشتها ضباع الغرب في (سينا)
راياتنا لم تزل سودا منكسة … على جباه الدنى تحني مواضينا
ما نصر (صنعاء) أو وهران ذو أثر … ولا انتفاضات نهر النيل تنسينا
مأساتنا في فلسطين التي ذهبت … أوراق ريح وطارت من أيادينا
لن يبسلوا البن في حقلي ولا عنبي … وبرتقالك يا (يافا) ينادينا
يستنجد الماء من قفر بلا مطر … والرمل ما أنبتت يوما رياحينا
اني لعنتك (يا بلفور) من كبد … الحقد في صلبها أضحى براكينا
كنا نصدق ما قلتم وما ذهبت … منا فلسطين الا من تصافينا
قلتم لنا أننا كنا ملائكة … فلتعلموا أننا صرنا شياطينا
الله اكبر (يا يافا) اذا برزت … منا النيوب اذا سلت مواضينا
انا سنجعل من جناتهم سقرا … فليسقط الجدب ولتزهر صحارينا

وكثيرون هم الشعراء الذين يمنحون الشعوب مشاعل الثورة ويفضحون محترفي السياسة الدجالية .

تلك نماذج عن معركة الادب في البناء ، وكذلك كان الادب في معركة (السويس ـ الجزائر ـ اليمن) وكل الحركات التحررية في الوطن العربي .

ولسنا في حصر مواقف الادب في المعـــــركة ، فشعراء فلسطين (كفدوى طوقان ، وابراهيم طوقان وهاشم رشيد وغيرهم) ناضـــلوا بحروفهم الشريفة ضد شراسة الاستعمار الغربي في فلسطين ومثلهــم كان الادباء العرب في كل الاقطار ، ولا يخلو ديـوان شـاعر مهمـا كان اتجاهه وموقفه ـ من اسماء خالدة (كبور سعيد ـ وهـران ـ بغـداد ـ صنعاء ـ دمشق ـ عدن ـ عمان يافا ـ الخ) بل ان الادب العربي قــد تعدى حدوده القومية مع مناضلي العالم ضد العبث بقيم الشعوب ومكاسبهـا الحضارية والشاعر اليمني كأى شاعر انسان ناضـــل مع (لوممبا) من الـكونغو ، ومع كاسترو في (كوبا) ومع ثوار افريقيا في (ماو ماو) و (أيوكا) في قبرص ، ومع اليابانيين في هيروشيما ونكازاكي ومع ناظم حكمت في تركيا ، ومع (ديان بيان فو ومع جميع الثوار في العالم .

ونستطيع ان نقول بجرأة أن الادب العربي الثورى هو طليعــة الـكادحين العاملين طليعة الشعب ذى المصلحة الاولى في الثورة ونأخـذ مواقف الشعر اليمني في النطاق القومي والانساني فقد عاش الشاعر اليمني ـ كأي شاعر عربي ثورة وانساني ـ في كل معركة من أجل الانسانية . الانسانية .

الجــــزائر :

ثورة الجزائـر كأي ثورة وطنية ضد نفس العدو العالمي ، عــدو البشرية ، الاستعمار ، والاستعمار متعاضد متضامن في جريمته وعدوانـه ضد البشرية وكان موقف الادب العربي من ثورة الجزائر موقفا مشـرفا لدى جميع الادباء الثوار في كل أطار العـــروبة وكان الشعراء اليمنيون من طلائـع الشعراء والادباء في الوطن العربي والشاعر اليمني لطفي جعفر أمان ، وهو يرزح تحت ظل الحـــكم الاستعمارى ويصرف النظر عـن موقفه الاجتماعي فان ثورة الجزائر قد هزت اعماقه وفرضت عليه وجوده ويبدو ذلك في قصيدته (كانت هنا أرض) وهو يقصــد ان الاستعمار حركتها في شعوب الدنيا مثبتة أصالتهـــا ويصور في هذه القصيدة ليــل الفرنسي كان يعتبر الجزائـر فرنسية متحديا قدرات القوميات التي تنمو

الاستعمار المتهاوى من قمم (وهران) الى الجحيم ، جحيم الثورة العربية الجزائرية :

الليل يسعل ، يسعل الليل المريض
في صدره المسلول تختنق الخرائب والطلول
وجبينه الازرق الضخم العريض
معصب بيد الافول
شبت دروب الموت في احشائه نار الحروب
الليل يسعل في انهيار
وترش نيران الردى في وابل من بعد وابل
ومن العمالقة الحديد قوافل تزجى قوافل

فرغم أن الشاعر لطفي جعفر أمان رومانسي ذاتي غير منفعل لوجدان شعبه في اليمن بل انصرف الى ذاته وتقوقع فيها فان ثورة الجزائر وبور سعيد لم تجعلاه هائما بل اجبرتاه على اتخاذ موقف ولو كان في نظرنا موقفا شكليا ، والشاعر محمد الشرفي لم تمنعه اسوار الامام (أحمد) ومشانقه من تمجيد بطولة (الجزائر) رابطا جبروت الشعوب العربية متى ما انفجرت بها الثورة ويصف الجماهير الثورة حينما تريد التغير الفعلي في مجتمعها فلا تلوذ الى الخطب بل :

وتململت حقدا وضجت ثورة	غضبي وهبت جحفل استشهاد
وبطولة رمت الحواجز جانبا	ومضت تشق مناقب الابعاد
وتشوتا ضما ن يعتصر الضحى	دربا لفجر كفاحه المتهادى
فلأنت أنت قصيدة مسحورة	غنى بها دهر ورنم شادى
بطل تحرك كالعواصف وارتمى	قدرا يهز شوامخ الاطواد
وبدا على التاريخ مجد اشرقا	وهبته للأجيال كف جواد
يا للبطولة كيف تزحف ماردا	تجتاح كل معاند ومعادى
واذا تحركت الشعوب تحركت	صور الابا ومواكب الامجاد
وتكشفت وثباتها عن أمة	لا تستكين ولن تلين لعادى
والشعب بركان هدوء جراحه	ومض الخلاص ودفقة الميلاد
لا تقهر الاغلال شعبا أنه	أغنى من الاغلال والاصفاد

حقا ان الشعوب لا تقهر أبدا وان قهرت مساء فان انتصارها محتوم في الصباح ، ولعبده عثمان وسعيد الشيباني وابراهيم صادق ، والبردوني قصائد ثورية في الجزائر تعيش كل لحظة من لحظات كفاح هذا الشعب العربي الجبار .

كل شيء مترابط والشعر العربي مترابط في مضموناته بالواقع العربي والانساني ولعل ابرز ما في الادب العربي اليوم هو موقفه الصلب ضد اعداء الانسانية سواء في الوطن العربي أو غيره ، ولعل الاستعمار كان الموضوع الرئيسي للادب العربي لان جميع الكوارث في الوطن العربي وجميع الشعوب المستعمرة انما هي نتاج لهذا الاخطبوط الخبيث ، أنه سرطان البشرية ، ويظهر هذا في الشعر أكثر منه في اى فرع من فروع الفن ، وفي اليمن يعمل الاستعمار اليوم كل ما يستطيع في سبيل أن يحارب الجمهورية العربية اليمنية وان يجزء الجزء الاكبر منها وهو ما تسميه بريطانيا (بالجنوب العربي) ولكن كما كانت وهران قلعة ضد الاستعمار الغربي فان (ردفان) هي قلعة ضد الاستعمار الاوروبي أيضا خاصة الاستعمار الانكليزي ، والشعراء الشباب سواء في الجنوب أو الشمال كالشاعر عبده عثمان وهو في طليعة الشعراء الشباب والذى يتزعم معركة التجديد في الشعر اليمني ، وفي قصيدته (ردفان والقرصان) يضع موقفه من الاستعمار في وحدة ملتحمة بحركة الشعب العربي وقضايا الانسان المعاصر ضد الطبيعة والاستعمار :

كانت الساعة لا أدرى
ولكن
من بعيد شدني صوت المآذن
ذهل الصمت تداعت في جدار الليل ظلمة
وتمطي في دمائي حب شعب ،
ثم افعى في عروقي جرح أمه
واطلت عشرات الاحرف الحمراء ، اسراب القوافي
مد بحر لا يحد

قاعه قلب ووجد
صب فيه من زوايا الامس حقد
والصدى أى حريق
أبدا لن يستريح
لم أسلها لم أقل من أى غاب قد أتيت
أى انفاس حملت
كنت أدرى ،
ما على (ردفان) يجرى
كنت أدرى
ان اخواني وأهلي
أذرع تحتضن النور وأرواح تصلي
في طريق الراية الخضراء والشمس الاسيرة
وربيع ذات يوم كان في شبه الجزيرة
يملأ الدنيا شذاه وعبيره
ثم ماذا ؟ كيف ضاع ؟
كيف أضحى جنة خلف البحار
رن كأس ، نغم في ليل بار
ومبان شاهقات فارعه
آلة دارت على الزيت وأين ؟
ياترى آباره مستنقعه
كيف باعته سلاطين الفجور
وعبيد اللهو واللذة في تلك القصور
حدثينـــا
يا جبالا أطرقت فوق حقول قاحلات
وبيوت مستضامة
حدثينـــا
قد قتلنا آلهـــات الظلم أحرقنا أساطير الامامة

فلماذا نترك القرصان واللص المغامر
يفلق البحر الذى دفع الجيل اليه (ذونواس)
ينشد الفرسان في البحر اذا ،
لم يعد في الارض خيل وأناس
كيف لا كيف السكوت
ما الذي يحيا (يا أوراس الجديد)
مالذى فيه يموت
يا شهيدا قبره كل البيوت
كنت حلما بالمآقي
وأنينا يتلوى في السواقي وصريرا في القيود
ومسيحا في الصليب
ان تكن قد اكلته ، نهشته كل أحقاد اليهود
انه مازال حيا يمنح الناس وجودا في الوجود
آه ما أكبره
تنبت الافراح للناس دماه
وخطاه
تطلب الموت ليحيا أبدا حرا سواه

ان موقف الشاعر اليمني الثورى ـ مثله أى شاعر عربي ثورى ـ لم يعد يتقوقع بحدوده الاقليمية أو القومية بل قد تعدت نظرته الى افاق الانسانية المرتبطة بقضية انسانية شعبه اليمني وامته العربية ، فمأساة المسيح في روما هي نفسها مأساة انساننا اليمني الذى شدد الاستعمار جبروته عليه في الجنوب واوجد له خلايا داخل الشمال المستقل ، ومثلها مثل مأساة انساننا العربي في (يافا) فاليهود الذين صلبوا المسيح هم الذين اليوم يصلبون وطننا فلسطين وكانت علوج روما تعينهم وتستخدمهم لقتل الكادحين المسلامين واليوم تستعدى بريطانيا ـ وكل الدول الاستعمارية العملاء من الشباب والشيوخ ومن ذوى السلطة .

ولكن الادب الثورى يعتبر قمة احساس الكادحين لا يترك لهـــا مجالا للتافهين العملاء المأجورين ، أدب الثورة وأدب الحـــياة ، والادب الثورى هو الذي يؤمن بالتاريخ ويؤمن بان المجتمع هو ثمرة لهذا التاريخ وهو الحقيقة المطلقة في الواقع الذي يعمل على تسخير الطبقية لمنفعة المجتمع في كل الـكون ولـكون الاستعمار هو العدو الجذر في كل الشعوب وما الرجعية والعملاء والمنتفعون والمرتزقون الا فرع له فان الادب الثـورى يناضل هذا (الجذر) ويعمل بكل امكانياته لقلعه من وجود البشرية في سبيل تحقيق انسانية هذه البشرية .

وفي قصيدة الشاعر سعيد الشـــيباني (عندما نقرأ التاريخ) صورة لنضال الانسان ضد هذه القوى الغاشمة وصورة أخرى للقوى المجتمعيـــة المناضلة في سبيل تحقيق بشريتها كخطوة اولى نحو انسانيتها العالمية السامية:

برك الدماء تسيل في أرضي نهور
فلتصغي يا أجيال ، صيخى يا دهور
الشعب في (ردفان) بركان يثور
يردى بليل العابقين
القادمـين
من (غرب اوربا ومن بحر الشمال)
من تركه (النورماند والسكسون)
يا وارثي (جنكيز) يا لطخات أحفاد المغول
يا سارقين (الهند) في الماضي وجوز الهند في كل الحقول
راناهبي (هونكونك ، فارموزا ، وشطآن الخليج)
يا قاتلى (عشترت) يا غيلان وديان الشعوب
اعلامكم ديست بأقدام الحفاة الثائرين
في كل فج من فجاج الارض ، أقدام الحفاة الثائرين
(ماوماو ، بيانفو ، والجزائر ، والبوير ، وبور سعيد)
يا عاصفات الموت هبي في ربوعي فالحياة

في كل تل من ربى شعبي لهيب ،
يأبى على الغرباء أن يطأوا التراب
ومزامر الرعيان في القمات صور
(البادة الاخدود) تعزف والقبور
أيعود (أبرهة) ليقتلع النخيل ؟
أتنكس الاعلام في وجه الدخيل ؟
أسقوط (ردفان) الابية يشتهون ؟
الشمس أقرب أن تنال
من صخرة جدباء في (ردفان) نالوا المستحيل :
الموت يرقص والمدافع والزحوف
(أقيال حمير) تستضيف الموت تسخر بالسيوف
صرخات (ذى يزن) تدوى ، تستجيش الجن من ليل الكهوف
الصور ينفخ والطبول تدك أعماق الجباب
إن يستضيف الموت صفا من صفوف الشعب
هاجت من مقابره صفوف
ان الجحيم هو الجحيم
يا بيض اوربا ويازرق العيون
يا ناهبي اللقمات من أفواه جوع الجائعين
يا مطفئين الشمع في أكواخ شعبي ، والقصور
سرجتموها من دموع الشعب الوان النيون
وزحمتموها بالبقايا الشقر في لون الخمور
أطفالكم كالزهر يرقص في منازلكم يفوح
أرضعتموهم دمع اطفال القرى المتناثرين
عبر الازقة ، والذباب
يقتات أقذاء العيون
شوهتم التاريخ والتاريخ حتما لن يكون

في صفكم يا أيها المستعمرون
مأساة (غاندى ، والفرات ، وبور سعيد)
شطآن (يافا والجموع اللاجئين)
مكتوبة بالاحرف السوداء في جباهكم لطخات عار
« أوراس لومومبا (انجولا) ، ديان فو » والقلاع الشامخات
كجبال (ردفان) أفاقت من سباة
صبحا والقت في قلوبكم النضال
(استاد روما) وصمة الانسان ثمة لا يزال
يروى لنا مأساة (عيسى) والجموع الطيبين
يا لصالبين يسوعكم ، أين الوصايا العشر
أين تراثكم يا سافحون
كلمات (برنارد شو ، وراسل ، أو وصايا شكسبير)
اني لابصق في وجوهكم وأبصق في وجوه ،
القابضين أكفكم السائرين
في دربكم
من لائمى الجزمات منبوذى بلادى التافهين
إني أنادى من فم المذياع ثوار الجنوب
لستم وحيدى الصف ، فالكلمات قد اضحت سيوف
والشعر لن يصمت
ولن تلقى على اشعارنا غلف السدوف
نظم المدائح في الملوك وفي القصور
ولى وجاء الشعر حراكي يقول
يا صانعين الخبز يا بؤساء فلاحي الحقول
يا أيها العمال والزراع والشعراء والمتسولون
يا بائتين بلا حصير والبطون بلا طعام
متزملين البرد والعتمات اشواظ الهجير

واذا صرختم بامجير الصبر
اجبتم لا مجير
من أجلكم من أجل أطفال القرى المتواضعات
من أجل غيد الحي بسمات الحياة
من أجلهن وأجلكم نحن احترفنا الشعر ، من أجل الحياة
انا سنضع من حداهن
من حداكم أروع الكلمات ان شعرا نقول

وكما أن للرجعية والاستعمار في كل شعب من الشعوب مفكرين وادباء يدافعون عنهما بطرق ملتوية ـ ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ـ كذلك كان الحال في اليمن ، فالنظامون للمدائح في الرجعية وفي الاستعمار لم يترك لهم الشعر الثورى مجالا يجولون فيه بل فضحهم وفضح اسيادهم ويظهر هذا في نفس قصيدة الشاعر سعيد الشيباني حينما يوجه كلماته لنظامي المدائح اولئك الذين يتلونون تحت كل وضع اجتماعي بشكله الظاهر بينما هم مخلصون لاسيادهم كأخلاص الادباء الثوريين للكادحين المستغلين فيقول :

اني أدوس قصائد الشعراء من اشعارهم يسترزقون
شعر المدائح والمراثي الكاذبات
يا ناظمي الشعر في الاسياد في الامراء في مدح القصور
تلكم قصائدكم لعنتكم بها ولعنت تجار الحروف
الشعر للبسطاء من شعبي وللمتواضعين الزاحفين
عبر الجبال يشدهم طلق الرصاص على الدخيل
وبشدهم للحقل اشذاء التراب
انا نخلدهم سطورا مثل آيات الزبور)
تحكي الى الاجيال من باتوا زرازيرا واضحوا في مراكزهم صقور
احفاد (خالد والمثنى ، والرشيد)
وسفين (طارق) في مداركهم تصارع في الخليج

فموقف الشاعر من الشعراء أو بالاحرى شعراء البلاطات الذين جعلوا من شعرهم مهزلة مضحكة ويرى الشاعر سعيد الشيباني أن شعر ـ ان جاز أن نسميه شعرا ـ المدائـح ليس سوى تحديد موقف الشاعر من الشعب فالشاعر الذي يمدح الجلاد والسفاح انما يقوم بشحذ سكاكين الطغاة لذبح الجماهـير الكادحة التي يعيش مترفو القصور وزبانيتهم على أكل لحـم الجماهير وشرب دموعهم كاسات خمر ويتشدقون باسم الجماهير ويعـود الشاعر الشيباني ليقول لشعبه ، دافعا كلماته للجموع الثائرة اليمن المحتلة الجنوبيـــة :

يا صوت شعبي في فلا (ردفان) خفاق النشيد
قم واكسح الطغيان انى حل ـ في يمني السعيد
لن تسمل الابصار في أرضي ولن يلوى الحديد
غضب التحدى الشامخ العملاق في شعبي العنيد
يا كاسحات الموت ، يا غضيات اقيال (السعيدة)
دكي سدود المستحيل وتركة الماضي البليدة
فمتى ؟ متى ؟ كان الغزاة العور أسياد الشعوب
تبا لهم ؟ الحقد كالجمرات يلهب في القلوب
لن يخدعونا اليوم كالماضي كما خدعوا (أخيل)
انا سنسحقهم بعقر الدار في تل وبيد
اني لكم يا ايها المستعمرون ؟
ان ترهبونا اليوم يا عور العيون
انا عرفناكم ذئابا أينما جاءت تصيد
اني لكم يا اخطبوط الموت
مصاصي دماء الكادحين ؟
اني لكم ان تخدعوا البسطاء والبسطاء سور من حديد
انى لـكم ـ في قرننا العشرين ـ يا سافحون
(بقميص عثمان) مشحط بالدماء ، وحصان (طروادة) جديد

فالسمة الجديدة للادب العربي الثورى في جميع الاقطار هو النضال من أجل الكادحين من أجل الذين كانوا دربا طوال ملايين السنين يمشـي عليها طغاتهامنذ العصر العبودى حتى عصر الرأسمالية واليوم تحاول الشعوب أن تعيد لنفسها حقها في الحصول على قيمة جهدها المبذول بتطبيق النظام الاشتراكي الذى يعتبر بداية لمرحلة تاريخية جديدة للمجتمع البشرى وفي الوطن العربي يشتد الصراع بين القوى الثورية وقوى الاستعمار والرجعية اللتين تستغلان مجهود الانسان العربي لمصلحتها وشعراء اليمن الثوريون يناضلون ضد هاتين القوتين باصرار وعناد ، وفي سبيل الثورة ضد هاتـين القوتين نجد الشاعر محمد الشرفي يتحد اتحادا هدفيا مع الشاعرين عبده عثمان وسعيد الشيباني فيلتقون في جبهة واحدة ، مع جميع الشعراء والادباء في القطر اليمني وفي الاقطار العربية الاخرى وقد ربط في شعره وحـدة الهدف العربي في سبيل حياة فضلى للشعب العربي وفي سبيل وحــــدته الحتمية التاريخية :

(بور سعيد) من انت تاريخ مجد يلتقي فيه (خالد وجميله)
وتغني امجاد (صنعاء بغداد) ويمضي (ردفان) يحضن (نيله)
وتلاقي (دمشق) فيه (فلسطينا) على رعشة الجراح العليله
وطن واحد تلاقت عليه كبرياء النضال تحمي سبيله
صفع الليل صحوه الحر فانهارت أساطيله ومالت قبيله
شاء ما لا ينال فارتد اشلاء من العار مثقلا بالرذيله
(بور سعيد)والجرح يعوى بصدرى اين منا رؤى الصباح الظليله
أين منا عروبة تشمخ اليوم وفي أرضها وجوه ذليله ؟
وبقايا مستعمر يخنق النور على بسمة الشفاه الجميله
أين منا (ردفان) يشرق بالدمع وتستنزف المعارك جيله ؟
و (فلسطين) شهقة في ضلوع المجد حيرى وتمتمات طويله
ودم الثائرين أحلام ثأر صاخب لم نزل نحس عويله
ودموع المشردين أراجيج النياع واغنيات ثقيله

يبدو أن الادب اليمني كنموذج للادب في الوطن العربي ـ الثورى

لم يعد سلبيا ذاتيا بل غدا معولا لهدم الاستعمار والرجعية ويتحد الادب العربي شعرا ونثرا ـ الثورى منه ـ في الهدف نحو التحرر والوحدة والاشتراكية هذه الشعارات الثلاثة التي غدت مطلبا شعبيا قويا لكل الشعب العربي وموقف الادب العربي الثورى من المجتمع العربى الجديد موقف صلب يهدم تركة الماضي البليد ويضع فجر الكادحين العمال من أجل حياة حرة شريفة لكل مواطن •

وقد حاولنا في هذا البحث أن نلقي أضواء على موقف الادب في معركة البناء والتحرر العربي وكاد الاقتصار يكون على الشعر اليمني ـ حيث لا يوجد في اليمن من الادب سوى الشعر ـ والتقصي الكامل في موقف الادب العربي ليس مستحيلا ، ولكن خشية من اختلاط الامور وتشعب البحث ركزنا ما استطعنا التركيز على الادب في اليمن ليعطى صورة للادباء العرب عن الشعر اليمني في المعركة رغم الظروف التاريخية القاسية التي عاشتها اليمن تحت ظل الرجعية والاستعمار •

والتي لا تزال تعاني الكثير من المآسي من هاتين القوتين السفاحتين ولا ندعي صحة أو كمالا في هذا بل هو مجهود متواضع في سبيل هدف سام كما اننا لا نزعم أننا قد التزمنا ما يمليه علينا موضوع الاختيار من فروع البحث المقرر دراسته في مؤتمر الادباء العرب الحالي وهو الفرع الثاني (الثورة والادب) وقد التزمنا بوضع بعض الشواهد من شعر الشعراء العرب كنماذج للادب العربي وركزنا البحث في الشعر اليمني ولا سيما الشعر الثورى الذى لم تحده حدود اقليمية أو قومية بل انطلق الى الانسانية ذاتها معتبرا الشعب العربي ضمن انسان العالم ، وكانت نظرتنا للشعر اليمني من زاوية الالتزام الثورى ، ونرجو ان نكون قد وفقنا بعض الشيء في الاسهام في ميدان البناء الفني العربي الذى يعبر عن وجدان الشعب العربي وعن اشواقه نحو الانسانية ونحو تحرير الانسانية من الاستعمار والاستغلال ودفعه الى الحب والصداقة والسلام •

سعيد الشيباني
من وفد اليمن

محمد العيد وملامح من المأساة الجزائرية

بقلم
صالح خرفي

مأساة وشاعر(١) :

مع بزوغ القرن العشرين أطل على الجزائر شاعر ، صادف المأساة في ذروتها ، فانغمس في أحداثها وهو دون العشرين ، وتجاوب معها تجاوبا أفقده بسمة الحياة ، وسلبه نضارة ربيع العمر فانعكست الصورة على حياته الخاصة حتى اليوم . فتزهد الشاعر وترهب ، واعتصم (بمحرابه) ورمى نفسه بعيدا عن صخب الحياة المادية ، بينما ارتمى بروحه ووجدانه في صميم مأساة شعبه .

كان الشاعر ابن عشرين سنة يوم ألقى نظرة على حالة شعبه ، فارتد الطرف خاسئا وهو حسير وتلاشت نضارة الشباب في ذبول الحياة البائسة ، وصوح الزهر في مهب الهواجر ، واندثرت الحياة الخاصة بآمالها الغضة ، في الحياة العامة بآمالها الغضة ، في الحياة العامة بآلامها المضنية . وحل العزوف عن الحياة محل الاقبال عليها ،واليأس منها محل الامل فيها ، واكتسى الشباب الوارف ، سمة الشيخوخة البائسة .

ان الحياة في الجزائر أصبحت سجلا متتابع الصفحات ، متلاحق

---

(١) ولد محمد العيد في بلدة (العين البيضاء) شرقي الجزائر سنة ١٩٠٤ . قضى سنتين في جامع الزيتونة بتونس ، ورجع منه وعمره عشرون سنة ، وقضى حياته ـ أمدها الله ـ معلما حرا في مدارس (جمعية العلماء) .

ترجمته في : شعراء الجزائر في العصر الحاضر . محمد الهادى السنوسي ج ١ المطبعة التونسية ١٩٣٦ .

محمد العيد رائد الشعر الجزائر الحديث . ابو القاسم سعد الله . دار المعارف ١٩٦١ .

السطور بالآلام والمآسي ، يتصفحه محمد العيد فلا يلبث أن يقول :

سئمت على شرخ الشباب حياتي ... سئمت ولم أملك علي ثباتي
سئمت وان كنت ابن عشرين حجة ... حوادث لا تنفك مستعرات
وأقرأ من آي الشقاوة أسطرا ... على صفحات الكون مرتسمات
فسطر عيايل أمضهم الطوى ... عراة على لفح الأثير حفاة
وسطر أيامي يصطرخن توجعا ... من البؤس لا يفتأن مكتئبات
وسطر يتامى مرهقين ، تكبهم ... على جرف البلوى يد العثرات
وسطر شيوخ كالأهلة شيب ... وهل شيبهم الا نذير وفاة
وسطر مشائيم غرار أذلة ... يسامون بالأرزاء والنكبات
وفوقهم سطر من الخلق كله ... جناة لعمر الحق فوق جناة
جناة يرى الرائي من الليل مسحة ... على سطرهم والظلم كالظلمات(٢)

ونعثر على لوحة شعرية أخرى قاتمة الالوان ، داكنة الظلال ، ذات زوايا لا يحصيها العد في المجتمع الجزائري في أوائل هذا القرن :

قف معي اليوم في الجزائر واسبر ... غور أحوالها بعين وأذن
تجد الطفل في الازقة يلهو ... والفتى يشرب الخمور ويزني
تجد الطفلة اليتيمة تشقى ... تحت خدر تنوء ، أو تحت خدن
أو لدى البيض نصروها وقالوا : ... أدركتها يد المسيح بحضن
و (النيابات) أسفرت عن مآس ... بل مواس تحدها كالمسن
كاذبات البريق من كل خب ... يعد الناس باطلا ، ويمني
والمشاريع والشرائع ، والآ ... داب ، والكتب والنهى في تعني
ومن اللسن في المجامع ، والاقلا ... م ، في الصحف شر طعم وطعن(٣)

---

(٢) القصيدة في (شعراء الجزائر) .
(٣) القصيدة في مجلة (الشهاب) ج ٣ م ٩ مارس ١٩٣٣ .

وتفرغ ريشة الشاعر لزاوية من زوايا المأساة ، تجلى معالمها وتقرب أبعادها ، زاوية الفقر والبطالة المتفشية ، الفقر المفروض على شعب خيرات بلاده في يد المحتكر الدخيل • زاوية الخطى المتعثرة هزالا واعياء ، على أرض الكنوز الزاخرة والخيرات الفياضة • قصة اليد الصناع ، والفرص المؤودة • الفكر الخلاق والابواب الموصدة • مأساة مصـرع الجزائرى المجد دفاعا عن العلم المثلث وفلذات أكباده المخلفة للفقر والضياع :

كم ضارب منهم في الارض منتشـر ... ما حاول الرزق الا اعتاص وامتنعا
وعاطل صنع الكفين ، مقتـدر ... مهما أتى معملا عن بابه دفعـا
ومستغيث وجل الناس في شـغل ... عنه ، وطاو وجل الناس قد شـبعا
وساهد لم يجـد ضوءا لمنزلـه ... الا الفؤاد ذبالا والحشا شمعـا
وعاثر الجد لم يظفر بمنتشـل ... حر ، يقيل عثارا أو يقول : لعـا
وثاكل واصلت ندب البنين ، فما ... قلب لها حن ، أو طرف لها دمعا
وأيم ويتامى حولهـا اصطرخـوا ... في الليل واصطرخت من بينهم هلعا
قالوا : متى الصبح ان الليل ازعجنا ... قالت : وماذا يفيد الصبح ان طلعـا
قالوا : متى الاكل ان الجوع أحرقنا ... قالت : اذا منح المعروف من منعـا
قالوا : وأين أبونا كيف أهملنـا ... قالت : به وقع الامر الذي وقعـا
الموت طار به كالنسر مختطفـا ... والموت طاح به كالسيل مقتلعـا
بني مات أبوكم ، لم يـدع أثـرا ... الا الاماديح بين الناس والسمعا(٤)

ويعتصم الشاعر بمحرابه ، محتجا على الحالة التي تسود شعبه ، لا يغادر المحراب الا لمحفل قومي يقوم فيه منشدا ، أو جمعية (خيرية) ينبرى فيها مهيبا ، أو الى مدرسة (حـــرة) يتصدى فيها لتعليم ناشئة لفظها الاستعمار في أرصفة الشوارع ، تنوء كواهلهـا الغضة بصناديق مسح الاحذية ، وتحدودب ظهورهـا من الاقعاء أمام أرجل السادة البيض •

---

(٤) القصيدة في مجلة (الشهاب) ج ٢م ١١ ماى ١٩٣٥ •

وفي جوف المحراب تلاحق الشاعر المنزوي أشباح المأساة ، فكل شبر في الجزائر ناطق بها مشير اليها ، وكل فتر في الارض الجريحة مسرح لها ، وقبل ذلك فالمأساة تنبع من قلب الشاعر ، تصطخب بين ضلوعه، فأين المفر ؟ انه جهاز مرهف للالتقاط والارسال في آن واحد فليس في مقدوره الا أن يكون الصورة الصادقة لما يكتنفه من أجواء .

استأجر (محمد العيد) ظاهر العاصمة الجزائرية ، بيتا له في سفح (جبل باب جديد) لعله يجد في سكون الطبيعة ما يبدد صخب الحياة ، وفي بسمتها ما ينسي الواقع المتجهم ، ولكنه فتح شباك غرفته ذات صباح ، فقال لنا :

هذه قصيدة وضعتها متأثرا بمشاهدة فقير بائس ، لا يزال في مقتبل العمر ، يأوى في أكثر الليالي حينما يجن عليه الليل الى (جبل باب جديد) الذى تشرف عليه نافذة غرفتي ، وفي العراء وتحت أديم المساء يقضى الليل كله :

بدا لعيني تاعس ناعس ... على الثرى ، في الصبح بالي الثياب
جاث على الركبين ، حاني الحشا ... والظهر هاوى الجسم ذاوى الشباب
فهاج من حزني ومن لوعتي ... كما يهيج النار عود الثقاب
ورحت من شعر الى عبرة ... والشعر والعبرة جهد المصاب
وقمت أدعوه على رأسه ... لعلني أحضى ببعض الجواب
يا أيها الآوى الى حفرة ... في سفح طود عند ملقى الشعاب
يا أيها الهاوى على وجهه ... تحت أديم الجو فوق التراب
يا أيها الملتم في طمره ... كالقنفد انهالت عليه الكلاب
أنومك الآن خداع لنا ... أم لك ؟ أم أنك صلب صلاب
هل أنت الا بشر مثلنا ... أم أنت جن زال عنك الحجاب

ويفقد المنظر مدلوله الضيق ، ليندرج في مدلول اوسع ، وتكتسي الحادثة المحدودة تموجات لا نهائية في خضم الحياة الصاخبة ، وتتبخر

في نظر الشاعر اللمسات الحسية للمنظر ، ليناجي المأساة في اوسع نطاقها ، وأعمق أعماقها ، ويجعل التاعس الناعس عنوانا صغيرا لها :

طواك عسف الدهر في حفـــرة بجانب الطـــود كطي الســـحاب
وملت مثل القوس موتــــورة بنبلها ، مشـــهورة للضـــراب
منكس العنق الى الارض ، مـــن همك ، والهم مذل الرقـــاب
كأنما شخصك رمـــز لنـــا فيما نلاقى من صنـــوف العذاب
كأنـــما عينـــك في سهـــدها عين لنا راصـــد كـل بـــاب
أبعد ما روعتنـــي مصبحـــا يلذ لي الطعم ويحلو الشـراب(٥)

ويبدو أن المأساة المريعة التي تخبطت فيها الجزائر كانت أقسى من أعصاب الشاعر الحساسة وان الحياة الخانقة كانت أضيق صدرا من أن تحمل نفسا يتردد في صدر شاعر ، فاستحال الانزواء يأسا ، وآلت الاقامة في المحراب الى برم من الحياة كلها ، وتعلقت النفس بالرحيل ، وأصبحت الثلاثين عند محمد العيد ، تساوى الثمانين عند (لبيد) :

ان الثلاثين التي ناهزتهـــا رسـل الي من البلى ووفـــود
فعليك يا عهد الشباب تحيـــة فيحاء ما تلت العهود عهـــود(٦)

ويلح الشاعر في التساؤل عن الرحيل :

طال المقام بنا والدار موحشـــة متى الرحيل بنا من هـــذه الـدار
يا مانع الصفو أن تروى به كبـــد حيرتنا بين ايراد واصـــدار(٧)

---

(٥) (الشهاب) ج ١١ م ٦ ديسمبر ١٩٣٠ .

(٦) (الشهاب) ج ٨ م ٩ جوليت ١٩٣٢ .

(٧) (الشهاب) ج ٩ م ١١ ديسمبر ١٩٣٥ .

ليل بهيم :

وخيم على (البيضاء) ليل من الاستعمار بهيم وأناخ الاستبداد بكلكله على الارض الطيبة وتطاول الدخيل على الشعب الاعزل بسلاحه الفتاك ، وضاقت الدار بأهلها ، ونعقت الغربان عليها :

وأغرب خطب هالني خطب موطن ... لنا ، منعته الشمس أسراب أغرب
كما حبست عنه الرياح ، وعارضت ... له دون سيل القطر من كل مسرب
بأجنحة سود كان خيالها ... ظلام بليل قاتم الوجه غيهب
فيالك فردوسا تحولت دمنة ... ويا وحشتا من أغرب فيك نعب
ويا وحشتا من محنة نكبت بها ... سلالة (مازيغ) وفتية (يعرب)[٨]

واذ أصبحت الحياة ليلا ، فلابدع أن يغدو الشاعر في ظلماتها أعمى ، يواصل قرع عصاه لعل رحيما يأخذ بيده :

دنيا على ليل الحياة وطوله ... حتى يشق من الصباح عمود
ظلمات امك يا جنين كثيفة ... شتى ، وامك يا جنين ولود
صبرا على ليل الحياة وطوله ... حتى يشق من الصباح عمود
من مات لاريب استهل ، فلا تخف ... الموت دنيا ، واللحود مهود
يا موت خولت ابن آدم راحة ... ما بعد جودك لابن آدم جود
في القبر نزل طيب ، وكرامة ... كبرى ، وظل وارف ممدود
والناس أطهر في القبور جبلة ... ولو أنهم رمم هناك ودود[٩]

ولاريب ان الليل كان أشد وطأ من ليل امرىء القيس ، فرمى في أحضان هذه الافكار القاتمة ، ولاشك ان المأساة هي الاخرى تمطت

---

(٨) القصيدة في (الشهاب) ج ١ م ٨ جانفي ١٩٣٢ . و (مازيغ) بن كنعان بن حام اليه يرجع أصل البربر في الجزائر . أنظر (كتاب الجزائر) أحمد توفيق المدني ص ٩٧ ط ٢ دار المعارف ١٩٦٣ . وانظر مجملا لآرا المؤرخين في أصل البربر في (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) مبارك بن محمد الهلالي الميلى . ج ١ ص ٥٣ ط ٢ بيروت ١٩٦٣ .

(٩) القصيدة في (الشهاب) ج ٨ م ٩ جوليت ١٩٣٣ .

بصب ، وأردفت أعجازا ، وناءت بكلكل • فقد أمتدت الى خنق الانفاس ، وكم الافواه والوقوف بالمرصاد لكل رعشة تسرى في جسم الشعب ليقوى بها على النهوض فكأن هذا الشعب قدر عليه في حكم المستعمر أن يكون لحما على وخم :

أرى الانفاس مرهقة بجو ... كمثل الغاز يوسعها بخنق
يدوي بالوعيد دوي رعد ... ويومض بالردى ايماض برق
أيوثق بالاداهم كل كف ... ويوطأ بالمناسم كل عنق
فمهلا يا زمان البغي مهلا ... فقد أعيا كواهلنا التلقي
رحى المهجات أنت فكم تقاسي ... بك المهجات من سحق ومحق
ووفقا منك بالانسان رفقا ... فما هو للهوان بمستحق
لماذا توضع الاسداد ضربا ... على فمه ألم يخلق لنطق[١٠]

واذ أصبحت الحياة الجزائرية جحيما ، يذكي المستعمر زفيرها ، وانسدت سبل العيش أمام سالكيها ، وبلغت القلوب الحناجر ، فلا مناص من تلمس اللقمة ولو بين فكي الاسد • وكانت فكرة الهجرة الى فرنسا • وكأن العامل الجزائرى وهو يرمى بجسمه المنهوك تحت رحمة الفولاذ في مصانع فرنسا ، انما يردد : فداوني باللتي كانت هي الداء •

غير أن الهجرة بدورها محرمة على الاهالي ، ممنوعة على العامل الجزائرى • فقد أراده المعمر أجيرا مسخرا له ، يموت جوعا فوق أرضه الزاخرة بالكنوز ، حتى تكتمل الصفقة الرابحة على حساب عرق المواطن ودمه وحياته[١١] •

ولكن الجوع استبد بالامعاء ، وتضورت منه أفراخ زغب الحواصل ، لا يملك عائلها الا أن يرمى بنفسه في الجحيم ليفتك لقمة عيش فلذات

(١٠) القصيدة في (الشهاب) ج ٥ م ١١ أوت (اغسطس) ١٩٣٥ •
(١١) أصدر قانون منع الهجرة الى فرنسام شوطان وزير الداخلية الفرنسية آنذاك • وتاريخ صدوره ٨ أوت ١٩٢٤ •

أكباده ، فأصبح سفر العامل الجزائرى الى فرنسا (عملية تهريب) يزج به في بيت الوقود في الباخرة ، حتى لا تقع عليه عين الرقابة • يحدوه الامل في أن تكون فرنسا من وراء البحر غيرها في الجزائر ، في ان تكون (الام الحنون) وفيه لمتبنيها في رد بعض الجميل اليهم • ومن خلال الآمال البراقة المغرية تخف وطأة الحجرة الجهنمية في الدرك الاسفل من الباخرة • غير ان الحياة القاسية لا تمهل العامل حتى يلامس واقعية هذه الآمال ، أو يضع رجله على مرفأ مرسيليا •

فقد سافر أربعون عاملا جزائريا سنة **١٩٢٦ الى فرنسا في** بيوت الفحم والوقود في باخرة (سيدى فرج) هاربين الى فرنسا ، فاختنق منهم أحد عشر عاملا تحت وطأة اللهيب ، ووصل الباقون بين الحياة والموت •

ويقدم لك الحادثة المريعة محمد العيد ، بآمالها المتصاعدة المتهاوية، بظلالها الزاهية القاتمة • بما كان يساور الشعب من حسن ظن في فرنسا وليدة الحرية والاخاء والمساواة :

قسا البلد الجريح وضاق ذرعا ... بهم ، فتيمموا البلد الرحيبا
وقالوا • ان في باريس عيشا ... يروق غضاضة ويلذ طيبا
وقالوا • انها تسلي المعنى ... وقالوا • انها تأوى الغريبا
وان لها من الحسنى لحظا ... وان لنا من الحسنى نصيبا
ألسنا المخلصين لها حضورا ... ألسنا المخلصين لها مغيبا
محضناها المحبة واغتدينا ... نطارحها التغزل والنسيبا
ولبينا مهيب الحرب ، لما ... أهاب بنا فأرضينا المهيبا

ولكن موجة الامل تصطدم بصخرة الواقع المحطم لكل أمل ، الواقع الاسود الذي يطارد الجزائرى حتى في عرض البحر الابيض :

فسدت في وجوههم النواحي ... مسالكها ولم ترحم حبيبا
وقامت ضجة في الغرب كبرى ... تصب عليهم النقد المريبا

فكم من قائل أخشى وحوشـــا تدب بأرض باريس دبيبـــا
وكم من قائل أخشى زنوجـــا تبيح القتل ، والـــذام المعيبـــا
فقل للقائمـــين على فرنســـا أنيبوا وارتأوا رأيـــا لبيبـــا
وقل للقائمين على فرنســـا تعالوا فاشهدوا الخطب العجيبـــا
جسوم في (فروش) مجدلات تعاني تحته الغاز الرهيبـــا[١٢]
وأجسام ممزقـــة الحشـــايا تكاد لها النواصي أن تشيبـــا
حديد (فروش) يفريها شـــظايـــا وعزف (فروش) يبكيها نحيبـــا
وصب عليهم المقدور سوطـــا من الارياح يستذري (عسيبـــا)
فحسبك أيها الخطـــب المفاجـــى لقد أشهدتنا اليوم العصيبـــا
فأبكيت الهلال به وطـــه وأبكيت ابن مريم والصليبـــا
فسر في ذمة التاريخ خطبـــا رهيبا في مسامعنا مهيبـــا

ويلتفت الشاعر الى (الام الحنون) ، الى القطة آكلة أبنائها ، يلتفت اليها في حساب مرير ، وعتاب أمر ، وذلك جهد المقل ، وأضعف الايمان:

فيا (ظئر) الجزائر ، يا فرنســـا أيجدر بالجزائر أن تخيبـــا ؟
تناويك العواصم وهي تصبـــو اليك ، فهل شهدت لها ضريبـــا ؟
ويا ولد الجزائر • من حماهـــا وكن تبرا بساحتها أريبـــا
ولا تخشـــى الـــوقاع بها ، فاني رأيت الله مطلعا رقيبـــا[١٣]

وطوى الجزائري الامعاء على الطوى ، واكتفى من العيش بالصبابة ، وولى وجهه وجهة أخرى ، ربما وجد فيها بعض العزاء ، ذهب يتلمس طريقا يبلغ بها صوته الى الحاكم المستبد يرفع بها حشرجته علها تصادف التفاتة من قساة القلوب • وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار •

---

(١٢) (فرش) لغة في (فرج) ، بالفرنسية •
(١٣) القصة والقصيدة في (شعراء الجزائر) •

فطلعت (النيابـات الاهلية المـالية) افقـا لامل جـديد ، وتخيـل المواطن (النائب المالى) مسمعا لصوت تصامم عنه المستعمر ، وتوسم فيـه مندوبا عن وفد أوصدت في وجهه الابواب فأيده بالنفس والنفيس ، وعززه بأصوات دامية • فلم تكن الانتخابات في الجزائـر ـ بدسائس الدخيل ـ الا مسرحا لسفك المزيد من الدم الجزائري ، وكانت ميدانا للصراع بين المستعمر المزيف ، والمواطن الذى يدلي بصوته تحت دوى الرصاص ، وبين النظرات الشزراء من جلادى الانتخـــابات ، أملا في أن يرفع على الاكتاف مخلصا أمينا في ابلاغ صوت الشعب دون تحريف أو تمويـه ، صلبا في ان ينضم هو الاخر الى مسرح العرائس التى يرقصها المستعمر •

ولكن الانتخابات الفرنسية المبيتة للجزائر ، كانت أبعد نظرا ، فقد أريد لها ان تكون مضرب المثل في التزييف ، وان تذهب مثلا شرودا في المجتمعات الدولية • وكانت المعارك الانتخابية الدامية التي يخوض غمارها، لا تساوى عند المستعمر أكثر من صندوق من الاوراق المبيتة يحل محل الصندوق الحقيقي •

فاذا (بالنيابات) هى الاخرى وبال على الشعب ، واذا بـ (النواب) من صنائـع المستعمر يتقدمون باسم الشعب ، ليكملوا روعة المأساة ، ويمثلوا الادوار التي يمليها عليهم ساداتهم :

أفدني برأي في النيابات هل حوت ... أساود في قاعاتها ، أم وســـائدا
فيا نائبا ناب البـــلاد بحـــادث ... فخلف شعبا قائما فيه قاعـــدا
على أي ظهر كنت سوطك منـزلا ... وفي أي نحر كنت سيفك غامـــدا
وما لك ترغى في النيـابة موعـــدا ... ألم تك من قبل النيابة واعــــدا
ويا مجلس النواب ، انك قاطع يدا ... ـ كنت منها ـ لو تبينت ـ ساعدا(١٤)

---

(١٤) القصيدة في كتاب (محمد العيـــد) • أبو القاسم سعدالله • ص • ٢١٠ • دار المعارف • ١٩٦١ • قيلت القصيدة في سنة ١٩٣٣ •

مواعيد عرقوب :

أما وعود فرنسا التى تسخو بها أحيانا ، فلم يكن يقصد بها الا تهدئة الموقف ، والحد من غلواء الهيجان الشعبي ، وقد يقصد بها استرضاء الشعب واستدراجه لمساعدة الدولة في أزمة ماسكة بخناقها • كالوعود التي تطلق عادة عند تجنيد الجزائريين للحروف التى تخوض فرنسا غمارها لقد كانت هذه الوعود بمختلف صيغها ومناسباتها برقا خلبا لا يحمل للارض الجدباء الا التعلل بالاماني الكاذبة ، وان من أعمق الاسباب في فقد الثقة في فرنسا ، وعودها التي لم تكن ذات مدلول في يوم من الايام •

قال محمد العيد :

ما للحقوق الينا غير واصلة ... وقد سمعنا بها من منذ أزمان
هل عاقها البحر عنا ، فهي عاجزة ... عن قطع ما فيه من لج وشطآن
أم راقها البحر حسنا ، فهي سابحة ... تلهو بما فيه من در ومرجان
أم ألحقت ببنات البحر ، فاحتجبت ... عن كل قاص من الرائين ، أودان
ياباحثا ممعنا في كشف حالتنا ... الى متى أنت في بحث وامعان ؟
الى متى أنت منا خائف حذر ... كأننا في البرايا (جنس غيلان)[15]

وبقدر ما كانت هذه الوعود مجالا للتذكير المتوالى من المواطن المتعطش الى بصيص من واقعيتها ، كانت من جانب فرنسا ميدانا للمراوغة والمماطلة ، ومثارا للمكامن المكبوتة •

يا (وفد) ذكر فرنسا ... عهدا تقادم عهدا
قل • مسنا الضر قبلا ... وخاننا الصبر بعدا
متى تفين بوعد ... يا أعذب الناس وعدا
لابد أن تمنحينا ... ما لا نرى منه بدا
فكم وسعناك برا ... وسعته اليوم جحدا
وكم ظلمنا ، فقانا ... لعل للظلم حدا

---

(١٥) القصيدة في محمد العيد ص ٢٢٢ •

فخففي الحجر عنـــــا ‏ انا نضاهيـــك رشـدا
انا نقاضيك دينــــــا ‏ قد آن أن يسـتردا
حقا لنا منك يقضـــي ‏ لانعمة منك تســـدى[١٦]

ويمتد نفس المطل ، وتحتد معه صيغة الاستفهام ، حتى أنك تتخيل وراء كل نقطة استفهام بركانا ينذر بالانفجار :

متى توفي الوعود ؟ فقد مللنـــــا ‏ تساؤلنا • متى توفى الوعـــــود
أصابتنا الجوائح والرزايـــــا ‏ وأعوزت المرافق والرفـــود
حنت أعناقنا الاغلال ظلمـــــا ‏ وحزت في سواعدنا القيـــود
وأعلنا المظالم والشكـــايا ‏ فأخفتها الدسائس والكيـــود
وأنغضـــت الرؤوس لنا هزوءا ‏ وانكارا ، وصعـــرت الخـــدود
ألم نوسعك في العظمى جهـــودا ‏ ألم تحم الحمى تلك الجهـــود ؟
فما هذا التجاهـــل والتناســـي ‏ وما هذا التنكر والجحـــود ؟
فسوسى المسلمين بكـل عـدل ‏ وخلى ضيهم فهم الاســـود
لهم في مقبل الايـــام شـــأن ‏ به يتمخض الزمن الولـــود[١٧]

وينزع الشاعر عنه ثوب الوقار ، ويخلع عنه رداء الانعزال ، ليواجه فرنسا في حساب عسير ويتطور من الاستفهام الى مكاشفة الحساب ، ومن التساؤل الى الاقرار ، ومن الرجاء الى ما يشبه الأمر الصارخ :

ليس حقا ، أن تحرمى الشعب حقا ‏ لقى النار دونه والحديـــــدا
ليس حقا أن تستريحي ويشـــقى ‏ ليس حقا أن تســـكنى ويميـدا
ليس حقا أن تستجدي ، ويبلـــى ‏ ليس حقا أن تخلدي ، ويبيـــدا
يا فرنسا • ردي الحقوق علينـــا ‏ وأقلي الاذى ، وكفي الوعيـــدا
نحن رغم الطغاة في الارض ، أحرا ‏ ر ، وان خالنا الطغاة عبيـــدا[١٨]

---

(١٦) القصيدة في المرجع السابق • ص ٢١٣ • قيلت بمناسبة سفر الوفد المنبثق عن (المؤتمر الاسلامي) الى فرنسا سنة ١٩٣٦ •
(١٧) القصيدة في (الشهاب) • ج ٦ م ١٣ • أوت ١٩٣٧ •
(١٨) القصيدة في (الشهاب) • ج ٤ م ١٢ • جوليت ١٩٣٦ •

خلـق جديـد :

أصبح لزاما على الشعب ان يعيد النظـر في نفسه وان يقـطع الامل في أى اصلاح لحاله يأتيه من فرنسا ، وراح يتلمس بين جنبيه نفســا عصامية ، تبعثه من جديد في دنيا المتناقضات وتخلقه خلقا جديدا في حياة دخيلة كادت تعمى كل المقومات الاساسية للشعب ، وتطمس معالمها •

فاتجهت العناية الى بعث الذاتية الصميمة ، واذكاء النخوة والاعتزاز بها ، وان أصبحت في مهب العواصف • ان التاريخ القومى الذى أقـام المستعمر بينه وبين ابنائه سورا من حديد ، من تزييف للحقائق ، وتشويه للمفاخر ، وغزو لها بتاريخ فرنسا وابطالها • هذا التاريخ يجب ان ينشر من جديد بيد مخلصة وفكر نزيه • ان الناشئة في الجزائر تعرف كـل شيء عن تاريخ فرنسا ، وتجهل كل شيء عن تاريخـهـا ، حتى وهنت الرابطة بين النشىء واسلافه ، الى درجة ان أساء بهم الظنون :

يا حماة البلاد ، يا فتية الضـا — د ، ترى هل لكم من الرأى مغنى
سار أجواركم مع العصر شـوطا — وبقيتم ما بين وهم ووهـن
أين منكم مهابة وانتصـاف — أم سكنتم الى احتقار وغبن
لا تقولوا : هان الجدود ، فهنـا — ساء نشء لهم به سـوء ظـن
في (تلمسان) في (بجاية) في (تيـ — هرت) في(القلعة) ازدهى كل فن[١٩]
دعموا البر ، دعموا البحر ، بـالا — علام ، من منشآت مـدن وسفن
ثم نيطوا من الظروف بمخـز — وأحيطوا من الصروف بمحن

---

(١٩) (تلمسان) من أعظم المدن الجزائرية ذات الطابع العربى ، وقد بلغت أوج حضارتها في عصر بني زيان • وفيها يقول الشاعر ابن خميس :
(تلمسان) لو أن الزمان بها يسخو منى النفس ، لا دار السلام ولا الكرخ
(بجاية) عاصمة دولة بني حماد ، وقلعة العلم أيام ازدهارها • انظر (كتاب الجزائر) • احمد توفيق المدني • ص ١٨٤ •
(تيهرت) عاصمة الدولة الرستمية • المرجع السابق • ص ١٩٢ •
(القلعة) قلعة بني حماد • المرجع السابق • ص ٢١٨ •

فاذا العيش حالك مثل ليــــل   واذا الربع موحش ، مثل ســجن
واذا الارض قفرة ، واذا الجــو   معمى ، تظله ســحب حــزن
وتقضى ملك الجدود ، فلم يبــد   ــق ، بأيدي البنين غير التمــني
يا لمجد مضيع ، غــير مجــد   عض كف عليه ، أو طرق ســن

والفخر بالامجاد في دنيا الاستعمار ، دعوى تحتاج الى برهان واي برهان ، تفتقر الى التذكير المتوالي ، فقد علق بالافكار وضر ثقيل ، والتوت الظنون في عزة الشعب وأصالته ، فاحتاج الصباح الى دليل :

وانا لشعب ، يعلم الله أنــــه   كريم، حصيف الرأي ، مرتفع الكعب
سليل جدود نابهين ، أعــــزة   مغاوير شوس ، كالضراغمة الغلب
ولكن عثا الحدثان في الشعب طاغيا   عليه ، كما تطغى السيول على العشب
فأصبح مغبونا من العيش مرغمــا   على الهون، مرهونا كيوسف في الجب
وغاب عن الابصار، لولا مخايل تلوح   كومض البرق من خلل السحب(٢٠)

ولا يزال محمد العيد يعزف على الوتر الحساس ، ويجس النبض بيد صناع ، ويلامس القلب بخبرة الطبيب الماهر . وينتصب في تحــد وكبرياء بتاريخ وطنه المجيد :

عدمنا الرشد في الدنيا ، كأنــــا   فلول معارك ، وغــواة طــرق
ولو أنا على الحق اتفقنــــا   لكنا سادة الــدنيا بحــــق
أتسبقنا الشعوب الى المعــــالي   ألسنا قبلهم أحرى بســبق ؟
ألسنا بينهم خير البرايــــا   سماحة ملة ، وزكاء عــرق ؟

وتحت تأثير هذه الوخزات ، سرت في الشعب رعشة الحياة ، ونشط من عقال الغيبوبة وراح يستجلي معالم طريقه في كل ميدان ، ويناجــى

(٢٠) القصيدة في (الشهاب) ج ٦ م ٧ جوان ١٩٣١ .

آماله بكل لسان ، وانتفض انتفاضة (الاصلاح) لـكل مزيف بفعل الدخيل • يلاحق الافكار المضللة (بالنوادى الثقافية) ويحضن الجيل المشرد (بالمدرسة الحرة) ويفتح من (الصحافة) ميدانا للصراع العقائدى ، بين مقومات الشعب الاصيلة ، وسموم الثقافة الدخيلة ، وانتصب عملاقا بمقوماته في مهب العواصف ، أبيا بأمجاده في دنيا السخرية والاهانة ، وطاول زمنا باللسان والقلم ، وصاول بالصحيفة والمنبر ، فلم تلبث (عصاميته) القديرة في ميدان القول ، أن فتحت له طريق العمل :

شرع الكلام الى مدى ... يا قوم • فالعمل العمل
الشعب منحل العرى ... خزيان ، مختلف العلل
صاد ، وليس به صدى ... نمل ، وليس به نمل
ضربت على يده القوى ... وفشت بجانبه الحيل
لبلائه ذعر الورى ... وبصبره ضرب المثل
من للجزائر ، يفتديها ... اليوم من سفه السفل
يا مشهرين من العزائم ... مثل مرهفة الا سـ
خوضوا بها الامواج ، واء ... ـوا الشهب واقتلعوا القلل
من قال • جل عدوكم ... قولوا له • المولى أجل[21]

معجزة تتحقق

وكانت التنظيمات السياسية تعزز في السر ، ما يدعو اليه الاصلاح في شبه العلن ومهدت الدعوات الاصلاحية الارض لبذر بذور الانتفاض ، وفتحت الافكار لقبول (بدعة) الحرية والاستقلال • وبرزت لفظة (الحرية) الى الوجود ، ولكن بوجه مقنع ، فالحياة المكبلة لا تحتملها

(٢١) القصيدة في (الشهاب) ج ١١ م ٩ اكتوبر ١٩٣٣ •

سافرة • فاكتست الحرية اسم (ليلى) ، ورفرفت (ورقاء) تارة ، واخرى غردت هزارا • ومن خلال الاسماء المستعارة ، وبلسان العاطفة ، ناجى المواطن عشيقته ، وبثها أشواقه ، ولاحقها في كل زاوية ، عله يحظى بوصل • ولكن عين الرقيب لا تزال ساهرة ، فآب التائه الجبران برجع الصدى :

أين (ليلاى) اينها — حيل بيني وبينها
هل قضت دين من قضى — في المحبين دينها
أصلت القلب نارها — وأذاقته حينها
مذ تعرفت سرها — وتعشقت زينها
روعتني ببينها — لا رعى الله بينها
فتعلقت بالطيوف — اللواتي حكينها
وتعلقت بالمنى — فتبينت مينها
ما (لليلاى) لم تصل — مهجات فدينها
وقلوبا علقنها — وعيونا بكينها
ايه ياعيني اذرفي — لن ترى بعد عينها
السماوات والاراضي ، — جميعا نفينها
كم تساءلت سالكا — أنهجا ما حوينها
لم يجبني سوى الصدى : — أين ليلاى أينها ؟(٣٢)

ويئس الشاعر من العثور على (ليلاه) ، ورضي من الغنيمة بالايات وراح يطلب (تورية) أخرى في مناجاتها ومناغاتها ، ويقرب

---

(٣٢) القصيدة في الشهاب • ج ٧ م ١٤ سبتمبر ١٩٣٨ •

النعوت والاوصاف ، حتى التقى بها (ورقاء) مجنحة ، ولـكنه لقـــاء بعيد فالرقباء أشد ما يكونون تيقظا وحراسة :

ولقد شجت قلبي وهاجت عبـرتي (ورقاء) في شرف بعيد عـــال
حمراء ، حرر جيدها من طوقهـا في الورق ، فهي عديمة الامثـال
هتفت ، فقمت مجاوبا لهتافهـــا ولحنت عن قصد ، فقلت تعـالى
شرقية في الطير ، أو غربيــــة ما دمت واصلة ، فلسـت أبـالي
والهفتاه عليك ، حسنك فائـــق وهواك ممنوع ، ووصلك غـالي
من كان في العشاق باسمك ناطقـا فكأنما هو ناطق بمحـــــال
قد أحدق الرقبـاء والعــذال بي ويلي من الرقبـاء والعـــذال
عز اللقاء ، ولست منك بيائـس فلعل بعد البين قرب وصـال[٢٣]

ويوم كان محمد العيد يبث هذه الاشواق (لورقائه) ويستجير من الرقباء والعذال كانت الايام تقترب من ١٩٥٤ • وكان المعجزة المبيتة في الظـلام تزحف الى قمم (الاطلس) لتحقق الوصل ، وتجعل اللقاء لقاء خالدا ، وترمى بالرقباء والعذال في عرض البحر من حيث أتوا وتدفع ضريبة لذلك مليون ونصف شهيد • ومن طلب الحسناء لم يغله المهر •

فما لبث (محمد العيد) ان عانق (ليلاه) و (ورقاه) و (هزاره) في علم حر جزائري خفاق •

ويا علمي تحيا على رأس أمتـــي شعار كفاح تسحب الذيل بالفخـر
وتاج لجين شـــده بزمـــــرد هلال شموخ ، زانه كوكـب دري
ويا علمي تحيا بأجواء أمتـــــي وآفاقهـــا بدرا يتيه على البــدر
تسير على أضوائه مستدلـــــة على الهدف المنشود بالانجم الزهر
ويا علمي انى أرى بك عالمـــي بدا بعد ما أخفته عنى يد الستـر

---

(٢٣) القصيدة في كتاب (محمد العيد) ٠ ص ٢١٢ ٠

فأنت حياتي أنت روحي وراحتي		وراحي وريحاني ويسرى من عسرى
وأنت صدى عزمي وأنت ندا يدى		وأنت هدى قلبى وأنت مدى عمرى
أحيك من قلبي بما أنت أهلـــه		تحية عذرى الهوى صادق العـذر
يذوب اشتياقا للعناق وطيبـــه		ولكنه مستعصم بعـــرى الصـــبر
رآك رفيعا فاحتفى بك واكتفـــى		برفع يد حتى اشتفى من لظى الجمر

الجزائر ١٨ـ١ـ١٩٦٥

صالح خـرفي

كلية الآداب ، جامعة الجزائر

من وفد الجزائر

الأدب ومعركة التحرير

بقلم

علي صدقي عبد القادر المحامي

سيداتي وسادتي :

ماذا يعني عمل الاديب ؟ هل هو عبث ، فرارا من القلق والضـــياع والحيرة ، التي تطبق عليه ؟ هل هو ترف لجوانبه الناعمة التي لم يشبعها ؟ هل هو التزام يحرك وجدانه ، يضعه أمام رؤيا يدركها بعينه ، أكثر ممـــا يدركها باذنه ؟

ونستطيع ان نجيب بنعم ، ولا ، في آن واحد ، وهذا لا يعني الغاؤنا لفعالية أداتي الايجاب والسلب ، ولكن الذي نعنيه ، الحد من الاطلاق ، والتعميم ، اللامحدودين في الاحكام •

فاذا كان الادب عبثا بالمفاهيم الخاطئة المعوقة التي تشكل الطفيليات ، والتي تجاوزها العصر ، لتبعدها عن منزلة الصنم المخيف ، الذى يخشاه المجتمع ، ولا يملك الا ان يعبده لانه من مخلفات موروثـة •

واذا كان ترفا لا ينسحب ظله البارد على المضمون ، ولا يكون على حسابه ، بأية حال ، بل في خدمته ، ويكون من معطياته الامتاع واللذة ، لاشباع عاطفة انسانية ، بها يجدد الانسان نفسه ، ويفك الاجزاء الصدئة ، من ذاته ، ليطرحها عنه •

واذا كان التزاما ينطلق من رؤيا واضحة ، حرة ، ومن قيمة انسانية ، لها خصوبتها ومداها الواسع ، ليقوم بتعرية الاشياء ، وليسقط عنها ما يغلفها من ضباب ، ويعطيها اسمها الصحيح •••

اذا كان كذلك ، وامكن وضع هذه الاشارات ، أمام عمل الاديب ، فان ذلك العمل يكتسب المناعة ، لخدمة أنساننا العربي في منطقتنا هـذه ، وبالتالى ليشق طريقه ، للالتقاء بالانسان في كل مكان من خـلال الاداب الاخــرى .

وعلى هذا الضوء ، ينتصب سؤالان ازليان ، هل العمل الفنى اسلوب او موقف ؟ وارجو ان تسمحوا لى ان احدد اين اقف الان منهما ، انني اعتقد ان العمل الابداعي موقف ، وهذا ما يجعله رسالة ، لهـا بعدهـا الثالث ، تستقطب غائية معينة ، وهذا لا يعني اسقاط الاسلوب من الحساب ، لان الرسالة بما لها من نبل وحرارة ايمان ، فانها لا تعتبر خلقا فنيا ، ولا ترقى الى مرتبته ، اذا كان شكلها فاقدا للرعشة الابداعية ، المؤدية للدوار الخفيف اللذيذ ، ذلك ان انبل دعوة اذا تخلف عنها الشكل الفني ، لاتكون ابداعا .

ولا يغنى من يقول ان العمل الابداعى ، اسلوب وليس موقفا ، ولا غائية بعد ذلك ، بدعوى ان الموقف يغتال الفن فذلك غير وارد لان العمل الهادف لا يتكامل الا اذا احتضنه شكل فيه من دفىء الحياة وجدتها وعطائها .

فدعاة مذهب الفن للفن ، اشبه ما يكونون بابطال من غيـر ميادين يجرون خلف الريح لمحاولة معرفة وجه العاصفة هل هو طويل أو عريض ؟ ويتساءلون هل تسترد الشمس ضوءها عند غروبها ويمتص قرصها الشعاع ؟ أو يبقى ضوءها ضائعا بالفضاء يبحث عن قرص اخر للشمس ، بلا حيـاة واذا ما توقفوا عن الجرى ليلتقطوا انفاسهم اللاهثة وجدوا انفسهم وحيدين تأكلهم العزلة الموحشة التى فرضوها على انفسهم لانهم منفيون من مجتمعهم يعيشون حياة جانبية .

ان العمل الفني بدون ايدلوجية يكون غير حاضر الا اذا قلنـا ان الشمس للشمس ، وليس لها من وظيفة غير التسلية ، بسعيها بين الصبح والمساء من المشرق الى المغرب ، اننا اذا نادينا بذلك نكون جردنا الفن من وظيفته ، التأثير والتفسير والتغيير .

التأثير في المجتمع باعطائــه دفعات الى الامام ، تجديدا لطاقاته وتفسيرا لفعاليته .

والتفسير للحياة ليستطيع ان يشق قشرة الانسان للغموض في اعماقه لتعريفنا بانفسنا وللتدليل على وجودنا .

والتغيير لاذابة جدران الثلج والقضاء على الرتابة معنا للتحجز .

فالاديب وسيلته التي يتعامل بها مع غيره هي الكلمة التي يغمسها في مطهره ، في دواته ، ليزيل عنها الشوائب التي علقت بها عبر القرون والاجيال، فتخرج شابة طرية كانه خلقها لساعته ولم تستعمل قبل اطلاقا والاديـب الاصيل تحس بكلمته تولد امامك ، وهي تقفز وترقص بين عينك واذنك فلا تصدق ان تلك الـكلمة استهلكتها العصور الماضية بالاستعمال ولا تصدق ذلك لانك شاهدتها تولد امامك في بيت من قصيدة في سطر عذراء لا اجمل ولا انظر .

والعمل الادبي ليس هروبا من الواقع الى عوالم الرومانسية الوردية ، وانما هو اكتشاف للانسان ولعلاقته باشيائه اكتشاف لافتةالحياة الكبيرة التى تعلن عن كينونة الانسان ووجوده ، وقضية حضور الانسان او غيابه تطفو على اعمالنا الادبية ولا يكون هناك ادب هـــادف ، ولا يقف على قاعدة شعبية متخذا من قضاياها خطوطا لفنه .

واذا كانت الاصالة تدرك بقدر التعرية والكشف عن الحياة ، فان التغيير تغيير الحياة وظيفة العمل الادبي لما يحمله من بذور ذات طــاقـات تتفتح مع كل فصل من فصول السنة .

على ان النضال الفني فى ميدان الفكر أكبر من ان تضمه فترة او ظرف محددان ، لان خطوته اوسع من ذينك الظرفين ، ويظل العمل الفني ينشط خارج الزمن بينما النضال المسلح يضغطه ظرفا الزمان والمكان بحيث يفقد شرفه خارجهما وينقلب الى عمل تخريبي ، في الوقت الذى تجــد فيه النضال الفني تجرى خلاله رسالة هي اشرف ما يحمله الانسان تعمل على التجمع والوحدة داخل الجماهير العريضة ، وبقدر ما كانت الكلمة صادقة

وجدت التعاطف وولدت الاستجابات لدى من يحس بانسانيته ومن يملك القدرة على التلقي والانفعال ، وعندما ينفعل المتلقي ، فانما يلبي حاجاته ودوافعه المضطربة في داخله لتطرح الصدأ المتراكم وتبدأ المعاناة الانسانية في هبوبها بما فيها من عذابات تحلو أكثر من مرة تحقيقا لمستقبل تكون فيه الكرامة مطلبا جماهيريا ، معترفا به من الناس كل الناس وعندئذ يذوب التزييف الجماعي ، الكذب الجماعي الذى يملأ تجويفات رؤوس الذين يطمعون في تقسيم العالم ، كما لو كانت البلاد والناس ارقاما جامدة ، توضع في جدول التكتلات في الوقت الذى يسقطون فيه من حسابهم ارادة البلاد والناس الذين يرفضون ان يتحولوا الى ارقام في جدول ، وهم غير مستعدين لاهدار وجودهم وكرامتهم وحريتهم لان الغاء شخصيتهم أمر غير وارد باية حال انهم اقوى من كل شيء •

والاديب مدعو في مرحلتنا العربية هذه ان يكثف في عمله الفني كل مدخرات الانسان العربي النضالي ، ويختصر كل صفاته الكفاحية ليقدمها في شكل كلمة ، في حرف في اى عمل ادبي الى جماهيرنا التي تترجمها في مرحلتها الانية الى رايات تسد الافق الى اناشيد تهز المنطقة الى نار تغسل ، تطهر فلسطيننا وجنوبنا العربي من ظلال العنصريين والمستعمرين الذين حجبوا عن ارضنا أمنا الشمس ، لتسطع من جديد كما سطعت مؤخرا بوطن المليون ونصف شهيد ، الجزائر ، لينبت القمح والزيتون والازهار ليلعب اطفالنا فوق تربتنا بلا خوف بعد ان يختفي الموت ولم يعد يطرق كل بيت في الصباح وفي المساء بغير انتظار ليدخل وعلى انيابه الف جوع اصفر لم يشبع بعد يريد دما جديدا ، دم ابن ، دم زوج ، دم أب •

الاديب مدعو لان يعطي معركتنا ضد العنصريين والمستعمرين ابعادا جديدة وقيمة جديدة ترسب في نفوسنا الثقة بالانتصار واكساب النضال روعة الاعياد والاعراس وبالتالى التركيز على الايمان المطلق بان معطيات هذا النضال معطيات انسانية وان جدواها لا يقتصر على منطقتنا ، بل يمتد

الى غيرها ، لانها تشكل تراثا انسانيا وان كنا نحن وحدنا بدمائنا وشهدائنا نصنع هذا العطاء لان القدر اختار امتنا العربية لهذه التضحية لاننا اصحاب رسالة •

نعم نحن عرب واصحاب رسالة ، ولكن على صانعي الحرف في العالم ان يقدروا ذلك ويقفوا معنا يقفوا مع الحرية اننا نضعهم امام مسؤولياتهم وناديهم من فوق هذه المنصة ، بمؤتمر الادباء العرب المنعقد ببغداد الماجدة ان الحرية لا تتجزأ ، فسرقة وطن بأكمله (فلسطين) ثم تسليط القوانين العرقية العنصرية على من بقي من اصحاب هذا الوطن والغاء ارادة وحرية شعب الجنوب العربي تجعل الشرفاء في العالم يقفون أمام انفسهم ، وقد عرتهم هذه التجربة ليقولوا هل هم مع انفسهم او مع الحرية ؟ هل هم مع الانسان او ضد الانسان !!!

انها معركة مصيرية لا محل لمتفرج واحد فيها وعدم الحضور بالمعركة يعني الغاء الذات والكينونة الحياتية يعني هروب الجندي من معركته الفاصلة •

اصدقاء الحرف العرب مدعوون في مرحلتنا هذه الحاسمة ، لتأكيد هويتنا العربية باستمراره لمواجهة التحديات وهي اخطر ما واجهنا منذ انحسار الحرب الصليبية بالهزيمة لايقاظ النخوة والبطولة النائمتين في اعماق كل فرد منا ، لاطلاق قدراتنا النضالية المخزونة خلف كل قطرة من دمائنا لشجب عوامل التيه والتمزق والتشكيك وهي مخلفات الطغاة الاتراك الذين حكموا ارضنا وهزوا كياننا القومي وحاولوا تفكيكه وتعمدوا وضعنا في فراغاتهم المظلمة ليحيق بنا التأخر الفكري ومخلفات الاستعمار الاوربي الذي الذي عمل على ان يضع على وجوهنا بصمانه القذرة ليحولنا الى عبيد كما فعلت ايطاليا بشعبي العربي ببلدي (ليبيا) •

اننا نقف مع قدرنا المحتوم وجها لوجه فاما ان نكون أو لا نكون اما ان نذوب ونمحي او يبقى وجودنا تحت الشمس يبسط ظلمنا على ارضنا في كبرياء ولا ظل لغيرنا عليها •

اننا مدعون لان نعيش قضايا شعبنا العربي ، ولان نشيد ببطولاته

التي تتخذها مصدر ألهامنا ، ولتجسيد النصر في كل معاركه ، كنتيجة لا شك فيها حتى لا تجد شعارات التعويق والانهزام سبيلا الى جماهيرنا العريضة •

انا مدعون لان نحول قضايانا الى قضايا انسانية عالمية عندما نتحدث عن فلسطين فنركز على عملية الابادة التي ترتكبها الصهيونية ضد اهل البلد بسبب التمييز العنصرى العرقي ورفع هذه القضية باعتبارها من قضايا الحرية التي يتوجب فيها ضمان حرية تقرير المصير لشعب يرابط على حدود بلاده تحت الخيام ، بعد ان تحول الى فلول من اللاجئين في ليلة مظلمة سرق فيها الاستعمار القديم ارضه وسلمها للاستعمار الجديد ، يجب التركيز على ان الصهيونية الوجه الثاني المشوه للاستعمار وبهذا الاصرار يمكن سحب الارض من تحت اقدام اعدائنا •

ان العمل الفنى ، عمل ثورى من مميزاته الرفض ، وفي محافظته على ثوريته ورفضه ، يضع يده على عالمه كله ، عالم الحركة والانفعال والتطوير والتغيير عالم الحياة الواسع واى عمل غني بفقد الثورة والرفض يتحول الى شيء عادى روتيني مكرور مثل اصوات النواعير الرتيبة وما كان الابداع الا وليد الثورية والرفض ولا كان هناك تبديل وتحرير وبناء اذا كانت الاشياء مقبولة على حالتها الاولية •

ان هذا (الانا) في ذاتي او في ذاتك لا دليل على وجوده الا بحياته ولا تكون له حياة الا اذا كان الرفض والحركة من أدواته •

الادب ليس تصويرا فوتوغرافيا للحدث بحيث تكون له عدة نسخ وانما هو حرث للواقع بحثا من جذور الحياة لتحسس النمو والعطاء لاكساب الواقع قيمته الانسانية واغناء ضمير الامة بهذه القيمة حتى لا ينفصل الاديب عن مجتمعه وتلحق به آلام المنفى •

اما المعارك التي تثور هذه الايام حول القديم والجديد في الشعر فهي معارك وهمية جانبية تستنزف طاقاتنا وتحولنا عن معاركنا الحقيقية ثم تجمدنا حيث نحن لانها تحسبنا بين ماضينا وحاضرنا ولا تدعنا ننطلق للمستقبل

وعبثا محاولة اصدار احكام نهائية ما دامت الدنيا لم تنته بعد وما دام يوم واحد باق لم يعشه الانسان بعد فلا احكام نهائية على الفن •

العمل الادبي الاصيل هو الذي يسبق عصره ويبشر بعالم جديد ، ولن يقول احد ان الفن وجد من اجل الاحكام ، لان الاحكام هي التي وجدت لخدمة الفن •

ترى هل العروض مثلا هو خالق الشعر ، أو الشعر هو الذى صنع العروض ؟؟؟ وهل كانت ولادة الشعر تاريخيا على يد العروض ؟؟؟ فاذا كان الخليل بن احمد الفراهيدى هو ابو العروض ، فان ابا الشعر هو الانسان الاول عندما قال آدم لحوائـه ، كلمته الخالدة ، كلمته الاولى التى التي سالت على شفتيه ومسحتها حواء بورقة شجرة تفاح والتقطت حروفها الاربعة الازلية الخوالد ، فكانت كلمة : احبك •

والشعر ككائن حي ، وجهد بشرى خلاق لبناء الحياة يظل في مسيرته الطويلة بشكله القديم والحديث على ميعاد مع قدره ، مرتفعا عن هـذه المعارك الهامشية ، التي فقدت ميادينها ،ليحيى تجربة امتنا العربية التـــي تتعرض للتحديات ليظل شعرا ، وشعرا فقط •

المهم ان يكون هناك شعر اصيل ، ولا عليه ان اتخذ شكلا معينا ، لاحتضان تجربة ما ، فالتجارب تتالى بلا حدود منذ ارجوزة الشعر وسجع النثر ولن تتوقف اليوم ولا يوم الناس الذين يأتون بعدنا ، فالاشـــكال تلوب مع الزمن الدوار ، والزمن يدور ويدور •

ارجو ان تسمحوا لي سيداتي سادتي بان اتطرق لشعر ليبيا في معركة التحرير التي خاضها شعبنا العربي الليبي طوال فترة تزيد على ثلث قرن ،ضحى بما لم يضح به شعب آخر ، ضحى بنصف عـــدده ، كما تدل على ذلك الاحصاءات ، كانت معاركنا تستحيل الى برك من الدماء ولم تبق اسرة واحدة لم تقدم الاضاحي للوطن ، كان الاب يشنق مع ابنه ، كانت ليال مظلمة استمرت أكثر من ثلث قرن لم تطلع فيها الشمس لذلك جاء شعرنا الوطني مجبولا

بجبات ثلاث من الالم والدمع والعرق وادى الشعر دوره في المعركة وكان وقودها .

كان الشاعر سليمان الباروني ويطلق عليه : رب السيف والقلم ، لانه ناضل بسلاحه كما ناضل بقلمه فكان مشعل النضال المقدس ، وقد آلى على نفسه ان لا يحلق شعر رأسه ولحيته الى ان تنتصر ليبيا ، وشاء القدر الساخر ان لا يدرك فجر ليبيا ، ويموت يجلله شعره الذى تدلى على كتفيه وفوق صدره ، وقد اعطى حياته لوطنه قطرة قطرة الى ان فارق الحياة ، وهذه بعض ابياته من قصيدة تدل على الاصرار والتحدى تحكي قصة شعره الذى لم يحلقه حتى مات :

هذا هو الشعر الذي	شهد الحروب الهائلات
وعليه امطرت القنابل	كالصواعق نازلات
خاض المعامع لا يهاب	على الجياد الصافنات
آليت ان يبقى الى	ان يعبر الجند القناة
لنرى الغزاة على ضفاف	النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة	في ليال باهرات
تختال في برد الهنا	بالانتصار على الطغاة
ما بين تهليل وتكبير	وتقديم الصلاة
فيكون عنوان الفتوح	مدى العصور الدائرات
أو هكذا يبقى اذا	لم تنتصر حتى الممات
يامن وعدت المؤمنين النصر	أمنن بالحياة

والشاعر احمد الشارف ويلقب بشاعر ليبيا وشاعر القطرين طرابلس وبنغازي كان شاعرا يعرف اين يضع الكلمة ، ويحملها انفعالات جيل كامل ومن قصائده التي تغنى بها المجاهدون في سهول (ليبيا) وجبالها ، وكانت تسمع ولا تقرأ لان الشعر في عهد الاستعمار يجرى على السنة

الرواة ويحفظه الناس ويردد خلف الابواب المقفلة حتى لا تكون كتابته حيثية من حيثيات احكام الاعدام الكثيرة ، ومن قصيدته الوطنية هذه :

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض ان يعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش الا عزيزا ولا نتقي الشر ، بل يتقينا
فما الحر الا الذي مات حرا ولم يرض بالعيش الا امينا
وما العز الا لمن كان يفدي ذماما ويفني عليها الثمينا
وما الخزي والعار الا لشخص الى وطن العز اضحى مهينا
ونحن فروع زكت من اصول فنحيي مآثرنا ما حيينا
لتاريخ عنصرنا في الورى حديث على صفحات السنينا
اذا قامت الحرب كنا رجالا الى الحرب ارسخ من طور سينا
تراءنا نشاوى عليها كأنا شربنا بها خمرة الاندرينا
ولا عجب في الوغى ان اتينا بشيمة آبائنا الاولينا
أيا من يجرون اسطولهم الينا بالافهم والمئينا
فما ضرنا ان حللتم شطوطنا اذا شط م اكنتم قاصدينا
فكم في طرابلس الغرب ليث يصون البلاد ويحمي العرينا
وما زاد صرخ المدافع الا زئيرا لاشبالها الضائرينا

والشاعر أحمد رفيق المهدوى ويلقب بشاعر الوطن كان شعره النضالي يدخل كل بيت مع الشمس ويؤنس المجاهدين في ليالي العذاب الطويلة الكبيرة ، يستقر شعره في كل قلب بلا استئذان وكان شاعر الوطن الذى حفظ الشعب كله جميع شعره قبل ان ينشر واين النشر في تلك الليالي السود ؟ وقد واكب مسيرة الشعب يغني له ويعطيه من ذاته ويذوب الى ان جاء يوم قيل كان الشاعر هنا واصبح في ركب الخالدين •

ومن روائعه الكثيرة قصيدة : (غيث الصغير) يتحدث فيها عن طفل لاحدى اسر الشهداء بقى على قيد الحياة بعد أن استشهد افراد اسرته

الواحد بعد الاخر أمام عينيه ، فدخل الملجأ فيمن دخل من أبناء الشهداء وعندما زار الوالي الاستعمارى الملجأ أعجب بنباهة هذا الطفل فاعطاه مبلغا من النقود وسأله عما يصنع به ، فاجاب الطفل انه سيشترى به سلاحا لينتقم ممن قتلوا اسرته ، فاضمر الوالي شرا للطفل غيث ، فدس له السم في طعامه ومات ، ونقتطف من هذه القصيدة ابياتا متفرقة :

هو في الملجأ من دون اليتامى — دائم الصمت وقارا واحتشاما
واضح الجد قليلا ما يرى — ضاحكا الا اذا استحيا ابتساما
دون تسع ناحف في صحة — واستواء كالرديني قواما
قيل هذا دولة الوالي اتى — ليرى في ملجىء البر النظاما
خرج الاطفال واصطفوا له — للتحيات هتافا وسلاما
جال يستعرضهم ممتحنا — وهو يختار غلاما فغلاما
ما رأى فيهم كغيث اذ رأى — من ذكاه عجبا فاق الاناما
خاطب الطفل مليا فرأى — رابط الجأس فصيحا لا كهاما
عرف الوالي لغيث همة — ورأى جودا له يحكي الغماما
قال خذ يا غيث هذى مائة — لك لا تسرف وكن فيها قواما
قال يا مولاى سمعا انني — سوف ابقيها وان كانت حطاما
قال ما تصنع يا غيث بها — قل لي الحق ولا تخش ملاما
قال غيث وبدا الجد على — وجهه يشبه ليثا او قطاما
ان لي ثارا اذا ادركته — لا ابالي بعد ان ذقت حماما
لو تحصلت على مال به — اشترى عدة حرب وحساما
أدرك الثارات ممن قتلوا — والدى اني اريد الانتقاما
لجأوا ظلما وعدوانا الى — افضع الافعال اذ كانوا لئاما
عادة النذل اغتيال ولذا — جعلوا سرا له السم طعاما
لفظ الاخر من انفاسه — وينادى الانتقاما ، الانتقاما

والشاعر ابراهيم اسطى عمر قد ابدع للشعب من اجل الشعب ،

وتغنى ببطولات وامجاد امتنا العربية بدأ تجاربه وهو عامل الى ان جلس على كرسي القضاء فجسد الكلمة الصادقة وتخلى عن الوظـيفة ليناضل ويكافح في صف الشعب حيث ولد وعاش وكانت اشعاره بمثابة طلقـات النار فاعجب الناس بالشاعر الذى يطلق النار الى ان مات وهذه ابيات متفرقة من قصيدة عربية :

الله اكبر والتكبير من دأبـي ... اذا اعتراني ما يدعو الى العجب
ماجد في الشرق ها اني ارى عجبا ... في كل عاصمة عيد بلا سـبب
والقوم في كل قطر للعروبة قد ... علاهم البشر بعد الغم والنصـب
وفي ندائهم تمجيد وحدتـهم ... وفي قلوبهم شيء من الغضـب
الان آمنت هذا العيـد يعصمنا ... من التفرق او من حكم مغتصب
الله اكبر هذا اليوم للعـرب ... عيد لوحدتهم في القصد والارب
ابناء يعرب هذا العيد مرحلـة ... قطعتموها ،فجدوا السير في الطلب
نشيدنا دائما في كل مرحلـة ... الحق للسيف ليس الحق للكتب

والشاعر احمد الفقيه حسن هو شاعر عربي اصيل نظيف عاش تجارب بلاده (ليبيا) وتجارب العرب في كل مكان وغنى للعروبة وشجب الاستعمار وجعل من نفسه شعلة على الطريق لا تخبو يحترق ويضيء ويقول امتي العربية وبلادى ليبيا ولن يمر العدو وظل شعره يؤكد على الحرية وينادى بالاستقلال وبقى صوتا جهوريا تردده الوهاد والاودية صوتا عربيا اخضر ومن قصيدة له :

انا بني العرب في الدنيا باجمعهـا ... لنا فلسطين دار من أوالينـا
مهد العروبة لا زالت لنـا وطنا ... واننا لم تـزل عنهـا محامينـا
نحمي حماها ولا نرضى بتجزئـة ... لها ولسنا بحكم الضيم راضينـا
قد آن ان يستعيد السيف حجتنا ... من بعد ما زيف السيف البراهينا
لم نخش بعد قوى الباغين ما احتشدت ... وليس تستطيع يوما كف ايدينـا
ان العـروبة لاستقلالهـا طمحت ... بهمة دونها سعي المجدينـا

والشاعر احمد قنابة حمل شعره بالانفعالات أكثر مما يحتمل في كل بيت من شعره قصائد كاملة هو شاعر صامت ولكنه يترك شعره يتكلم دائما مؤمن بالعروبة حتى عظامه نادى بالحرية والاستقلال ووصل صوته أعماق الشعب ومن شعره :

الا هبوا بني وطني وديني	ندب عن العروبة والعرين
الا هبوا الا اتحدوا ومدوا	يمينكم امد لك يميني
ولا تهنوا فتنهزموا وتنسوا	عهودا من وثائقها حنيني
فجامعة العروبة لن تواني	على اعزازنا في كل حين
فما وطن العروبة كهف ضيم	ولا كنف الكنانة بالمهين
أجامعة العروبة انت ام	وجل بنيك في حصن حصين
أجامعتي أطل عليك عهد	كيوم النصر وضاح الجبين
فهبي كي نحرر كل قطر	اهين وكل شعب مستكين

والشاعر بشير الجواب كل ما فيه شعر ، لقد ولد شاعرا وكأنه المسؤول وحده عن مشاكل العرب فحملها على ظهره ، ويقول انا عربي ، ودمي ان لم يكن عربيا ، فلا حاجة لي به يغني الشعب بقصائده الطويلة لانه التقطها من أفواه الشعب ، عاش كفاح الامة فحول دماءها وعرقها الى ابيات من الشعر ، فيقول :

أتصفو الليالي ويحلو الزمن	بفسح المجال وبعث الوطن
ولسنا نبالي بكل الاحن	فسوف نوالي جهادا يشن
يدوم النضال ومهما يكن	وطيس النزال فلسنا ولن
نعود لخالي زمان وهن	بعزم الرجال يعيش الوطن

والشاعر رجب الماجرى هو شاعر استطاع ان يحول الكلمات الى وزن نغم يتمثل فيه التمرد والرفض حينا وحينا آخر يرضى على كل شيء

وحتى على شوك كل شيء أيضا ، يحمل نفسه والكـــلمة للناس كل الناس ومن شعره يندد بعجوز الاستعمار :

ليهنك موطني عهـد جديـد طوى الأذلال مطلعـه السنى
ليهنئك ان تكن طلقت حقـا عجوزا وصلها حمق وغـى
سياستها لرائدهـا طريـق مضل ذو شـعاب لولـبي
فهذا الشرق وهو اليـوم نار مؤججة بصحبتها شـقى
فلا يغررك ان وهبتك مـالا زهيدا كل ذى غرض سخى
تجود لغاية تسـعى اليهـا خداعـا فهو جـود اشعبي
اذا جر الرفاه الى قيـود (بحسبك من غنى شبع ورى)

والشاعر علي الرفيعي كتب للناس وأعطاهم ما عنده ولـكنه لم يعطهم كل ما عنده أكل عذاب الكلمة ولم يشبع وشرب الحرف ولم يرو هو شاعر يسكت حينا ويتفجر حينا آخر ، ويغضب من شيء ومن لاشيء ولكنه لا يغضب على قرائه وقد كتب الشعر التقليدى والحـديث لا يهمه من الشكل الا ما يتعاطف مع تجربته كشاعر ومن شعره :

باسم العدالة سوف احطم ما ينبت
باسم الـكرامة والحقوق الضائعة
بالـكبرياء تثور في جرحي الخضيب
باسم الدموع وضيعة العرق الصبيب
باسم الضنى والـكدح والحق السليب
باسم المتاعب والمواجع والاسى
وضراوة البرد العصيب
وحرارة القيظ المذيب
ستشب نار البغض في مخضل هاتيك الربوع
ماذا جنيت من التسامح والرضا

غير الجحود وخيبة الجهد المضاع
والضيم والعرق المهـــان
قد كنت بالامس الحقود
عبدا أجير
لـكنني ابدا سارجع مالك الارض الـكبير
فالان أعلنت المواجع صرختي
من أجل حقي في سبيل كرامتي
وغضبت واسترجعت من حريتي
من بعد قيدى بعد علقم ذلتي
فانفت محياى الوضيع
وسئمت ضعفي واندفعت بجرأتي
وصرخت في وجه الدخيل المحتكر

أما الشاعر على صدقي عبدالقادر وهو انا المتشرف بالحديث اليـكم ، فماذا أقول لـكم عني فهل انصفوني ؟ أم ظلموا انفسهم ؟؟؟ لست ادرى ؟ فماذا أقول لكم عني قالوا أنني شاعر فهل انصفوني؟ أو ظلموني ؟؟ أم ظلموا انفسهم ؟؟؟ لست ادرى ؟ فماذا اقول لكم عن نفسي ؟؟ لا اعرف ، صدقوني لا أعرف ، الا انني اود ان أقول لكم انني احب الاطفال والجمال وخيوط المطر ووجه أمي وبلادى .

هل هذا يكفي ؟؟ اعتقد ذلك وهذا بعض من شعرى :

اليكم كبار بلادى
تحمل أمي يدى رسالة
بها دفقة من حليب الرضاعة
ودمعـــــة
بليل طويل ، وتهويم شمعة

بها قصة ، تاريخنا ، مختصر
وتسألـكم عن مجيء الربيع
وعن حارس اسمر فوق أسلاكه الشائكة
وأصبع يمناه فوق الزناد
متى تضغط الاصبع الجائعة ؟؟
لاكل الزناد
لاجل نداء الحدود
حدود فلسطيننا
وتسأل عن ساعة الصفر ، تصلب فيها الظلال
وتطلق فيها الرياح الحبيسه
وتسألكم أبنتي
متى يا كبار بلادى نعود ؟؟
الى دارنا
ففيها تركت العـرائس ، واللعب الضاحـكة
لاني سأرجع
متى يا كبار بلادى نعود ؟؟
فهلا سمعتم نداء التراب
وهلا رأيتم مآذننا عند كل مساء
هناك ؟ تطل عليكم
تطاول تغمس في قرص شمس الاصيل
اهلتها وهي بالدم تقطر
تعيش على أمل العودة
وترقب عبر الافق
ولادة اعلام يوم الخلاص
واذرع قافلة العائدين

ايها الملأ الكريم ، ارجو ان أكون قد وفقت ، ومعذرة لزملائي الشعراء في ليبيا غير المذكورين لانني لم استطع الحصول على نماذج من شعرهم وانا احزم امتعتي على عجل لضغط عامل الزمن علي الذي وضعني في ظرف ضيق لدرجة انني كتبت هذا وانا اضع قدمي على طريق السفر ، ولكم يا قادة الفكر في هذا المؤتمر مني التقدير .

يامن تجتمعون هنا على صعيد الحرف المضيء ، ببغداد الخالدة
لكم من صناع الفكر في ليبيا تحية عربية

وشكرا والسلام

المحامي علي صدقي عبدالقادر
عضو وفد ليبيا
جادة عمر المختار ١٦٣ طرابلس ـ ليبيا

(انتهى)

دور الأدب في معركة التحرر والبناء في الوطن العربي

بقلم

التيجاني عامر و محمد المهدي المجذوب

أيها السادة والسيدات والآنسات ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ،

كنا هنا في الزمان المتقادم ، وكنتم هناك في السودان ، فاذا تغيرت الالون فما تغير الجنان ولا اللسان ، فباسم اللسان العربي البناء كنا وما زلنا مرابطين في اعماق افريقية ، وقد اعطيناها فأعطتنا ، ونحن البشراء فيها بحضارة عربية افريقية في السودان .

ان موضوع البحث حي متحرك تدعو الى النظر فيه دواع شتى عاجلة في فترتنا الراهنة ، الا انه عريض شاسع الاطراف قد تضيع فيه المعالم اذا أخذ على النطاق العالمي ، أو يبعد به المدى عن حياتنا وتقاطيع وجوهنا . فالثقافة النظيفة في مراحل التاريخ جميعها دفعت المجتمعات دفعا الى مراقي الحضارة ، وأرغمت الظالمين على افتتاح الطريق لمواكب الشعوب سواء كانت هذه الثقافة دينية او فلسفية او ادبية فنية او علمية او مزيجا من هذا كله غير ان معالجة الموضوع على هذا الاساس زيادة على ما قدمنا تبرز مسلمات لا يرتاب فيها الا جاهل ولا يشكك فيها الا معاند او صاحب مصلحة واذا اخذ البحث على النطاق العربي الكبير فانه ايضا ربما قرر مسلمات وكشف جديدا تلتقي فيه الوفود فيصبح مكروها مرددا . ونحن وان كنا جميعا اصحاب منزل واحد الا اننا كل واحد منا اكثر علما بما يدور في حجرته الخاصة لهذا فضلنا ان نبرز جهاد الثقافة العربية في السودان ما لاقت من عقبات وما حققته من نصر وما تبشر به من حضارة .

واذا كنا اكثرنا من الاستشهاد بالشعر فلانه اللون الغالب في السودان والطعم الشهي المستساغ عند سكانه العرب فهو حتى اليوم وبعد ان تبوأ النثر مكانته فظهر الكاتب الباحث وتجلت القصة المسرحية ، ما زال الفن السوداني المفضل •

واذا كنا احتفلنا بشعر من اللغة الدارجة ، فاننا نعتبرها في قطـر كالسودان لم تفتحه العربية بحد السيف و بأى وسيلة اخرى ، وانما انساب العرب اليه انسيابا بلهجاتهم من الجاهلية وما قبلها لغة حية مؤثرة هي التي بدأت النضال في السودان باسم الحضارة العربية •

وحضارتنا ايها السادة والسيدات والآنسات لها جذور ضاربات على شاطيء بحرية الرب ، ونعني بذلك البحر الاحمر •

ولقد حاطت الارض في العصور الجيولوجية المبكرة بهذه البحيرة في الجنوب والشمال فاليمـن والحبشة ارض واحـدة ، وسيناء ومصر ارض واحدة ، ودارت في هذه الارض حركة الناس حول البحيرة واقامت هذه الحركة النشطة الموانيء على الشطين • فالماء والارض في هذه البقعة طريق معبد مسلوك •

ولقد ذكر الفراعنة والاشوريون والفينيقيون العرب ، فاشاروا الى اهل البادية بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب •

وتحركت بيوت الشعر والجمال والسفن ذاهبة آيبة بين شطي البحيرة العربية تعطى وتأخذ ، ترعى وتقيم ، وقد تغير على شاطيء البحيرة الشرقى فتنشر ظل افريقيا على بياض العربية ويبـرق الـذهب والعاج في هـذه الظلال • وفي حرارة هذه الحركة الدائبة ولدت دولة أكسوم في شمال الحبشة وما زالت آثارها الحضارية قائمة • فاذا تقصينا في اعماق التاريخ حتى القرن السابع قبل الميلاد رأينا افواجا من قبائل حمير يقطعون باب المندب الى الساحل الغربي وبعد قرنين او ثلاثة قبل الميلاد نراهم أسسوا دولـة اكسوم ، ولقد اقتحم ملوك اكسوم من العناصر العربية السودان عن طريق البطانة ونهر العطبرة حتى افضوا الى مروى ذات الحضارة الفرعونية •

ولم يقنع هؤلاء بما ملكوا من افريقيا بل حاولوا احتلال اليمن وطنهم

الاول ، ولقد حالفوا بعض القبائل العربية لتكون لهم عونا هناك ، واخذ هذا الحلف والاعداد زمانا طويلا مكنهم من غزو اليمن فعلا في اواسط القرن الثالث المسيحي بقيادة الملك أفيلاس الذى سماه العرب الفيل وبهذه المناسبة فان ابرهة صاحب قصة الفيل في القرآن هو احد عبيد دولة اكسوم الذين ارتقوا لمناصل القيادات •

ان العروبة معروفة في أرض النوبة (السودان) قبل المسيحية بقرون عدة ، ولم تنقطع قط هجرة القبائل العربية الى السودان ، والتجارة منذ اقدم العصور هي التي حركت سكان هذه المنطقة فاقاموا الموانىء كما ذكرنا في مصر والسودان والحبشة والجزيرة العربية بل اكتسح المد العربي في وادى النيل حتى ان عربا من مصوع وفدوا على مصر قبل ميلاد المسيح ونشروا فيها عبادة الشمس التي ازدهرت في بلاد اليمن - ولقد اقبل الافارقة ايضا على الجزيرة العربية واشتهر منهم الاحابيش (من الحبشة) حلفاء قريش •

ان السودان قد عرف الثقافة العربية الجاهلية قبل ان يعرف الثقافة العربية الاسلامية ، ونريد بالثقافة الجاهلية ما حمله العرب من لهجات وعادات وعبادات جاهلية قديمة وبثوه في كل صقع نزلوه من افريقيا •

اما اللهجات العربية القديمة فهي لغة السودان الدارجة - بجانب الفصحى حتى اليوم ولهجة السودان الدارجة فصيحة مرنة ، ثرية بموادها وتراكيبها الدقيقة ، وهذه اللهجات الدارجة هي التي قضت على اللغات المحلية القديمة في السودان ومهدت بذلك لانتصار الفصحى •

ان تذوقنا لآدابنا الشعبية ، وهي حافلة ، يردنا الى طريقنا الاصيل في الحياة ومن ناحية اخرى فسيكون لهذا شأن خطير في تطوير الادب السوداني واعطائه لونا محليا نضيف به شيئا جديدا الى الادب العربي •

وزيادة على ذلك فقد يعيننا تذوقنا لشعرنا البدوي على تذوق الادب العربي القديم تذوقا لا يقوم على الخيال بقدر ما يقوم على المشاهدة والعيان •

ولعل كثيرا من المثقفين في العالم العربي الآن لا يعلمون ان للسودان

لغة عربية دارجة وهم معذورون في ذلك ، اذ اللسان العربي الفاشي في السودان كله محصور في منطقة كأنها دائرة تبدأ من شمال الشلال الرابع الى قريب من خطر عرض ١٢ ومن غربي جبال البحر الاحمر الى النهاية الغربية لحوض النيل وتحيط بهذه المنطقة قبائل سودانية لا تتكلم العربية كالنوبيين القاطنين بين اسوان ومصر ودنقلا في السودان والبجة المنتشرين من شمال الهضبة الحبشية الى تلال البحر الاحمر الى صحارى مصر الشرقية ـ والقبائل القاطنة اقصى دافور في الغرب والقبائل الزنجية الخالصة المقيمة بجنوب السودان •

فمن قدم الى السودان من شرق او غرب او شمال او جنوب ظن اهله لا يتكلمون العربية حتى اذا تجاوز هذه الحدود بقليل رأى انتشارها وازدهارها •

ودارجة السودان العربية من افصح اللهجات العربية العامة واقربها الى السلامة والوضوح واوفرها ذخيرة لغوية ولا زال العامة من السودانيين يستعملون نون الاناث ، يقولون جن وراحن اى جئن ورحن والمبنى للمجهول يقولون ضرب بكسر الضاد والراى ضرب المجهول وهذه صيغة ذكرها ثبويه في شاذ ماروا،وما النافية، يقولون ماشا وماجا ويستعملون ايضا ما الزايدة هو ما مشى او هو ماشى •

وفي دائرة السودان الفاظ عربية محضة لاتجد مثلها مستعملا في انحاء العالم العربي الآن مثل قولهم (منون) في السؤال عن العقلاء وهذا انما يستشهد به النحاة استشهادا بمعرض الحديث عن قول العاقل :

اتوا نارى وقلت منـــون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلامـــا

هذا وانتم تعلمون ايها السادة والسيدات والآنسات ان التأليف العامى قد نشأ في العالم العربي كله بعيد القرن الثالث عشر فلم يكن علماء السودان وادباؤه بدعا في ما ذهبوا اليه م نايثار العامية ولا ريب انهم بفعلهم هذا قد اعانوا على صقل اللغة الدارجة بما نقلوه اليها من التراث الديني الصوفي

ومن ادب السير والاخبار فقويت ملكة التعبير فيها قوة قليل نظيرها في سائر الآداب العربية الدارجة •

وفي القرن السادس الميلادى دخلت المسيحية في بلاد النوبة (وهذا اسم السودان القديم) عن طريق مصر وقامت ممالك مسيحية في شمال السودان وجنوبه عند ملتقى النيلين الازرق والابيض ـ وما قيام هاتين الدولتين النوبة العليا والنوبة السفلى فقد كان العنصر العربي المختلط بالسكان الاصليين موجودا ذا أثر ـ وله الفضل في نشر الثقافة العربية •

ومن الملاحظ ان الثقافة العربية لم تنتصر في السودان بحد السيف ، وانما مهد لها خلال القرون الطوال جنس مختلط من العرب والافارقة من اهل النوبة حتى اذا جاء الاسلام وجد وطنا في هذه المنطقة • ونحن نعلم ان المسلمين هاجروا الى الحبشة طلبا للامن والسلامة ـ ولما فتح عمرو ابن العاص مصر أرسل عقبة بن نافع في اربعين الفا الى أرض النوبة فارتدوا منها وسموا النوبة رماة الحدق لاصابتهم في الرمى •

وفي عام ٦٤١م غزا عبدالله بن سعد الدولة المسيحية في شمال السودان وارتد عنها ـ ثم غزاها مرة اخرى عام عام ٦٥١م ولم يستول عليها وانما ابرم معاهدة اشترط فيها على النوبة من نصارى دنقلا (ان يحفظوا المسجد بدنقلا ولا يمنعوا عنه مصليا وان يقوموا باسراجه وتكرمته) ونحس من الفاظ هذه الشروط ان العرب قد الفوا هؤلاء القوم ، لان التجارة العربية واللهجات العربية سبقت الاسلام الى هذا المكان •

وكان هناك مسجد آخر في الجنوب حيث تقوم سوبا عاصمة الدولة المسيحية الجنوبية ـ فقد ذكر التاريخ ان العرب القاطنين على ضفاف النيل الازرق بنوا في القرن العاشر الميلادى مسجدا في سوبا عاصمة المملكة المسيحية في ذلك الحين وقد كان هذا المسجد قلعة من قلاع الثقافة العربية • وامتد اثره واصبح للعرب المولدين هناك مجتمع قائم ـ هذا ومن الراجح ان اكثر الاسر الدينية من اصول اقدم من الفونج ذلك ان اكثرها نبتت في ربوع عرفت في عهود المملكة النوبية لا بل في عهود المملكة المروية

بالدين مثال ذلك العيلفون فهي منـزلة الشيخ ادريس بن الارباب وهي بالقرب من سوبا عاصمة المملكة المسيحية القديمة ، ومثال آخر الدامـر فهي في منطقة فيها آثار سبقت عهد الفونج • وقد ذكر بوركادت في كتابه رحلة في نوبيا الدامر حين زارها في عام ١٨١٠م وقال عنها ان اهل الدامر كانوا يتقنون تلاوة القرآن ويعنون بالحديث والتفسير • وقد اشتهرت خلوة الدامر حتى قصدها الطلاب من غرب افريقيا • ونحن نستشهد بهـذه الخلاوى التي تهتم بالقرآن لانه قل امرؤ يتقن طرفـا من العربية ثم يدمن تلاوة القرآن ولا يكتسب جزءا من جزالته •

ولما قوى امر الثقافة العربية دارت معركة اربجى فانتصر الفونـج (وهم خليط من العرب والافارقة) على النصرانيين • ولقد كانت معركة اربجى الحاسمة عام ١٥٠٠م من أعظم معارك التاريخ فقـد كانت نـواة تحمل في ضميرها هذا السودان الذى نعيش فيه وكانت فوق ذلك ، من معـارك الاسـلام الـكبرى لانهـا رفعـت أعلامـا اسـلامية وتحـدثت بلغة عربية •

فاقام المنتصرون في هذه المعركة مملـكة سنار ودخـل السودان الى العالم ونذر نفسه للدفاع عن ارض السودان باسم الثقافة العربية البناءة •

وبلغت سنار من الشهرة ما بلغته اخواتها بغداد ودمشق والقاهرة حتى وفد اليها الشعراء والعلماء والمتصوفة من بغداد والقاهرة يمتدحون المـلوك وينعمون بالعيش في هذه المدينة العربية التي اضاءت في اعماق افريقيا •

والتأم في سنار مجتمع يزخر بالحيوية والشعر وحب الاولياء واصحاب الخوارق حبا يسمو الى مراتب العقيدة •

وفي رحاب هؤلاء الاولياء وحول نيران القرآن التي تهز ليل السودان وفي خلقات الكرير (اي ذكر الصوفية بالاصوات العالية) وفي نشوة الجذب ولد ابطال شعبيون لهم القدرة فوق قدرة الملوك •

والواقع ان ادب الصوفية اعطى السودانيين سلوكا مثاليا عصمهم من الضعف وسما بهم الى درجة بعيدة من قوة النفس والترفع والتهوين من

شأن الدنيا والاستشهاد في سبيل المثل العليا واجتمع الناس في أدب الصوفية على أسس ثقافية لا قبلية على اختلاف القبائل ـ ومما ينسب الى المتصوف المصلح الشيخ فرح تكتوك من شعراء سنار قوله :ـ

من باع دينا بدنيا يستعز بهـــا   كأنما بـاع فردوسا بســــجين
فلقمة من طعام البر تشبعنـــــي   وجرعة من قليل المـــاء ترويني

ولقد اشتهر هذا الفلاح المتصوف بالنقد وضبط النفس والشـــجاعة الادبية والدعوة الى الاستقامة وشعره نموذج للادب الصوفي المثالي •

ان حياة الابطال المتقشفين اولى الاسرار في عهد الفونج قد رفت على افواه الناس عند المرض والخطر والحزن والناس يحجون الى قبورهم بلا انقطاع ليعبروا عن الحب الصادق وينالوا نصيبهم الكافي من الحمايـــة والبركة • ان حياة هؤلاء القادة تلقى ضوءا باهرا في حياة الجماهير في ذلك العصر وترينا تفكيرها المثالى واشواقها الى التفوق على الذات • ولقد اصبح الادب الشعبى في رحاب هؤلاء بطوليا مثاليا وهو وحده الذى هيأ شعب السودان للاحداث الجسام والنضال الطويل المرير ضد الاستعمار •

وفي اوائل القرن الثالث عشر قدم السلطان سليم التركي العثماني الى سواكن ميناء السودان واراد الزحف منها الى سنار عاصمة المملكة وخاطب عماره ملك الفونج يدعوه الى التسليم فرد عليه عمارة بقوله (اني لا اعلم ما يحملك على حربي وامتلاك بلادى فان كان لتأييد دين الاسلام فاني واهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله ، وان كان لغـرض مادى فاعلمان كثرة أهل مملكتي أعراب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية) •

وهذا اول نص تاريخى يقابل الغزو السياسي بالاستخفاف والسخرية ولكن الاتراك عادوا بعد ثلاثمائة عام فقضوا على مملكة الفونج •

وغزا محمد علي باشا السودان عام ١٨٢١ فقد تفوق على السودانيين بالسلاح النارى ولقد بقيت اصوات الذين قاوموا الغزو التركي حتى اليوم •

لقد ارسل اسماعيل باشا ابنه محمد علي الى عرب الشايقية في شمال السودان كتابا يدعوهم الى التسليم ـ وامسك عقيد الشايقية بالكتاب وجلس ينكت الارض واقبلت مهيرة بنت الشيخ عبود من بنى سوار ومعها بنات الحي ورأت العقيد ماسكا في حيرة ومسكنه • لقد رأى الرجل ان قومه لايحملون الا السيوف والرماح والدرق وهذه جيوش قد اقبلت بالمدافع والبنادق ، قومه شجعان ولكنهم لا يلقون رجالا وانما تنصب عليهم هذه القنابل وهذا الرصاص من حيث لا يشعرون ولكن مهيرة لا ترى الا عدوا يدوس الوطن ولا خير في الحياة فليمت قومها احرارا كما عاشوا احرارا وانبرت مهرة تقول :ـ

الليلة العقيد في الحلة متمسكن   في لب التراب شوفن متجكن

ان رئيس القوم على غير عهدنا به قد ظهر مسكينا في الحلة وجلس في قلب التراب لاصقا به كانه كوم من التراب فانظرن اليه يا بنات (الرأى فاقده لا يدرك ولا يمكن لا تتعجبن ضيم الرجال امكن) لقد فقد الرأي فهو لا يبرم امرا ولا يستطيع التصرف ولا ادعى للعجب من رجال يحملون الضيم فقد عرفناهم كراما ومنهم هذا العقيد ويدور قولها الثائر في قلوب الرجال ولكن العقيد لا يزداد الا لصوقا بالارض وتنبرى مهيرة تقول :ـ

اكان فريت يارفاقتنا   ادون الدرق هاكم رخاططنا

ان الصمت فرار (ادونا) سلمونا الدرق وهاكم (رحاطتنا) ما آزرنا • لقد كنتم لنا رفاقا مانعين فأن خفتم الموت فاقعدوا لتخرج النساء دفاعا عن الارض والشرف ويقبل رجال الشايقية على الموت وتغنى مهيرة في رضى وتقول :ـ

غنيت بالعيلة لى عيال شايق   البرشو الضعيف وبيلحقوا الضائق

انني اغني مفتخرة بالعديلة بين عيال شايق (البرشو الضعيف)

الذين يريشون الضعيف (يلحقوا الضايق) ويفرجون الضيق والكربات •
وخرج العقيد يكر على حصانه الاغر وظهرت مهيرة على هجينها الفارع
وتملأ عينيها من جيش الباشا وتقول في تحد وسخرية :ـ

الليلة استعدوا وركبوا خيل الكر   وقدام عقيـــد بالاغـــر دفـــر
جنياتنا العـزاز الليلـــة تنتـــر   يالباشا الغشيم قول لي جدادك كـر

لقد استعد قومي وركبوا الخيل الكرارة وامامها العقيد على حصانه الاغر وهؤلاء جنياتنا اى جنانا اى فتياننا (العزاز) الاعزاء يتبخترون فـي مضاء وقوة • اما انت ايها الباشا الغشيم الغر فقد جمعت جنودا وضيعـين كالدجاج يتزاحمون على بلادى ليتلقطوا الحب ولكنك ستنفر بجنـدك حين ترانا كما يفر الدجاج من الصيحة • وتغني مهيرة وهي على الهودج للحرب حتى التحم قومها الاحرار بالغزاة الاتراك في معركة كورتي الشهيرة وتسقط هذه الفتاة العربية الحرة الشاعرة اسيرة في يدى اسماعيل باشـا بن محمد علي •

لقد كان للمرأة شأن عظيم فقد اشتركت في المقاومة وهي لا ترى الفتيان الا على مثل الشجاعة العليا ولقد وقفت بنونه بنت الملك نمر على اخيها وقد مات حتف انفه فانشدت وقد اتكأت على سيفه :ـ

مادا يرالك الميت ام رمادا شـــح   دايراك بى دميك ياخوى تتوشـــح

اي لم اكن اريد لك هذه الميتة فستبكى عليك النساء وقد نثرن الرماد على رؤوسهن وانما كنت اريد ان اراك متوشحا بدمك •

ان وردن اجيك في اول الواردات   اسد بيشه المكرمت قمرات مطابقات

اذا وردت الخيل للحرب جاء في اول الواردات وهـــو اسد بيشه المجتمع للوثب فاذا قمزاى وثب يطابق بين وثباته ـ ولكن اخي قد مات ونحن نعيش في خطر عظيم من الاتراك •

وكتب محمد على باشا في عام ١٨٢٠م الى سلطان دارفور في السودان الغربي يدعوه الى التسليم فرد عليه السلطان محمد الفضل بقوله (يكفى من ذلك كله كلام الحى القيوم حيث قال ، له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه فما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال (الآية) انكم طالبون انقيادنا لكم فهل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وابيح ضرب الجزية علينا ، او غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية ام خطر لك خاطر بان لك ربا قويا ولنا رب ضعيف ـ الحمد لله اننا مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله (ص) .

كما كتب ملك سنار قبل ذلك الى اسماعيل باشا فهدده بالصوارم الهندية والخيول العربية ، في رسالة طويلة رصينة .

ولما عاد الباشا الى شندى حاضرة عرب الجعليين بعد اخضاع سنار احاط به هؤلاء العرب حيث كان ينزل هو وجنوده واشعلوا حولهم النار وقتلوهم . وانتقم الاتراك بعد ذلك انتقاما ذريعا بامدادات جيوش القائد الدفتردار باشا ولكن المقاومة قاتلت ما وسعها القتال وارتفعت اصوات الشعراء تحض الناس على الموت في سبيل الارض والشرف .

قال الانقيب (أى الشاعر) واسمه ود النعسان الجعلى يصف بطلا من ابطال المقاومة الشعبية :

مو مازاح يجدد يزيد في الضكرة كل صباح ـ زناد البندق النتاح ـ
عاشميق في الكرب ما بقطعه النتاح .

وبطل المقاومة هذا كما يقول الشاعر (ما مازاح) اى لا يمزح وانما هو جاد مشغول ولا يقف عند حد بل يحدد حيويته (الضكرة) الذكورة والفحولة والخشونة والاقدام ، وهو (زناد البندق النتاح) اي انه سريع البديهة خفيف الحركة لا يتمكن اعداؤه من مسه لانه ينطلق بالقتال والبأس كما تنطلق الرصاصة من البندقية ـ وهذا الذى يقاوم اعداء

الوطن (عاشميق في الكرب) والعاشميق كلمة محلية معناها الحبل الشديد الفتل اى حبل المسد ، وجسم هذا المقاتل مجدول لا ينال منه (التتاح) اي السيف القاطع ـ ويتحدث بطل المقاومة هذا عن نفسه فيقول :ـ

ما بنربط الكلمة نيه ـ ندخل الفرسان تليه ـ نضرب الفوق رأسه ليله
القلب دا البيق حاضر ـ ما بتنفعنى العواضر ـ الضرب فوق النواضر

يقول انا لا اربط الكلمة نيه اى اذا وعدت لا اخلف وانما اقول وافعل واحارب اعداء بلادى (بالفرسان تليه) بالخيل يتلو بعضها بعضا (ونضرب الفوق رأسه ليه) اى نضرب الباشا وقد لوى رأسه من الصعر • فكن حاضرا ايها القلب (القلب دا البيقى حاضر) ولا تتلفت الى حياه ، ولا تنفعني المعاذير ما بتنفعنى العواضر) اقدم وقاتل اعداء بلادى (والضرب فوق النواضر) وتلق السيف بعينيك ولا تدبر •

وقرع النحاس ـ وهو طبل الحرب ـ وصاح المحرض بسقوط الترك يقول :ـ

شمر يا ولد نقر نحاسك دق قدر الله بيجيك حتى ان دخل في حق

ويتقدم قائد المقاومة فيذكره الشاعر ويقول :ـ

ادريس ناصع العين ، الضمر بالرق وادريس مدفع الترك الذخيرته تبق

والماصع الثور الوحشي او الجمل الهائج والعينة المطر ، وهذا القائد يشبه الجمل الهائج المطر وهو عزيز ناعم ممتع ، ولكن هذه النعمة لم تبطر القائد المناضل فهو (الضمر بالرق) أي انه ضامر ـ مجدول وهذا رمز العفة والقوة والتقشف وتشبيه الانسان القوى في السودان بالثور او التمساح امر قديم مرده الى الازمان القديمة •

وادريس هذا هو القائد الذى يسحق اعداءه بقوته وهو (مدفع

الترك) الذخيرته تبق اي هائل كمدفع الترك ينشجر وتسطع منه الذخيرة اي البارود •

ولقد صنعت بنادق الترك ومدافعهم صنيعها في عرب السودان الذين لم يصبروا قط على الحكم التركي فخرجوا عليه بالقلوب والالسنة قبل السيوف ، ولكن هذا السلاح التركي المبيد لم يرعد شعبنا في ذلك الزمان لانه عقيدتهم ان الموت والحياة بيد الله وعلى الحر الكريم ان يؤمن بقضاء الله وقدره يفسر ذلك معنى البيت :ـ

شـمر يا ولد نقرنحاسك دق

قدر الله بيجيك ضتى ان دخل في حق

انهض للقتال وشمر ايها الفتى ودق النحاس ، طبل الحرب ونقـره فان قدر الله يجيئك حتى لو دخلت في حق والحق بطن الام او اناء محكم القفل ـ وفي هذا نسمع صوت الصوفية في المعركة وهم يحرضون الناس على المقاومة ويصيحون لا مفر لهم ـ ايها الناس من الموت ولو كنتم في بروج مشيدة •

ولقد تم للاتراك في عام **١٨٢١**م فتح السودان بقوة الحديد والنـار فحطموا المقاومة العنيفة واسسوا مدينة الخرطوم عند ملتقى النيلين الازرق والابيض عاصمة للحكم الجديد ـ ولقد هام السودانيون على وجوههم وتركوا مزارعهم في شواطيء النيل وفر كـثير منهم الى البـوادى ورأى الاتراك انه لا سبيل الى الانتاج الا بعودة السودانيين الى بلادهم فاصدر محمد علي باشا فرمانا يؤمنهم فيه ولكنهم لم يطمئنوا قط الى الحكم التركي وهذه ابيات قالها الشـاعر السوداني المتصوف محمد المجـذوب قمرالدين الذى عاش في اوائل العهد التركي يدعو فيها الناس الى الصبر والحذر من الترك والذين زعموا انهم اخوان اهل السودان في الدين :ـ

تزود للخطوب السـود صبرا ... جليدا فيـه للنفس العـزاء
كما صبر الالى من قبل كانـوا ... فان الصبر ظلمته ضـيـاء
وخذ من كل من آخاك حـذرا ... فهم قـوم اخاؤكم بغـاء
ولا تأنس بعهـد من انـاس ... عهودهم اختـلاق وافـتراء

ثم تضرع المجذوب الى الله وقد قتل الاتراك اخاه وطائفة من عشيرته بقـوله :

نرجوك يا اول يا آخر ندعوك ياباطن يا ظاهر ان تحفظ النفـس والاهل والاموال من البلايا والمحن والاهوال •

ومع الاتراك جاءت مدنية تركية متحضرة ـ وكما ذكرنا فأن السودانيين لم يطمئنوا اليها وعادوا الى ادبهم الصوفي المثالي ـ ان عهد الفونج الذى استمر ثلاثة قرون قد نجح في ايجاد الروابط الروحية التي خلقهـا المشائخ والدعاة وقد قامت حولهم تجمعات دينية لم يشملها اتحاد شامل ـ على ان الولاة الاتراك لم يكونوا يدركون طبيعة النفوذ الديني وأثر الادب الصوفي كل الادراك وانما كانوا يدركـون شيئا من طبيعة النفوذ القبلي الذى كان يمثلـه (الملوك) فعكفوا على اخضـاع هـؤلاء بالتأليف حينا وبالقهر احيانا الى غير ذلك مما يلجأ اليه السادة الفاتحون وما هو الا دهر يسير حتى عادت البيوتات الدينية الى نشاطها أيام الفونج وغـاب عن ولاة الخديوى ان الخطر يكمن في خلاوى القرآن (مكاتب القرآن) في بربر والدامر والسروراب والسيد وكترانج حيث كان محمد احمـد المهدى يتنقل في طلب العلم والتصوف ويعد نفسه لانتزاع السلطان من ولاة الخرطوم باسم الدين وشرفه القديم ـ وبعد ستين عاما مضت على الحكم التركي تحدث الناس عن مهدى منتظر يخلص السودان من عسف الاتراك وبطشهم ـ وقد اعتزل المهدى في جزيرة ابا بالنيل الابيض ومنها خرجت منشورات يعلن فيها انه المهدى المنتظر وينذر الاتراك ويحرض الناس على قتالهم انتصارا للدين والوطن •

وجاءت الشاعرة بنت المكاوى تحرض المهـدى المنتظـر على حـرب الاتراك والبطش بهم فقالت :ـ

طبل العز ضرب هوينـه في البرزة　　غير طبل ام كبان انا مابشوف عـزه
ان طال الوبر اواسـيه بالجـزه　　وامام عم نيل ما فرخـت وزه

تقول ان طبل العز ضرب (هوينه) هناك (في البرزه) بدرزا صاخبا يدعو الناس الى حرب الاتراك وغير (طبل ام كبان) لفظه محليه معناها الحرب فانا لا أشوف اى لا ارى عزه ـ وان طال الوبر اي تعاظم امر الاتراك في السودان (واسيه بالجزه) اي جزه ايها المهدى المنتظر حتى ينعم الناس بالحرية ولن يكون هذا الا بالثورة العامة (وانما عم نيل ما فرخت وزه) فان النيل لا يعقب الرخاء والخير الا اذا عم فيضانه فكن ايها المهدى المنتظر نيل الثورة الفياض •

وعمت ثورة المهدى السودان وكان للشعر والنثر فيها اثر عظيم ـ قال الشيخ الحسين بن الزهراء يذكر الثورة المهدية ويدعو الى اخراج الاتراك الاجانب الغرباء :ـ

برح الخفا ما الحق فيه خفـــــاء	وتوالت الآيـــات والانبـــــاء
بالآية الكبرى التي بظهورهـــا	عاد الرضى وانجابت الاســـواء
ايخيب ظنـــي فيكمو وعشيرتي	انتم ويقمع جمعنا غربــــــاء

وقال الشاعر محمد عمر البنا يحرض المهدى على الهجوم على الجنزال غردون حاكم السودان العام في الخرطوم :ـ

الحرب صبر واللقاء ثبـات	والموت في شأن الاله حيــــاة
والجبن عار والشـجاعة هيبـــة	للمرء ما اقترنت بها العزمـــات
والصبر عند البأس مكرمـــة	ومقدام الرجال تهابه الوقعـات

ثم يصف الثوار المقاتلين فيقول :ـ

قوم اذا حمـى الوطيس رأيتهم	شم الجبال وللضعيـف حمـاة
وخلوقهم صدأ الحديد لحزمهـم	قتل الاعادى عندهـم عـــادات
والخيل ترقص بالكمـاة كأنهـا	تختال في ميدانهـا فتيـــات
والارض سالت بالدمـاء وما بهـا	غير الجماجم والشعور نبــات

وقال يحرض الامام المهدى على الهجوم :ـ

فانهض الى الخرطوم ان بسوحه   اهل الغواية والضلالة باتوا
فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا   فعل الصحابة اذ انت غزوات

واحتل الانجليز مصر في موقعة التل الكبير بعد ثورة عرابي ١٨٨٠م ـ ولقد انتظر السودانيون ان ينتصر عرابي كما قال الشاعر السوداني :ـ

شغل العدى بتشتت الاحزاب   والله ناصرنا بسيف عرابي

وفي عام **١٨٨٥**م احاطت قوات المهدى بالخرطوم واقتحمت وقتلت غردون على الرغم من ان المهدي كان يحرض على اسره حيا ليفتدي به القائد احمد عرابي باشا اذ كان هدف حركتين وهو تحرير العالم العربي كله من الاستعمار التركي والبريطاني ٠

ولقد كتب المهدى الى الخديوى توفيق فقال (ان دسائس اهل الكفر التي مكنوها في قلوب الانام ، قد عطلت احكام الكتاب والسنة وتراكمت الظلامات وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة والله يؤيدني وينصرني عليها الا ان قلت قيلتها وتلاشى امرها فسلمت امة محمد (ص) لاعداء الله الانجليز واحللت لهم دماؤهم واعراضهم ولابد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك فيه الكفاية ٠

وثار الانجليز لحصار غردون في الخرطوم وقررت الملكة فكتوريا ارسال نجدة لانقاذه ولكن الجنود البريطانيين الذين دخلوا السودان من سواكن في الشرق ومن حلفا في الشمال لم يستطيعوا الوصول الى الخرطوم وردتهم مقاومة الشعب السوداني خاسرين ٠

وتحول الادب الصوفي الى ادب ملحمي قال الشيخ محمد المجذوب مرتجلا بعد الاصطدام بالانجليز في هندوب وسواكن في شرق السودان :ـ

هندوب تعرف صبرنا   كيف ارتكبنا للمصاعب
وهاشيم تشهد عزمنا   كيف ادرعنا للمصائب

يا طالما صدناكمو — صيد الغضنفر للثعالب
جيشا يرن سلاحه — كالرعد حين المزن صائب
وساكن تدري بنا — انا لدى الهيجاء نضارب
بالمشرفي كأنه — وقع الصواعق في المضارب
زمنا قصدنا نحوها — نبدى العجائب والغرائب
ونسير في ارجائها — كالليث اذ نشب المخالب
ولطالما برزت لنا — منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة — بل يسرة من كل جانب

ثم ارسل خليفة المهدى جيشا بقيادة الامير عبدالرحمن النجومي لاخراج الانجليز من مصر وهذه اول مرة يخرج فيها السودانيون من بلادهم لتحرير بلد آخر من الاستعمار البريطاني شعورا منهم بوحدة الوطن العربي والعقيدة الاسلامية ـ ولان الامام المهدى كان عازما على اخراج الاتراك من الشام والعراق والحجاز وقد كتب الى السنوسي في شمال افريقيا وعينه خليفة ليشترك في الكفاح ضد الاستعمار الذى ينوء العرب كافة تحت بطشه وضيمه ٠

وعزم الانجليز على القضاء على ثورة السودان ودخلت جيوشهم الجرارة ومع انها لقيت مقاومة عظيمة وعنيفة الا ان القوات الوطنية السودانية قد اندحرت اخيرا في معركة كررى عام **١٨٩٨**م ٠

ولم يكن ولاة هذا العهد اتراكا مسلحين وانما كانوا بريطانيين تمرسوا بسياسة أهل الملل والنحل وقدموا بضرب جديد من الحضارة لم يسبق لاهل السودان به عهد وكان من اوائل اعماله ان فتحت مدارس نظامية تدرس علوما جديدة قيل الى اكثر الناس انها ضرب من الكفر فنفروا عنها ايما نفور وكان (الفقراء) اي المشائخ اشدهم نفورا وانقباضا فالتعليم جديد كان الغرض منه اطفاء نيران القرآن والقضاء النهائي على منابع الثقافة العربية وهي سلاح المقاومة البتار الذي حمله السودانيون طوال تاريخهم ـ وظل

هؤلاء المشائخ يصنعون أعمالا أدبية فيها كثير من الصخب والتحريض الخفي •

ومن هؤلاء الشيوخ الذين عاشوا ايام الثورة المهدية ثم عاشوا ايام الحكم البريطاني ، الشيخ محمد سعيد العباس قال يذكر ايام سنار ذات المجد القديم :ـ

من مبلغ الصحب في سنار قد رقدوا — الهتهم اليوم عنا شدة الحال
انا على العهد ما خنا ودادهم — واننا دائمو بث وتسآل

فقال يذكر التزامه بثقافة السودان واصراره عليها واعراضه عن ثقافة الانجليز :ـ

انقلت كاهلي مذاهب اشياخ — كرام شم العرانين زهر
لا امل الثرى ولا اترك السعي — اتكالا على المقادير تجري
ومرامي احدى اثنتين فاما — عيش حر اولا فمية حر

وقال :ـ

وكيف اقبل اسباب الاوان ولى — اباء صدق من الغر الميامين
من كل اروع في اكتافه لبد — كالليث والليث لا يغضي على هون

قال يشير الى الحضارة الغربية التي انتشرت في السودان وحصرت مشائخ اللغة والدين واشعرتهم بالعزلة والعجز :ـ

جزى الله هاتيك الحضارة شر ما — جزى من تصاريف الزمان المعاند

ولكن الثقافة السودانية العربية لم تستلم قط فقد حطمت مخطط التعمير الاستعماري حينما اراد الانجليز اول الامر ان يفتحوا المدارس لتخريج موظفين فقط باسلوب تبشيري ولكن المقاومة الثقافية السودانية الحادة ارغمتهم على التخلي عن هذه الخطة واتخاذ نهج جديد يرمي الى سيادة اللغة الانجليزية واضعاف اللغة العربية •

وعاد شعراء المشائخ ينشدون في مواسم المولد النبوى والعام الهجرى - وشعر المناسبات هذا كان شعر رثاء يبكى على مجد العرب ايام بني امية وبني العباس والاندلس تماما كما كان حال الشعراء في العراق ومصر وسوريا

وغيرهم من الدول العربية ايام ضغط الاستعمار عليهم جميعا ـ وكانت صورة النبي في هذا الشعر مثلا اعلى وهم حين يرفعون هذه الصورة الشريفة أمام الجماهير انما كانوا ينقدون العصر ويعترفون اعترافا مؤثرا بعجزهم ولكن هذا الشعر كان فيه احتجاج قوى ورفض لآثار الحضارة الغربية وحض الناس على المقاومة بالمقارنة بين حالهم في حاضرهم وما كان عليه اسلافهم في ماضيهم من المجد والقوة والمنعة .

ولقد ملأت فكرة الرجعة الى الماضى اذهان ادباء السودان في ذلك الزمان فرسمت صورة حالمة للتاريخ العربى يهربون اليها مما يحسونه من ضعف ـ ولقد ولدت هذه الفكرة عند بداية النهضة في العالم الغربي حين اخذ الناس يقارنون بين الحضارة الغربية الغازية المستعمرة وبين الحروب الصليبية ويلوذون بنبل اصولهم وحضارتهم المجيد في عهود الخلافة الاسلامية الزاهية كرد فعل في مواجهة هذه الحضارة .

ولقد اثار هذا الادب العواطف الكامنة في ضمير الشعب السودانى كما اثاره الادب الصوفي قبل اربعمائة عام في عهد الفونج ـ قال الشاعر عبدالرحمن شوقي في عام ١٩١٩م :ـ

نديمي من سلاف الخمر هات ... وشنفنى بذكر الماضيات
اترضى ان الام وانت حر ... وتسمح ان تلين لهم انات
فحدث من بنى النيلين قوما ... بادنى النيل او اعلى الفرات
بأنا ننتمي حسبا ومجدا ... الى ما بالجزيرة من رفات
يعز عليهم نحيى ولسنا ... مثالا للشجاعة والسبات

وقال الشاعر الشيخ البنا عام ١٩٢١م يخاطب هلال العام الهجرى :ـ

ياذا الهلال عن الدنيا او الدين ... حدث فان حديثا منك يشفيني
سل دار عاتكة عن شأن عاتكة ... فيها وعن سائل فيها لهارون
اخلى منابرها من في مقابرها ... من كل متضح آثار مدفون

ثم اقبل الناس على الجرائد والمجلات المصرية ـ وكذلك جعل الاتصال بالحضارة الغربية يزداد من طرق شتى اهمها اللغة الانجليزية ، وقاست اللغة العربية محنة عظيمة ولكن دعاة الثقافة السودانية قاوموا ولعب الشعر دورا عظيما في هذه المقاومة •

وكان آخرها مقاومة السلطان على دينار للانجليز ذلك ان السلطان علي عاهد السنوسي في ليبيا على الوقوف ضد الحلفاء في الحرب العظمى الاولى وقد قضى البريطانيون على السلطان على دينار ومديرية دارفور في عام ١٩١٦م ـ واندلعت الثورة المصرية عام ١٩١٩م بعد ان وضعت الحرب اوزارها وابتدأ الشعراء والكتاب يؤلفون الجمعيات السرية التي كانت على صلة تامة بزعماء الثورة المصرية • ولقد انتهت الثورة المصرية بالمعاهدة التي اعقبها دستور سنة ١٩٢٣م وهدأت المقاومة قليلا في مصر الا ان جمعيات الشعراء والكتاب السودانيين اتحدت في شكل جمعية كبرى سرية اسمها (اللواء الابيض) وكان يعاونها كثير من كرام الضباط المصريين الكبار وبذلك تم شكل آخر من اشكال الكفاح المشترك بين مصر والسودان ضد الاستعمار •

ولقد ازدهرت الثقافة العربية في هذا العهد وكان من بين مدرسي كلية غردون التذكارية آن ذاك نفر من كرام العرب منهم فؤاد الخطيب السورى الذى انشد كثيرا من الشعر عن استعمار الفرنسيين لسوريا ولبنان وقد اوحى شعوره لشعراء السودان فاتجهوا باشعاره الى المقاومة الوطنية والتوعية السياسية في المحيط العربي ـ قال الشاعر السوداني توفيق صالح جبريل الذى كان عضوا في الجمعية السرية يذكر زيارة اللورد اللنبي للسودان عام ١٩٢٢ :ـ

ايها القوم لا تجروا الذيولا	يأنف الحر ان يعيش ذليلا
سمتمونا العذاب ضيقتمو الارض	علينا حتى اردنا الرحيلا
ليت شعرى ماذا يروم اللنبي	يوم وافى يجر سيفا صقيلا
جمع الجمع ارهب الناس حتى	اصبح السيد اللنبي ذليلا
اتراه يريد يفصم حبلا	بين مصر وبيننا موصلا

ومضى الادب يدير دفة الثورة العارمة التي طار شرارها في ١٩١٩م حتى امتد لهيب المعارك الدامية الى الخرطوم ١٩٢٤م ـ وقد اضطرب الحكم البريطاني في السودان ورأى الانجليز ان الشعب السوداني قد ضاق ذرعا من الاستعمار •

واغتال الوطنيون المصريون السير لستاك باشا حاكم السودان وسردار الجيش المصري وقد دفع هذا الحادث الانجليز الى حسم الثورة في السودان فاصدروا احكام الاعدام والسجن المؤبد على قادة الثورة من المثقفين والضباط ـ وتم بعد ذلك ترحيل الجيش المصري كله والموظفين المصريين من السودان الى مصر في اسبوع واحد حسب شروط اللورد اللنبي القاسية التي رفضها سعد زغلول وهو رئيس حكومة مصر آنذاك ثم استقال ووافق عليها خلفه احمد زيور باشا وشدد الانجليز الخناق على الادب والادباء بعد ان صادموهم بالسلاح والقلم ـ ولكي يحطموا الثقافة العربية ويضعوا في طريقها العراقيل والعقبات منعوا رحلات الطلبة الى مصر كما منعوا اجازات الموظفين للسياحة والاستشفاء ثم اوغلوا في وسائل الفصل بين مصر والسودان فمنعوا دخول الصحافة العربية على اطلاقها الى السودان ـ وعمدوا الى تغيير مناهج التعليم من الانجاه العربي الاصيل الى ناحية الثقافة البريطانية الاستعمارية ـ ولكن كل ذلك لم يحل دون الجمعيات الادبية السرية ورسالاتها التي تبتعد من السياسة في الظاهر وتمارسها في الخفاء ـ والواقع ان اساتذة اللغة العربية واعوان انتشارها لاقوا عنتا وتضييقا ولكنهم حرصوا على نشر هذه اللغة الثائرة وظلوا محتفظين بدورهم في انهاض السودان والتقدم به كما صنع اسلافهم في عهد التركية والمهدية •

ومن نماذج السخط على آثار الحضارة الغربية الحاضرة قول الشاعر صالح عبدالقادر :ـ

من لقومي انهم قد اهملوا ما بنى اباؤهم فانهدما
وقضى الدهر على آمالهم ليت شعرى من بهذا حكما

ولقد ملأ هذا الشعر المنتديات وهيأ الناس للكفاح ضد الاستعمار

وبعد ان كان الادب يثير الحنين الى الحرية اصبح ذكره للحرية مباشرة ففساد المجتمع لم يعد ينسب الى فساد اخلاق الناس تخليهم عن الفضائل بقدر ما يرجع الى تسلط الاجنبي الدخيل على كل شيء قال الشاعر السوداني عبدالله عبدالرحمن :ـ

من عنت الدهر ان البلاد   تضيق مواردها الصافية
وتبذل للغرباء ابتساما   وتوسعهم عيشة راضية
تأمل تجد ليس للشركات   سوى الربح رائحة غادية
وليس سوى الاجنبي بها   دهاقين طاعمة كاسية
وطرف الاصيل بها ساهر   وعين الدخيل بها غافية

وتقدم الشعراء يخاطبون حاكم السودان البريطاني فقال الشاعر عبدالله الكردى :ـ

نفيض هما وايدينا معطلة   ومالنا من نبات الارض من ثمر
فلا يغرنكم عطفا بدا رطبا   جوفاء ليست على خير من الخطر
يا حاكما قلبه يصبو لسودنة   مرجوة النفع في ماذاع من خبر
اعط الشبيبة سؤلا في مواطنها   ما كان بدعا ولا امسى من الكبر
وقل لقومك في سر وفي علن   ان الشبيبة لا تخشى من النذر
والبيض والسود اقوام سواسية   والملك من هبة الرحمن للبشر
واطلق الرأى من حبس أضر به   ولا تطع آثما يغريك بالضرر
ونح رهط بني التاميز عن رتب   وضع لها الحد بين الطول والقصر
اليس ظلما لهم تجبى مواردنا   ونحن بالفقر فينا كل منعسر
ياصاحب الحكم في السودان ان لنا   سؤلا نرديه في الانساء والسحر
تنتابنا ذكريات منه مؤلمة   تكاد تسلمنا للهم والكدر
ضيعته بوعود غير صادقة   حديثها ساء في الآصال والبكر
ولم تزل معرضا عنا ومن عجب   لما نؤمل تمسى غير مدكر
لهفى على لغة القرآن حيث غدت   مثل الضمائر فيها كل مبتكر
أودى بها نفر منكم وان بقيت   فصحى بما جاء في الآيات والسور

تالله سوف لنا يدنو البعيد ولـو نمشى اليه على المران والابـر
وسوف يرجع مجد الشرق قاطبة جهاد كل امرىء للشرق منتصب

وقال ايضا :ـ

ليت شعرى متى وعودبني التاميز للناس تجعـل الصدق حـــدا
آذنوا مصر بالجـــلاء فتاقـت بحنين اليه قد صـــار وجــدا
فاذا بالجلاء اضحى هبـــــاء والوفاق استحال شرطا وقيـــدا
وبأرض السودان حطوا رحـالا واقاموا بشاطىء النيل جنـــدا
نبيء القوم بالجلاء فقد طـــال علينا مدى الاقـــامة جـــدا
ياشبابا يرجو به الشعب نصـرا في جهاد للقاصدين اعــــدا
ناضلوا دون حقكــــم بجهـاد فجهاد الابطال يعقب حمــــدا

وظهر شعر التوعية السودانية والكفاح المشترك بين الشعبين المصرى والسوداني قال الشاعر الشيخ العباسي يتحدث عن الوحدة المعنوية بين مصر والسودان :ـ

والنيل راقصـــة بــــه امواجـــه والشاطئـــان
ويقول مغتبـــطا بـــــه نعم الموفق والمعـــــان
ما مصـــر والســـودان الا في ربـــاه عشــيرتان
وربيتـــان بحجـــره وعلى هـواه مقيمتـــان
ويداهما مهمـــا بهـــن ترمى النوى تتصافحـــان

وقال الشاعر الشيخ عبدالله عبدالرحمن عن علاقة مصر بالسـودان مشيرا الى النيل :ـ

تحدر من اقصى الجنوب ولم يكن لتمنعه حســاده وعواذلـــــه
تحدر لا عـــن جفـوة بجنوبــه ولكن شوقا للشـمال يداخلـــه

وقال الشاعر المجدد التجاني يوسف بشير يذكـر طغيان الثقـافة الانجليزية جاعلا من ثقافة مصر حصنا لقوميته :ـ

انما مصر والشقيق الاخ السودان كانا لخافق النيـل صــــدرا
كلما انكروا ثقـــافة مصـــر كنت من صنعها يراعا وفكـــرا

عادني من حديثك اليوم يا مصر رؤى وطوفت بـــي ذكـــرى
وهفا باسـمك الفؤاد ولجـــت بسمك على الخواطر ســكرى

وكان لمدرسة مجلة الفكر في الثلاثينيات اثر كبير في ايقاظ الشعور القومي والنهضة الحديثة وقد اتفق مع هذا الشعور القومي المحدث ان الحاكم البريطاني كان يضرب نوعا من الحجاب على السودان ويحـاول عزله من العالم العربي والثقافة العربية ـ وحاول هذا الجيل الصاعد ان ينظر حوله الى قدوة يستمد منها مثله العليا فلم يجد الا الحكام والمشائخ وكان المشائخ في نظره من عزاز الآباء يمثلون السودان القديم وعلمهم يمثل قيما لن تثبت امام انبار المدنية الحديثة وكان الحكام في العاصمة شيئا قصيا يطول بالكبرياء وينأى بالعقيدة واللون والعنصر اللهم الا ذلك الذى درسوه في كلية غردون فقد كان يراهم رسلا بمدنية الغرب يسمع منهم وحي كولردج واديسون وورد زورث وبرنادشو وولز ـ ولـكن هؤلاء كانت صلته بهم تنقطع عقب تخرجه ويبقى ذكرهم في فؤاده فيختلط بهذا التطلع الشديد الذى كان يحسه في اغوار نفسه الى عالم الخارج •

والتفت الجيل الجديد الى مصر يروم عندها ما اعياه في السودان وكانت صحافتها قد بلغت شأوا بعيدا من الجودة وكان يكتب فيها رجال كان ينظر الشرق العربي كله بعين الاكبار ويلتمس عندهم المعرفة والثقافة والمثـل العليا ـ وكان من هؤلاء مجددون يتحدثون عن الآداب الاوربية المختلفة فتعلقوا باشدها تجديدا •

ثم نشأت طائفة من الـكتاب منهـم محمد احمد محجوب وعشرى وعرفات مارست التعبير وتطلعت الى ان يبرز من ابناء وطنها من يردد لهم المثل العليا التي هم في اشد الحاجة اليها ولقد اعان من ذكرنا من الكتاب على ايقاظ الشعور القـومي واظهـار الشخصية السودانية ونماذج هـذه الكتابات زخرت بها مجلة الفجر ومجلة النهضة •

ولقد كان هؤلاء الكتاب شجعانا حقا لهم حظ عظيم من الآمال وقد احسنوا التعبير عن آمال بلادهم فعبروا عنها بالاساليب القوية المؤثرة ـ وكان

ان قامت حركة الخريجين من هؤلاء الكتاب تحت لواء مؤتمر الخريجين العام الذى جمع اشتات الخريجين من المذاهب السياسية المختلفة حول لواء موحد الاهداف مضوا به قدما نحو تحرير البلاد حتى تم لهم بمناصرة الشعب المقاوم تقرير المصير بعد الحرب الثانية واستقلال السودان وجلاء البريطانيين عنهم ١٩٥٦م ٠

ونشأت الصحافة السياسية تحت الوية الاحزاب وظهر الباحثون والخطباء السياسيون وقد يزعم بعض الناس ان الادب قد تخلى عن دوره في هذه الفترة للبيان السياسي في كيانه الجديد وهذا زعم باطل لان معظم الآثار الادبية التي طبعت في العهد الوطني والتي تحت الطبع كتبت في تلك الفترة فالشاعر محمد عبدالقادر كرف والدكتور عبدالله الطيب ومختار محمد مختار ومحمد المهدى المجذوب ومحيي‌الدين صابر وادريس جماع ومحمد محمد علي والهادى آدم ومنير صالح عبدالقادر والناصر غريب‌الله وغيرهم من حداة هذه الفترة ٠

وهكذا ترون ايها السادة والسيدات والآنسات ان الثقافة العربية قد خلقت سودان اليوم الحر الطليق خلقا كان يتطلع اليه وان هذه الثقافة العربية تولته بالبناء وعصمته من الضياع منذ ان صارت اللغة العربية لغة رسمية لاول دولة عربية سودانية قامت عندنا عام ١٥٠٠م ٠

وظل هذا الادب ايام الاستقلال ساهرا على وحدة الصف ولقد رجع مرة اخرى الى التحذير من التفرقة وصراع الاحزاب المؤدى الى النزاع الحاد ـ ولقد حث الادب على نشر التعليم ، وقد كان افتتاح مدرسة امرا عظيما والسودانيون اشتهروا منذ عهد الفونج بحب العلم حتى انهم كان لهم رواق خاص في الازهر الشريف مشهور باسم رواق السنارية ـ وفتح المدرسة معناه القضاء على آلام الامة واحزانها من امراض الجهل الخبيثة ثم اكتمال الوحدة العقلية والفكرية بعد التفرق والخلاف والشتات قال الشاعر السوداني عبدالله عبدالرحمن في حفل افتتاح مدرسة :ـ

اليوم لا شيع ولا احـــزاب	ذهب الهوى فجميعنـا احبـاب
وبدا السبيل الى المعالى واضحـا	وتقطعت بالعابـــس الاسباب

وافتقد شعبنا الديمقراطية التي نعم بها فترة قصيرة اذ قام الطاغيـة عبود بانقلاب انتهز فيه حدة النزاع بين الاحزاب السياسية الديمقراطيـة وتسلم به مقاليد الحكم ستة اعوام طوال اختفت فيها حرية التعبير وجميع الحريات السياسية وعاد الضغط والكبت الى الافراد والجامعات من جديد ـ وعاد الادب الى سابق عهده يطالب بالحرية للجماهير ويجعل من الضعف قـــوة :

وقال الشاعر محمد المهدي المجذوب يتلهف على ضياع الحرية ايام الاستقلال وبعد جلاء البريطانيين :ـ

هاتوا سوىالصبر سلوانافما وجدت	نفسي الحزينة عند الصبر سـلوانا
قد كنت احلم بالاوطـــان آمنـــة	وبالعـدالة في النيلين قـــرآنـــا
حسبت ان جلاء الجند يعقبـــــه	صبح الافق به السودان سـودانـا
وما ازال وبي قيـــد انازعــــه	يدور باليـد والساقين ثعبانـــا
فان ترحل (هلم) من اريكتـــه	فكيف خلف انصارا واعـوانـا
ما اكذب الفجر لما جاء مبتسـما	مثل البغى تريك الوصل هجرانـا
لايعرف العدل الا الحقد في يـده	سيف يصول على الطغيان طغيانـا
وفي المساجد كم ابصرت من وثــن	يغير الدين ديـــن الله اديانـــا
يصير الزهد اطماعـــا ومنعجب	ان يصبح الزهـد بالاطماع سكرانا
كم غير الحكم قديســا فصيره	بسكرة الحكم بعد الصحو شيطانـا
ان قلت اصمت قالوا ضاع منطقه	وباع بالعيش لا يغنيــه اوطانـا
وان نطقت فلى رب يحاســـبني	رب من الناس اعيا الله كفـــرانا

وقال ايضا يتحسر على ضياع الديمقراطية :ـ

اورق بعودك ساقينا وغنّ لنـــا	(بان الخليط ولو طوعت مابانا)

(لو كنت من مازن لم تستبح ابلي   بنو اللقيطة من ذهـل بن شيبانا)
يا شعب شعبي من ذل ومســكنة   وقد تحطـم ارواحــا وابـــدانـا

واشتد سلطان الطاغية عبود وعزل السودان في سجن كبير وحال بنيه وبين الصلات العربية الوثيقة وحارب هو واعوانه الافكار الحرة في الشعر والنثر فعمد الادباء الى الرمز والاسطورة ليخلقوا من الضعف قوة :ـ

وما وطني اين ذلك الوطـن
وراء الخيـال
اراه فأعجب من جنة
تجاوزتها فهي من رغبتي
الى غيرها في المحال

شبابك كيف غـاب
وكيف انتقـل
واحلامه قبضة من تراب
اضاع لانك تخشى الحساب
لانك ترتقب المنتظر
وقبرك منتظر ليلة بها انتظرتك الحفر

اتسهر في معبـــد
وحيد الصلاة يتيم الدعاة
وما سمعتك السـماء
افقد ترد الظلم حجابها
وغلق ابوابها
وانزل افاقها الصافيات
الى الارض غارقة في الدماء

وليث لدى الغاب أظفاره
بها اتقدت ناره
على ليلة من دمى
سخين لدى غابه المزمن
وليس يبالى الصبح تدفق من فجره
وليس يبالى المساء تجمد في ستره
فدنياه في ظفره

قال يصور حالة الشعب :ـ

ليس بين القصور في شاطىء النهر ولا في مزاعم الوزراء
الاساطير شيدوها لعينيه ميال الحشيشة الخضراء
هتفوا باسمه كما يهتف الصياد بالصيد شهوة للدماء
واذا ما سعى الى الرزق يسعى بعيون بصيرة عمياء
ليس يدرى لاى شيء دعاه الصبح يسعى بخطوة للمساء
يبست كفه من العمل المخضوب امسى لراحة ملساء
الذى الهم الازاهر شوكا الهم الشعب خالدا بالرجاء

وقال :ـ

يا صديقي وانت مثلي على الذل ومالي سواك فيه رفيق
نحن في غابة بها الظل وحش والطريق الفسيح فيها مضيق
لا تقل لي هلكت او ذهب العون ودلت على سرانا البروق
عندك الحقد والضغينة وهي النصر والعيش آمنا والرفيق
فاحترق واشتعل من الحقد نارا لن يدك الظلام الا حريق

وفي اوائل عهد الاستقلال وسع الادب ما بدأ به من الدعوة الى الكفاح المشترك على المستوى العربي والافريقي ـ ولبور سعيد ديوان زاخر من الشعر السوداني بانها الهمت الادباء الشعور بعزة الوطن وضريبة

الدفاع عنه في اعلى مستويات التضحية والفداء وكذلك لفلسطين وحركة كيانا وثورة لومبا ونضال العراق وثورة الجزائر احدوثة الزمن ثم ثورة اليمن واشتعال الجنوب العربي من ناحية ضد الاستعمار :

قتال ولسنا نبالي القتـــال   فيا مرحبا بالونى والنضـــال
عباب يموج هنا في الجنـــوب   له موعد في عبـــاب القنـــال

تدوى القنابل في القاهـــرة   فتخلع اظلالهـــا الناضـــرة
وتخرج للحرب في عـــدة   كما تخرج الغابة الثائـــرة

وهيهات ان تخضع القاهرة

نزال نزال على شـــطه   وصبرا على المحنـــة العابـــرة
وتلك الجزائـــر من اوجـــه   كأوجهنا الحرة الطاهـــرة
فرنسا تســـيل باســـيافها   شرابا لاسيافها الباتـــرة
واين ولم يبق الا النـــزال   وضرب تذوب عليـه الجبـــال
ويحسن فيه الرصاص الجدال   تريق الدمـــاء به ثـــره

ليعبرها من يريد القتـــال

جمالك يا مصر منذ القـــدم   يلوح لنا في محيا جمـــال
يهـز من المهجـــات العـــلم   ويرتد عنه مصيب النبـــال
وليس يبالى الردى والعـــدم   فقد زال عنه الردى والـــزوال
فيا فارس النيـــل يا روحـــه   ويا بطلا يشتهيه الخيـــال

صلاتك في الجامـــع الازهـــر   صلاة النبي لـــدى المعركـــة
يبايعك الفتية المؤمنـــون   على قتلها الفئـــة المشـــركة
كربلاء فجعتنا من جديـــد   والدماء ـ بركةزاخرةملءالعراق

ويزيد ، لا رعى المولى يزيد ـ عاد في نور السعيد ـ اعجمي ذو شقاق ونفاق دون عرش من اكاذيب مشيب ـ ودعاوى ـ كذئاب تتعادى وعبيد

هاشم يبرأ من دعوى العبيد وهبوا السفاح بغداد الرشيد

يا رفاقي هتف الصبح بنا ـ فافيقوا يا رفاق ـ ذهب الليل ولم يبق به غير ظل في العراق

يتراى فيه نورى شبحا مثل دمع يتهادى في الفراق

وقال الشاعر الدكتور عبدالله الطيب يشكو فلسطين :ـ

وكيف يسلو اخوهم وهو تؤرقه لواعج الهم لا يعلوه الهابا
في الشرق والغرب اخوان الم بهم صرف الزمان فانحى الظفر والنابا
مشردين بافاق رجاؤهم داج الاح جبين الشمس ام غابا
كم في فلسطين محزون وثاكله ويائس شك في الرحمن والتابا
الدور صارت لاسرائيل خالصة والمال غودر انفالا واسلابا
واصبح القوم في دهياء جائحة يغالبون من الاقدار غلابا
وها هم ما دهانا من مواعد لا يوفى بها جعلت مينا وكذابا

وقال الشاعر السوداني محمد محمد علي في قصيدته (العاصفة) يذكر ثورة اليمن :ـ

الليل طويل كالزمن والفجر رفاة في كفن
وهنالك قصر يقطنه سفاح يعبد كالوثن
وهناك هناك مدمرة تنمو في السر وفي العلن
والقصر يفور بشهوته محسوب المقلة والاذن
يذكى الاحرار شرارتها فتثور في قلب الزمن
تنمو تنمو ثم انطلقت في وثبة شعب مصطغن
صرخت بالقصر مدمرة جدران البغى الممتهن

حجرا حجرا طارت وثوت ... في الهوة اوصال الزمن
والصبح تنفس ساطعه ... في أرض العزة في اليمن
سلمت احرارك يا داري ... سلمت احرارك يا وطني

وقال يذكر مؤتمر القمة العربي :ـ

نضر اللهم وجه العرب ... واخترم اعداءهم بالعطب
واقذف الشذاذ في هاوية ... واصلهم فيها جحيم الغضب
وليبت من سامنا مكروهه ... شاحب الوجه رهين الكرب
وانصر اللهم قومي انهم ... نورك الساطع ربي اجب
واجعل الايام تمشي خلفهم ... مثلما كانت طوال الحقب
حملوا الدنيا وراشوا اهلها ... يوم كان الغرب خلف الحجب
واسكب الآلاء في ساحاتهم ... واسقها من كل غاد صيب
واردد المسلوب منا عاجلا ... واجعل السالب بعض السلب

هزني اجماع قومي بعدما ... شتتهم قوة المغتصب
يا رعى الله كراما نزلوا ... ارض مصر كالسيوف الغضب
من ملوك أدركوا امتهم ... وهداه ورؤوس نجب
جمعتهم صيحة من ضيغم ... فتلاقوا في حماها الاشب
انجم ان عسعس الليل بدت ... وملاذ عند نوب النوب
انما اليوم يد ان بطشت ... طاح عرش الفاجر الملتهب
وارانا قد جمعنا امرنا ... فظفرنا بالمنى والارب
اسمع المدفع يعوى وارى ... في رحا الهيجاء لمع الشهب
بل اراني وسلاحي في يدي ... ثائرا ارميهم باللهب
كيف نومي وبلادي مغنم ... لطريد لم يطع امر نبي
لا ولا تدنو به عاطفة ... من بني الانسان او من سبب
لم يصم يوما ولا صلى الى ... قبلة غير بريق الذهب
ليته ما زال في التيه اذا ... خر من طود هوى في سبب

بل تراني راجعا منتصرا ملء قيثاري نشيد الطرب
وفلسطين وما اعظمها هي كالخرطوم مجلى حسب
ارضها منذ قديم ارضنا فاح من جناتها ريح اب
ان تسل عني فاني عربي ولساني وجناني عربي
دعوتي كل مساء قلق وصباح من اسانا شحب
نضر اللهم وجه العربي وخذن اعداءهم بالعطب

وثار الشعب السوداني في اكتوبر عام ١٩٦٤م وقضى على عملاء الاستعمار الطغاة الذين استولوا على الحكم سنوات ست وعزلوا السودان عن اشقائه وتغولوا على حياته الفكرية طوال تلك الفترة ـ ولقد كان للثقافة اثر حاسم في هدم هذا الحكم الفاسد ولقد لجأ الادباء في ايامه السود الى الرمز واستفادوا من الاساطير والاحاجي •

وهنالك ناحية هامة لابد من ذكرها وهي ان افريقيا لونت الادب السوداني بالوان ساطعة فان الطبول والغابة وعبادة الحيوان وعبادة النيل ظاهرة لازمة في الادب الصوفي الشعبي والفصيح وهى تعكس غزارة الخيال مع عنف الحركة وضخامة المناظر للقارىء حين يتأمل هذا الادب يلمح فيه حيوية الراقصين على دوى الطبول مع ميل الى الوثنية ونظر الى الكائنات التي تعيش في الغابة وبأيجاز فان هذا الادب يجمع بين صحراء العرب وغابات الزنج ـ ولقد كان لهذا الادب اثر كبير فهو الى جانب الدين الاسلامي قد ربط السكان بمودة معنوية وهو يهدف دائما الى تحقيق شيء مثالى عزيز المنال ـ وهو قد احاط دعاة الصوفية بتقديس باقي الاثر والصوفي يمثل قوى الطبيعة الخيرة المنتصرة على الشرق •

ان ثقافة السودان العربية مرنة رحبة الصدر وكانت وما تزال تلتقط الجوانب المضيئة من كل ثقافة واردة وهي عندما اخذت ما يفيدها من ثقافة الغرب واضافته الى كيانها النامي انما شعرت منه سلاحا وغرسته في صدر الاستعمار •

ان ثقافتنا منذ كانت قامت على ايثار الحقل وطلب العدالة والنصفة والثورة على القيود وهى ماضية في سبيلها لالتقاط كل جديد يزيدها خصوبة ونماء ، والاشتراكية كانت في اعماق هذه الثقافة منذ العهد الصوفي ومـا زالت طوال عصورنا التاريخية الهدف الذى نسعى اليه ، والرجعية الفكرية والاقتصادية هى عدونا مثل صانعها المستعمر ـ لقد ذكرنا في مطلع هـذا الحديث اننا مرابطون باسم الثقافة العربية في السودان ونحن نعاني ونبذل المزيد من الجهد والعزم لحماية هذه الثقافة ونشرها ووقايتها من المتربصين بها من اعداء العروبة وازدهارها ـ لقد قال رئيس الوزارة السودانية الشعبية ان السودان الضارب في اعماق الارض العربية ثقافة ووجدانا ومصـيرا الموغل في التراب الافريقي وجودا وكيانا ومستقبلا ليدرك الدور الذى ينبغي ان يضطلع به في دعم العلاقات العربية الافريقية •

ان السودان ليدرك المسؤولية الملقاة على عاتقه والدور الذى يتعـين عليه وان يقوم به ازاء القضايا العربية في حسبانه نافذة تهب منها ريـاح ثقافتنا العربية وحضارتنا العتيدة الى الشعوب الافريقية وجسرا يصل بين قضايا التحرر في الوطن العربي في الارض الافريقية •

وعلى هذا نرجو ان نكون قد صورنا لاخواننا الادباء العرب عظـم المسؤولية التي نقوم بها عن العالم العربي في حراسة تراث العرب ومجدهم الحاضر والغابر في وسط افريقيا وتحت عراقيل الاستعمار وتربص اعداء العروبة خصوصا بعد تبينهم لخطورة التكتل العربي الكبير الذى لن يجدوا فيه ثغرة يلجون منها اليه •

التيجاني عامر و محمد المهدي المجذوب

عضوا وفد السودان

الأدب والبناء

القرآن والمفاهيم المثالية للاشتراكية

بقلم

الشيخ امين الخولى

١ ـ القرآن قمة أدب العربية ، بما هو معجزتها القولية ، وقد تأدب به أمس ، وسيتأدب به غدا ، العربي المتدين بالاسلام او بسواه من الاديان ، وغير المتدين كذلك ، ثم هو كتاب المسلمين جميعا عربا كانوا أو غير عرب .

تحدث الادب العربي عن العرب مسجلا غالبا ، ومتطلعا أحيانا ، وتحدث القرآن عن العرب ـ بين الناس ـ منتقدا ـ ما ينتقد من أمرهم ، موجها اياهم لما كرم وسما من آمال الانسانية ، فاذا ما ساند العرب اشتراكيتهم اليوم بتطلعات أدبهم اللامحة فما اولاهم بان يلتمسوا مساندة هذه الاشتراكية بالتوجيه القرآني ، الذى هو ذروة هذا الادب ، ودعوة الامل للغد .

من اجل ذلك كان حديثي الى مؤتمر الادباء العرب ، في ناحية «الادب والبناء » عن القرآن والمفاهيم المثالية للاشتراكية .

٢ ـ وتفسير هذا القرآن قد تناولته على الدهر خطط مختلفة ، وثقافات متنوعة ، منها ما تطمئن اليه ثقافة هذا العصر ، ويتذوقه الحس العربي المرهف ، ومنها ما يجنح الى غيبية ، أو يتوسع في الفهم توسعا لا يقره القرآن نفسه ، ومن هنا أشعر بضرورة الاشارة الموجزة لمنهج فهم القرآن وتفسيره اليوم ذلك التفسير الذى يكشف عن « المفاهيم المثالية للاشتراكية»

فيه ، على اساس من طبيعة العربية وحسها الذى لا يجرى عليه اختلاف ، ولا يحتكم فيه تعصب ، بل يطمئن اليه العربي بعروبته وحدها ، فلا ينكر عليه فهمه ، فيطمئن اليه المتدين بعد ذلك على بصيرة نيرة ، ينزل علـى حكمها الفن والعلم جميعا ، وللوصول الى هذا الاساس السليم ، لا تطلب مفاهيم القرآن بالطرق الاتية :

(أ) ـ من تفسير باطني يرى للقرآن ظاهرا وباطنا ، ويقول في ذلك بما يتضبط ، بل يوفي بالقرآن على خضم متلاطم ، من مقـــالات الفرق ، ودعاوى الباطنية •

ولا تطلب مفاهيم القرآن بشيء •

(ب) من تفسير اشارى يقول فيه الصوفية بمواجدهم وأذواقهم التي لا يضبطها الا ما يجدون هم ، ولا يمكن حمل الناس عليها ، اذا سلم لهـم بشيء منها في خاصة انفسهم ••• ولا تطلب مفاهيم القرآن بشيء •

(ج) من تفسير يعطي القرآن ما لم تعرفه العربية من دلالتها عنــد نزوله ، ليطمع في ان يشغل نفسه واهل القرآن باستخراج جديد علم اليوم منه ، يحسب أن ذلك خير للقرآن ، مع أن القرآن نفسه قد صرف الناس عن مثل ذاك ، ووجه الرسول عليه السلام الى ان يصرفهم عنه في مثـل قوله : يسألونك عن الاهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج ـ ٢١٩/البقرة •

أ ـ وانما نطلب مفاهيم القرآن بالعربية الصريحة التي وصف بها نفسه في مثل قوله : انا انزلناه قرآنا عربيا لعلـكم تعقلون ـ ٢/يوسف •

وقوله : وكذلك انزلناه عربيا ـ ١١٣/طه ، وقوله : قرآنا عربيا غير ذى عـوج ـ ٢٨/الزمر ، وقوله : كتاب فصلت آياته قرآنـا عربيـا لقوم يعلمون ـ ٣/فصلت ،وقوله : انا جعلنــــاه قرآنا عربيا لعـلـكم تعقلون ٣/الزخرف ، وقوله : وقرآن مبين ، في ١/الحجر و ٦٩/يس •

واذا ما فهمنا القرآن على هذا الاساس المستقر والمستوى الثابت من العربية وحدها حق علينا :

ب ـ ان نطلب مفاهيمه ، كما تعطيها العــربية التي كانت معروفة

ومستعملة في زمن نزوله للناس الذين كلفوا بفهمه ، كما يدل على ذلك بمثل قوله : وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، ١٠/الشورى فاذا ما كان في المعاني العربية المعروفة في عصر النزول ـ دون تزيد ولا توسع ـ ما يمكن ان يفتح آفاقا واسعة اليوم لفهم القرآن فلا بأس بذلك أبدا ، بل ينبغي ان يطلب مثل هذا التوسع ما دامت الدلالة العربية ، في عصر نزوله وتقبله ، فلنستشف من مرامي التعبير القرآني اذ ذاك كل ما يستطيع التقدم الانساني ان يتبينه •

٣ ـ وعلى هذا الاساس اللغوى المستقر السليم تقوم الحاجة الى : الخطة الثابتة لاخذ الفكرة المتكاملة من القرآن ••• ووجه الحاجة الى القول في هذه الخطة وثباتها هو ترتيب القرآن وتناوله للموضوعات المختلفة في غير موضع واحد •

فالقرآن لم يرتب في موضوعات مثل ما في سفر التكوين ، وسفر الخروج وأشباهها في الكتب الدينية ، أو مثل الابواب والفصول في الكتب العادية • وانما جرى على ترتيب آخر ، يلحظ فيه انه يعرض للموضوع غير مرة ، في غير موضع ، فالقصة الواحدة توجد بصورة مختلفة والحديث عن الاسرة ورباط ما بين افرادها قد يتناول في قصة احيانا ، كقصة آدم ، أو يتناول في آيات كونية ، لمناسبات أخرى ، ويتناول في مقام التشريع ••• وهكذا الامر في الاموال وملكيتها ، تناولها القرآن في مواضع متعددة ولمناسبات مختلفة ، وفي صور متعددة ••• فكيف تؤخذ الفكرة المتكاملة عن الموضوع الواحد من القرآن ؟

يبدو جليا أن الجواب عن هذا السؤال هو :

ان يجمع ما عرض له القرآن عن الشيء الواحد من مواطنه المختلفة فيه ، جمعا شاملا ، ثم يفهم كله فهما متناسقا ، يرد فيه بعض القرآن على بعض ، ويفسر بعض القرآن ببعض •

وهنا يتضح ان هذا الفهم المتناسق الذى يفسر فيه بعض القرآن بعضا يحتاج الى أساس ثابت لهذا التناسق والفهم المتكامل حتى يقع الاتفاق

على قبوله ، ولا يكون موضعا لاحتكام المحتكمين فيه ، واختلاف المختلفين حوله : ونضع من أمثلة هذا التناول المتغاير في القـــرآن ما يفتح الطريق الخطة السليمة في هذا الفهم المتكامل ، على ما اشرنا اليه ، فسنجد في :

(أ) السلم والحرب مثلا ان القرآن قد قال حينا : يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لـكم عدو مبين • ٢٠٨/البقرة ، وهو الذي قال : يا آيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الـكفار وليجدوا فيـكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين • ١٢٣/ التوبة ، كما قال الـكثير غير ذلك في هذا المعنى •

(ب) في معاملة الزوجة قال حينا « ومن آياته ان خلق لـكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقــوم يتفكرون » ٣١/الروم ، ثم هو الذى قال : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » ٢٤/النساء •

(ج) في الأموال وملكيتها قال القرآن مثل : «وتحبون المال حبا جما» ٢٠/الفجر ، وسمى الاموال أموالهم وأموالـكم في مثل قوله : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالـكم انه كان حوبا كبيرا » ٢/النساء ، ويعتبر أخذهـــا اقتراضا منهم في مثل قوله : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ••• الآية » ٢٤٥/البقرة ، ١١/الحديد •

والامثلة على ذلك التغاير في تناول القرآن للمشكلات الحيوية كثيرة ، بل ان هذا التغاير قد يكون بين صدر الآية وختامها في مثل قوله : وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن ، والجروح قصاص » ثم تعقيبه على ذلك حتما للآية بقوله : « فمن تصدق به فهو كفارة له » ٤٥/المائدة •

وقوله في القصاص : « يا آيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » ، مع تعقيبه عـلى ذلك بقوله : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعـــروف وأداء اليـه باحسان ، ذلك تخفيف من ربـكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب

اليم » ١٧٨/البقرة • وقوله : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » وبعد هذا يقول « فلا يسرف في القتل انه كان منصورا » ٣٣/الشعراء •

فكيف تحفظ على القرآن هذه الدعوات الانسانية الكريمة بصراحتها ، وقوتها ، وخيرها ، وامل الدنيا فيها ، من دعوة الى السلام العام ، ومن مثالية في علاقة الرجل والمرأة ، ومن عفو في القصاص العام ، وقصاص الاعضاء •• ومن تخفيف حدة غريزة الاقتناء الى جعل الملكية لله ، واعتبار الناس مستخلفين فيها ، ينفقون انفاق الوكيل عن أصيل كريم ، رزاق ، وهاب • وحاجة الانسانية الى هذه الدعوات الكريمة السامية حاجة جد شديدة ، وتطلعها اليها تطلع حريص متشوق ، بقدر طمعها في غد أفضل ، وأملها في حياة أكرم واسعد •

ماذا نفعل في هذه الحال ؟ انقرر نسخ آية السلام العام ، كما قال بعضهم ، او ننسخ آية المن والفداء التي لم تشر الى الرق اشارة ما ، ونقتل الاسير أو نسترقه ؟ انسى تقرير ملكية الله للاموال واستخلاف الناس فيها ، ونحترم الاقتناء والاحرار • ونبيح القتال عنه ، ونقرر استشهاد من مات مقاتلا عن ماله !!

وليس كل ما في الامر هو بشاعة هذه النتائج العملية في الحياة ، بل ان قضية النسخ هذه نفسها ، نجد في الاولين من انكرها كأبى مسلم الاصفهاني ؛ ومنهم من انكر بعض ما ادعى منها كانكار الطبرى نسخ آية السلام العام في البقرة ؛ كما نسمع فخرالدين الرازي يقول :

ان وقوع النسخ في القرآن مما لم يثبت بالدليل فضلا عن وقوعه بالسنة أو بغيرها[1] •

واكثر من ذلك ان التسليم بالنسخ لا يحل المسألة حين يكون صدر الآية تقرير عقاب ، ويكون ختم الآيات نفسها حثا على العفو كآية القصاص في النفس وفي الاعضاء السابقة وغيرها ، فهل نقول بنسخ ختام الآية في

---

(١) الرازي : مناقب الشافعي ص ٢٦٢ ط حجر بمصر •

هذا الحض ، وتعمل صدرها في العقاب ، أو نقول ان هذا الختام للآية ليس الا وعظا وترغيبا ليس له قيمة عملية !!

ولقد انكر هذا النسخ من الاقدمين من انكره ، مع انهم لم يكونوا يستشرفون لهذه الآمال الكريمة ، والمثل النبيلة ، استشراف الدنيا اليوم لها ، فهل نقول بالنسخ نحن الآن • والدنيا تتشوف الى نسمات ملطفة من هذه الآفاق الرحيمة ! اذا كانت باسم الدين ومن كتاب الدين فانها أكرم قيمة واجمل وقعا •

* * *

ليس في الامر الا ان نقاوم هذا الاهدار ، ونلتمس الرأى الثابت في الفهم المتكامل لتناول القرآن الذى يمكن القطع بانه لم يتغاير جزافا ولا نسخا ولا وعظا ، بل تغاير عملا ليهيىء للقرآن الصلاحية المتصلة المستمرة لمسايرة الحياة في تطويرها ، بل لرفع العالم على طرائق مستقبلها •

والرأى الذى هدى اليه تتبع هذا الصنيع من القرآن ، تقديرا لعموم دعوته وخلودها هو : ان الخطة المطردة ، في الفهم المتكامل لتناول القرآن للموضوع الواحد ان بعضا من هذا التناول تحتاج اليه الحياة ـ قديما وحديثا ـ في حال لها ، وعصر من عمرها ، ومستوى من تحضرها ، لا نبلغ فيه من الطموح الواضح أكثر مما تلائمه هذه الاحكام وتلك التنظيمات ، فهي في هذه المرحلة تغضب او تثور اذا لم يقابل العنف بالعنف ، والقتل بالقصاص ، ولا ترتاح لشىء من العفو للاخ عن شىء من ذلك وهي لا تفهم من صلة الزوجية الا ان تساس المرأة هذه السياسة ، فتضرب بعدالوعظ، والمرأة نفسها في هذه المستويات لا ترتقى الى ادراك ان أساس علاقتها بالرجل هو المودة والرحمة •

فيكون ما في القرآن من مثل هذا هو ما يمكن ان نسميه «بالواقعية» التي كان يجب ان يجدها المدعوون اليه في القرن السادس الميلادى ليحملوه

الى الناس ومعه ما لم يستشرفوا هم وقتها اليه ، فصدق فيهم ان السامع يكون اوعى من المبلغ ، كما في الحديث :

واما ما وراء ذلك مما حملته آيات متعددة ، او ختمت به آية واحدة فهو أمل تطمح اليه الدنيا كلما ازداد وعيها ، ودق شـــعورها ، وما في القرآن من ذلك انما هو مثال يرفعه للانسانية لتتجه اليه ، وتطمح له ، فتبلغ من ذلك آخر ما يمكنها ان تطمح اليه أو تفكر فيه مع الزمن •

فما ذكرناه من هذه الدعوات الراقية المسعدة، للسلام ، وأساس العلاقات بين الرجل والمرأة والاستخلاف في المال هو ما يمكن ان نسميه « بالمثالية » القرآنية •

ففي القرآن واقع عمل به أمس ويعمل به الآن ، وسيظل يعمل بـه في مجتمعات لا تتطلع الى ما وراءه وهو الذى تفهمه ، ثم في القرآن مثال يرجى ويسعى اليه ، وهو يمسك على الناس أملهم ويطمعهم في قـــرب تحققه ، ويسدد خطاهم اليه •

وتتمة القول عن هذه الواقعية في القرآن ، وتلك المثالية فيه ، وامكان اجراء الفهم المتناسق للقرآن على تغاير تناوله ، مما يمكن ان يلتمس في غير هذا المكان • وحسبنا هنا البيان للخطة ، وتأكيد ان تناول القرآن جميع ما تناوله من شئون الحياة يجرى كله على هذا الاساس الثابت ، من الواقعية والمثالية ، ويفهم على تكامل فيهما وبهذا التناسق بينهما ، فيحفظ كرامة الدعوة القرآنية ، ويديم صلاحيتها للتطور على اختلاف الازمنة ، ووفاءها بحاجة الاقاليم المختلفة والبيئات المتنوعة •

وهذا بيان كاف للانتفاع به في استخراج معاني القرآن في : المفاهيم المثالية عنده للاشتراكية •

٤ ـ على أساس من هذه المبادىء المستقرة ، وهى :

(أ) ثبات المستوى اللغوي لفهم القرآن دون شيء من الغيبية الباطنية أو الخصوصية الصوفية ، أو التوسع غير المنضبط في مدلولات الفاظ القرآن، لما سبق بيانه •

(ب) ثبات الخطة في تكامل الآيات القرآنية ، ورد بعضها ، وضبط ذلك برد بعضه الى الواقعية وبعضه الى المثالية ، يدفع الكثير من الاعتراضات على واقعيات فيه نظنها هي الصورة الاخيرة من التدبير القرآني للحياة ...

فمن افق هذا الثبات والوضوح ، والاحكام الى حسن العربية الفتى ، دون أى شيء آخر نستخرج :

المفاهيم المثالية للقرآن في الاموال

فنجد ان القرآن بواقعيته يعرف حب الانسان للمال ، ورغبته في التملك والاقتناء الفردى ، وهو لا يهجم على هذا كله بكبح وكبت قاس ، كالذى حاولته بعض الاديان أو الفلسفات ، بل هو قد اعترف بملكية الانسان ، ونظم تناقلها بين الاحياء ، وتوارثها عن الاموات ، وشغله من ذلك غير قليل ، لكنه كأسلوبه في العرض المتعدد المتفرق لم يفصل هذه الواقعية ، عن شبه مثالية ، أو مثالية تتفرق في عرضه وتناوله .

ثم هو مع معرفة هذه الرغبات وواقعيتها يأخذ بيد البشرية في سبيل تهذيبها ، وكبح جماحها ، والتنقل بها شيئا فشيئا ، من الحرص الشديد الى تقبل الهوادة فيه ، فالتساهل فيه ، فالتغلب عليه .

هو يهذب غريزة التملك بمثل نهيه عن الاغترار بالاموال . بل ببيان أنهما أعداء : « اعلموا انما أموالكم واولادكم فتنة » ... « ان من أموالكم واولاكم عدوا لكم فاحذروهم » ...

وهو يحول الميول تحويلا نفسيا مدبرا ، يدفعها الى ان تتقى شحها ، ويغريها بما هو خير وابقى من المال ... وهو يقاوم اسرافها في طلب المال فيحرم ان يكسب المال مالا ، على ما هي حقيقة الربا الذى هدد بمحقه ، وقال : « يمحق الله الربا » ٢٧٦/البقرة .

وهو يهدد اكتناز المال ، وعدم اخراجه للمنافع الاجتماعية ، ويبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب اليم .

يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسهم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ٣٤/التوبة •

وهو يقرر الجزاء الحسن على الانفاق في سبيل الله ، بعد ما جعله قرضا لله ••• كما انه ينبه الى الانفاق في سبيل الله من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » •

فهو – كما ترى – ينقل الانسانية من واقعها تدريجيا بطريقته في العرض المنوع المتفرق ، المجاور للاعتراف بالواقع ، ويهيىء بذلك كله لمثالية عرضها بأسلوبه هذا ، الذى يترك هذه المفاهيم المثالية للوقت الذى يقوى فيه شعور الانسانية ، ويدق وعيها فتحسن الانتباه لذلك • وتجد منه ما يعزز انطلاقها ويؤيده ويسدده ، لا ما يكتفي بعدم تعويقها لا غير •

فاذا هو في مثاليته يقول في عرضه المتنوع « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » فاذا المال لله ، لا لمقتنيه ومالكه ؛ ويقول : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فاذا هم وكلاء فقط ينفقون انفاق الوكيل عن اصيل طالما وصف نفسه بالكرم والجود والبر والرحمة ، ومضاعفة الاجر ••• ومن هذه المعاني ما أدركه المفسرون القدامى انفسهم •••

واذا المتطلعون لاسرار هذا القرآن يقولون : ان المال كالماء ،لا يشرب منه أكثر من الحاجة ، فأقوياء النفوس الصالحون لا يشربون من الماء أكثر من حاجتهم ، وينفرون مما وراءها ، ولا يجمعون الماء في القرب والروايا يدورون بها معهم ، بل يتركونه في الانهار والبرارى للمحتاجين[1] •

* * *

هذه هي المفاهيم المثالية الواسعة الافق البعيدة المدى ، في مسألة المال وملكه وانتفاع الناس به ، وهي كما ترى اوسع افقا من الاشتراكية التي يتحدث عنها الشعب العربي اليوم ، وما فيها من قطاع عام ، وآخر خاص ، ورأس مالية وطنية ، وتعويض عن التأميم ، وأشباه ذلك •

---

(١) الغزالي – احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٦٦ ط الحلبي •

فلتسم البشرية ما تشاء من اشتراكية كذا واشتراكية كيت فان المفاهيم المثالية القرآنية تتسع في وضوح وجلاء ، ودون اى تحـــكم في التعبير أو تساؤل في اللفظ الى اوسع من هذا كله •

ومن أجل ذلك لا يقبل ان تنعت هذه المثالية الكبرى باسم مذهبـي كالاشتراكية ، لان مثاليته جاوزت آمال الاشتراكية ، وفاتت واقع أعمالهـا فليبق القرآن مثاليا لا مذهبيا •

ومن أجل ذلك كان عنوان هذا البحث هو :

القرآن والمفاهيم المثالية للاشتراكية

قدم فيه القرآن ، وجعلت المفاهيم مثالية ••• ولم يجر على غرار ما رسم في تنظيم المؤتمر من تاخير الادب وذكر المفاهيم الاشتراكية ••• ولعل هذا الصنيع يمنح الحياة العربية اليوم ما ترجـــوه من تذليل العقبات • وتصحيح الافكار ، ودفع العرب قدما بفضل الفن ، والدين والعلوم جميعا •

أمين الخولي

عضو وفد المتحدة

الجذور التاريخية للاشتراكية العربية

بقلم

الدكتور عبد العزيز الدوري

يمر المجتمع العربي بثورة شاملة تهدف الى تحقيق حـــريته وضمان وحدته واطلاق امكانياته وبناء مجتمع تسوده العدالة ويعمه الرخاء •

وهي ثورة متصلة الجوانب والحلقـات في البـــلاد العربية ، على الرغم مما يبدو من تركيز أو تحديد • فهي ثورة على التسلط الاجنبي اولا في جزء ، وثورة على الاستغلال والتخلف في جزء ، وثورة على التجزئة في جزء ، وثورة على هذه جميعا في اجزاء أخرى من الوطن العربي •

والثورة في شمولها او في جانب منها لا تقتصـــر على التخلص من وضع ، فذلك لا يعدو ان يكون تهيئة او تمهيدا للثورة الفعلية ، وهي عملية البناء التي تخلف التغيير الـكلي ، فتكون جذورها في التربة عابرة الواقـع الى المستقبل المرسوم •

وللفـكر دوره الـكبير في التوعية وفي التمهيد للثورة ، ولابد ان يكون له دوره الاساسي في البناء • ولـكن الفـكر لن يؤدي دوره ان ركن الى النقل أو اقتصر على التأمل ، بل لابد ان ينبثق من التراث والواقع ويتفاعل معهما باستمرار •

والمجتمع العربي الان في فوران متصل وحركة دائبة ، تعمه رغبـة جارفة لتخطي الزمن واللحاق بركب المدنية وتحقيق اهدافه الـكبرى • وقد أدى هذا الى تسبق الحوادث نطاق الفـكر في كثير من الاحيان وان يأتي التطبيق قبل ان تتحدد النظرية • ان هذه ظاهرة حيوية قوية اورثت الثقة والامل والهبت الطموح ، لذا فانها تفرض على الفـكر مسئولية خطيرة

في متابعة الاحداث وتفهمها وفي التخطيط للمستقبل •

ان محتوى الثورة العربية في الحقل الاجتماعي الاقتصادي يمثل جانبا حيويا لهذه الثورة ، وهذا المحتوى يتمثل في الاشتراكية العربية ، لانها تمثل مفهوم العدالة الاجتماعية بمعناها الواسع في المجتمع العربي الجديد •

وطبيعي ان يتجه الفكر العربي الى بحث الاشتراكية العربية والى تحديد اطارها الفكري ورسم خطوطها النظرية • وطبيعي في مرحلة مثل هذه ان نرى مجالا رحبا للاجتهاد وللنقل ، وان نحس بازمة فكرية قوية • ولكن الفكرة لن تستقر ولن ترسخ الا اذا انطلقت من الواقع ووجدت جذورها في التراث ، والا اذا كانت تحقيقا لآمال الامة وتجسيدا لامانيها •

ولنا ان نتساءل مبدئيا عن المفهوم الذي تنطوي عليه الاشتراكية العربية وعن محتواها ، وان نفحص سبب نعت هذه الاشتراكية بأنها عربية لنرى وجهتنا • فهل نعتبر التطبيق أساسا للتسمية فننعت كل تطبيق اشتراكي باسم البلد الذي يطبقه ؟ ان هذا الاتجاه يفترض ان الاشتراكية واحدة ، حيثما وجدت ، وكيف طبقت ، ولن تعدو التسميات الاوصاف الجغرافية أو الاقليمية • والاشتراكية ليست مجرد نظام اقتصادي ، بل هي نظام كلي له قيمه ومفاهيمه ونظرته للحياة • كل هذا يعني قبول هذا النظام وما ينطوي عليه والملائمة النسبية في التطبيق • اننا لا نقر هذا التفسير ، فهو لا ينطبق على الاشتراكية العربية ، ولا يمكن قبوله مفهوما لها •

ان الامة لا تستطيع التخلي عن ارثها الحضاري وعن قيمها ولا يمكنها ان تنسلخ عن ذاتها ان أرادت البقاء • فكيف اذا أرادت تجديد ذاتها وتحقيق حياة كريمة لابنائها •

ان الاشتراكية العربية ليست صورة أخرى للماركسية ، وانما انبعثت من واقع الامة العربية ومن ارثها الحضاري ، وانها تتمثل قيمها الاساسية ومفاهيمها الخلقية • وهذا لا يعني عزلتها بل انها في الوقت نفسه

تستفيد من خبرات الامم الاخرى ومن نتاج الفكر الانساني لاغناء ذاتها .

انا حين نؤكد على الجذور العربية الاسلامية للاشتراكية العربية ، ونؤكد على تمثلها للقيم العربية الاسلامية وللنظرة الاسلامية للحياة ، لا نقصد البحث عن مبررات الاشتراكية منقولة ، في التراث أو في أحداث التاريخ العربي الاسلامي ، لان هذا لا يعدو وضع اقنعة شفافة على نظام منقول . انا نريدها اشتراكية عربية في جذورها الحضارية وفي قيمها ونظرتها ، مفتوحة على خبرات العصر الحديث وعلمه .

ان ما ذكرنا لا يعدو ان يكون هدفا عاما ، ولن تكون له دلالته ومعناه الا بالنظر الى الاصول التاريخية .

انا لا نريد دراسة الفكر الاشتراكي هنا ، ويكفي ان نتحدث عن الماركسية بايجاز تتطلبه طبيعة الموضوع .

انا نجد في عدد من الحضارات آراء عن العدالة الاجتماعية ، وعن توفير الفرص المتكافئة ، وعن انكار الاستغلال . انا نجدها في بعض الفكر اليوناني ، ونجدها في الفكر الهندي والصيني ، ونجدها في الفكر المسيحي الوسيط ونجدها في العصور الحديثة قبل قيام الماركسية . ولم تكن هذه الآراء الا رد فعل للمساوىء الاجتماعية وتعبيرا عن تطلع المفكرين والجماعات الى حياة أفضل .

ولم تكن الماركسية خارجة عن هذا الاطار العام . فهي نتاج الحضارة الاوربية الصناعية في القرن التاسع عشر ، وهي تقدم صورة كلية للمجتمع الذي تريده . فهي تعطي تحليلا ديالكتيكيا ماديا للتاريخ البشري ، وتعتبر تغير وسائل الانتاج أساسا لتغيير المجتمع ولتغيير قيمه ومثله وهي تنكر الدين وتعتبره ظاهرة تاريخية عابرة صارت وسيلة استغلال . انها نتاج تطور الحضارة الاوربية التي قامت مبدئيا على الارث اليوناني والديانة المسيحية واخيرا على النهضة العلمية وعلى ما تخفيه من صراع بين الدين والعلم وعلى هذا الازدواج القلق المتصادم بين النطاق الديني والنطاق الدنيوي .

ولسنا هنا بصدد بحث الثورة الدينية في أوربا على الكنيسة ، وقيام البروتستانية ، وما كان لها من اثر في تنشيط الرأسمالية ، ولسنا بصدد

تحليل اثر الثورة الفرنسية في ضرب الاقطاع الاوربي ودفع الحركة القومية الاوربية وما لازم هذه الحركة من محاولات لتوسيع رقعة الاستعمار ، وبث مفاهيم المساواة بيد والسيادة الغربية بالاخرى وما صحب ذلك من آثار عميقة ، ولكنا نشير الى الثورة التي مهدت لقيام الماركسية وهي الثورة الصناعية • فقد احدثت الثورة الصناعية تحولا واسعا في المجتمعات الغربية ، رافقته مآس اجتماعية خطيرة واوجدت اندفاعا من الاستغلال تجاوزت كل حد وابرزت تناقضات اجتماعية اقتصادية شديدة • وحصل هذا في عصر من التقدم الفكري الواسع •

ظهرت الماركسية في اطار الحضارة الاوربية في القرن التاسع عشر ، وهي نتاج مجتمع اوربي متغطرس يرى مفكروه ان تجارب البشرية انتهت اليه ، وان كل ما حصل او يمكن ان يحصل فيها لا يخرج عن نطاق تجربة المجتمع الغربي •

ولم يشذ ماركس عن هذه النظرة ، بل انطلق منها حين التفت الى التاريخ الغربي وحاول تفسيره ثم حول ذلك الى قوانين عامة لتطور المجتمعات البشرية • والواقع ان مؤرخي الغرب وفلاسفة تاريخه استمروا يحملون نفس الفكرة الى اواسط هذا القرن ، فلما قامت الثورات التحررية الكبرى بين شعوب آسيا وافريقيا بدأوا يدركون خطأ الفكرة وضيقها ويرون انه لا يمكن تعميم أي تفسير لتجارب المجتمعات الغربية على المجتمعات البشرية الاخرى •

جاءت الماركسية بتفسير ديالكتيكي مادي للتاريخ البشري ، واعتبرت تغير وسائل الانتاج وملكيتها أساس تغير المجتمع وتغير مثله وقيمه • اذ يرافق تغير وسائل الانتاج صراع بين الطبقة المسيطرة حاليا والطبقة الجديدة الصاعدة ، وهكذا فالتغيير الجذري لا يكون الا بصراع الطبقات ، والماركسية تنكر الدين وتعتبره ظاهرة تاريخية وسبيل استغلال •

وهكذا فالماركسية تخضع تطور البشرية لقوانين حديدية ، وتفرض الحتمية في التاريخ • وترى ان قوانينها تصدق على كل المجتمعات بمعنى ان حتمية التاريخ تفرض مرور المجتمعات بنفس الادوار من التغيير التي

تراها هي في المجتمع الغربي ، فهي صور متتالية متوازنة من التغير في المجتمعات البشرية •

وقد نقرب المفاهيم الماركسية لابناء مجتمعنا اذا اشرنا الى محاولات بعض المؤرخين الماركسيين تفسيرالتاريخ العربي • فهم يرون ان المجتمع العربي مر قبل الاسلام بالمرحلة البدائية (الرعي) الى مرحلة امتلاك الرقيق وشارف المرحلة الاقطاعية • وهذا التطور ولد ازمة اجتماعية اقتصادية انتجت الاسلام • وحاولت ارستقراطية الملاكين (تجار الرقيق) الخروج من الازمة بالفتوحات ، ونتج عن الفتوحات تحول المجتمع كليا الى مجتمع اقطاعي، وتم ذلك في العصر العباسي •

فالاسلام اذن نتاج ازمة اقتصادية اجتماعية سببها تبدل علاقات الانتاج وهو تعزيز" لصالح الطبقة الناشئة ولا يعدو ان يكون ظاهرة مادية •

ومع ذلك فهم مضطربون في رسم الخطوط • فمنهم من يرى ان الاسلام يلائم مصالح ارستقراطية الرقيق ، بينما يرى اخرون انه يلائم مصالح الطبقات المستغلة من ملاك وارستقراطية الاقطاع ، في حين يرى غيرهم انه لا يلائم مصالح الطبقات الحاكمة الجديدة فلجأ أصحابه الى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الاقطاعي •

وبينما يقول البعض ان الارستقراطية وحدت القبائل العربية لتحقيق أغراضها ، يقول غيرهم ان القبائل كانت تتوثب للوحدة فجاء الاسلام موحدا يعبر عن ذلك التوثب • بل يضطرب الموقف حتى من نشأة الاسلام ذاته • فبينما يدعي البعض ان محمداً (ص) واحد من عدة انبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد ، يذهب اخرون الى نفي شخصية النبي العربي والى اعتباره شخصية اسطورية • وذهب البعض الى ان الاسلام نشأ عن اسطورة وضعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة وان جذورها تعود لاعتقادات سابقة تسمى الحنفية •

وهذا الاضطراب في الرأي والانحراف عن تفهم التاريخ العربي ان هو الا مظهر لفرض نظرية خارجية على التاريخ العربي ، وهو نتيجة

لاتخاذ التاريخ سبيلا لتبرير الماركسية ودعمها ، وما ابعد ذلك عن طبيعة التاريخ العربي وعن البحث التاريخي العلمي (تجد تفصيل ذلك في دراسات بيجولفسكايا ، وبلاييف ، وكليموفيج ، وتولستوف) •

ولسنا هنا بصدد تقييم الماركسية حتى بالنسبة لتطور المجتمع الغربي ، ويكفي ان نقول ان الجدل حولها واسع ، وان الماركسية حولت بعض نظراتها من جهة ، كما ان تطورات خطيرة حصلت في غير ما افترضها نظرتها • ولكن يلزمنا ان نتذكر ان الماركسية نظرية كلية ، وان اسسها تقوم على اعطاء سبب واحد لتغيير المجتمعات ، وهو تبدل وسائل الانتاج ، وان التغيير يحصل عن طريق الصراع بين الطبقات ، وان النواحي الروحية أو الفكرية هي ظاهرة لا سبب في تطور المجتمعات • وهذه النظرية تختلف أساسا عن قولنا بأهمية العامل الاقتصادى في تغير المجتمعات، لان التفسير الاقتصادى لا يعتبر الاقتصاد العامل الوحيد بل عاملا مهما مع عوامل أخرى في تغيير المجتمعات وفي التطور الحضاري •

لننظر الان الى التاريخ العربي لنرى سير المجتمع عبر العصور ولنتفهم طبيعته •

لقد كون المجتمع العربي الاسلامي حضارة تتمثل فيها عبقريته ومفاهيمه • وادق ما في أية حضارة الروح التي تتخللها والقيم والمثل التي تعتز بها •

وجدير بنا ان نتذكر ان هذه الحضارة وجدت اولياتها في الارث الثقافي العربي القديم•وهو ارث عريق يعود لاكثر من الفي سنة قبل الميلاد ويشارك فيه وادي الرافدين واليمن وسورية ومصر•وقد مر النشاط الحضاري العربي بفترات من الازدهار والركود ، ولكن مناطق نشاطه تمثلت قبيل الاسلام في شمال الجزيرة العربية وجنوبها • واوضح مظاهره اللغة العربية والشعر العربي • وكانت له اصول قديمة في التوحيد على الرغم من طغيان الوثنية في هذه الفترة •

وظهر الاسلام ، ووجد العرب فيه مثلهم وقيمهم ونظرتهم للحياة ، كما وجدوا فيه وحدتهم وطريق انتشارهم على الارض ، ورأوا فيه منطلقا

لبناء حضاري جديد .

ومع ان العرب اخذوا في العصر العباسي من الحضارات الاجنبية ، الا ان ذلك جاء بعد الفترة التي رسمت فيها خطوط الحضارة العربيـــة واسسها . فقد ظهر النشاط الثقافي في مراكز عربية خالصة في المدينـة والبصرة والـكوفة ثم الفسطاط ، وتمثل في الدراسات العربية الاسلاميـة كعلوم الحديث والقرآن والفقه والدراسات التاريخية واللغوية وفي النشاط الادبي الخصب . وبعبارة ابسط ظهرت الدراسات الانسانية واتخـــذت اطارها قبل البدء بالترجمة مهما كانت اشكالها . وهذه الدراسات تمثل روح الامة وقيمها وتحدد طابعها الثقافي ووجهتها الحضارية .

وحينما أخذ العرب من اليونان أخذوا شيئاً من علومهم واخذوا من فلسفتهم وتأثروا بذلك في تطورهم الفـكري ، وكل ذلك لم يغير من مثلهم وقيمهم وانما افادهم في اغناء الجوانب المادية من حضارتهم وافاد في تطوير بعض أساليب التفكير لديهم .

لقد تمثل المجتمع العربي الاسلامي قيما أساسية وكون نظرته للحياة ، وكان المبدأ الاساسي في هذا المجتمع مبدأ العدالة .

لقد تجلت روح العدالة الشاملة في الحضـارة العـربية وتمثلت في جوانبها المختلفة في السياسة والتشريع والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

تبدو فكرة العدالة في سيادة الشريعة (القانون) على الحاكم والمحكوم وفي استنادها الى النصوص من جهة والى آراء الفقهاء والعلماء من جهـة أخرى . والشريعة تؤكد على العدل وتنكر الجور وترى اي خروج على ذلك مهما كان مصدره ضلالا .

وتبدو الفـكرة في التأكيد على الشورى وعلى حرمة رأي الامـة . وتمثل الشورى في مجموعة اهل الحل والعقد التي توجه وتدير . وما دامت الامة اساس الكيان العـام ، وجب ان يمثل اهل الحل والعقد جماعاتهـا المختلفة ، وهم خلاصة قابلياتها . ولكن ذلك لا يكفي فهناك الرأي الشامل للامة كما يتمثل في مبدأ الاجماع . فمتى اتفقت الامة او آراء فقهائهـا

ومجتهديها على شيء وعُدّ الاتفاق اجماعا كان ذلك ملزما • فاكتسب رأي الامة حرمة ملزمة ، وفتح الباب لتجابه مشاكلها بافق مفتوح بعد مراعاة مصالح الجماعة أو الخير العام •

وتأكد الفكرة في استقلال القضاء عن السلطة وفي صلابة القضاة في الحق وفي وقوفهم جنب العدالة تجاه المتنفذين وتجاه عامة الافراد •

وتظهر فكرة العدالة في الناحية الاقتصادية في منع الاستغلال باشكاله وفي انكار سيطرة المال والتأكيد على الرعاية الاجتماعية•فالربا محرم، والاحتكار مرفوض خاصة فيما يتعلق بمعاش الناس • وتظهر الفكرة في وضع حق معلوم للضعفاء يتعدى ما يقدم الفرد في الزكاة والهبة الى الزام الامة بمكافحة افقر باشكاله • ويصل مفهوم العدالة الى ابعد من ذلك حين يؤكد على ضرورة ضمان مستوى معاشي مقبول للناس كافه • فمع تباين الرأي في شؤون المعيشة به من يرى المساواة وبين من يقر التباين على أساس الخدمة والفضل ومؤهلات اخرى ، الا ان الاتجاه العام هو الى ضرورة ضمان الحد الادنى لافراد الامة مع السعي لتخفيف الفوارق الاقتصادية حفظا للكيان العام •

وتتمثل فكرة العدالة في اعتبار الاراضي المفتوحة وما فيها من ثروات ملكا مشتركا للامة ووقفا عليها في حاضرها ومستقبلها • ومع قيام عدة محاولات لتجاهل ذلك في فترات مختلفة ، الا ان فكرة ملكية الامة انتصرت ورسخت •

وفي الناحية الاجتماعية تبدو فكرة العدالة في التأكيد على حركة الانسان وكرامته ، وعلى احترام الرأي والتسامح تجاه اراء الاخرين ما دامت لا تهد الكيان المشترك • وتبدو ايضا في التأكيد المطلق على المساواة •

وتتركز فكرة العدالة في اعتبار الجماعة أساس الكيان الاجتماعي وتتجلى هذه الناحية بقوة في فترة الابداع الحضاري ، في بناء المدن والريازة ، وهي فنون جماعية ، وفي الفكر والادب والتاريخ ، في المدارس

الفقهية والتاريخية والادبية التى تربطها الفكرة والمعرفة لا الشخصيات .

ومن قيم المجتمع العربي حرمة العمل وحرمة الكسب باليد . ومع ذلك فقد اعتبرت الملكية في الاصل وظيفة اجتماعية يمكن الحد منها بفرض الضريبة أو بغير ذلك بضوء هذا المفهوم .

ومن هذه القيم تقدير العلم وتشجيع العلماء وطلبة العلم وتقديم الهبات والمنح لهم وفتح مجالاته دون تمييز ، ويصحب ذلك حب للمعرفة لا يكترث بالمشاق والفاقة . وينعكس ذلك في تقديس شامل للعلم لدى العامة والخاصة.

ومن هذه القيم الاخوة الانسانية ، وعدم التفاضل الا بالعمل والخدمة واعتبار العقيدة اسمى أنواع الروابط بين الافراد والجماعات .

ان النظرة الانسانية التي تتخلل المجتمع العربي هى من القيم الاساسية التي جنبت المجتمع التمايز بين الناس بسبب الوانهم واجناسهم ، وحدت من ظهور مثل هذه الاتجاهات المدمرة في المجتمع . كما ان هذه النظرة الانسانية كانت أساس التعاون بين الجماعات وسبب احترام عقائد الاخرين.

ان القيم العربية الاسلامية ، والنظرة للحياة تمثلت قبل كل شيء في الفكر ، وتمثلت في مظاهر من حياة المجتمع . وعلى الرغم من التطورات والانحرافات ، فان الفكر العربي استمر في تأكيده عليها ، بل لقد كان التأكيد يزداد كلما اتسعت الشقة بين الواقع وبين الفكر .

ويهمنا ان نلاحظ ان حياة المجتمع العربي الاسلامي تأثرت بهذه القيم بصورة أكيدة ، ولكن الواقع مع ذلك يكشف عن اوضاع عملية وتطورات لها أهميتها ، كما شهد المجتمع العربي متناقضات خطيرة .

لقد شهد المجتمع العربي قوى متصارعة ، كما كانت له قوى أخرى للشد والبناء . ويهمنا ان نتفهم هذه لنرى طبيعة تطور المجتمع وتكوينه .

ولنذكر مبدئيا ان المجتمع العربي مرّ خلال القرن الاول الهجري بصراع ظهرت بعض جوانبه وبقيت الجوانب الاخرى ضمنية وان كانت قوية ، وهو

صراع دار بين قوى الثورة الجديدة والبناء وتمثل في المبادىء والاتجاهات الاسلامية ، وبين قوى المحافظة والتجزئة وهي الاتجاهات القبلية • وتمثل هذا الصراع في النطاق السياسي العام وتمثل في النشاط الفكري والاجتماعي وحتى في التطور الاقتصادي ، ولكن الفترة انتهت بانتصار المبادىء الاسلامية نتيجة قوتها وتوسعها ونتيجة انتقال القبائل في البلاد الجديدة الى حياة مدنية مستقرة •

وتكونت احزاب سياسية نشأت نتيجة الصراع على السلطة بين العرب ، وهي احزاب عربية • وعلى الرغم من انضمام غير العرب الى هذه الاحزاب ، الا ان قيادتها وتوجيهها بقيت بيد الفئات العربية • والمهم ان هذه الاحزاب لم تكن تمثل طبقة اجتماعية دون أخرى ، بل كانت شاملة • وظهرت بالتدريج المدارس الفقهية المختلفة ، وهي مدارس تتصف في تفكيرها بالشمول لمختلف نواحي الحياة ، ورغم الخلافات في الآراء فقد كان لكل مدرسة منزلتها واتباعها دون ان تختص احداها بفئة اجتماعية دون أخرى •

وتحول المجتمع تدريجيا الى الاستقرار ، ورافق ذلك تطورات اقتصادية اجتماعية مهمة • ففي البداية كان بعض أهل المدن لاسيما مكة يشتغلون بالتجارة ووجدوا في الفتوحات سوقا واسعة وتكونت فئة تجارية قوية • اما القبائل فقد عزفت مبدئيا عن الزراعة ، وانصرفت للقتال • ولكن سكناها في المدن الجديدة جعلها تميل تدريجيا الى الاستقرار والزراعة والى ملكية الارض وظهر ذلك خاصة بين اشراف القبائل • وتحولت دور الهجرة ، وهي المعسكرات الاولى كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، الى مراكز حضرية مهمة • وبدأت التجارة تتسع بالتدريج في افلتها ونطاقها •

وتدرج الامر قبل نهاية القرن الاول الى ظهور الملكيات الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة • وقد حاول عمر بن عبدالعزيز الحد من ذلك ولكنه لم يفلح • ودخل كثير من اهل البلاد المفتوحة في الاسلام وتوسعت فئة الموالي وكان بينهم التجار والصناع والزراع •

ولابد ان نلاحظ ان الاحزاب السياسية انتشرت بين القبائل واضعفت التماسك القبلي • كما ان بوادر تيارات مناهضة للسلطان العربي وللوضع القائم بدأت به بشكل مستور بين فئات لم تسلم او فئات تظاهرت بالاسلام وكلها تسترت برايات عربية اسلامية ، وهي لا تعدو ان تكون استمرارا لحركات اجتماعية ظهرت في المجتمع الساساني في ايران واستمرت بعد الفتح الاسلامي بصورة خفية •

كما بدأ تيار المعارضة بين الموالي لدوافع مختلفة تتراوح بين المناداة بالمساواة الاسلامية وبين الطموح الى السلطة •

وجاءت الدعوة العباسية لتضم كافة التيارات المناوئة للسلطان القائم ، وهو سلطان عربي ، وضمت بين صفوف انصارها جميع هذه التيارات وشجعتها ومكنتها من الظهور والاتساع لتجني سياسية التجميع هذه في سلسلة حركات قامت ضد العباسيين وخاصة بين الايرانيين الذين نصروا الثورة العباسية ، مما لم يسبق له مثيل في القرن الاول الهجري •

ولما جاء العباسيون ، اتسع النشاط التجـــاري ، وتوسعت الملكيات الزراعية بين العرب ، وظهرت تيارات اجتمــــاعية سياسية جديدة نخص بالذكر منها تيارات قومية في بعض الجهات وتيارات دينية تناهض الاسلام علنا او من وراء ستار • وظهر تيار آخر وراء هذين وهو رد الفعل لدى الفلاحين في بعض المناطق ــ ولا سيما ايران ــ ضد توسع الملكيات على حساب المزارعين الصغار الذين خسروا اراضيهم وتحولوا الى اجراء متجولين •

ويهمنا ان نلاحظ مظاهر الصراع في المجتمع العربي الاسلامي خلال العصر العباسي لنرى طبيعة الاتجاهات المتضاربة •

لقد تمثلت مظاهر الصراع الـكبرى في المجتمع العربي الاسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة في المعركة بين العرب والشعوبية ، وفي المعركة بين الاسلام والزندقة ، وتمثلت في بعض الحركات الاجتماعية الايرانية كثورات الخرمية ، وهي جميعا مظاهر للصراع بين الشعوب غير العربية ، ولا سيما الفرس ، ودياناتها الموروثة من جهة وبين العرب والاسلام من

جهة اخرى • ثم ظهرت في القرن الثالث فما بعد حـــركات اجتماعية في نطاق المجتمع العربي ـ الاسلامي مثل ثورة الزنج ، وحركات العياريـن والشطار وحركة القرامطة والاسماعيلية • وبينما كانت ثورة الزنج محلية في جنوب العراق ولفترة قصيرة (اربعة عشر عاما) ، فان حركات العيارين والشطار وحركة الاسماعيلية استمرت قرونا مشيرة بذلك الى ازمة اعمق في المجتمع العربي الاسلامي •

ولنتناول هذه الحركات بايجاز لمعرفة وجهتها وللـكشف عن طبيعة التناقضات القائمة •

فالمعركة بين العربية والشعوبية بدأت بمحاولات شعوب غير عربية لمقاومة السلطان العربي المتوثب ، متسترة بمظاهر عربية أو اسلامية • وعملت على اضعاف الثقافة العربية الاسلامية والترويج للارث الحضاري الاعجمي ، وحاولت زعزعة السلطان العربي بمهاجمة اركانه ومحاولة هدمها وهي الاسلام والعربية ، كما حاولت تفتيت قيم المجتمع وتفسيخ اخلاقه • وقد برز وجه المعركة في النطاق الثقافي والادبي • فانت تجد بين زعماء الحركة شعراء وادباء لهم مكانتهم مثل بشار بن برد وحماد عجرد وابن المقفع ممن لا يزال دورهم موضع نقاش لحد الان • فالشعوبية لم تـكن حركة طبقة اجتماعية ضد طبقة أخرى كما توهم البعض ، لان الذين ساهموا فيها كانوا بين وزير متسلط وتاجر ثري وكاتب في الدواوين واديب معروف ، ومعهم أناس مثقفون وان لم يكونوا اغنياء • انها كانت صراعا بين العرب وفئات من الشعوب الخاضعة لسلطانهم على العموم ممن لم يتمثلوا المبادىء الاسلامية والمفاهيم الحضارية الجديدة • لذا فاننا نجد بين انصار العربية والاسلام أعلاما لم يكونوا من العرب مثل ابن قتيبة والبلاذري •

وبجنب هذه المعركة ، وتتداخل معها احيانا ، كانت المعركة مع الزندقة • والزندقة في الاصل امتداد لحركة المانوية بعد ان تسترت بمظهر اسلامي ارادت حركة الزندقة تشويه الاسلام ونسفه من الداخل بعد ان توســـع وهـدد وجودهـا ، وارادت ضرب السـلطان الــذي قـام به ، وهـذا

هو اسلوب المانوية • وقد شارك في المعركة انصار ديانات أخرى مجوسية ولا سيما المزدكية ثم الزردشتية بدرجة أقل • ان الصراع مع الزندقة انما هو صراع بين الاسلام اساس السلطان العربي ، والمجوسية المستترة بمظاهر خادعة • ان توسع الاسلام وقوته المعنوية هددت المجوسية بالانحسار المتصل ، فكانت حركة الزندقة ظاهرة لرد الفعل ، وسبيلا لضرب السلطان العربي ، ومن هنا تداخلت الزندقة والشعوبية • وحين نتحدث عن الزنادقة لا نتحدث عن صراع اجتماعي بل ديني ولا عن فئات منكودة بل نجد اعلام الزندقة بين المترفين وبعض المفكرين •

ولم يقتصر الصراع بين الاسلام وما يستند اليه من سلطان وبين المجوسية على الزندقة ، بل تمثل في حركات تبدو اجتماعية ، كحركة الخرمية • ولم تكن الخرمية الا امتدادا للمزدكية ، تلك الحركة الدينية الاجتماعية التي ظهرت في ايران الساسانية ، طلعت الان بثوب اسلامي وصارت حركة الطبقة العامة في ايران في العصر العباسي الاول • فالخرمية هي امتداد لحركة اجتماعية قديمة نشأت عن ظروف المجتمع الايراني ولكنها حولت السخط الى السلطان العربي والى الاسلام قاعدته بعد ان كانت موجهة ضد السلطان الساساني • والخرمية لم يكونوا مسلمين ولم تكن الغلالة الرقيقة التي ارتدوها كافية لستر حقيقتهم المزدكية •

واذا كانت حركات الشعوبية والزندقة والخرمية مظاهر للصراع الديني السياسي بين شعوب وديانات اجنبية وبين العربية والاسلام ، فاننا نجد حركتين اجتماعيتين صدرتا عن ظروف المجتمع الاسلامي في حركة الاسماعيلية ، وفي ثورة الزنج • وصادف ان بدأت انفجارات الحركتين في القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي •

أما ثورة الزنج ، فهي ثورة الرقيق في سباخ البصرة حيث كانوا ارقاء لكبار ملاك الاراضي في منطقة البصرة ، وحيث جمعوا في اعداد كبيرة • ومع ان بعضهم لم يكن يعرف العربية ، وبعضهم لم يدخل الاسلام ، ومع ان جلهم بقي غريبا عن المجتمع العربي الاسلامي الا ان

ثورتهم قادها من خرج باسم المبادىء الاسلامية وبأسم العدالة ، وكانت تعبيرا عن ثورة الرقيق على وضع لم يروا فيه الا الضنك والحرمان والاستغلال •

ان ظهور الملكيات الكبيرة في منطقة البصرة وتوفر رؤس الاموال لدى الملاكين واستعمال اساليب الزراعة الكثيفة أدى الى شراء مجموعات كبيرة من الرقيق من تجار الرق الذين كانوا يجلبونهم من افريقية ، والى استخدام الالوف من الرقيق السود لكسح السباخ حول البصرة ولاستصلاح الاراضي وزرعها • لقد عاش هؤلاء على هامش المجتمع الاسلامي ولم يروا الا العمل المضني والاستغلال الفظيع الذي يتنافى وابسط المبادىء الاسلامية فكانوا في وضعهم المعاشي السيء وفي تجمعاتهم الكبيرة على الارض حقلا خصبا لكل نداء يصدر باسم العدالة الاجتماعية • وجاء النداء بأسم المساواة وباسم المثل الاسلامية •

ومهما قلنا في دوافع صاحب الزنج ، وفي ثقافة الزنوج ، فان ثورة الزنج كانت نتيجة استغلال بشع يتنافى ومبادىء الاسلام ، وظاهرة لصراع مرير بين فئة الرقيق السود وبين المجتمع الماثل أمامهم في اصحاب الاقطاعيات والملاكين الكبار في منطقة البصرة • ولكنه صراع لم يكن واضح الاهداف ، فهو لم يقصد الا تحرير الرقيق السود ، ولكن الثوار ذهبوا الى فرض الرق على الاسياد حيث قدروا ، وارتكبوا من التخريب والفضائح ما اثار القاصي والداني عليهم مما أدى الى سحق ثورتهم ومحو اثرهم •

أما حركة القرامطة والاسماعيلية فقد كان لها معنى اوسع واثر ابقى • لقد ظهرت الحركة في فترة تركيز التطور الاقتصادي والاجتماعي • ومع ان الحركة الاسماعيلية انتشرت وبدا نجاحها بعد منتصف القرن الثالث للهجرة فانها بدأت في القرن الثاني ، وهذا يعني انها انتشرت حين توفرت الظروف العامة ـ اقتصادية واجتماعية ـ المواتية لنجاحها • فهي نتاج تفاعل الفكر والاوضاع القائمة اقتصادية واجتماعية وسياسية •

لقد حدثت تطورات هامة في المجتمع منذ القرن الثالث الهجري

(التاسع الميلادي) • فقد نشطت التجارة في المجتمع واتسعت افاقها وظهرت طبقة من التجار الكبار لها رؤوس اموال كبيرة وخير مثل لهؤلاء التاجر ابن الجصاص الذى بلغ رأسماله ملايين الدنانير • وامتد نطاق التجارة العربية من كوريا الى البلطيق وتغلغل في افريقيا واجزاء من اوربا • ويسر النشاط التجاري قيام فئة من الصرافين والجهابذة الذين يتعاملون بالنقد ويقومون بدور البنوك في العصر الحاضر بتسيير عمليات الائتمان والتسليف ، وكان جلهم من غير المسلمين • ووصل الامر في مطلع القرن الرابع الى قيام مصرف رسمي تعتمده الحكومة •

وشهدت الفترة توسع الزراعة وظهور اساليب الزراعة الكثيفة وظهور الملكيات الواسعة ولا سيما في السواد وقيام فئة من الاقطاعيين المثرين ، ورافق نشاطهم كثير من الاستغلال وازدياد عدد الفلاحين الاجراء والمتجولين فكان هؤلاء الفلاحون بيئة ملائمة لكل الدعوات التي تعد بتحسين الاوضاع •

وفي هذه الفترة اتسعت العامة في المدن وظهرت حركات بين العامة وبين أصحاب الصنائع والحرف ، وذلك ـ في تنظيمات تهدف الى حماية مصالحهم كما كان شأن الاصناف والنقابات الحرفية ، أو في حركات تمرد متصل ينطوي على الثورة على الاوضاع كما في حركات العيارين والشطار •

ان ظروف قيام الحركة الاسماعيلية تكشف عن تضارب المصالح وعن الصراع الاجتماعي الاقتصادي • ومع ان جذور الحركة تتصل بالغلو الذي ينطوي على آراء غريبة عن الاسلام ، الا انها طلعت باسم العدالة الاجتماعية • لقد دعت الحركة الى المساواة في نطاق المبادىء وانكرت الفوارق العنصرية باسم الدين ، وارادت حسب دعوة اصحابها ان تكسب الناس جميعا وان تصهرهم في نطاق مبادئها وارائها • وعملت الدعوة الاسماعيلية على احداث ثورة تقلب الاوضاع السياسية وغيرها ، واتخذت من كل الجماعات المتذمرة سلاحا لقلب الاوضاع •

ولابد ان نبين ان هذه الحركة اتخذت اشكالا وبرامج مختلفة حسب

البيئات التي عملت فيها ، وهذا يوضح التباين في برامجها العملية • فقد دعا القرامطة في السواد الى نوع من الشيوعية حيث لا ملكية فردية ، وليس للفرد الا سلاحه ، وحيث يأخذ كل قدر حاجته ويعطي للجماعة كل انتاجه • واهتم الفاطميون في مصر بزيادة الانتاج وتحسين الوضع المعاشي ورعاية أصحاب الصنايع والحرف ، وابدوا تسامحا كبيرا مع جميع الفئات ، ولم يبعد نظامهم كثيرا عن الاوضاع في البلاد العربية الاخرى •

اما في البحرين فقد دعا القرامطة الى نوع من الاشتراكية ، اذ اعتمدوا الاقتصاد الموجه وعملوا على الغاء الرق وعلى تسليف الزراع ومساعدة الصناع ماديا وأدبيا وتنشيط انتاجهم ، وسيطروا على التجارة الخارجية وسكوا عملة خاصة لمنع تسرب الثروات للخارج •

ومن الجدير بالذكر ان الحركة الاسماعيلية نجحت في الوصول الى الحكم ودامت في بعض البلاد العربية مثل اليمن ومصر والبحرين ولكنها احفقت في سورية والعراق • لقد نجحت في مصر والبحرين لانها وصعت تدابير اقتصادية فيها شيء من العدالة الاجتماعية عالجت ظروف المجتمع العربي الاسلامي ، فتمكنت من الاستمرار • اما في العراق فقد جاءت بتدابير تناقض قيم المجتمع ومفاهيمه ولذلك لقيت منه اعنف مقاومة وانتهت في فترة قصيرة • وفي سورية لم ير المجتمع منها الا العنف والتنكيل فنبذها وحاربها دون هوادة • ولم تنجح الحركة في ايران ، وانما تركزت في حركة ارهابية هي حركة الحشاشين التي شكلت تهديدا شاملا للمجتمع الاسلامي معتصمة في قمة جبل حتى لقيت حتفها •

ان تحليل ظروف الحركة الاسماعيلية وانتشارها يكشف عن الفوارق الاقتصادية وعن تضارب المصالح وعن دور المصالح الاقتصادية في التاريخ ، ولكنه يكشف ايضا عن دور الافكار والآراء الدينية في تحريك الجماعات وفي اندفاعها • ومهما قيل عن الجذور الفكرية للحركة وعن تطورها فان دعاتها وجدوا في مبادىء العدالة الاجتماعية في الفكر الاسلامي سبيلا لبث دعوتهم ، ووجدوا في التناقض بين هذه المبادىء والواقع مجالا

رحبا لترويج دعوتهم .

وبعد كل هذا فان الحركة الاسماعيلية لم تدم لانها جاءت بآراء لا تأتلف والمفاهيم الهامة ، ولذا كان زوالها شاملاً الا في أماكن معزولة .

في هذه الفترة نشطت الصناعة وتوسع نطاقها ، وظهرت المعامل كمعامل الزجاج والسكر والورق والجلود والنسيج . وكثرت مجموعات اهل الصنايع والحرف ونظموا انفسهم في اصناف ونقابات لها مفاهيمها وشعائرها ولها اثرها في الحياة الاقتصادية .

وقد عملت النقابات والاصناف المهنية على تحسين الانتاج ورفع سوية الصناعة ، وعلى تنظيم الاسعار . كما انها عملت على حماية الصناع ، وعلى تنظيم حياتهم . وكان لكل حرفة درجاتها في الصنعة ولها ممثلوها امام السلطات . وحاولت السلطة من جانبها ان تضع رقابة على نوعية الانتاج وعلى سلوك الاصناف ، وتمثل ذلك في توسيع سلطة المحتسب واعوانه ليشرفوا على الاسواق حيث تتجمع الاصناف . ويهمنا ان نذكر ان الاصناف والحرف كانت تربطها جنب رابطة المهنة قيم خلقية واجتماعية اسلامية ، وانها اتصفت بالتسامح ، فسمحت للصناع بالانضمام اليها بصرف النظر عن اديانهم واجناسهم ، وهذا ما لم تعرفه النقابات الاوربية في العصور الوسطى لانها كانت تبعد عن صفوفها لمخالفيها في المذهب أو العقيدة كما انها لم تلتزم بمثل هذه القيم الخلقية الواضحة . وكان دور الاصناف كبيرا في الحياة الاقتصادية واحيانا في الحياة العامه .

واذا كانت الاصناف تمثل الجانب السلمي من تنظيمات العامة ، فان حركات العيارين والشطار تمثل رد فعل عنيف للاوضاع الاقتصادية والسياسية . ويهمنا ان نوضح ان العيارين والشطار ظهروا في صفحات التاريخ بمظهر اللصوص والنهابين ، ولكن كانت لهم تنظيمات سرية ، تشبه النقابات وكانت لهم شعائرهم . كما انهم تبلورت لديهم قيم خلقية في الفتوة . وكانت وجهتهم مقاومة السلطة ، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بل انهم ادعوا ان المثرين اهملوا مبادىء الدين ونصوص الشريعة فاستغلوا

واذوا الفقراء والضعفاء وان العيارين قاموا لاخذ حقوقهم المهدورة عنوة . وكانت هجماتهم تتركز على رجال الشرطة وعلى التجار . وقد قاموا في بعض الفترات القلقة بحفظ الامن ومكافحة الغزاة والاجانب كما فعلوا في حصار بغداد في منتصف القرن الثالث . ولا ننسى ان نشـــاطهم قوي في فترات التسلط البويهي والسلجوقي .

بعد هذا ، نود ان نشير الى جانب اخر ، وهو ان الاقطاع الـذي عرفته اوربا والذي عم ارجاءها لم يجـــد لـه مثيلا في المجتمع العربي الاسلامي وذلك لان التجارة كانت دائما عاملا مهما في الحياة الاقتصادية ، ولان الطرق التجارية برية وبحرية كانت مفتوحـــة بين البلاد الاسلامية والخارج . ومن جهة ثانية نجد العرب في اثناء قيامهم بالفتوحات يعتبرون الفلاحين احرارا ولم يقروا رق الارض ، ولم يعترفوا بالاقنان (وهــذا ما يفسر اللجوء فيما بعد الى شراء الرقيق الاسود لاستخدامهم في منطقـة البصرة وغيرها) . ولـكن هذا لم يمنع ظهور اقطاع من نوع اخر وهـو قيام الملكيات الـكبيرة على حساب الملـكيات الصغيرة وتكاثر الفلاحـين الاجراء واستغلالهم من قبل الملاكين الكبار .

وهـكذا كان منتظرا في هذه الاوضاع الاقتصادية التي تبلورت في القرن الرابع الجهري/العاشر الميلادي ان تصطدم المصالح وان يتعرض المجتمع لهزات اجتماعية خطيرة وتمثل ذلك في حركة الاسماعيلية ، وهي ثورة شاملة ، وفي حركات أخرى كحركات العيارين والشطار .

ولكن المجتمع عرف جوانب اخرى . فقد كانت هناك بعض الخدمات التي تقدمها الدولة لفئات الشعب . هناك المستشفيات التي تنشئها الحـكومة للعناية بالمرضى وللعلاج المجاني ، وهناك الوقوف الخيرية الواسعة والهبات للمحتاجين والفقراء وللتعليم . هذا اضافة الى الزكاة .

ويمكن ان نشير الى محاولات الحكومات احيانا الى مكافحة الغـلاء وتخفيض الاسعار انقاذا للناس من الهلاك . كما نلاحظ محاولات الحكومة احيانا لتسليف الزراع ومعاونتهم لتشجيع الزراعة وتربية الماشية . وجرت

محاولات لتخفيض الضرائب على انواع من البضائع المستوردة تيسيرا للناس وتشجيعا على توفيرها • كما نجد محاولات لمكافحة الاحتكار ولا سيما احتكار الاطعمة والمواد الغذائية لوضع حد لاستغلال التجار الجشعين •

كل هذه التدابير لا تعدو ان تكون أثرا لفكرة العدالة التي عرفها المجتمع والتي توخت التخفيف عن كاهل العامة ، ولكنها كانت محدودة الاثر •

وجرت محاولات لفرض ضريبة على المواريث ، وكانت الضريبة المفروضة احيانا عالية تبلغ النصف او اكثر • ولكنها وجدت مقاومة ولم تستقر كضريبة مشروعة •

وان اردنا امثلة اخرى فاننا نجدها في نطاق محدود • ففي البحرين مثلا نجد قيادة جماعية باسم مجلس العقدانية تحكم البلاد • ونجد الحكومة تسيطر على التجارة الخارجية وتسك نقدا من الرصاص وذلك لمنع تسرب الثروة الى الخارج ولتأكيد سياسية الاكتفاء الذاتي والاقتصاد الموجه • كما ان الحكومة حاولت تشجيع الزراع والصناع عن طريق التسليف واعادة النظر في الضرائب وعملت على الغاء الرق • وهي تدابير اريد بها تحقيق العدالة الاجتماعية • وهي ان دلت على شيء فانها تظهر مجالات تطبيق العدالة بضوء الفكر العربي الاسلامي •

ونود ان نؤكد اننا لا نذكر هذه التدابير لنتخذها سبيلا لتبرير اتجاهاتنا الحالية ، بل يهمنا ان تتضح الاراء والمفاهيم التي كانت وراء هذه التدابير والتي تكون جزء من تراثنا الحي ، ومن قيمنا الاصيلة •

ويمكننا ان نتحدث عن بعض هذه المفاهيم بوضوح • فهناك انكار الاستغلال الذي يؤدي الى اكتناز الاموال والامعان في التسلط على الاخرين • لقد أنكر الاسلام ذلك لكي لا تكون هناك دولة بين الاغنياء •

ويتصل بذلك تحريم الربا ، وهو اوضح وابشع ضروب الاستغلال في مجتمع مكة التجاري • وقد هاجم الاسلام الربا اقسى هجوم لانه كان طريق الاغنياء لاستعباد الفقراء • واكد الاسلام على حرمة العمل ، بانواعه وضروبه ، وهي نظرة تخالف النظرة البدوية التي تحتقر انواعا من العمل ، وفضل الاسلام العمل على العبادة مع التوكل ، وهي نظرة ازدادت قوة

في الفكر العربي الاسلامي على مر الايام ، وحث على الكسب على ان يكون بطرق سليمة وشريفة وعلى ان لا يكون سبيلا للاضرار بالاخرين .

واتجه المجتمع الاسلامي في فترته الاولى ، حين فرض لكل من شارك في الفتوح او الهجرة الى خارج الجزيرة مرتبات وعينات من الاطعمة ، الى تقليل الفروق بين الرواتب وكان حدها الادنى يمثل مستلزمات المعاش الضروري . وهو اتجاه استمر اثره في الفكر العربي الاسلامي .

واعتبر الاسلام الموارد الطبيعية الرئيسة ملكا مشتركا للامة تشرف عليها الحكومة باسم الامة . وهذا شمل الكلأ والماء وحطب الوقود ، ثم شمل الاراضي وطبق ذلك على الاراضي المفتوحة . واعتبر المعادن في جوف الارض ملك الامة في الاساس تستغلها مباشرة ان ارادت او سمح باستغلالها على ان يكون خمس واردها لبيت المال .

وبجنب ذلك ترك الاسلام مجالا للنشاط الفردي . فالارض الموات في الاصل للامة ، لها ان تحييها وتفيد منها ، ولها ان تسمح للافراد باحيائها . وكذا الامر بالنسبة للمعادن فهي في الاصل للامة وقد تسمح الحكومة للافراد او الشركات باستغلالها مقابل دفع الخمس ، كما حصل بالنسبة للمناجم على حدود النوبة .

وفرض الاسلام تقسيم الميراث ، ولم يتجه المجتمع الى حصره في وريث واحد كما حصل في المجتمعات الاخرى . وكان ذلك سبيلا لتحقيق العدل ولمنع تكدس الثروة بايد قليلة . ومع ان الفكر اتجه الى عدم فرض ضريبة على المواريث الا ان البعض رأى ذلك واجاز التوسع في فرض الضريبة للصالح العام .

عرف المجتمع العربي تلك التطورات الاقتصادية التي ادت الى حدوث هزات فيه . ولكن الوضع اصابه تحول خطير حين خضع للسيطرة الاجنبية، بويهية ثم سلجوقية . ادت هذه السيطرة الى تضاؤل الخدمات الاجتماعية او انعدامها ، وادت الى استغلال خيرات البلاد من قبل الاجنبي وعلى حساب ابنائها . وادخل هؤلاء المحتلون الاقطاع العسكري او اعطاء الاراضي المزروعة للقادة والامراء لينتفعوا بمواردها دون ان يعنوا برى الارض او

بالزراعة • وضعف النشاط التجاري ، وظهرت فئة من الاتباع والمستغلين يتعاونون مع الاجنبي على افقار المجتمع واستغلاله • وحاول الاجانب اثارة اسباب الفرقة من نعرات مذهبية الى تمييز عنصري •

وكان من اثار ذلك ان اهمل نظام الري وكثرت الضرائب ، فتدهورت الزراعة ، واستشرت البداوة على حساب الحاضرة ، وتدهورت حركة التجارة ، وشاعت الفوضى والفتن • واصبحت هذه قصة البلاد في فترات التسلط الاجنبي التي دامت قرونا طويلة •

وعلى الرغم من هذا الانحلال ، فانالفكر لم يركد ،بل استمر نشاطه فترات طويلة ، ولا سيما في المدارس التي ازدهرت منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد • ومع انه فكر يقل اصالة عن الفترات الماضية، الا انه لم يعدم مفكرين افذاذا • والمهم فيه انه حفظ مفاهيم الفكر العربي الاسلامي في العدالة الاجتماعية والحياة الكريمة ، وحفظ جذوة الحرية والكرامة •

ومن ناحية اخرى ، ادت السيطرة الاجنبية وما رافقها الى افقـــار الشعب والى هبوط مستوى المعيشة الى درجة بعيدة • ومن مظاهر ذلك اننا نجد بين صفوف العيارين والشطار جماعة من الطالبين والعباسيين •

ان سيطرة الاجانب ادت الى توسع حركات العامة ، كما يظهر من اشتداد حركات العيارين والشطار ، والى توسع حركة الفئات الشعبية ضد السلطة الاجنبية ، والى ظهور وعي لم يسبق له مثيل • وحين ننظر الى حركة العامة ، ولا سيما في القرن الرابع وما بعده ، نجد انها تتخذ قيما خلقية واضحة مكنت من اعادة تنظيمهم في حركة الفتوة في اواخر القرن السادس الهجري من قبل الناصر لدين الله •

لقد كان للعامة تنظيماتهم ، في نقابات واصناف ، وكانت لهم حركاتهم التي اتخذت طابعا سلبيا في الظاهر حتى اتهموا باللصوصية وبالعبث بالامن ولم تكن القيم الايجابية لديهم مفهومة ومنها مساعدة الضعيف ومكافحـة المستغلين من تجار ومتنفذين • ولكن الحركة بعد التسلط الاجنبي اتخذت طابعا شعبيا توسع بمرور الايام وتعاونت مع العباسيين في أواخر ايامهم ضد

الاجنبي وتلاحمت تنظيمات العامة في حركات الفتوة التي رأت الصلة بين التسلط الاجنبي وبين الاستغلال والظلم • وبات من اهدافها تحقيق العدل ، ومكافحة الفوضى ، وحماية المظلومين ومكافحة الطغاة •

لقد كان الوعي العربي قويا قبل هذه الفترات المتأخرة ، وكان يتمثل في الكتاب وفي فئات من المتنفذين ، وكان يستند الى العربية والى المبادىء والقيم العربية الاسلامية • ولكن التسلط الاجنبي وسع قاعدة الوعي ، وجعله يتمثل في القاعدة الشعبية وفي الفكر • وقد تنبه العباسيون الى اهمية القاعدة الشعبية في أواخر القرن السادس ، حين اتفقوا مع الحركة الشعبية في تنظيم الفتوة ، وحين ترأس الناصر لدين الله هذه الحركة وحين حاول جعلها سندا لكيانه وحاول بثها في الافاق وجعل مرجعها اليه • حدث هذا التطور الخطير بعد فوات الاوان اذ سرعان ما غمرت الموجة المغولية كل شيء وبقي الشعب العربي يصارع الكوارث والاحداث •

لقد ارتبطت فكرة الحرية والعيش الكريم بمقارعة التسلط الاجنبي ومكافحة استغلاله والتخلص من ركائزه • واتخذ الوعي العربي صفة شعبية استمرت خلال تلك الفترات ، يعززه التراث العربي والمبادىء الاسلامية • ومع ان الوعي هذا بدا مبعثرا او مجزءا في فترات مختلفة الا ان جذوره الموحدة استمرت ووجد احيانا بين المفكرين من يغذيه ، وفي الاحداث ما يذكي جذوته •

وبقي الوعي العربي يستند الى مصادر حيويته ، فيجد في العربية وفي الارث الثقافي العربي قاعدته واساس وحدته ، على الرغم من التجزئة المصطنعة والمحاولات المتصلة لطمس ذاته ، ويجد في المبادىء الاسلامية وفي القيم الخلقية والمثل الانسانية روحه ومنبع حيويته •

ومع ان تاريخ الامة يكون سلسلة متصلة الحلقات ، بمعنى ان كل حلقة تؤدي الى التي تليها ، فان بعض فترات تاريخ الامة تبقى مصدر حيوية في تطلعها الى حياة افضل • ولذا نجد الامة العربية في يقظتها الحديثة واندفاعها القوى تتطلع الى تلك الفترات التي تمثلت بالحيوية والابداع والتكوين الحضاري ، الى فترات التاريخ العربي الاسلامي الاولى ، فترات

الفتوة والبناء • وطبيعي ان تتخطى الامة العربية وهي تستعيد ذاتها وتستلهم ارثها وقيمها ، طبيعي ان تتخطى فترات الخضوع والركود وان تنظر الى فترات الابداع الحضاري لتنفض عنها الرواسب ، ولتغذي جذور الحياة فيها وتغنيها في سبيل بناء حياة جديدة •

والحياة الجديدة لا تبنى بالتأملات النظرية ، ولا تقوم بالاراء المجردة ، بل هي عملية تجديد عضوي وبناء متصل • انها تنبعث نتيجة تفاعل عاملين اساسيين ، اولهما عامل الوعي الذاتي الذي لا يخبو مطلقا ، لكنه يقوى في بعض الفترات ويضعف في فترات اخرى • وفي هذا الوعي الذاتي تتمثل اسس حيوية الامة ومنابع قوتها • وهو كلما اتسع وازداد عمقا ازداد ارتواءا من تلك المنابع ، وازداد اصالة ونفض عنه الرواسب وارتفع عن التقليد ، والفرق كبير بين التقليد وبين الاخذ الذي يزيده قوة وغنى • وثاني هذين العاملين ، التحديات التي يتعرض لها الوعي ، وهي تحديات خارجية وداخلية • ولقد تعرض الوعي العربي عند بزوغه في العصر الحديث لتحديات داخلية ، تتمثل في التخلف والركود وفي الاستغلال الاجنبي والمصالح المركزة • ثم تعرض المجتمع العربي في أواخر القرن التاسع عشر لتحديات زمرة الاتحاد والترقي في محاولة يائسة لتتريكه ولطمس ثقافته وذاته • ثم تعرض لتحديات الغزو الغربي ، التي بدأت فكرية واقتصادية ، ثم طغت في الغزو العسكري والسياسي • وهي تحديات ندر ان شهد المجتمع العربي لها مثيلا في الاتساع والشدة والاستغلال •

تعرض المجتمع العربي لهذه التحديات ، وهو مجزء ، يقاسي البعثرة والضياع ، وهو متخلف غير متهيأ لهذه الاخطار ، فكان بين ان ينهار ويفقد ذاته وبين ان ياخذ طريق الكفاح الشاق المتصل ليجد الحياة التي يريد •

وكان امام المجتمع ان يعزل نفسه عن التيارات الحضارية الحديثة لارتباطها بمصادر الاعتداءات والاستغلال ، كما اراد البعض ، وبين ان يفيد من انجازات خصومه ومن امكانياتهم واسلحتهم ، ليكون في وضع اقوى على مجابهة الاخطار وليكون اقدر على تجديد ذاته كما اراد اخرون ،

فاختار السبيل الثاني بعد جهد وجهاد طويلين •

ولسنا هنا بصدد تحليل تطور الوعي العربي فتلك قصة طويلة ، ولكننا نريد ان نلمس بايجاز خطوط مراحله التي ادت الى الثورة العربية الشاملة التي نمر بها والتي رسمت اهدافها الكبرى بالحرية والوحدة وبالعدالة الاجتماعية ، او الاشتراكية العربية ، وهي اهداف متشابكة شاملة ، وان نرى صلة هذا الوعي بجذوره الحضارية وبتراثه •

بدأ الوعي العربي الحديث قبل اكثر من قرن بين فئات من المثقفين الواعين ، وربط التخلف والاستغلال بالتسلط الاجنبي ، وهي صورة طبيعية تكونت لدى المجتمع منذ قرون واكدتها الفترات السود المتعاقبة مذ فقدت الامة حريتها • بدأ الوعي ذاتيا ورأى في الخطر الاجنبى حافزا لاصلاح الذات وللعمل •

والتفت ممثلو الوعي الى التراث بما فيه اللغة يحاولون احياءه وتيسيره ، ورأوا في التاريخ سبيلا لتكوين الثقة بالنفس ، ولكنهم نظروا اليه نظرة عاطفية استمرت مدة طويلة • ورأوا في صدر الاسلام مثلا يرجعون اليه يستلهمون مثله ويستنيرون بمبادئه • وكان الهدف الذي ارادوه بث الحيوية في مجتمع راكد والعمل على التجديد وعلى التحرر من التسلط الاجنبي • ورافقت ذلك نظرة عاطفية الى الوحدة ، لا سيما ان جل البلاد العربية كانت تحت الحكم العثماني •

وجاء التحدي الغربي ، ثقافيا واقتصاديا ، وبدأ تسلط الغرب على اطراف العالم العربي في شمال افريقيا وعلى سواحل الجزيرة العربية ، وبدأ يهدد قلب العالم العربي ، وتاثر البعض بالفكر الليبرالي وبمبادىء الثورة الفرنسية واتسعت الدعوة الى الحرية • وكانت خطوط الحيوية تتمثل في الدعوة الى تجديد الاسلام وفي العمل على تأكيد العروبة ، وكان الخطان متداخلين • وظهرت الجمعيات العربية لتقوم بدورها في التوعية • ثم ظهرت الدعوة صريحة الى التحرر والاستقلال •

وطغت الموجة الغربية سياسيا وشهد المجتمع العربي المجزء بين دول الغرب في العقد الثاني من القرن العشرين مرارة التجزئة العنيفة وخطر

فقدان الذات والانجراف في الموجة الغربية • وكان التحدي عنيفا قاسيا للوعي العربي اكد مقاومته ووسع افقه ، وشهد المجتمع العربي انواعا من الاستغلال الاقتصادي والتسلط السياسي لم يشهد مثله • وكان التحدى شديدا •

وجاءت ردود الفعل متماثلة في الخطوط العريضة ، ولكن التجزئة شغلت كل جزء بنفسه • وازداد الوعي العربي قوة في السعة والعمق ولم يعدم الاتصال والتجاوب بين الاجزاء • واتجه الجهاد العربي الى التحرر السياسي من الكابوس الاجنبي من جهة والى العناية بالتراث لحفظ الذات• وكان الرأي ان التخلص من الاستعمار يعني تحقيق الحرية والتخلص من الادواء والمشاكل • وبدأت الاحزاب السياسية تظهر لتقوم بدور في التوعية ولتساهم في المعركة بدرجات مختلفة •

وشهدت البلاد العربية سلسلة من الثورات المسلحة ضد الاستعمار في البلاد العربية في اسيا وافريقيا ، وكانت هذه الثورات منفصلة في البدء ، وان وجدت صداها الفعال في البلاد الاخرى • وكانت جميعا تدعو الى الاستقلال والى طرد الاجنبي • وحصلت بعض البلاد العربية على نوع من الكيان • وصحب ذلك دعوات الى برامج اصلاحية لم تنفذ بعيدا ولم تحدث تغيرات اساسية • واتسعت قاعدة الوعي وبدا يتغلغل بشكل محدود ومتدرج بين الجماهير •

وفي هذه الفترة لم تتعد الدعوة للوحدة حدود الشكليات • وعلى الرغم من انتشار التعليم والثقافة لم تحصل اصلاحات تذكر في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية•ولم يستند الحكم الى الشعب على الرغم من الاشكال البرلمانية التي خدمت المصالح القائمة • وبرزت المصالح المرتبطة بالتجزئة والنظرات المتصلة بها ، كما ظهرت مصالح ترتبط بالدول المتسلطة وقامت مصالح اقتصادية جديدة ، ترتبط باوضاع التبعية • وهكذا ظهرت الكيانات بانواع جديدة من التبعية •

وتبين ان احياء التراث وحده والتمجد بالماضي بروح عاطفية قد يؤدي الى التواكل والى نسيان الحاضر ومتطلباته • وعصفت بالمجتمع العربي

تيارات من الاراء الغربية ودخل في دوامة الاراء المصطرعة وكأن المجتمع فراغا مفتوحا لكل وارد ووافد •

وتعرض المجتمع العربي من جديد ، مع التجزئة القائمة ، الى اقسى التحديات الغربية في كارثة فلسطين التي كشفت بدورها عن هزال الكيانات وعن دور التبعية وتركزها وزيفها وعن اخطار التجزئة على الوجود العربي • وكشفت هذه الكارثة عن الهوة الواسعة بين الجماهير وبين الفئات الحاكمة • لقد تحدت هذه الكارثة طاقات الامة العربية ووجودها ، ودفعت بها في طريق الكفاح الجديد طريق الثورة العربية •

ثم جاء العدوان الثلاثي ليخير الامة العربية بين طريق الكرامة وبين الانحدار الكلي الى التبعية والعبودية • وكان اثره بعيدا في توضيح الطريق الثوري بكشف جذور التبعية المحلية والاستغلال المحلي وفي الاتجاه الى خط التحرر والعدالة الاجتماعية •

وكان لفترة الحرب الثانية دورها في توجيه الانتباه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، كما ان الحركات التحررية في اسيا كان لها اثرها الملموس في البلاد العربية •

وكن من اثر هذه العوامل والاوضاع ان مر الوعي العربي في منتصف القرن الحالى بمرحلة نقد جذري للذات • لقد تكون مفهوم جديد للتحرر وهو التخلص من كل انواع التبعية والتخلص من الكيانات المقرونة بالتبعية • وتكون مفهوم جديد للحرية ، لا عن طريق الشكليات البرلمانية التي تخفي وراءها تحكم فئة محدودة ، بل باستناد الحكم الى الجماهير والارتكاز الى القواعد الشعبية • وتبين ان الدعوة الى الاصلاحات التدريجية في عالم سريع الحركة والتحول لا تعني الا تأكيد التخلف وابقاء التبعية بشكل او باخر ، وان لا طريق الا بالتغير الجذري الذي يتخطى التخلف ويدفع بالطاقات العربية الى اقصى امكانياتها في البناء •

وتبين ، نتيجة اتساع الوعي العربي وعمقه ، ان كل تغير لا يضع مصلحة جماهير الشعب في الاساس ولا سيما في الحقل الاقتصادي والاجتماعي لن يكون له اثر يذكر غير تأكيد التبعية والاستغلال بشكل أو باخر • بل

ان التغيير الجذري لا معنى له ولا وجود الا ان يكون لصالح الجماهير ليكونوا قاعدته واساسه • ومن هنا برزت العدالة الاجتماعية ضرورة اولية في الحديث عن اي بناء متين •

وقبل هذا كله وبعده ، بدأ يتضح ان احياء التراث والعناية بالعربية وحدها لا يكفي ان اردنا ان يكون البناء عربيا في جوهره يمثل قيم الامة ومبادئها الانسانية • واتضح ان كل بناء لا يتمثل نظرة الامة للحياة وقيمها ولا تكون جذوره في التربية العربية لا يمكن ان يرسخ وان يحقق امكانيات الامة واهدافها •

بضوء هذا ، وجب فحص ارث الامة وتقييمه ، والكشف عن مصادر حيويتها وطاقاتها واتخاذ المثل والقيم والاتجاهات التي يمكن الركون اليها في البناء الجديد الذي نريد • وكان طبيعيا ان نجد في المبادىء الاسلامية بنظراتها الانسانية وبمفاهيمها التعاونية وفي القيم الروحية والمثل الخلقية اساسا للبناء ، وهذا منطلق واضح في طريق عملنا وتفكيرنا •

اننا حين ننظر الى التراث وما يحتويه من مبادىء حية ومثل وقيم وما ينطوي عليه من خبرات انما نريد ان نتفهم جذور هذه الاتجاهات الثورية في الوعي العربي الان • اننا لا نريد البحث عن تبريرات لاراء سبق ان نادينا بها بل لنكتشف ان هذه الاراء تعبير ذاتي عن طبيعة الوعي الثوري واتجاهاته •

لقد اكد تراثنا الفكرى على منع الاستغلال باشكاله فانكر الاحتكار مثلا لئلا يتحكم البعض في حياة الناس ومعاشهم • وحرم الاسلام الربا ليمنع نوعا بشعا من الاستغلال واتجه الى الحد من الفوارق في الملكية لكي لا تكون بين الاغنياء دولة وليمنع تحكم فئة في اخرى • ويتمثل هذا في تصنيف الاعطيات والرواتب زمن الراشدين كمحاولة عملية لتحقيق ذلك • هذا هو المبدأ الذي يتخلل الفكر العربي ، وجاءت الانحرافات العملية وعرضت المجتمع لهزات خطيرة يمكن ان تكون حافزا اخر للسير في طريق العدالة الاجتماعية •

ويرتبط بهذا المبدأ المحاولات الواسعة لتيسير التعليم وتوفيره ، ولتوفير

العناية الصحية بالمستشفيات المجانية في المجتمع العربي ، والمحاولات التي اتخذت لتوفير الرعاية الاجتماعية •

وفي تراثنا تأكيد للتعاون كأساس للعمل ونكـران الذات الفردية في ذلك • وكان هذا المبدأ من اهم الاسس التي قام عليها المجتمع في دور تقدمه وابداعه • ظهر هذا المبدأ في التعاون الزراعي في القرى في بعض البلاد العربية ، وظهر في نطاق العمل وتنظيماته ، كما ظهر في المجال الاجتماعي •

ومن المبادىء التي اكد عليها الفكر العربي الاسلامي تأكيد حرمـة العمل ، والحث على الكسب الحلال وترك التواكل ، لضمان العيش الكريم• وهو تأكيد تحوطه قيم خلقية اساسية ، منها تحديد هذا العمل بخير الامة ومصالحها وان لا يكون سبيلا للاضرار بالاخرين •

ويتصل بهذا طبيعة الملكية الفردية ، فهي وان كانت محترمة الا انها لا تعدو من حيث المبدأ ان تكون وظيفة اجتماعية ، وللامة ان تنهج حيالها ما تراه اضمن لمصلحتها بالتقييد او الحد او التوجيـه • ويمتد هذا الى الضرائب التي تفرض وهي في الاساس ضرائب يراد بها خدمة المجتمـع لتقليص الثروة في جهة وتقديم العون الى المحتاجين ولكنها لم تؤد الى النتيجة المنطقية بعد التطورات العملية • كما ان نظام الارث استهدف منع تكديس الثروات والوقوف في وجه التسلط الاقتصادي •

وهناك مبدأ أساسي ، وهو ملكية الامة لمصادر الثروة في المجتمع او لوسائل الانتاج وكذا للمرافق العامة الاساسية • فالارض والماء والمراعي هي ملك الامة والمعادن هي في الاساس ملك الامة تديرها وتشرف عليها الحكومة باسمها ولمصلحتها • وليس التأميم الا ملكية الامة لوسائل الانتاج واشرافها على طريقة استغلالها لمصلحتها •

وقد سيطرت الدولة على بعض الصناعات الرئيسة للصالح العام مثل صناعة بعض الاقمشة (الطراز) والاسلحة • وهذا تعبير عن مبدأ يتصـل تطبيقه بخطة الامة ووجهتها وتتضح حدوده بضوء ذلك •

ومن المبادىء الاساسية للمجتمع العربي الاسلامي مبدأ الثورة لرفع الجور ولتحقيق العدل ولبناء مجتمع افضل • وهل كان الاسلام الا ثـورة

شاملة قلبت الاوضاع واحدثت تغييرات جذرية في نواحي المجتمع كلها • وقد عرف المجتمع العربي الاسلامي اكثر من ثورة للقضاء على الجور ولتحقيق العدالة • وقبل هذه المبادىء وبعدها ، مبدأ اساسي هو ان الامة هي الاساس وكل عمل عام وكل مصلحة حكومية انما تقوم باسمها ولخدمتها • هذا هو المبدأ الذي اكده الفكر العربي في كل الظروف حتى في احلكها • كما ان الولاء لها اساس كل ولاء وبداية كل عمل عام • ولذا كان مبدأ الشورى اول مبادئنا ، ولذا كان الاجماع اساسا حيا في التشريع عبر العصور •

وقد وجدت هذه المفاهيم تطبيقها العملي في صدر الاسلام • فهناك نلاحظ ان الامة تحوطها العقيدة وتشدها في تكوين واحد ، وان كل فئات الامة تعمل في خطوط واحدة • ولما كانت رسالة الامة الخارجية الجهاد ورسالتها الداخلية البناء نجد ان رأيها يتبلور في رأى فئات الامة كافة وانها بمجموعها تكون الجيش الذي حمل الرسالة للخارج ، كما نجد ان نظام الضرائب ، وبناء المدن الجديدة (دور الهجرة) ونظام العطاء وضع ليحقق هذه المفاهيم في تخطيط واحد •

كل هذا يعني وحدة العمل العام ، ووحدة الخطوط التي تحقق الاهداف الرئيسة في نطاق واضح ، ووضع التنظيم المستند الى العقيدة والذي يمكن من تحقيق الاهداف الرئيسة • ولم يجد المجتمع بأسا في تنوع الاجتهاد في اطار الخطوط الرئيسة والاهداف العامة ، بل انه رحب بذلك •

ولابد ان نشير الى مبدأ اخر ، وهو أن المجتمع العربي اكد على المبادىء والقيم الاساسية وان التشريع انبثق عنها بضوء التطورات العملية والحاجات • ولذا نجد الخبرة والتطبيق تسبق التشريعات التفصيلية مع الرجوع الى اصول واحدة لغرض التشريع • وهذا يعني ان التطبيقات العملية او تجربة المجتمع وواقعه كانت نقطة الابتداء واساس التفكير • ولذا نجد التأكيد باستمرار على صالح الامة وعلى الضرورات التي يوجبها تطور اوضاعها •

واخيرا نذكر ان المجتمع العربي الاسلامي اكد في جميع الظروف على مبدأ العدالة الشاملة ، واعتبر ذلك اساس كل خير وقاعدة البناء • ويتمثل

مبدأ العدالة في تساوي الحاكم والمحكوم امام القانون وفي التكافل الاجتماعي، وفي الكثير من الخدمات الاجتماعية التي قامت بها الدولة في فترات مختلفة وفي تيسير التعليم وفتحه للجميع • والمهم ان مبدأ العدالة يعتبر القاعدة الاولى للمجتمع العربي الاسلامي •

انا حين نذكر هذه المبادىء التي تتخلل تراثنا العربي الاسلامي ، بعد ان تعرضنا لخبرات المجتمع العربي ، انما نريد ان نبين ان العدالة الاجتماعية التي نريد ، أو الاشتراكية العربية ، لها مفاهيمها وقيمها الاصيلة • كما اننا نبين ان الوجهة العملية او التخطيط انما ينبثق من طبيعة الوعي العربي ، ومن واقعنا الذي يفرض علينا التغيير الجذري لنتوصل الى بناء مجتمع عادل مرفه •

ونحن نلاحظ ان فترات الازدهار والبناء هي فترات الحرية الشاملة للامة ، وللفرد في نطاقها وضمن اهدافها ، وان هذا الازدهار كان حين تظافرت فئات الامة وقواها في اطار العقيدة الواحدة وحين لم يشع الاستغلال الداخلي •

ونحن نرى بعد هذا ان المبادىء الاساسية التي تتخلل التدابير العملية التي نهجتها الاشتراكية العربية والقيم التي تتخللها انما هي مبادىء وقيم نابعة من صميم تراثنا • كما اننا لاحظنا ان الوجهة العملية والتطبيقات صادرة عن واقع المجتمع العربي بضوء متطلبات الثورة العربية وفي سبيل تحقيق اهدافها •

ونحن بعد هذا لا نعيش الان ، كما لم نعش في الماضي بمعزل عن تجارب البشرية وعن خبراتها العلمية والعملية ، بل اننا نريد ان نفيد منها باذهان مفتوحة • وهذه نظرة عربية تخللت فترات البناء والازدهار للمجتمع العربي •

ان العدالة الاجتماعية التي ننشد تتمثل في الاشتراكية العربية وهي حصيلة مثلنا وقيمنا ومبادئنا الانسانية ، في تفاعلها الايجابي مع واقعنا وفي سبيل المجتمع الجديد الذي نريد مستفيدة في تطبيقاتها من تجارب البشرية وتطورها العلمي •

الدكتور عبدالعزيز الدوري
عضو وفد العراق

المفاهيم القومية الاشتراكية

بقلم

الدكتور ياسين خليل

مقدمة :

١ – تجتاح المجتمع العالمي بمختلف قومياته وشعوبه ازمة حادة تناول الفكر والحضارة الانسانية ومصير العالم • وادرك الانسان العادي والفيلسوف معا ضرورة معالجة هذه الازمة ووصف الدواء لها بعد تشخيص الداء •

واخذت حرية الفرد وكرامته كانسان تتعرض لسلطان الانسان ذاته واعماله التي هي من صنع يديه وتفكيره • وكانت اشد اوجه هذه الازمة تلك التي تناولت الانسان ومجتمعه ، فاصبح عرضة لمخاطر فلسفات انكرت ذاته واستقلاله كفرد في المجتمع ، لانها اعتبرته مجرد قطعة صغيرة من آلة كبيرة تنجز وظيفة معينة • وانتشرت الافكار الاباحية والفوضى الفكرية بين شعوب العالم المتمدن ، وبدأت علامات انهيار المثل الاخلاقية والقيم الانسانية تبدو لكل شاهد ، ليحل محلها مثل لا تنبع من الخلق الانساني القويم وتخالف طبيعة الانسان وانسانيته • ووجد العالم نفسه أمام حقيقة مرة هي ان الانسان الذى اراد لنفسه الخلود على هذه الارض يقتطع نفسه من شجرة الحياة ويعرض البشرية للدمار والفناء •

٢ ـ وتعرضت الامة العربية كغيرها من الامم لهذه التيارات الفكرية والفلسفية الوافدة من الغرب والشرق ، وتضخمت الازمة واصبح لها اوجه جديدة ، فبعد ان كانت الامة العربية في سبات طويل وجدت نفسها أمام مدنية صناعية متطورة لا تستطيع الا ان تتسلح بها لتستطيع الوقوف على قدميها ضد الاعداء • ومع هذه المدنية الصناعية دخل الفكر الاوروبي الى العالم العربي فاعتبره الافراد يمثل قمة انتاج الفكر الانساني ، ولكنهم لم يدركوا ان بين الفكر والصناعة تفاوتا ،اذ ليس من الضروري ان يكون الفكر متقدما وانسانيا في مجتمع متطور صناعيا • وانتقلت الازمة الاوربية الى العالم العربي لتحدث ازمة جديدة تتمثل في التصارع الفكري والاجتماعي بين تراث الامة وعقيدتها وبين الافكار والتيارات الوافدة • وبدأت مع هذا التصارع حملة تشكيك موجهة يبثها الاستعمار والعملاء والصهيونية العالمية ضد الامة العربية •

وانتقلت العملية من الفكر الى العمل ، فاندفع الفرد العربي بكل تطرف لامتصاص الفلار الاوروبي والافكار الحاقدة ضد أمته ثائرا على القديم للقضاء عليه والتحلل منه • فوضع يده من دون ان يعلم بيد مخططات الصهيونية العالمية والاستعمار لتخريب مقومات أمته ، ولم يدرك الاصابع الخفية التي توجه هذه الحملة التي لا تسعى الا للقضاء على ذاته وشخصيته وشعبه •

٣ ـ وتحولت نظرة الانسان عامة من الروح والاخلاق الفاضله الى المادة ، وأصبحت الاخلاق كما أراها بنو صهيون مجرد بضاعة للتصريف والخداع • وبدأ الفرد يتربص بالاخر ويستخدم افكاره في جانب الشر وتدبير الخطط الكفيلة للحصول على المزيد من الربح والقضاء على المنافس حتى ولو اضطر الى بيع كل قيمه ومثله الانسانية من أجل ذلك • وانقلبت مقاييس الانسان في تقييم الانسان، فأصبح المال المعيار الذي يقيس به الانسان بل انسان آخر ، وادرك الفرد ماللمال من سطوة وقوة في المجتمع ، فأخذ ينافس الاخرين ليحتل المكان الذى يعطيه القوة والارادة في التدبير والتسيير •

وبدأت غرائز الانسان الوحشية تظهر على مسرح الاحـــداث بكل وضوح مستخدمة القوة الجديدة في التنازع من اجل البقاء الاقوى .

وعند انتقال المدنية الاوربية الى العالم العربي ادرك العربي اهمية المال وقوته في تغيير المجتمع والحكومات ، وامتـــدت مع هذا الادراك الايدي الاستعمارية والصهيونية لشراء الخونة وتأسيس الجمعيات السرية التي تعمل ضد المصلحة القومية وبوحي من الاسياد . وظهر هذا الخطر الجديد في مجال العمل والتنفيذ في مناسبات كثيرة ، ولاسيما عندما يجد الاستعمار ان ميزان القوى ليس في صالحه ، فيعمد الى المال والتزييف واطلاق الاشاعات تحقيقا لاهدافه العدوانية .

٤ ـ وانتشرت الجمعيات السرية المخربة في المجتمعات ومن ورائهـا أصحاب رؤوس الاموال الكبيرة والخطر الصهيوني . فاخذت تعمـــل ضمن تخطيط تخريبي يسبب للبشرية أكبر النكبات . والى جانب ذلك تعمل النظريات الاقتصادية بوحي من الرأسمالية والصهيونية العالمية على وضع العالم في صراع دائم في الداخل والخارج . فالماركسية وهي قمة النظريات الاقتصادية الصهيونية القائمة على فلسفة الصـراع الطبقي والتناحر بين فئات الشعب الواحد قد بثت سمومها بين الشعوب تحت ستار المساواة وانعقاد الطبقة العاملة من سيطرة الرأسماليين . ولـكنها في الوقت نفسه تعمل عـلى اقامة طبقة جديدة تحل محل المجتمع الطبقي القديم ،فتقسم المجتمع عـلى أساس حزبي ومهني ، فالقادة والزعماء الشيوعيون يمثلون طبقة الاســياد الجدد ، أما العمال والفلاحون وبقية الشعب فيمثلون طبقة تنفذ ما يخططه الحزب من قرارات . والماركسية في جوهرها فـكرة دكتاتـورى قائم على القتل والسفك وانتهاك حرمات الافراد باسم الديمقراطية . وعندما واجـه شعبنا العربي في العراق هذا الفكر بكل صلابة وعنف استطاعت الجمعيات السرية والاستعمارية ان تلبس شعار القومية العربية الجديد لباسا يعمـل في حقيقة أمره على تمزيق وحدة صف الامة وتشويه فـكرها وعقيدتها ،

فكانت التيارات القومية الماركسية التي تلتقي مع الشيوعية في الوسائل وتختلف عنها ببعض الاهداف . وهكذا استطاعت القوى الحاقدة ان تجعل من العالم العربي مسرحا لا يسوده الاستقرار ، لان الاستقرار والالتقاء بالهدف العربي الكبير يفسد على الصهيونية والجمعيات السرية خططها ، ويساعد المخلصين من ابناء أمة العرب على تطوير الامكانيات المادية والفكرية للوقوف ضد الخطر الصهيوني والاستعمار العالمي .

٥ ـ واضافة لكل هذه الاخطار تجد الامة العربية نفسها أمام واقع مؤلم لابد من تصحيحه والرجوع به الى ما قبل بداية وقوع الاعتداء والخطا ، وهو ان القوميات الاخرى استطاعت ان تنتزع من أرض وطن الامة العربية اجزاء عندما كانت أمة العرب مغلوبة على أمرها . فهناك عربستان التى لابد ان تتحرر من حكم القومية الاجنبية ، وهناك قضاء الاسكندرونة وارض فلسطين . ولا زالت بعض القوميات تسعى بوحي من الاستعمار الى اغتصاب أراضي عربية جديدة بطرق جديدة كالهجرة والتعاون الاقتصادى واسناد الحكم للرجعية العربية . لذلك تضطر الامة العربية بفكرها القومي التحررى ان تخوض معارك تحررية لاسترجاع الاراضي المسلوبة . وعلينا ان ننظر الى خارطة العالم العربي نظرة عامة وشاملة لنحدد معاركنا التحررية بالطرق المشروعة ، لان الواجب يملي على الامة العربية ان تدفع عن أراضيها سطوة القوميات الاخرى .

٦ ـ واستطاعت الرجعية العربية المرتبطة مصلحيا بالاستعمار ان تقف لفترة سدا منيعا أمام ارادة الشعب العربي في التحرر واسترجاع الاراضي السليبة . ولكن الارادة القومية للامة العربية وقفت أمام تحقيق احلام الرجعية في ترسيخ الاستعمار وتقوية الصهيونية العالمية فوق أرض الوطن . وانتزعت الثورة العربية بدماء الشهداء زمام المبادرة ، فاصبحت قوة ايجابية ودفاعية تخوض معارك الحرية والتحرر والاشتراكية والوحدة. وادركت القوى القومية المؤمنة ضخامة المسؤولية وقدرة الخونة من العرب

والرجعيين من عرقلة التيار القومي التحرري •

ان الرجعية والشعوبية والانتهازية والجمعيات السرية ما هي الا قوى تحركها اصابع الصهيونية والاستعمار ضد الامة العربية • لذلك يجب على جميع القوى المؤمنة بالله وبالوطن العربي وبارادة الشعب العربي ان تتكاتف للقضاء على هذه القوى الداخلية العميلة •

٧ - ومن خلال التجارب القومية للامة العربية اصبحت القوى القومية المخلصة حدية التفكير ، لان مسؤولية الامة ومصيرها ليس مجالا للاخذ والرد والمضاربة السوقية • واصبح طابع هذه الحدية متبلورا الى درجة يصعب على المرء ان يزيغه عن الطريق الصحيح • فالجمهورية العربية المتحدة قاعدة النضال الثوري والتحرر العربي ، والوحدة العربية حقيقة قومية وشعبية قبل ان تكون دستورية ، وهي شعار رفعته الامة العربية واستلمته القيادة الثورية في مصر • فكل من يحارب الجمهورية العربية المتحدة ويشكك في قيادتها يقف من حيث يشعر او لا يشعر في صف القوى المعادية للقومية العربية والعقيدة الاسلامية • وكل من يحارب الوحدة بمضمونها الاشتراكي العربي الاسلامي يقف في صف الشعوبية والاستعمار لان مسألة الوحدة والاشتراكية لا تقبل المساومة والجدل العقيم ، وان معاداتها ما هو الا ترضية للصهيونية العالمية وتحقيق لاغراضها العدوانية •

٨ - ان مسؤولية هذا الجيل العربي لكبيرة ، لان علينا جميعا تحديد طريق الكفاح من اجل اللغة العربية ورفعة مكانتها في طريقها الصاعد نحو البناء ، بناء مجتمع الانسان العربي متحررا من قيود الرجعية والاستغلال • وعلينا ان نميز اعداء الامة العربية في مرحلة النضال ، لان الاعداء يمثلون نواة التناقض بما يبذرونه من بذور التفرقة والانهيار والتخريب • وتضطر العناصر القومية المؤمنة بالاشتراكية والوحدة العربية الشاملة ان تضم نفسها في صف واحد وتحدد موقفها من الاحزاب القومية واللاقومية في الوطن العربي لتكون على بصيرة من أمرها في طريق الحرية

والديمقراطية ، ولكي نخطو بالمجتمع العربي نحو العزة والكرامة يجب علينا دراسة الواقع العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لكي نعين عناصر الهدم والبناء في المجتمع ، فنعتمد على العناصر البنائية في انطلاقتنا القومية والانسانية . واذا كان صراع الامة العربية ضد الاعداء صراعا قوميا ، فمن الضروري اذن ان نحدد موقفنا من القوميات التي سلبت الاراضي العربية ، ونخطط طريق الكفاح لاسترجاع الاراضي المغتصبة . واذا كانت عقيدتنا القومية المستمدة من واقعنا العربي وتراثنا الاسلامي ، فان علينا ان نحدد موقفنا من الصراع الدولي العقائدي والقومي بما تمليه علينا عقيدتنا وظروف امتنا العربية . وهذا معناه ان تكون لقوميتنا فلسفة وبرنامج وتخطيط ، لان الصراع الدولى لم يعد بالسلاح فقط ، بل بالافكار والعقائد والفلسفات . وسنحاول في الصفحات القادمة ابراز خطوط هذه الفلسفة القومية ومقوماتها .

وحدة المفاهيم القومية الاشتراكية

كان من جراء الاتصال الفكري بين الغرب والشرق ان انتقلت بعض اراء مفكري اوربا وفلاسفتهم الى العالم العربي ، محدثة بذلك جواً فكرياً جديداً ، لان هذه الاراء اصبحت في بعض الاحيان جزءً لا تتجزأ من عقلية الافراد على الرغم من تعارضها واختلافها عن اسس العقلية العربية ومقوماتها • وعندما بدأت حركة التحرر العربي تشتد وتقوى ضد الاستعمار والشعوبية والرجعية الداخلية اتخذت بعض الفئات القومية مفاهيم استقتها من الفكر الاوروبي لتقيم عليها اسلوبها في معالجة القضايا القومية وفكرها في تحديد عملها وتنظيمها • وظهرت الى جانب ذلك تيارات فكرية ومذهبية تحاول معالجة مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بأسلوب أوربي اتخذه المفكرون الاوربيون طريقة لمعالجة مشكلاتهم المختلفة النابعة من ظروفهم الخاصة • وحاولت بعض الفئات القومية ان تمتص في بعض الاحيان الفكر الماركسي واسلوبه لتفسير حركية المجتمع العربي واهدافه في بناء دولة الوحدة • فتناول الكتاب الحركة القومية العربية باسلوب ماركسي كما هو واضح في كتابات الكثيرون من الكتاب القوميين ، وقد نسوا بذلك اختلاف الوضعية الاجتماعية والمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع العربي • ونحن لا نعارض الاستفادة من الافكار الاوربية وهضمها وتقويمها تبعا لحاجة المجتمع العربي اذا كانت لا تتعارض مع مقومات المجتمع وتراثه وقيمه الاساسية • واذا اتخذ العربي هذه المفاهيم والاساليب فمن الضروري ان تكون لديه دراسة موضوعية ـ وصفية لواقع العالم العربي ، ليستطيع تكييف المفاهيم والاسلوب معاً وليس العكس ، لان الواقع هو الموضوع الذي يقوم عليه التطبيق ، ولا يمكن تغير الواقع بسرعة لنستطيع تكييفه للاسلوب والمفاهيم لان ذلك يقود المجتمع الى التخلخل والاضطراب • فاذا ارادت الماركسية مثلاً ان تجد مبررات نجاحها في العالم العربي ، فمن الضروري ان تغير

الواقع اولاً ، فتخلق مجتمعاً طبقياً اساسه الصناعة والتفاوت الاقتصادي مع قتل القيم والمثل الانسانية التي تنفرد بها العقلية العربية في البناء الحضاري وان مثل هذا العمل سيؤدي الى التصارع الفكري والمادي بين فئات المجتمع الواحد لتستطيع فئة منه ان تفرض دكتاتورية عمالية فتقوم بالتغير القهري ، وهذا امر نعارضه ونقف بوجهه بكل الامكانيات •

وعلى هذا الاساس يجب ان يكون المفهوم معتمداً على دراسة علمية ومعرفة وصفية للمجتمع ، كما يجب ان يكون اسلوب العمل ملائماً من فئات الشعب ومتجاوباً مع امانيه القومية • ولكننا اذا نظرنا الى المفاهيم القومية المتعارفة مثل الحرية والاشتراكية والوحدة والطبقة والرجعية والتقدمية ••• الخ نجد اختلافاً عميقاً في تحديد معانيها ، الامر الذي يدعونا الى القول بعدم وجود نظرية قومية اشتراكية واحدة ذات مفاهيم موحدة في العالم العربي • ومن المعروف ان هذا التعدد في معاني المفاهيم يقود بلا شك الى اختلاف فكري وجوهري والى صراع لامبرر له • لذلك يجب اذا كنا اصحاب فلسفة قومية ان نحدد المفاهيم ونعطيها المعاني المستمدة من تطور المجتمع ومقوماته • ورب سائل يسأل عن اسباب تعدد هذه المفاهيم ، فيمكننا الاجابة بالنقاط الآتية : ـ

أ ـ اختلاف الفلسفات الاوروبية التي دخلت الى المجتمع العربي من ماركسية ونازية ووجودية وفوضوية وديمقراطية وفاشية كل ذلك ادى الى اختلاف وجهات النظر في معالجة الامور وتحديد معاني المفاهيم •

ب ـ تعدد الفئات والاحزاب القومية التي وجدت في الوطن العربي تحت ظروف تكاد تكون مختلفة وبدوافع متباينة •

ج ـ تطور المجتمع العربي في مراحله النضالية ادى الى اختلاف الاسلحة الفكرية لمقاومة التيارات الحاقدة •

د ـ عدم وجود نظرية قومية لحركة الامة الوحدوية في المرحلة التي سبقت بداية التحرر ، فادى ذلك الى تطور هذه النظرية بالتفاعل

مع المجتمع والعوامل الداخلية والخارجية المؤثرة عليه وفي مراحل الكفاح المختلفة •

وعندما نؤكد على اهمية توحيد المفاهيم نقصد من وراء ذلك ايجاد وحدة فكرية اساسية تقود معركة التحرر والاشتراكية والوحدة الى تحقيق ما يصبو اليه كل عربي مخلص • ان وحدة الفكر ضرورة تستلزمها حركة الامة العربية ، لان هذه الوحدة هي القوة الحقيقة لقدرتها على خلق التنظيمات المتشابهة ذات الاهداف الواحدة مكونة بذلك حركة الامة العربية الكبرى رهي الحركة العربية الواحدة •

ان الاحداث التي مر بها الشعب العربي في تجاربه النضالية اثبتت حقيقة مهمة هي ان اختلاف الافكار في التنظيمات يقود دون ادنى ريب الى تكتلات ومعسكرات واجنحة مختلفة ، لذلك كان من شروط العمل القومي الواحد توحيد هذا الفكر وصهر التجارب المختلفة في بودقة واحدة تكون ملتقى جميع القوى القومية والامة العربية • ولكي يكون الفكر القومي العربي واحدا ، يجب أولا تحديد الافكار الاساسية ومن ثم المبادىء التي تقود الحركة العربية نحو تحقيق الاهداف • ان مهمة تحديد الافكار القومية ليست بسيطة لان علينا ان نراعي قاعدتين هما : ـ

القاعدة الاولى وتتمثل في معرفة الادوار النضالية التي رافقت المفهوم والوضعيات الاجتماعية التي انبثق عنها وتفاعل معها ، لان ذلك من شأنه ان يكون الجانب الفكري للمفاهيم •

القاعدة الثانية تتمثل في معرفة علمية دقيقة لاصول التعريف وقواعده، لان ذلك من شأنه ان يجعل معنى المفهوم جامعاً ومانعاً بحيث يكون للفرد القدرة الكافية على التمييز بينه وبين المفاهيم الاخرى • أما اذا خلا التعريف من القاعدة الثانية ، فان تحديد المفهوم سوف يكون مائعاً غيرمحدد ، اضف الى ذلك ما يصيبه من غموض فلا يؤدي التعريف الغرض المطلوب •

ومع الاسف الشديد نجد الكثير من المفاهيم القومية اما خالية من التعريف فيترك امرها الى الاجتهاد الشخصي او تعرف بكلمات تحتاج

هي الى تعريف او تعريف بافكار مبهمة وغامضة او ان يأتي التعريف ناقصا •

ان المفاهيم والمبادىء القومية تؤلف القاعدة والبناء للنظرية القومية ، لذلك يجب علينا من وجهة النظر العلمية ان نراعي الامور الآتية : ـ

أ ـ ان يكون تحديد المفاهيم والمبادىء أو تعريفها واضحا وبسيطا ، بحيث لا يثير الالتباس والقلق الفكري •

ب ـ ان يكون محتوى المفاهيم والمبادىء مستمدا من تجارب الامة العربية وخبراتها منذ بداية الوجود العربي حتى الآن ، لان النظرية القومية لا تكون كذلك الا اذا كانت معتمدة على تراث الامة القومي والروحي •

ج ـ ان تبتعد النظرية القومية عن التفسيرات الميتافزيقية وتكتفي بالتحليل العلمي لواقع العالم العربي واحداثه في الماضي والحاضر •

هذه الاصول الثلاثة لابد منها اذا اردنا ان تكون النظرية القومية ذات اسس واصول علمية • اما اذا حددنا المفاهيم خلاف احدهذه الشروط فاننا سنقع في فكر شعوبي اذا استثنينا الشرط الثاني أو ان نقع في فلسفة خيالية اذا لم نراع الشرط الثالث • وبناء على ذلك ستكون مهمتنا علمية بحتة ذات اطارين : ـ

أ ـ الاطار الفكري النظري الذي يفلسف الافكار والمفاهيم والتجارب ضمن فلسفة قومية •

ب ـ الاطار التطبيقي العلمي الذي يبين مبادىء العمل وكيفية تطبيق الافكار النظرية في المراحل المختلفة لتطور المجتمع العربي •

مفهـوم الثورة ومستوياتها

الثورة من المفاهيم القومية المتداولة بين الناس وفي الصحف والكتب القومية المختلفة الافكار ، وكثيراً ما نرى لهذا المفهوم ومشتقاته تنوعاً في المعاني والدلالات على الصعيد العلمي واليومي والعاطفي ، واخذت عبارات ثورة وثوري ومستوى ثورة وعمل ثوري تتعدد وتفسر حسب الاهواء بلا تحديد وتعريف للمحتوى القـــومي الذي يجب ان تنطوي عليه هـــذه العبارات . ان المعنى الدقيق لمفهوم الثورة لا يكون بالعبارات الاعتباطيـــة ذات الدلالات المختلفة ، بل لا بد من وجود المحتوى الفكـــري والعملي والارادي لعبارة الثورة ، لكي يصبح التحديد واضحاً مستمداً مضمونه العلمي من واقع التجربة العربية . ان استعمال كلمة واحدة في فلسفات واتجاهات فـكرية مختلفة يقود الفرد الى قلق فـكري وتناقض في اسلوب معالجة التجربة ، لذلك لابد من وجود اطار فكري واضح لكل مفهـوم تستخدمه التجربة القومية في حركتها نحو تحقيق اهداف الامة العربية . ان نقص التحديد يؤدي الى فرقة في وحدة الفكر وتشعباً فيه ، فلا يكون للحركة القومية الاداة الفكرية الكاملة في خوض المعركة. واذا استخدمت الليبرالية والماركسية والفلسفات القومية الاوروبية عبارة الثورة ، فاننا نلمس اختلاف المعاني والتفسيرات ، لذلك كان من الضروري ونحن نعمل عـلى قيام وحدة فـكرية قومية ان نحلل الحركة القومية الوحدوية لنعطي لمفهوم الثورة تحديدا علميا بعيدا عن التجارب المختلفة لامم أخرى ، لان تجربتنا في اعتقادي منفردة وذات اصول وجذور تجعلها مختلفة عن بقيـة التجارب القومية في العالم . ومن هذا المنطق سنناقش مفهوم الثورة تبعاً لاتجاهات فلسفية وفكرية مختلفة لتتعرف على طبيعتها العامة وادراك خصائص الثورة العربية بالمفهوم القومي الاشتراكي العربي .

يقترن بتعبير الثورة صفحات تحدد اطارها بحيث نجد الاختلاف بكل وضوح بين الانواع المختلفة للثورة منعكسـاً في التعابير التي نستعملهـــا فالثورة العلمية والثورة الصناعية والثورة الدينية والثورة الاجتماعية انواع

يتصف كل واحد منها بصفات خاصة تجعلها متميزة عن الاخرى ، ولكنها تتفق جميعا في نقطة واحدة تلتقي عندها جميع هذه المفاهيم وغيرها فالثورة ما هي الا تغيير مفاجىء في الاسلوب القديم يستهدف بناء اسلوب جديد في معالجة الاشياء • فالثورة العلمية التي اعلنها كوبر نيكوس في علم الفلك هي في حقيقة امرها تغيير النظرية القديمة القائلة بثبوت الارض ودورات الشمس ، مستهدفة اقامة الدليل باسلوب جديد على ان الارض متحركة والشمس ثابته • ويصدق الشيء نفسه بالنسبة لثورة اسحق نيوتن العلمية في الميكانيك وثورة البرت اينشتاين في الفيزياء النظرية الحديثة • ويصدق التحليل نفسه على الثورة الصناعية التي غيرت اسلوب الانتاج ، فتحول من الاسلوب اليدوي البسيط الى الاسلوب الميكانيكي المعتمد على الآلة في الانتاج • فكانت الثورة الصناعية تغيراً جذرياً في اسلوب العمل والقوى العاملة اضافة الى تأثيرها البالغ على الاوضاع الاجتماعية واسلوب الحياة • واذا حللنا الثورات الدينية ولا سيما الاسلام منها ، نجد قدرتها على التغيير الاجتماعي والعقائدي وايجاد اسلوب جديد في البناء الاجتماعي يستعيض به الاسلام عن الاسلوب الجاهلي القديم ، واذا بالاسلوب الجديد يخلق قيماً ومثلاً جديدة وطريقة في النظر الى الكون والحياة والانسان • اما الثورة الاجتماعية فانها تستهدف التغيير العام للبنية الاجتماعية ، غايتها الوظيفية تتجلى في اداء العمل الذي يشد من البناء ويسد الحاجات المناطة به • ولكي يتحقق هذا التغيير لابد من وجود الاسلوب في معالجة الاشياء ، لان غياب الاسلوب الجديد في تغيير البنية الاجتماعية من شأنه ان يجعل الثورة تتخبط ، فلا تؤدي الغرض الذي من اجله ان تعمل وتحقق • واذا اتفقت الثورات في مفهوم التغيير الفجائي للاسلوب القديم ، فانها لاشك تتفق في خطوط عامة اخرى سنأتي على شرحها الآن •

ان التحليل العلمي لكل أنواع الثورات على اختلافها تشترك في الخصائص الآتية : ـ

أ ـ لابد من وجود الارادة التي تتمثل في الارادة الفردية او الارادة الجماعية •

ب ـ لابد من وجود الاداة ، ونقصد بها هنا الفكر المتفاعل مع التجربة والواقع •

جـ ـ لابد من وجود الاسلوب في التطبيق والذي يبين الجانب الايجابي من خطة الثورة وتحقيقه كماً وكيفاً •

من دراسة تاريخ العلم يظهر لنا بوضوح العامل في الثورة العلمية ، فالفرد هو المفكر والشخص المبدع والدافع للثورة العلمية في طريقها الصحيح • وتظهر الارادة الفردية في الثورة العلمية بكل وضوح ، لان الابداع العلمي المتمثل في الثورة ليس نتاجاً للمجتمع المؤلف من مواهب وقدرات مختلفة ، بل هو نتاج ارادة الفرد وقدرته على الخلق والابداع اما الثورات الاخرى من اجتماعية ودينية فانها اضافة الى كونها ثورات تعبر عنها الارادة الجماعية الا انها في الوقت نفسه لا تنكر اهمية الفرد في شحن عملية الثورة • فالثورة الدينية تعتمد اولاً على الشخص او الرسول ومن ثم تصبح التعاليم جماعية تحرك المجتمع في وحدة فكرية واحدة نحو تحقيق اهداف الثورة في التغير وبناء المجتمع الجديد • والثورة الاجتماعية لا تخلو من اهمية الفرد • فالشيوعية مثلاً تعتمد على تعاليم كارل ماركس، وهي لاتنفك عن شحذ افكار الجماعة بالروح الثورية لتحقيق الاهداف ، فتصبح التعاليم جماعية تسير وفق خطة اديولوجية بين ماركس معالمها الرئيسة • واذا كانت الارادة في التغير الشامل موجودة مع انعدام الفكر الموجه او الاداة التي يستعين بها الافراد في الحركة ، فان مصيرها سيكون الاخفاق والانتكاسة • فالفكر النابع والمتفاعل مع التجربة يمثل في حقيقته جانب الوحدة الفكرية في الثورة الى جانب وحدة الصف المتمثل في الارادة الجماعية • وقد تخفق الثورة آجلاً ام عاجلاً اذا استندت الى فكر خيالي غير مستمد من الواقع الاجتماعي والتجربة الموضوعية • فمن الضروري اذن ان تكون الاداة الفكرية ذات حيوية وايجابية ، بحيث تظهر حيويتها في التطبيق وتظهر ايجابيتها في الحصول على النتائج الكفيلة لدفع المجتمع

نحو التقدم والرفاهية • ولن تكون الاداة الفكرية بهذه الحيوية والايجابية الا اذا اعتمدت على التجربة والواقع ، لان التجربة تقدم الاطار الفكري الذي يفلسف الواقع ويصفه في الاطار النظري الفلسفي العام • واذا كان لوحدة الفكر هذه الاهمية ، فان الاسلوب في ابراز معالم الثورة واخراجها الى حيز الوجود يمثل الجانب التطبيقي ، وتكون له الاهمية الكبرى في عملية البناء ، ولا يمكن فصل الاسلوب عن الفكر والارادة ، لان الثورة بدونه تبقى خيالاً بدون تحقيق • لذلك لابد من وجود الاسلوب القائم على الدراسة والتجربة لتحقيق عملية التغيير والتحويل الاجتماعي • وان الخطأ في اسلوب التطبيق يؤدي الى حدوث تناقضات وازمات اجتماعية ، لذلك لابد من الاحاطة التامة القائمة على العلم في دراسة البيئة الاجتماعية ووضع الخطة القويمة لتحقيق اسلوب التغيير • ان الثورة لا يمكن ان تحقق المعجزات بايام او اسابيع ، لان عملية التحويل تحتاج الى ان يتسلم الشعب وهو صاحب الارادة الجماعية بالوعي العلمي والمعرفة التامة بالمرحلة التي يمر بها المجتمع اضافة الى الاقتناع بضرورة التغيير ، ويجب ان يتسلم الشعب بوحدة النضال والاهداف لكي تضمن الحركة الثورية مسيرتها في اداء الرسالة •

ان مفهوم الثورة في فلسفتنا الثورية القومية تتضمن الارادة الجماعية المتمثلة في الصف العربي والاداة الفكرية النابعة من تاريخها الحضاري والثقافي ، والمرحلة التي يمر بها المجتمع العربي حديثاً ، كما ان لها اسلوبها في العمل على تحقيق الاهداف القومية • وواجبنا الآن تفصيل المعنى التام للثورة باطارها القومي ، والتفسير القومي للثورة •

ان الثورة في اطارها القومي وحده لا تتجزأ وتشمل جميع جوانب الحياة المادية والروحية ، فهي ليست ثورة دموية غايتها سفك الدم والتحكم ، بل انها في حقيقتها انسانية في خطوطها العامة ، وقومية في اهدافها القريبة تنشد الخير والرفاه لابناء المجتمع العربي • لذلك لابد من التفصيل في الوسيلة والغاية في الثورة ، لان ذلك من شأنه ان يبرز الوجه القومي الانساني للثورة • ان الوسيلة في فلسفتنا القومية جزء لا يتجزء من

الغاية ، وان العنصر الحيوي في الثورة هو في كونها وسيلة وغاية ، انها وسيلة للتغيير الجذري والقضاء على الواقع الفاسد ، وانها غاية لانها حركة دائمة تسعى لتحقيق الاهداف القومية على صعيد الامة العربية وعلى الصعيد الانساني .

ان المثل والقيم الانسانية النابعة من واقع امتنا التاريخي والفكري والحضاري تنعكس في الوسيلة والغاية ، فلا تتخلى الثورة القومية العربية عن مثلها وقيمها الانسانية ، وانها في تحقيق غايتها تسير في طريقها الانساني بلا اعوجاج . ان الثورة لا تستكمل جميع مقوماتها واهدافها الا اذا استطاعت ان تحقق للامة العربية كل ما تصبو له من رفعة ومجد .

لقد ظهرت الثورة باطارها القومي على عدة اشكال تعتبر في الحقيقة اوجهاً مختلفة لثورة قومية واحدة . ونستطيع الآن ان نحدد هذه الاشكال كما يأتي :ـ

الشكل الاول : عندما تجابه الامة العربية تحديات خارجية من قوميات معتدية تستطيع بفضل قوتها ان تسيطر على بعض اجزاء الامة العربية او تتحكم في الوطن العربي كله . فتكون الثورة في هذا الشكل نتيجة حتمية لصراع قومي بين العرب والاجانب ، يكون فيها العنصر الارادي متوفراً في تصميم الشعب على التخلص من التحكم الاجنبي ، كما تكون فيها الاداة الفكرية متمثلة في الامجاد العربية وتراث الامة المجيد وضرورة بعث الامة من جديد . اما الاسلوب فيكون في طريقة تنفيذ الارادة الجماعية في التخلص من الاستعمار . وبذلك يكون للثورة مفهومها الحقيقي ويصبح التغيير امراً حتمياً ينتقل به المجتمع من مرحلة الاستعمار والتحكم الى مرحلة الاستقلال والتحرر .

الشكل الثاني : عندما يجابه الشعب العربي في بعض اجزائه او جميعها تحديات داخلية تفرضها الطبقة الحاكمة المشرعة للقوانين التي تدافع عن مصالحها ومصالح الرجعية . وعندما ترتبط هذه الطبقة بالاستعمار لتمنع ممارسة الشعب لحرياته وديمقراطيته ، فتكون الثورة السبيل الوحيد

للاطاحة بهذه الفئة وتجريدها من جميع قواها المـــادية والمعنوية • ولكي تحقق الثورة غايتها من الضروري ان تتبلور الارادة والوعي الجماعي ضد الرجعية لتضمن الثورة وحدة الصف • ويجب ان تكون الاداة الفكرية موجودة تتمثل في تجريد الرجعية من اسلحتها وتطبيق نظـام يستمد قوته من الشعب بعيداً عن الزيف السياسي وتحكم الاستعمار •

الشكل الثالث : عندما يجابه الشعب العربي قوى داخلية متحالفـــة تمنعه من تحقيق الاهداف الكبرى • فتحالف الاقطاع والرجعية مع رأس المال المستغل يستهدف دائماً وفي الوطن العربي بالذات وضع العراقيل في مسيرة الوحدة العربية الشاملة • لذلك لابد من الثورة التي تطيح بهـذه القوى المتحالفة ليحل محلها تحالف القوى القومية العاملة• ولا بد للارادة الجماعية في هذه المرحلة من وعي سياسي واجتماعي وتقدير دقيق للمرحلة التي يمر بها المجتمع ، كما يجب تسليح الارادة الجماعية بالوحدةالفكرية المتمثلة في التشريعات القانونية التي تستهدف تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص وفي القرارات الاشتراكية التي تضمن حرية الفرد السياسية والاجتماعية بتحقيق مبدأ كفاية الانتاج وعدالة التوزيع •

الشكل الرابع : عندما تجد الامة العربية نفسها في مرحلة تخلف اقتصادي وصنـــاعي وزراعي واجتمـــاعي وتربوي نتيجة لتحكم اجنبي استعماري او لسيطرة الرجعية او لتحالف الاقطاع مع راس المال المستغل، فان الثورة تصبح ضرورة ماسة لدفع المجتمع نحو التقدم والتغيير الـكلي في جميع الاوجه الحياتية لبلوغ الاهداف القومية • فيكون التصنيع ثورة ضد التخلـف الصناعي ويصبح التخطيط الاشتراكي ثورة ضد الاحتكار والاستغلال وسبيلا لسد الحاجات ، ويصبح التخطيط الاجتماعي ثورة ضد التفكك والهدم وسبيلاً لاعادة بناء المجتمع على اسس روحية وقيم عالية ومثل انسانية •

ان الثورة في شكلها الاول غايتها الاستقلال والتخلص من السيطرة الاجنبية وتسليم الحكم لابناء الشعب من المواطنين • وهذا معناه ان الثورة

تعني انتقال السلطة من الاستعمار الى المواطنين ، وهذا يتبعه تغيير في اسلوب الحكم • اما الثورة في شكلها الثاني فغايتها الاطاحة بالاقلية الرجعية المرتبطة بالاستعمار • وتمثل هذه الاقلية طبقة تتصارع مع الشعب بجميع فئاته وطبقاته محاولة بسط سيطرتها بالقوة • فالثورة في هذا الشكل تعني انتقال السيادة من الرجعية الى الشعب • وكثيراً ما يتبع ذلك تبديل جوهري يتخذ ثورة اخرى صورتها الشكل الثالث والرابع • والثورة في شكلها الثالث امتداد للثورة في شكلها الثاني ، لان على الشعب الذي انتزع السيادة وطرد الرجعية ان يجرد رأس المال المستغل والاقطاع من اسلحتهما، لان لهما القوة والقدرة على ارجاع الرجعية الى الحكم ، فيتحول المد الثوري الى تقهقر رجعي • ان تجريد هذه الفئات من قوتها المادية تعني فسح الفرصة لظهور الشكل الرابع للثورة بعد ان تحقق للشعب مكاسبه الاشتراكية • والشكل الرابع من الاوجه المهمة للثورة القومية لانه السند القومي لحماية الشعب واشتراكيته ، كما انه السبيل الوحيد لاقامة مجتمع متطور متصنع يستطيع الوقوف بوجه التحديات القومية الاجنبية ، وتكون له الكلمة في المحافل الدولية •

وبناء على ما تقدم من تحليل يكون بامكاننا تعريف الثورة باطارها القومي وضمن حدود تراث الامة العربية الفكري والحضاري وتبعاً للاهداف الكبرى التي تسعى لها الملايين العربية نحو تحقيقها •

الثورة باطارها القومي العربي هي ارادة الامة العربية في تغيير واقعها الفاسد المتخلف وتحرير الوطن من القوميات المعتدية لاقامة حكم قومي يستمد اداته الفكرية في التخطيط من التراث العربي الاسلامي وواقع الامة العربية الحديث ، بعد تحرير الفرد والمجتمع من سيطرة الرجعية وتحكم راس المال المستغل المتحالف مع الاقطاع ، مستهدفة تحقيق مجتمع الوحدة العربية القائم على مبادىء عدالة التوزيع وكفاية الانتاج ، ومتخطية مراحل التطور بتحول دائم حيوي الحركة ، انساني •

من هذا التعريف العام للثورة القومية العربية يظهر لنا بوضوح

حيوية هذه الثورة وديمومتها في المجتمع العربي ، وما الانتفاضات والثورات بالاشكال المتقدمة الا لبنات في بناء الثورة العام • فهي بذلك تيار لا ينقطع وصيرورة في مجرى التحويل العربي تنتقل بالمجتمع من مرحلة لاخرى فيها عناصر بنائية مادية وثقافية جديدة • وتتجسد هذه الثورة في مراحلها المختلفة في المؤسسات والادارة والصناعة والتكنولوجي ، كما تظهر روح الثورة متجسدة في البناء الفكري والثقافي للمجتمع ، لان انتقال المجتمع من مرحلة الى أخرى من شأنه ان يبدل في البنية الثقافية ، فتصبح الكتب والمؤلفات الادبية من شعر ونثر وادب ومسرح ذات شكل قومي يوضح آثار القوة القومية ويعكسها في جميع مظاهر الحياة • واذا كانت الثورة القومية بهذا المفهوم ، فان مشتقاتها اللغوية ستستمد منها روحها العامة •

فالعمل الثوري سيعرف بانه الجهد الذى يبذله الفرد أو تبذله الجماعة من اجل المساهمة في البناء الاجتماعي للواقع القومي ، متخذا هذا العمل اسلوب الثورة العام واداتها المتمثلة في المبادىء لتحقيق الغاية المتوخاة • أما الفرد الثوري فانه الشخص الذى تسلح بفكر الثورة وعمل على تحقيق بعض الغايات التي تخدم المصلحة القومية عامة ، فساهم بذلك في البناء الثورى للمجتمع القومي •

ومن العبارات المهمة الاخرى في الادب القومي الحديث والتي نود الآن تعريفها وتحديد معناها عبارات : مستوى الثورة والتفكير الثورى • فعندما تحقق الثورة القومية شكلاً من اشكالها الاربعة ، فان هذا الشكل يرافقه نوع جديد من الحكم تتوفر فيه عناصر ثورية معينة • فلكي تستطيع الثورة ان تتحول الى المرحلة التالية ، لابد من توفر عنصر مهم هو ان يكون وعي الافراد وادراكهم بمستوى الثورة •

وهذا معناه ان مستوى الثورة ما هو الا مرحلة بلغتها الثورة في ديمومتها وحيويتها نحو تحقيق الاهداف • ويختلف هذا المستوى تبعا للمرحلة التي يتخطاها أو يستقر عندها التحول الاجتماعي •

واذا بلغت الثورة مرحلة او مستوى من المستويات القومية ، فمن الضروري ان يتحول البناء الفكري بحيث يستطيع الاستجابة لمتطلبات المرحلة ، ويكون اداة فعالة في التوعية الجماهيرية ، وتهيئة العقول لتوقع المرحلة التي تليها ، لتكون مع الثورة ، فلا تستطيع الناصر المعادية استغلال عدم وجود الوعي لتهيئة اذهان الناس لتوقعات مختلفة تضر مسيرة الثورة وتسبب لها الانتكاسة • ففي الشكل الثاني من الثورة وعند استلام طبقة من الشعب الحكم ، تكون الجماهير التي انتقلت بفكرها من مرحلة الاستعمار الى الاستقلال قد بدأت تحرك وعيها للانتقال بالثورة الى المرحلة الثالثة • ولكن الرجعية الحاكمة في هذا الوقت تستطيع ان تزيف الشعارات وتوجه الرأي العام لصالحها وتعمل على تهيئة فكرية لا تتجاوب مع ما كانت الجماهير تنشده من انتقال الثورة الى مستوى اعلى ، فتستطيع الرجعية ان تعرقل الثورة القومية • ولكن حتمية الكفاح القومي يؤكد ان الثورة سائرة نحو تحقيق اهدافها • ومن الجدير بالذكر ان الاهداف تتعلق بمستوى الثورة ومرحلتها • والاستقلال هدف الثورة في شكلها الاول ، والحكم الديمقراطي هدف في مرحلتها الثانية ، وحتمية الحل الاشتراكي هدف الثورة في مرحلتها الثالثة ، والوحدة العربية الشاملة هدف الثورة العربية في مرحلتها الرابعة • وقد تظهر هذه الاهداف : الحرية والاشتراكية والوحدة في المرحلة الثانية ، ولكن تحقيقها لا يتم الا بالتتابع ، اذ لاوحدة بلا اشتراكية ولا اشتراكية بلا حكم ديمقراطي مصدره الشعب •

ويرتبط الفكر القومي بالمرحلة الثورية وبالاهداف الكبرى • فالديمقراطية في المرحلة الثانية تعتبر تفكيراً ثورياً يناسب المرحلة • والاشتراكية في المرحلة الثالثة تفكير ثوري يتخطى الفكر الديمقراطي • وفلسفة الوحدة العربية الشاملة تفكير ثوري وشعبي تلتقي عنده جميع الافكار الثورية •

وبناء على ما تقدم يصبح مفهوم التفكير الثوري مجموعة المبادىء والقيم والاهداف التي يتسلح بها الفرد في مرحلة يتفاعل فيها الفكر والتجربة ، لان وجود الفكر دون صلاحية المرحلة وعدم تفاعله مع الواقع

معناه فكرة خيالي بعيد عن الثورة ، فالعنصر البنائي لابد من توافره في التفكير الثورى والا فان كل تفكير يخالف الواقع نعتبره ثوريا على الرغم من كونه فكرا غير قادر على دفع الثورة من مرحلتها الموجودة فيها الى مرحلة تقدمية أخرى •

وهذا معناه ان التفكير الثوري يلازم الثورة في مراحلها ويتفاعل معها من اجل تحقيق الغايات ، ويتميز هذا التفكير بالحيوية والحركة كلما تبدلت المرحلة وانتقلت الثورة الى مستوى اعلى •

ان الثورة العربية في بعض الاجزاء العربية استطاعت بقياداتها الثورية ان تحقق الاستقلال وبذلك تحولت الى المرحلة الثانية حيث استطاعت تصفية الرجعية وقضت على الحزبية التي شقت الشعب ، مستهدفة بناء حكم ديمقراطي سليم واجتازت المرحلة لتحقيق الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ • ولكن هذه الوحدة اصابتها الانتكاسة ، لان انتقال المجتمع من مرحلة الى اخرى بالطفرة من شأنه ان يؤدي الى ازمات ، فكان لابد قبل الوحدة ان تجرد العناصر الثورية على مستوى الفكر والتنظيم من قوى الشعب العاملة ، فتستطيع تجنب النكسات ، وتحفظ للثورة القومية مسيرتها نحو بناء مجتمع الوحدة العربية الاشتراكية •

ان المراحل الاربع الآنفة الذكر خطوات ومستويات لابد للثورة العربية في كل جزء من اجزاء الوطن العربي القابع تحت نير الاستعمار من اتباعها لتلتقي بالثورة العربية الاشتراكية العامة وتحقق هدف الملايين العربية •

مفهوم التقدمية والرجعية

ومن المفاهيم التي أصبحت شائعة بين الناس بعض الافكار السياسية التي عملت الاحزاب الشيوعية والقومية الماركسية على ترويجها وتفسيرها ضمن اطار الفلسفة الماركسية ونظرتها الى التاريخ والتحول الاجتماعي •

والرجعية والتقدمية من المفاهيم التي نريد ان نعالجها على ضوء التحليل العلمي القائم على دراسة البنية الاجتماعية للمجتمع العربي وتراثه الفكري والروحي • فلقد عملت الاحزاب الشيوعية على تقسيم ابناء المجتمع الواحد الى مؤيد ومعارض،فتنعت المؤيد بالتقدمية والشرف على الرغم من فساد خلقه وتفاهة فكره واسلوبه في الحياة ، بينما تنعت المعارض بالرجعية والتآمر والفساد على الرغم من صلابة خلقه القويم وتمسكه بعروبته واسلامه وتراث امجاده • وانتقلت العدوى الى الاحزاب القومية ذات الفكر الماركسي ، فأخذت تنعت الاشخاص المتمسكين بقوميتهم وعروبتهم واسلامهم وبالاشتراكية العربية المستمدة من روح الاسلام بالرجعية أو التفكير الرجعي على الرغم مما يقدمه هؤلاء الافراد وقدموه من خدمة عظيمة في حقل الصراع القومي ومؤازرة المد القومي التحرري وفي رفعة شأن أمتهم في الخارج والداخل • ونجدها تضيف صفة التقدمية والثورية والنضالية الى الحزبي الذي أخذ بالفكر الماركسي الصهيوني على الرغم من فساد خلقه الذي تخلل دور مراهقته الجسدية والفكرية • ومع الاسف الشديد نجد كثيرا من الناس يشرحون الآخرين ويضعون انفسهم في مقدمة الركب وكأنهم الرقباء ، فيعطون الاحكام الطائشة التي لا تخلو من نزعة حزبية على كثير من المخلصين لامتهم المتجردين من كل فردية • ان الاحكام يجب ان تكون عن دراية ومعرفة بالمفاهيم المستخدمة ، والا فان الامر ينقلب على العكس ، فيصبح لكل انسان الحق في نعت الشخص الآخر بالصفات السيئة فلا ننتهي الا الى ضجة خلقية • ان الذى يعوز الناس في مجتمعنا شيئان هما : المعرفة التامة بمعاني

المفاهيم التي يطلقونهـا جزافا ، والخلق القويم الذى يخلص المجتمع من ازمته الخلقية التي تجتاحه ، فبالاخلاق نكون رقباء على انفسنا قبل ان نكون اوصياءعلى غيرنا ، فلا نطلق العبارات جزافا ، وبالاخلاق نستطيع ان نعطي لـكل انسان حقه ودوره في معركة الشرف ، فلا نتهم الناس او نصفهم بشيء الا بالعدل والصفات المطابقة •

واقترنت بالتقدمية والرجعية صفات سياسية اخرى استمدتها الاحزاب من الفـكر الحزبي الماركسي ، فيطلقون صفة اليمينية على الشخص الذى لا يدين بالماركسية ويكفر بها ، ولـكنه يعتز بـكرامة امته وقدرتهـا على الخلق والابداع ويعتبر الاسلام والتراث العـــــربي الهائل منطلقا لفكرة الاشتراكي العربي • وهـكذا تقترن الرجعية باليمينية ، في حين يصبح الماركسي الشعوبي يساريا تقترن صفته بالتقدمية • ان الازمة كما اراها ازمة فـكرية ، لان الذين يستخدمون هذه الالفاظ لا يعرفون حقيقتهـا وباى شيء تقترن وما الظروف الموضوعية التي ساعدت على ميلادها ، لذلك اجد نفسي مضطرا ان احلل هذه المفاهيم بالنسبة للحضارة الاوربية وبالنسبة لحضارتنا العربية ، لـكي يفهم الناس المعنى العلمي الدقيق لمثل هذه المفاهيم فنقضي على الذين لا يفهمون ويريدون من وراء جهلهم يعلمون الناس ما لا يعلمون• أما الازمة الثانية وهي ازمة الاخلاق ، فانهـا مشكلة نتركها للمجتمع وللفرد، اذ لا سلطان للقلم على تقويم من فسدت اخلاقـه • ان الظروف والتجارب كفيلة باعطاء الدروس التي تخلق من الانسان فردا يحـكم على الاخرين بوحي من ضميره ومعرفته ، لان الاخلاق والمعرفة صنوان لا ينفصلان ، فلا اخلاق بلا معرفة ولا معرفة بلا اخلاق • واذا توفرت الاخلاق والمعرفة يـكون الشعب قد كسب في سبيل تدعيم ذاته وبناء صرح مجتمعه •

تقترن مفاهيم الرجعية والتقدمية بنوع من المعرفة الفلسفية المسماة بفلسفة التاريخ • **ونقصد بفلسفة التاريخ دراسة الحـــوادث والخبرات والمعطيات المادية والروحية لمعرفة العوامل الاساسية التي تحرك التاريـخ وتساعده على التحول من مرحلة الى أخرى اضافة لمعرفة المراحل التطوريـة**

أو الهيئة التي يمر بها المجتمع البشري • وفي دراسة التاريخ يتداخل عاملان هما : العامل الذاتي والعامل الموضوعي ، ونقصد بالعامل الذاتي المؤرخ أو الشخص الذى ينظر الى الحوادث التاريخية من زاوية معينة • اما العامل الموضوعي فنقصد به مجموعة الحـــوادث والوقائع التاريخية • ولا يمكن التخلي عن احد العاملين في بناء فلسفة التاريخ لان الوقائـع والحـــوادث وحدها لا تستطيع ان تتكلم على الغاية والوسلة والدافع الذى من أجـــله ظهرت هذه الحوادث وتلك الوقائع • لذلك لابد من العامل الذاتي لربـط هذه الوقائـع وتحليلها ووضعها في المـــكان أو الزاوية المعينة من البناء الاجتماعي • كما لا يمكن وضع فلسفة تاريخ دون الحوادث والوقـائـع ، لان ذلك من شأنه ان يوقعنا في ميتافيزيقا او تحليل خيالي للتاريخ عن العلم • ومن زاوية العامل الذاتي يظهر التباين في تحليل الوقائـع وربطها في امرحلة التطورية ، وذلك لسبب بسيط هو نظرة الباحث الذاتية الى المجتمع ككل والى اجزائه • وهذا هو السر الذى يوضح لنا اخـــتلاف الفلسفات التي تعالج تطور المجتمع وتاريخه العام • فنرى احد الباحثين مثلا يهتم بعامل واحـد من العوامل المشاركة في البناء الاجتماعي فيجعل له الاهمية الـكبرى في التطور ، ويختلف هذا العامل من باحث الى آخر ، فنجد مثلا الفيلسوف المثالي هيجل يأخذ بالتفسير الروحي للتاريخ ، بينما نجد ماركس عـلى النقيض فيأخذ بالتفسير المادي بالرغم من اتفاق فلسفة هيجل وماركس في الخطوط الفـكرية العامة • والى جانب ذلك نجد هنتكتن يأخذ بالعامـل الجغرافـي فيعطينا تفسيرا جغرافيا للتاريخ ، ويأخذ الفيلسوف العربي ابن خلدون بالعامل الجغرافي كذلك مع تفسير دوري للتاريخ • من هذا يتضح التباين بين التفسيرات والتأكيد على عامل واحد •

وترتبط بكل تفسير نظرة عامة للتاريخ ولتحولـه الدائـم ، وسوف اعطي نماذج مختصرة لهذه النظرة • ففلسفة التاريخ عند هيجل تتصـل بفلسفته المثالية العامة التي تتخذ من العقل قاعدة لتفسير حركية التاريـخ والمجتمع • ويرى هيجل ان التاريخ العام لا يمثل الا الروح التي تســعى

جاهدة للارتقاء الى الاعلى لمعرفة الشيء بذاته أو لتحقيق المطلق •

ولا أريد هنا ان ادخل في صميم فلسفة هيجل ، ولـكني اريد ان ابين بعض النقاط الاساسية في فلسفته التأريخية :ـ

١ ـ يؤمن هيجل بالعقل العام المتجسد في كل ثنايا المجتمع ، فـي المؤسسات والقوانين والنظم والعالم المادى ، وان هذا العقل ليس منفصـلا عن العالم بل يمثل الجوهر الداخلي لواقعيته وحركته المستمرة •

٢ ـ يؤمن هيجل بالصيرورة والحركة التي تمثل صيرورة العقـل وتطوره لبلوغ المطلق ، وان التحول الديالـكتيكي من الفرضية الى النقيض فالموحد يمثل الحركة التقدمية في التاريخ والمجتمع ، وتتعاقب هذه الحركية على شكل متطور حتى بلوغ كمال العقل •

٣ ـ ان هذا العقل في مراحل تطوره يتجسد في المؤسسات وفـي الدولة ليسود الى مرحلة ارقى وهـكذا • فالتاريخ على هذا الاساس ما هو الا صيرورة هذه الروح وتجسدهـا في العالم المادى •

٤ ـ ان الحركية أو الصيرورة اساسها المتناقضات ، فوجود الفرضية من شأنه ان يحدث النقيض الذى يتحد مع الفرضية بشـكل معين مكونا الموحد الذى سرعان ما يكون فرضية لنقيض • وهكذا تسير الحوادث •

يظهر من هذا العرض البسيط ان التاريخ عند هيجل يسير نحـو التقدم بفعل التطور الذى يسعى لبلوغ الـكمال • فكل مرحلة او مؤسسة تسبق مرحلة تاريخية معينة تعتبر على هذا الاساس مرحلة رجعية ، لان العقل والتطور تجاوزهـا وتخطاها لمرحلة جديدة • ولا يمكن ان تـكون المرحلة الرجعية تقدمية لسبب بسيط هو اعتقاد هيجل بان التاريخ يسـير نحو الاعلى وليس على شكل دائـرى ثابت ليعيد نفسه • وهـكذا قسـم هيجل التاريخ الحضارى للعالم الى ثلاث مراحل : المرحلة الاولى التـي ظهرت فيها الحضارة الشرقية والمرحلة الثانية التي ظهرت فيها الحضارة اليونانية ـ الرومانية ، اما المرحلة الثالثة فقد ظهرت فيها الحضارة المسيحية الجرمانية التي تمثل قمة الحضارات •

أما بالنسبة لكارل ماركس وطريقة تفسيره لتطور التاريخ فانه يرى الاحداث من خلال فلسفته المادية أو المادية الديالكتيكية ونظرتها الى الكون والمادة والانسان والفكر ، فيتخذ المادية التاريخية قاعدة اساسية لتفسير حركية التاريخ ، فيؤكد على العامل الاقتصادى المتمثل في وسائل الانتاج ، ويرى ان التغير الاجتماعي وتحول المجتمع من مرحلة الى اخرى هو اختلاف وسائل الانتاج وتطورها • وعلى هذا الاساس يرى ماركس ان المجتمع البشري يمر بخمس مراحل هي مرحلة المشاعين البدائية ومرحلة الرق ومرحلة الاقطاع ومرحلة الرأسمالية فمرحلة الشيوعية التي تمهد السبيل لاقامة الشيوعية فهذه المراحل تتعاقب بتطور وسائل الانتاج ، فاذا كان المجتمع في مرحلة الاقطاع مثلا ، فان المراحل السابقة تعتبر مراحل رجعية ، اما الرأسمالية فتكون مرحلة تقدمية بينما تكون مرحلة الاقطاع رجعية • ويفسر ماركس الفكر من حيث انه تقدمي او رجعي تبعا للمراحل التطورية ، لانه يعتبر الفكر مجرد ظاهرة من الظواهر المادية وانه منبثق من المرحلة التطورية التي يمر بها المجتمع ، فهناك على هذا الاساس فكر اقطاعي ورأسمالي واشتراكي كما تتباين الافكار في رأي ماركس تبعا للطبقة الاجتماعية • وبناء على ذلك يصبح الانسان الذى يدافع عن الاقطاع انما يدافع عن مصلحته الخاصة ويوصف تفكيره بالرجعية اذا بدأ المجتمع بالتصنيع والسير نحو التحول الاجتماعي الى مرحلة الرأسمالية• كما ان فكر الطبقة الرأسمالية يعتبر فكرا رجعيا اذا ما وقف بوجه مصالح الطبقات الاخرى واراد ان يشد المجتمع ليحول دون انطلاقه نحو تحقيق الاشتراكية •

وهكذا تكون الافكار الاشتراكية في مرحلة الصراع الطبقي تقدمية بالنسبة لطبقة العمال والفلاحين ، بينما الافكار والقوانين الرأسمالية رجعية لانها تقف ضد مصلحة المجموع وتشد المجتمع الى الوراء • فالرجعية والتقدمية في الفلسفة الاجتماعية الماركسية مفاهيم تقترن بنظرة ماركس الى التاريخ وتطور المجتمع • وحتى بالنسبة لهذه المفاهيم لا يستطيع الماركسي

ان يتهم شخصا اخر يأخذ بفكر غير ماركس بانه رجعي ، لان الفكر الاشتراكي في مرحلة التحول من مجتمع الرأسمالية الى مجتمع الاشتراكية فكر تقدمي على الرغم من اختلاف السبل المؤدية لتحقيق العدالة الاجتماعية •

ويجدر بنا الان ان نحلل مفهوم الرجعية والتقدمية بالنسبة للمجتمع العربي ومقوماته الحضارية ودوافعه البنائية واهدافه في الكفاية والعدل • من البديهيات التي يجب ان نبدأ بها تفكيرنا الفلسفي هي :ـ

١ ـ اننا عرب ننتمي الى أمة هي الامة العربية وهي ليست الامة الروسية أو الالمانية أو الفرنسية • وهذا معناه ان لهذه الامة مقومات فكرية وحضارية تختلف تمام الاختلاف عن مقومات المجتمعات الاوربية •

٢ ـ ان المجتمع الذى نعيش فيه لـه بنية اجتماعية معينة تعاونت على تكوينه التطورات التي توالت على المجتمع العربي • كما ان للمجتمع العربي بنية ثقافية تتمثل في الفكر العربي الاصيل والعقيدة الاسلامية باعتبارها القاعدة الخلقية والحضارية والثقافية لامة العرب •

٣ ـ ان المجتمع العربي يمر بمرحلة تطورية خاصة به وبظروفه • فالفكر العلمي الذي يريد ان يتخطى هذه المرحلة لبناء مجتمع جديد لا يمكن ان يبدأ من لا شيء أو يستعين بفكر من مجتمع آخر مختلف • والفكر لا يكون علميا الا اذا استند الى مقومات الامة ودرس تراثها من عقيدتها منطلقة نحو البناء القويم • والفلسفة الاجتماعية تصبح مثالية أو طوبائية اذا رفضت دراسة المجتمع وتاريخه ، فانطلقت من تفكير بدون وقائع •

فنحن أمة عربية ذات قومية ، وقوميتها في وجودها ، لانها اصيلة في الكيان العربي عرقيا وثقافيا وحضاريا ، فالقومية العربية ليست حركة سياسية تذهب او تختفي عند تحقيق مراميها ، بل هي فكر كل عربي بالطبع • اما اذا اتخذت فئة من الناس الفكر القومي الاوربي وبالاشتراكية الماركسية ، فانها في فكرها لا تختلف عن تلك الفئة التي انطلقت من الفكر دون الاعتماد على الواقع في تكوين اطار فلسفي ، فهي في نظرى ليست

رجعية أو تقدمية وليست يمينية أو يسارية ، بل انها طوبائية خيالية بالاضافة الى كونهـا ذات اهداف شعوبية تتجلى في حربها ضد الاسلام والقومية العربية النابعة من الوجود العربي ، على الرغم من كونها علمية في مجتمع اخر ، لان جميع النظريات الاجتماعية تنبع من الواقع الاجتماعي وبتفكير منظم • فلا يمكن اطلاقها كنظريات عامة على جميع المجتمعات ، كما لا يمكن اعتبارها علمية بالنسبة لجميع المجتمعات ومراحلها التطورية •

واذا كان الامر كذلك فما السبيل اذن لتحديد مفهوم الرجعية والتقدمية بالنسبة للمجتمع العربي ؟

ان فلسفتنا القومية ليست ماركسية وليست اوربية مستوردة ، فهي ليست خيالية أو ميتافيزيقية ، بل انها تمثل نظريتنا الاجتمـاعية للمجتمع العربي في تحولـه نحو مجتمع الاشتراكية العربية المستمدة من روح الاسلام والقيم العربية • وهذه النظرية الاجتماعية تعتمـد على دراسة الواقع الاجتماعي والاقتصادى للامة العربية في مرحلتها التطورية ، فهي لا تقطع الصلة بالماضي ولا تأخذ بالافكار الشعوبية ، بل ان فكرها واهدافها ومنطلقها العملي يتمثل في الامة العربية وفكرها القـويم • فاذا كانت الاشتراكية العربية والقومية العربية قائمة على الاسـلام وتراث العرب الفكري والحضاري ، فهي اذن قومية اشتراكية عربية بالطبع اسلامية الجذور قومية الاهداف • وان كل نظرية خلاف ذلك ستكون خيالية وشعوبية • الاسلام بالنسبة للامة العربية هو الروح الدافعة نحو التقدم والبناء • واذا بدأ المجتمع العربي ينزع عنه رداء الماضي البالي ، فانه بذلك يسعى لاقامة مجتمـع الكفاية والعدل والتكافل الذي بشرت به تعاليم الاسلام • وعلى هـذا الاساس تكون الافكار التي تدافع عن التخلف والاستغلال والتحـكم افكارا رجعية ، لانها تريد بالمجتمع ان يكون ساكنا لا يخدم الا فئة قليلة من الناس • واذا تكلمنا على **الرجعية العربية فاننا نعني تلك الفئة التي تحكمت في رقاب الناس واستفادت من مظاهر التخلف الاجتماعي ، فلا تريد للمجتمع العربي ان يتحرر من واقعه الفاسد ليتحول الى مجتمع العدالة الاجتماعية •**

اما الفكر الرجعي فهو مجموعة الاراء والقوانين والتشريعات التي انبثقت عنه مصالح الطبقة الحاكمة المستغلة دون مصلحة الشعب ، وهذه الافكار والقوانين رجعية ، لان التحول الاجتماعي نحو الاشتراكية العربية قضى على هذه المصالح واعطى السيادة للشعب لتحقيق العدل الاجتماعي .

فالفكر الاشتراكي العربي النابع من واقع الامة العربية وعقيدتها وتراثها هو الفكر التقدمي ، وان الفكر الاقطاعي أو المعبر عن تحالف الاقطاع مع رأس المال المستغل هو فكر رجعي ، لانه يمثل فترة التخلف الاقتصادي والاجتماعي . أما الافكار الاشتراكية اليسارية ـ الماركسية ـ فهي خيالية لعدم ملائمتها لواقع الامة العربية وعدم تجاوبها مع الاهداف القومية وتناقضها مع التراث العربي الاسلامي ، فلا يمكن اذن ان نتكلم عليها فنصنفها بالتقدمية والثورية وغير ذلك ، كما لا يجوز لنا ان نتكلم على ازمة اليسار العربي ، لان هذه الازمة أزمة فكرية لا تختلف عن الازمات الفكرية التي تقع بين المدارس الفلسفية التي لا يمكن تطبيق مبادئها في الواقع . أما سبب حدوث الازمة فلا يقع على الاجنحة والاجتهادات ، بل في جوهر الفكر نفسه لانه غير نابع من واقع العالم العربي ، ولا يمكن تطبيقه ، فيبقى خياليا وأملا طوبائيا تحدث خلاله الاجنحة والاجتهادات لعدم مطابقته للواقع .

أما الذين يرون الاسلام حركة رجعية ويعتبرون معتنقيه رجعيين ، فهؤلاء نفر افسدتهم التيارات الفكرية فباتوا في قوقعة حزبية لا يرون الاشياء الا من خلال الثقوب ، لذلك ننصحهم بدراسة التاريخ العربي ليعلموا ما للاسلام من دور قيادي فعال في حركات التحرر وتربية النفس .

تنظر الفلسفة الماركسية للدين على أساس انه افيون الشعوب أو حركة رجعية . والسبب في ذلك ليس الدين المسيحي ، بل الكنيسة في اوربا وفي مرحلة الاقطاع حيث كانت أكبر مؤسسة اقطاعية سيطرت على الافراد واستعبدتهم ، كما انها وقفت ضد مبدأ القوميات وتحرير الشعوب . فحكمت الناس باسم الدين واستغلت نفوذها فآزرت الحكام على المحكومين ،

فاصبحت تقف على طرف نقيض من مصالح الشعب • واذا نظر ماركس الى الاقطاع كمرحلة متخلفة رجعية ووجد رجال الدين يستخدمون الدين في اطالة تحكمهم على سواد الشعب ، فان الدين عندئذ وتبعا للفلسفة ماركس سيكون حركة رجعية لابد من القضاء عليها لانها من مخلفات الاقطاع والتحكم •

أما بالنسبة للاسلام ، فانه ثورة ضد الظلم والاستعباد وشريعة تحقق للانسان مجتمع الرفاهية والتكافل الاجتماعي ، كما انه كان ولا يزال من اقوى الاسلحة الفكرية التي ساعدت الامة العربية في تحررها من الاستعمار والتبعية ، كما انه لا يزال في جميع المجتمعات العربية والاسلامية يصارع الاستعمار والرجعية ليحقق الحرية والرفاه • وحقق الاسلام في تشريعاته مبدأ تحديد الملكية الفردية والضمانات الاجتماعية وقضى على الاقطاع واستنكر احتكار المال • وكانت الغاية من كل هذه التشريعات اقامة مجتمع متعاضد متماسك على اسس من الخلق القويم والفضيلة والعدالة • فالاسلام لا يمكن ان يكون حركة رجعية ، بل ان الذين يتهمون الاسلام بالرجعية هم الرجعيون لان الفضيلة خير دائم لتقدم المجتمع وقد حث الاسلام على الفضيلة والاخلاق ، فاذا كان في عرف الذين يتهمون الاسلام بالرجعية انهم لا يتخلقون بالفضيلة والاخلاق ، فلا نقول لهم الا شيئا واحدا هو انهم اعداء جميع دساتير العالم ، وهم بذلك يضعون انفسهم في صف الحركات الفوضوية او الاباحية ، وما على الشعب الا ان يكون قويا ضد هذه الحركات الهدامة •

واخيرا احب أن اشير الى شيء مهم هو ان المثل والقيم والاخلاق الفاضلة ليست نسبية ، وهذا يفسر لنا سبب تشابه دساتير العالم الذى تأخذ بهذه الاركان • واذا كان العالم في أزمة خلقية وحضارية كما عبر عنه كثير من الفلاسفة المعاصرين ، فان في الاسلام مفتاح سعادة الامة العربية والعالم اجمع بما فيه رحمة وخلق وفضائل لابد من توفرها في كل مجتمع يريد لابنائه العيش الكريم في ظل الرفاهية والعدل والاخوة والمساواة •

ومن الناس من يتهم بعض الكتاب القوميين بان اسلوبهم رجعي ، ولا أدري ما معنى هذه الالفاظ القائمة ، فاسلوب التحليل لا يمكن ان يكون رجعيا ، لان الرجعية صفة لمرحلة ولفكر • أما الاسلوب فذلك أمر جديد • ولكنني ـ ان لم أكن مخطئا ـ أعتقد انهم يعنون ذلك الاسلوب الذي يخلو من تحليل المجتمع العربي على أساس اقتصادى او على أساس من المادية التاريخية واسلوبها من المتناقضات • واذا كان هذا هو المقصود فسوف اتناوله بالشرح البسيط • ان التحليل العلمي للمجتمع لا يمكن ان يكون متحيزا لعامل دون آخر ، ولكنه ينظر الى المجتمع بجميع عوامله كشبكة وظيفية واحدة يلعب كل عامل دوره في البناء فيؤثر ويتأثر • كما ان الاسلوب العلمي الحديث لا يقيم لمبدأ السببية ذلك الوزن الذى اعطاه له كارل ماركس ، لان هذا المبدأ لم يبق له مكان حتى في العلوم الفيزياوية الحديثة • فليس العامل الاقتصادى هو العامل العالمي لجميع العوامل ، بل انه كأي عامل آخر من العوامل كالعامل السياسي والاجتماعي والديني والثقافي له دوره ووظيفته • أما بالنسبة للمادية التاريخية وصراع الطبقات فان الاخذ به في تحليل التاريخ العربي والمجتمع العربي حديث خرافة ، وهي محاولة تشبه محاولة ايلاج الجمل في سم الخياط ، لان طبيعة المجتمع العربي وتكوينه ومرحلته الموضوعية تجعلنا لا نؤمن بمبدأ صراع الطبقات ، كما ان تطبيق المادية التاريخية على تاريخ المجتمع العربي ضرب من المستحيل ، اللهم الا اذا حاول الفلاسفة الماركسيون اظهار تاريخ المجتمع العربي بشكل يخالف ما توصلت اليه الابحاث العلمية الدقيقة • وعندئذ تكون هذه المحاولات ضربا من الدجل والشعوذة •

واذا اردنا ان نتتبع تطور التاريخ العربي فما علينا الا ان ننظر اليه من زاوية ما هو حاصل بالفعل دون الدخول في متاهات فلسفية • نستطيع تقسيم التاريخ العربي الى المراحل الاتية :ـ

١ ـ مرحلة البداوة حيث كانت رابطة الدم والعصبية القبلية هي الاساس في تكوين المجتمعات الصغيرة • وعندما بدأ الاستقرار بقيت هذه

الروابط قائمة بين الافراد التي تجمعهم قبيلة أو عشيرة • وكان للصراع القبلي بين القبائل والعشائر اليد الطولى في الغلبة والسلطان وتأسيس مجتمعات أكبر •

٢ - مرحلة الحضارة حيث بدأت رسالة الاسلام بالظهور مستهدفة القضاء على العصبية القبلية وتحويل القبائل العربية الى أمة واحدة تسعى بفضل الاسلام الى نشر العدل والفضيلة بين امم الارض • واتجه العرب بعد توحيدهم الى نشر الرسالة وتطوير امكانياتهم المادية والفكرية والحضارية ، فاستطاعوا اقامة أكبر حضارة عرفت في التاريخ ازدهرت في جميع المجالات العلمية والادبية والفكرية • وكان من احتكاك العرب بامم لها حضارات سابقة ان بدأ الصراع يظهر بين العرب والاقوام الاخرى • وهكذا أصبح الصراع القومي اساسا لحركية المجتمع وتدهوره • ويمكننا ان نميز هنا الادوار الاتية لهذه المرحلة :-

أ - دور التكافل الاجتماعي حيث بات على كل مسلم ان يتعاون في حدود العقيدة الاسلامية محاولا تطبيق احكامها في القضاء على العبودية والاحتكار والاستغلال • وكان الهدف المحرك الكبير هو العدل بين الناس لاقامة حياة تسودها الرفاهية والكرامه • وظهرت في هذا الدور أول تجربة لبناء مجتمع العدالة الاجتماعية في العالم •

ب - دور السيادة العربية حيث بدأ العرب يشعرون بخطر الاعاجم وحركاتهم السرية ، فكانت الدولة بيد العرب يديرون فيها شؤون الاعاجم • وظهر في هذا الدور الاقطاع الذى نتج عن توزيع الاراضي الزراعية على الامراء والسادة من العرب • ومن هنا بدأ ميزان الدولة يختل لتظهر ردة في التنظيم الاقتصادى الذى بشر به الاسلام وحققه في دور التكافل الاجتماعي •

جـ - دور استفحال الصراع القومي بين العرب والاعاجم ومحاولة

الشعوبية الوصول الى دفة الحكم والسيطرة على مقدرات الدولة ، فظهرت الحركات الشعوبية السرية من راوندية وخرمية ومزدكية وخطابية وقرامطة وغيرها •

د ـ دور الانهيار وفيه استطاعت القوى الشعوبية والقوميات الاخرى السيطرة على العرب وانتزاع السيادة منهم ، وهكذا استمر هذا الدور حتى احتكاك الغرب بالشرق •

٣ ـ مرحلة المدنية الحديثة : وفيها تحول الصراع التومي بين الامة العربية والامم الغربية الغازية ، وكان الهدف هو التحرر من السيطرة والقضاء على التجزئة وتحقيق مجتمع الرفاهية • واجتازت هذه المرحلة الادوار الاتية :ـ

أ ـ دور التحرر من السيطرة الاجنبية •

ب ـ دور الاطاحة بحكم الرجعية •

ج ـ دور القضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي بتحقيق مجتمع الاشتراكية العربية والديمقراطية السليمة •

د ـ دور الوحدة العربية الشاملة •

وقد لعب الاسلام دوره الكبير في جميع هذه الادوار واصبحت تعاليمه في التكافل الاجتماعي اساس مجتمع الاشتراكية العربية ، وكانت مقومات العرب الفكرية والحضارية والاسلامية اساس مجتمع الوحدة العربية الشاملة •

نستنتج مما تقدم ان حركية التاريخ العربي لم تعتمد على صراع الطبقات وليس على تغيير وسائل الانتاج ، بل كان للصراع القومي دوره الكبير ، كما كان للقيم والاهداف الاسلامية التي سعى المجتمع العربي لتحقيقها أكبر الاثر في حركيته •

مفهـــوم
التحرر والحرية والديمقراطية

لقد خاضت الشعوب المستعبدة ولا تزال حربا ضد الاســـتعمار أو التسلط الاجنبي ، وكان الاستقلال بالنسبة لها المحرك الفعلي الذي أيقظهـا من سباتها لتحقيق الهدف الكبير في القضاء على السيادة الاجنبية وبقـاء العزة القومية وارساء الدعائم القومية والدولية للشـعب • وشـهد القرن العشرين اضخم حركة تحررية لشعوب سبق للشعوب الاوربية في القرون السابقة ان استبعدتها واستغلت قواها ومواردهـا • وكان الشعب العربـي في مقدمة الشعوب التي اصيبت بانواع مختلفة من القوميات الاستعماريـة التي حاولت اعاقة تطوره الطبيعي ، فكان لزاما على هذا الشعب الذى كان المعلم الاول للانسانية جميعا ان ينتفض ضد القوميـات الاجنبية ، ليحقق الاستقلال • فوجد نفسه مقطع الاوصال تحكمه قوميات اجنبية تسعى الى الحصول على خيراته واهدار كرامته ، ولكنه على الرغم من ذلك بدأ في مطلع هذا القرن يتحرك ويتأهب ليخوض معارك الاستقلال والتحـرر ، لينتزع حريته من غاصبيها ويوحد صفوفه التي فرقها الدخلاء • ووقف الشـعب العربي بكل امكانياته المادية والروحية ضد الغزو الاجنـبي ، واستطاع بثوراته المتلاحقة ان يثبت للعالم اجمع انه شعب لا ينام على ضيم ولا يطيق الاستعباد ولا يمكن ان يتخلى عن حضارته المتدفقة النابعة من تعاليم الاسلام ورسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم زعيم هذه الامة وموحد كلمتها وباني عزتهـا وكيانها • واثبت الشعب العربي ان حريته جزء من حياته ووجوده وانه لاحياة لـه دون الحرية التي هي جزء من طبيعته وسر حيويته •

ولـم تكن هذه الحركات التحررية في الوطن العربي الا دليلا عـلى بعث الامة العربية ، وحلقة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وان هذه

الحركات الثورية لم تكن لتختمر وتظهر بالقوة التي ظهرت به لولا وجود الميراث الاجتماعي الذي سرى من جيل الى جيل يعلم كل عربي مبادىء الحرية والاستقلال ، ويقدم لكل فرد من هذا الشعب مادة قومية لا تعترف بالعبودية والاستعباد •

وكانت التجربة الاستعمارية التي مر بها الشعب العربي خير حافز على جمع الصف وتوحيده ليكون بمستوى يستطيع به مقارعة القوميات الاجنبية التي لم تكن غايتها غير التحكم في موارد البلاد الاقتصادية وقمع الحريات وخلق فئة من الشعب ترتبط بها وتكون لها عونا في عملياتها الاجرامية • وادرك الاستعمار طبيعة الشعب العربي وحبه للحرية والتحرر، لذلك كان يقف بكل قواه يحارب هذا الشعب الذى تسلح بالعقيدة والايمان الثابت وبعدالة قضيته ، فكان تاريخ الشعب العربي في كل صفحة من صفحاته مرآة صافية انعكست عليها آثار الحرية والدفاع عن الكرامة القومية •

وعلى الرغم من وجود الحواجز المصطنعة التي فرضها الاستعمار على الامة العربية ، فان الشعب العربي في معاركه المختلفة كان يخوض معركة واحدة ضد الاستعمار هي معركة التحرر ، وكان بكل مشاعره وحواسه مع كل حركة تحررية في أى جزء من اجزاء الوطن العربي • واذا كانت الثورة والحرب القومية من مستلزمات التحرر القومي ، فان هذه الثورة استوفت شروط العمل القومي في وحدة الصف والفكر والهدف • فوحدة صف القوى التحررية جاء نتيجة حتمية لتحديات القوى الاستعمارية للامة العربية على المستوى المادى والروحي ، كما لعب الاسلام دوره الكبير في تدعيم وحدة الصف وامدادها بالفكر والقوة والعقيدة والايمان • وكانت وحدة الفكر النابعة من التراث العربي الاسلامي وتجربة الامة العربية مع القوميات المعتدية خير قوة اعطت الثورة العربية التحررية زخما ثوريا ، فجاءت ثوراتنا التحررية وليدة هذا الفكر الذى علم العربي على الحرية والانعتاق من العبودية • وكان الاسلام في جميع المعارك التحررية هو الادارة الفكرية التي تقف أمام الصليبية الاستعمارية • ووحدة الهدف

كانت متجسدة في القضاء على الاستعمار وتحرير الوطـــن من الجحافل الغازية •

وحقق الشعب العربي الانتصارات في اجزاء كثيرة من وطننا العربي ، واخذ يتطلع الى بناء دولة قومية قوية ، ولـكنه ادرك ان معركة التحرر لـم تنته بعد ، لان الفئة التي عاشت في احضان الاستعمار استطاعت ان تهـادن الاستعمار وترضى بالحلول الجزئية • وهـكذا اضطر الشعب ان يخـوض معركة التحرر ضد القوى الرجعية الداخلية التي انضوت تحت شعارات حزبية غايتها الابقاء على مصالح الاستعمار •

واتخذت حركة التحرر العربية هدفا الى جانب هدفها الرئيس هـو ضرورة القضاء على العناصر الرجعية والاطاحة بها ، وادركت القوى القومية المخلصة ان تصفية الرجعية لا يعني انتهاء معركة التحرر ، لان الاقطـاع وراس المال المستغل الذى انتفع من وراء الاستعمار وترعرع في احضانه لا يمكن ان يقف مكتوف الايدي أمام معركة التحرر ، بل ان له من قوة المال وسلطانه ان يزيف ارادة الشعب ويفرق وحدة الصف لذلك بات ضروريا ان تتخذ معركة التحرر العربي شعار تصفية الرجعية والاقطاع وراس المال المستغل ، لتستطيع ان تبدأ بعد تحقيق الشعارات بمعركة البناء الاجتماعـي للشعب العربي • وانتقلت معركة التحرر من مرحلتها الاولى المتمثلة فـي التحرر القومي وانتزاع الاستقلال من القوميات الاجنبية الى مرحلة جديدة تتمثل في التحرر الاجتماعي وتصفية الرجعية والاقطاع ورأس المال المستغل ، لـكي يستطيع الشعب ان يحقق ذاته ويعبر عن رأيه بحـــرية • وادرك الشعب ان معركة التحرر في الداخل تستوجب اجتثاث جمـــيع العادات والتقاليد التي لا تمت للامة العربية بصلة ولا الى تراثها الخـــالد وتعاليم الاسلام ، وكانت هذه العادات والتقاليد من مخلفات القوميات التي حكمت الشعب العربي ومن مخلفات الفئات التي ترعرعت في احضان الاستعمـــار وتتلمذت على يديه • وان اجتثاث هذه العادات لابد ان يدعم ببناء جديد زاخر بالمثل والقيم الانسانية والعلاقات القائمة على الاخـــوة والمساواة ،

يستطيع الشعب العربي ان يجد نفسه مترعرعا في احضان حضارة عربية اصيلة تساعد الفرد العربي على تنمية قدراته الفكرية والعلمية فيكون عاملا بناء على مستوى قوي وانساني •

وادركت الامة العربية ان معركة التحرر في الخارج ملازمة لحركة التحرر في الداخل ، لان الاستعمار الذى انهزم لا يتخلى عن احلامه العدوانية ، لذلك نجده يكون الاحلاف العسكرية ويقيم الحصار الاقتصادى والمؤامرات على الدول المتحررة تمهيدا للقضاء عليها • وبناء على ذلك تضطر الامة العربية بقياداتها القومية المخلصة ان تخوض المعركة ضد الاستعمار وجها لوجه ، وان تقارعه في كل بقعة من بقاع العالم وتقضي على احلافه • وانتصرت القومية العربية في معركة التحرر هذه في اعلانها لمبدأ الحياد الايجابي الذى يخدم قضية التعايش السلمي وعدم الاعتداء على الشعوب المستقلة حديثا وقضية السلام ، لتستطيع هذه الشعوب ان تبني لافرادها حياة حرة سعيدة وتقيم رفاهية اقتصادية في ظل ديمقراطية سليمة • وكان الحياد الايجابي في جوهره يهدف الى تحرير الشعوب الصغيرة المحبة للسلام من المعسكرات والاحلاف ،وجعلها بعيدة عن الحرب الباردة والتكتلات العسكرية •

نستنتج مما تقدم ان التحرر يعني التحرر القومي والتحرر الاجتماعي والتحرر السياسي ، وهذه افكار لابد من تعريفها بدقة قبل ان نناقش الحرية ومستوياتها :ـ

التحرر القومي :

هو تخليص الشعب العربي من جميع العوائق من عادات وتقاليد وبنية اجتماعية متخلفة ورثها الشعب العربي عن قوميات اجنبية في عهود الظلم والسيطرة ، وذلك لتحقيق مجتمع عربي في ظل عدالة اجتماعية وبناء اجتماعي يقوم على مبادئه القويمة النابعة من وجوده وواقعه وتراثه الخالد •

التحرر الاجتماعي :

هو تخليص الشعب العربي من جميع العوائق من عادات وتقاليد

وبنية اجتماعية متخلفة ورثها الشعب العربي عن قوميات اجنبية في عهود الظلم والسيطرة ، وذلك لتحقيق مجتمع عربي في ظل عدالة اجتماعية وبناء اجتماعي يقوم على مبادئه القويمة النابعة من وجـوده وواقعه وتراثه الخالد .

التحرر السياسي :

هو تخليص الشعب من جميع القوى الرجعية والاستعمارية والانتهازية وتحالف الاقطاع مع راس المال المستغل التي تقف دائمـا ضد التعبير عن اراء الفرد بحرية واختيار المؤسسات الديمقراطية التي تدافع عنه وعـن حقوقـه . كما يعني التحرر السياسي في وجهه الخارجي تخليص الشـعب من الارتباطات والاحلاف العسكرية والتكتلات المذهبية التي تقف في أكثر الاحيان حجر عثرة أمام تقدم الشعوب الصغيرة ، وذلك لانشغالها بالحرب الباردة والمنازعات المذهبية بين المعسكرات المتطاحنة ، وتخصيص اقتصادياتها لخدمة معسكر من المعسكرات .

وفي طريق البناء في الداخل اتخذت معركة التحرر العربي شكلا آخر يتفق ومبادىء الاسلام وتراثنا العربي الاسلامي ، وذلك بالقضاء على جميع العوائـق والمخلفات الاجنبية التي تقف حجر عثرة ضد تطور حريـــة الفرد وممارسته الحقوقه الطبيعية المشروعة . وهـكذا بدأ الوجه الثانـي من التحرر على شكل معركة غايتها بناء مجتمع متحرر من القيود يتمتع فيه جميع الافراد بالحرية البناءة وبالتعبير عن مواهبهم وقدراتهم المبدعة الموجهة لخير المجموع . والحرية بمعناها الواسع تعني اطلاق قدرات الفرد ومواهبه الخاصة لتحقيق الاحسن والامثل في سبيل الفرد والمجتمع وخيرهما . واذا انطلقنا من الفرد وطبيعته لدراسة التفاعل بين الفرد والمجتمع ، فاننا لابد ان نبدأ بتمييز الدوافع في طبيعة الانسان الى دوافـع تملكية واخرى ابداعية ، وذلك لان الخيرات تنقسم الى نوعين خيرات لابد للفرد من تحصيلهـــا لادامة حياته ، وخيرات يقتسمها الناس جميعا على حد سواء . فالدوافـع

التملكية تسعى الى اكسب الفردى بينما تسعى الدوافع الابداعية الى الخلق والابداع بما يفيد جميع افراد المجتمع • وبناء على ما تقدم يجب ان تكون الحرية مرتبطة بالدوافع التملكية والابداعية ، فلا نترك للدوافع التملكية مجالا تستطيع بواسطته ان يكون للفرد القوة والسلطان على تغيير الاشياء والتحكم في المجتمع ، كما يجب من ناحية اخرى ان نشجع الدوافع الابداعية ونفسح الطريق لجميع الافراد من التعبير عن قدراتهم ومواهبهم ، لان تطور المجتمع وتقدمه رهين بالطريقة التي بها يشجع الدوافع الابداعية عند الافراد لبناء الاحسن للجميع • وتقوم القوانين الدستورية على الحد من فعالية الدوافع التملكية خدمة للمجموع وضمانا لاستمرار المجتمع • ولكن اطلاق هذه القدرات يتوقف من جديد على طبيعة المجتمع ومشكلاته الاساسية ، كما لا يمكن تحقيق الحرية اذا وجدت عوائق تحول دون ممارسة الفرد لحريته • ومن الضروري ان نشير هنا الى حقيقة مهمة هي انه لا توجد حرية فردية مطلقة بالمعنى التام ، لان عيش الفرد في جماعة تخضع لقانون ينظم فعاليات الافراد ومسؤولياتهم وحقوقهم ، لابد ان يقيد الحرية بما يتفق ومصلحة المجتمع ، كما ترك حرية الفرد دون قيد او شرط من شأنها ان تؤدى الى القضاء على الفرد ذاته والمجتمع الذى يعيش فيه ، لان الدوافع التملكية تسعى الى الاستحواذ والتملك والتحكم في حريات الناس اذا تركناها تعمل دون قيد ، فتنقلب الحرية الى استعباد ، وتصبح حرية المجتمع وقوانينه تحت رحمة فئة من الناس تعمل على افساده والاطاحة بتشريعاته ، ولكننا في الوقت نفسه نجد النقيض بالنسبة للدوافع الابداعية ، فكلما فسح المجتمع لها طريقا ، كلما استطاع الافراد الانتفاع بما تجود به ، لذلك لابد في كل نظام يؤمن بالديمقراطية ان ينمي هذه الدوافع ويغذيها ، لانها هي القدرات الايجابية في البناء الاجتماعي والحضارى والعلمي • وبناء على ذلك نستنتج انه لا يمكن فصل الحرية الفرديه عن الحرية التي يضمنها القانون في مجتمع يؤمن بالنظام الديمقراطي ، لان التأكيد الدائم على الحرية الفردية من شأنه ان يعطي القوة للفرد فيفرض

ارادته على المجموع ويسخر الاخرين لخدمة دوافعه التملكية ، كما ان التأكيد على الحرية الجماعية من شأنه ان يسلب الفرد حريته ويقضي على وجوده ككائن مفكر وعلى دوافعه الابداعية • لذلك لابد من تفاعل متلازم بين الحرية الفردية والحرية الجماعية يحدده القانون والتشريعات الاجتماعية التي تضمن للجماعة تماسكها ووحدتها ، وتضمن للفرد حريته في حياته الاجتماعية • وهذا معناه ان الكائن الانساني فردي واجتماعي معا ، وعلى النظام الديمقراطي ان يجسد هذه الحقيقة وينطلق بها لخير المجموع • فالمجتمع الواحد يتألف من أفراد ، وهذه بديهية لا يمكن نكران صحتها ، ولكي تنتظم حياة الافراد لابد من وجود المؤسسات الاجتماعية ولابد من وجود هيئة معينة تضمن للجماعة حقوقها وللافراد حرياتهم ، وتضبط فعاليات الافراد ودوافعهم الانانية في حب السيطرة والتحكم • ولقد عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهمية مبدأ تفاعل الفرد والجماعة في حديثه الشريف ، حيث قال : ان قوما ركبوا في سفينة فاقتسموا ، فاصاب كلا منهم موضع ، فنقر احدهم موضعه بفأس ، فقالوا له ما تصنع ؟ قال مكاني اصنع فيه ما اشاء ، فان اخذوا على يديه نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا •

يعطينا هذا الحديث مفتاح الحياة الاجتماعية وكيف يجب ان تكون ، فان للجماعة حقا في تحديد حرية الفرد ودوافعه التملكية اذا وجدت ان في استعمال الدوافع ضرر يلحق جميع افراد المجتمع • وهذا ان دل على شيء فانه يدل على حرية الفرد في التملك مع مراعاة حرية أو حق المجموع ، لان في هذه الدوافع يكمن خطر القضاء على المجتمع باسره • واستطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ان يعبر خير تعبير عن أهمية التعاون والتكافل بين الفرد والمجتمع ، والعمل على الخير للمجموع •

الحرية ضرورية لتحقيق الاحسن والافضل للفرد والمجتمع ، لانها تساعد على اطلاق امكانيات الفرد الفكرية والعملية وتساهم في التقدم العلمي والبناء الاجتماعي • ان الفرد في ظل الديمقراطية يستطيع التعبير

عن ذاته وارادته في تحقيق ما هو مفيد وصالح للمجمع ككل : ان العلم والفن والادب والفلسفة لا يمكن ان تترعرع في ظل حكم ديكتاتورى ، لان العالم لا يستطيع ان يعمل ومن ورائه رقابة تعمل على تقليص فعالياته وتحديد مجالات عمله • والحرية ليست منحة تقدمها الدولة أو البروليتاريا أو الدكتاتورية للفرد ، بل انها طبيعية وهبها الله للانسان ، وهي قوة كامنة في ارادة الفرد وتطلعاته لسبر غور المجهول • ولكي يعيش الفرد في ظل الديمقراطية ، لابد له ان يشارك في تدعيمها وتحقيقها لاسيما ان تحقيق الديمقراطية رهين بتحقيق الحرية السياسية والحرية الاجتماعية • والديمقراطية بمعناها الواسع تعني نظام اجتماعي يتألف من هيئات ومؤسسات مختلفة الوظائف قائمة على التصويب وحق الانتخاب ، غايتها تحقيق العدالة في العلاقات البشرية وتهيئة الظروف الكفيلة بانماء شخصية الفرد وتفتحها • والديمقراطية بهذا المعنى احسن الانظمة وأقدرها على تحقيق العدالة الاجتماعية والرفاهية الاقتصادية • ولكن هذا النظام سرعان ما ظهرت فيه اتجاهات فكرية مختلفة • فالديمقراطية الرأسمالية وضعت في حرية الفرد الاقتصادية ميزانها في التنمية والادارة ، فنشأت من جراء ذلك المشاريع الاقتصادية الكبرى والشركات التي يغذيها رأس المال الفردى ، ولكن هذا النظام الذى استهدف المساواة والعدالة انقلب الى نظام يتحكم فيه رأس المال ويؤثر بقوته على حريات الافراد ، وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت الطبقات الاجتماعية ، وبدأ الصراع بين الطبقات يشتد ويقوى • وطرحت الشيوعية نظاما آخر للحكم تديره الطبقة العاملة لتحقق ديمقراطيتها وتقيم دكتاتورية البروليتاريا فتقضي على الحرية الفردية وتسلب الفرد ملكيته لتقيم ملكية جماعية • من ذلك نستنتج ان الراسمالية والشيوعية تدعيان الديمقراطية ، فنجد الرأسمالية تقول بالديمقراطية الحرة ، وتؤكد الشيوعية انها النظام الوحيد الممثل للديمقراطية الحقة • لذلك لابد هنا من ايضاح الالتباس الظاهرى ، وذلك بالتمييز بين الوسيلة والغاية في البناء الاجتماعي • فالانتخابات وحرية الرأى والعقيدة والتفكير

ما هي الا وسائل لتحقيق الديمقراطية ؛ والاحزاب المختلفة المتصارعة سلميا من أجل الحصول على المقاعد البرلمانية ما هي الا وسائل لتحقيق التمثيل البرلماني • والثورة الشيوعية وحكم البروليتاريا والحزب الواحد ما هي الا وسائل لتحقيق الديمقراطية • وتعرف الديمقراطية عادة بانها حكم الشعب نفسه بنفسه • ولكن المشكلة سرعان ما تظهر من جديد حين نتساءل : كيف يستطيع الشعب حكم نفسه ؟ وللاجابة عن هذا السؤال لابد من تحديد دقيق للوسائل التي تحقق الهدف ، وهنا يكمن موطن الاختلاف بين الانظمة الاجتماعية والاتجاهات الفكريةوالتطبيقية • ولكننا لو غيرنا السوآل : ما الشروط الاساسية لتحقيق الديمقراطية السليمة ؟ لامكننا الاجابة عنه كما يأتي :ـ

١ ـ لكل عمل وسيلة وغاية ، فلا يمكن تحقيق الغاية من دون الواسطة لذلك ، كما لا يمكن ان نفصل بين الوسيلة والغاية فنؤكد على الغاية فقط ونترك الوسيلة للاهواء • لذلك اذا أردنا ان نحقق ديمقراطية سليمة لابد من تخليص الشعب من جميع القوى التي تتخذ الوسيلة غاية لتحقيق المصالح الانانية ، وتحاول ان تجد الوسائل غير المشروعة لتحقيق الهدف • ففي مجال الديمقراطية السياسية مثلا يستطيع رجال راس المال والاقطاع والادارة ان يستخدموا وسائل التزييف السياسي للحصول على أكبر المنافع والمراكز القيادية • لذلك لابد من القضاء على الزيف السياسي اذا أردنا ان نضمن حياة ديمقراطية سليمة • ولا يمكن تحقيق الديمقراطية في ظل الاقطاع ورأس المال المستغل •

٢ ـ واذا انقسم المجتمع الى طبقات نتيجة للتطور الاجتماعي الذى يرافق الثورة الصناعية او نتيجة للثورة التي تقوم بها طبقة العمال والفلاحين، فان الطبقة الجديدة ستتحكم وتعمل للمحافظة على امتيازاتها ، فتحاول تزييف الشعارات وتسخير الفكر لصالحها ، فتطبق بذلك ديمقراطية التحكم في الطبقات الاخرى • لذلك لابد من القضاء على الطبقية الاجتماعية ، ليستطيع الفرد ان يختار من يريد بحرية ودون تسلط • وهذا معناه ان

الديمقراطية لا تحقق تحت ظروف حكم طبقة او فئة من فئات الشعب ٠

٣ ـ ولكي يستطيع الفرد ان يمارس ديمقراطية سياسية في تكوين الهيئات السياسية والاجتماعية والحكومة ، لابد ان يكون بوضع مادى أو اقتصادي يمكنه من العيش حياة حرة كريمة ، ويشعر بالطمأنينة على مستقبله ومستقبل عائلته ٠ لذلك يجب ان يكون للفرد نصيب عادل من الثروة تتناسب مع قدراته وكفاءته في العمل ٠ وهذا معناه ان الديمقراطية لا تتحقق في ظل الفاقة والظلم والفوارق الطبقية ٠

لقد عبر الميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة عن شروط تحقيق الديمقراطية السليمة فقال : الديمقراطية السياسية لا يمكن ان تنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية ٠ ان المواطن لا تكون له حرية التصويت في الانتخابات الا اذا توفرت ضمانات ثلاثة :ـ

ان يتحرر من الاستغلال في جميع صوره ٠

ان تكون له الفرصة المتكافئة في نصيب عادل من الثروة الوطنية ٠

ان يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل في حياته فاذا أزلنا العقبات التي تحول دون تحقيق الديمقراطية السليمة ، نكون بذلك قد مهدنا الطريق في سبيل البناء الديمقراطي الصحيح ٠ وبهذا يصبح **مفهوم الديمقراطية العام انه نظام اجتماعي يسمح للافراد ان يمارسوا حريتهم وينموا قدراتهم ومواهبهم الفردية لخدمة المجموع ، كما يسمح لهم بتكوين المؤسسات السياسية والاجتماعية بعد تخليصهم من سيطرة رأس المال المستغل والاقطاع ، وتحقيق الفرص المتكافئة للجميع في الحصول على نصيب عادل من الثروة يتناسب وقدراتهم العقلية والعضلية ، ويؤمن لهم ولابنائهم المستقبل السعيد ٠**

مفهوم
الاشتراكية العربية

الاشتراكية العربية فكر وتطبيق تمارسه الامة العربية في تحررها من الرواسب والمخلفات التي تقف حجر عثرة في سبيل تطور المجتمع العربي وتقدمه ، والتي ورثها العرب في عهود التخلف والظلام عن امم غير عربية • كما تمارس الامة العربية التطبيق الاشتراكي كطريقة لبناء المجتمع القومي العربي الوحدوي • واذا كانت الاشتراكية العربية هي النظام الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع العربي الجديد ، فمن الضروري اذن ان ندرس طبيعة هذه الاشتراكية بصورة علمية بعيدة عن العواطف لنضمن للقومية العربية مسيرتها في الخط او الطريق الصحيح دون ان نقع في فكر شعوبي حاقد او في فلسفة تتعارض مع طبيعة المجتمع العربي ومقوماته • اما السبب الاساس الذي دفعنا لهذه المناقشة فهو كثرة الاتجاهات والتفسيرات التي ظهرت في الاشتراكية العربية ، فبعضهم يعتبرها مجرد فكر ماركسي يطبق في مجتمع عربي ، وآخرون يرون في الاشتراكية العربية مجرد صورة للاشتراكية القومية في يوغوسلافيا وآخرون يرون فيها بعض الاتجاهات المستمدة من الاشتراكية الالمانية وهكذا •

وبناء على ذلك يجب ان نعتمد على التحليل العلمي الدقيق لاتجاه الاشتراكية العربية دون الوقوع في تناقضات ومزالق فكرية لا تمت للمجتمع العربي وتراثه بصلة ، بل العكس تقف منه موقف التحدي • ومن ابرز المشكلات التي يجب مناقشتها وتحليل غموضها هي :ـ

هل القومية العربية اشتراكية ؟

هل الاشتراكية العربية قومية ؟

وللاجابة عن ذلك يجب ان نميز اولا بين تعبيرين في غاية الاهمية هما : القومية الاشتراكية والاشتراكية القومية • فبالنسبة للتعبير الاول

(القومية الاشتراكية) نفهم ان الاتجاه السائد فيه هو الاتجاه القومي باعتباره الموضوع الرئيس اما الاشتراكية فانها الصفة التي تحمل على الاتجاه القومي ، وبعبارة اخرى نقول : ان القومية اصل والاشتراكية فرع • اما بالنسبة للتعبير الثاني (الاشتراكية القومية) ، فاننا نفهم منه ان الاشتراكية هي الاتجاه السائد والموضوع الاساس ، وان القومية صفة تحمل على الاتجاه السائد • وبعبارة ادق : ان الاشتراكية هي الاصل والقومية فرع •

اذا نظرنا الآن الى تأريخ الحركة القومية في العالم ، فاننا نجد فيها اتجاهات فكرية واقتصادية مختلفة • فاذا استندت الحركة القومية على الطبقات المثقفة وبعض اصحاب رؤوس الاموال ، توصف هذه الحركة بالقومية البروجوازية ، وهي الحركة التي ناصرها ماركس العداء ، لانه لا يؤمن اساسا بمبدأ القوميات • واذا استندت الحركة القومية على مبادىء اشتراكية تتفق والمبادىء القومية العامة ، فاننا نوصف هذه الحركة بالقومية الاشتراكية • ان الاتفاق والاختلاف بين القومية البروجوازية والقومية الاشتراكية واضح ، فهما يعبران عن اتجاه قومي يعتز بالتراث وحرية الوطن والاستقلال والمقومات الاساسية التي تؤلف الامة • ويختلفان من حيث الاتجاه الاقتصادي ، لان القومية البروجوازية ترى في النظام الرأسمالى طريقا لتحقيق السيادة القومية ، بينما ترى القومية الاشتراكية في النظام الاشتراكي طريقا لتحقيق التقدم والسيادة للامة • ويمكننا نعت القومية بصفات اخرى فنقول مثلا القومية العرقية والقومية الحضارية والقومية الانسانية والقومية الفاشية وهكذا ، وهذه اتجاهات قومية تشترك في تحقيق مبدأ السيادة للامة أو الدولة على الرغم من اختلافاتها •

اما بالنسبة للاشتراكية فيمكن تصنيفها سياسيا الى اشتراكية اممية واشتراكية قومية • والى جانب ذلك نجد اجتهادات كثيرة في البناء الفكري والتطبيقي للاشتراكية ، فهناك اشتراكية فابية نقابية واخرى اشتراكية تعاونية واخرى اشتراكية ديمقراطية وهكذا • ومن الملاحظ هنا ان الاشتراكية الاممية والاشتراكية القومية يمكن أنْ تلتقيا معا في كونها تعتمد على تعاليم

كارل ماركس ، ولكنها تخلف اديولوجيا وسياسيا ، وهذا امر قائم بالفعل في الاشتراكية التي يتبناها الاتحاد السوفياتي واشتراكية يوغوسلافيا • اما بالنسبة للاشتراكية الالمانية ، فانها تختلف عن بقية الاشتراكيات بان موضوعها الرئيس هو القومية وان البناء الاشتراكي يخدم الاتجاه القومي وليس العكس ، لذلك نجد ادولف هتلر يؤكد على القومية او الامة الالمانية ويرى في الاشتراكية سبيلا لبناء الدولة الالمانية القومية التي تستطيع ان تقف ضد التيار الشيوعي الماركسي والمعسكر الشيوعي •

ونعود الآن من جديد لنحدد موقفنا بدقة : هل قوميتنا اشتراكيه ام هل اشتراكيتنا قومية ؟ • وبعبارة ادق : هل نحن قوميون اشتراكيون ام اشتراكيون قوميون ؟ وللاجابة عن هـذا السؤال نبدأ اولا بتثبيت بعض البديهات المعروفة في القومية العربية :ـ

(١) نحن نعلم وندرك بوعي ان قوميتنا العربية فكر منطلق من التراث العربي الاسلامي ، وحركة تسعى لتحرير الاجزاء العربية ، وعملية بناء جديد في مجتمع عربي وحدوي •

(٢) اننا عرب اصبحت لنا امة متكاملة البنيان والمقومات بفضل الاسلام • والاسلام ليس غريبا على الامة العربية ، بل هو فكرها المعبر بلسانها •

(٣) اننا عرب تربطنا ببعضنا رابطة الدم والحضارة او الثقافة التي هي النتاج الفكري والمادي للامة العربية •

(٤) ان الحركة القومية هي حركة بعث الامة العربية من واقعها المختلف وعهود العبودية لتأخذ مكانها بين امم الارض ، ولا يمكن ان يكون هذا البعث من لاشيء ، بل انه في حقيقته يقظة الامة من سباتها مستهدفة بناء مستقبل كريم مستنير بالماضي الخالد والامجاد العربية •

نستنتج من هذه البديهيات ان الحركة القومية في العالم العربي لايسكن

ان تنفصل عن التراث والتعاليم الاسلامية المتجسدة في البناء الاجتماعي ، ولا يمكن ان يكون الشخص قوميا حقا اذا ابتعد عن هذا المفهوم ، لاسيما ان من اهم اهداف القومية العربية اقامة الوحدة العربية الشاملة ، وان مقومات هذه الوحدة الفكرية والاجتماعية نابعة من رسالة الزعيم الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، رسول الله وقائد الامة العربية في الفكر والبناء والاهداف • فالقومية العربية هي الاتجاه الذي اكد اهميته في المجتمع العربي الحديث وقدرته على تحقيق الاهداف ، ولكن سرعان ما اكتشفت الامة العربية ان تحقيق الاهداف ليس بيسير ، لان الاعداء تحالفوا للوقوف ضد القومية العربية ، لذلك اضطرت القيادات القومية المخلصة ان تجرد القوى المعادية من اسلحتها • فالقضاء على الاقطاع وسيطرة رأس المال المستغل امور لابد منها اذا اردنا ان نقيم وحدة قوية متينة • ان التحديات التي واجهتها قوميتنا العربية المتحررة في طريقها الوحدوي من قبل رأس المال المستغل والاقطاع والرجعية مهدت الطريق لاقامة مجتمع الاشتراكية العربية • وهنا التقت القومية العربية بالاشتراكية ، واصبحت قوميتنا بفضل ذلك اشتراكية • فنحن اذن قوميون اشتراكيون ، وهذا امر يعارض اتجاه الاشتراكية القومية ، فلو كنا اشتراكيين اولا ومن دعاة الاشتراكية واكتسبت معركتنا طابعا قوميا لقلنا اننا اشتراكيون قوميون ، ولكن الحال غير ذلك ، لاننا دعاة قومية اولا واكتسبت معركتنا القومية طابعا اشتراكيا • وهنا تبرز مشكلة مهمة لابد من تحليلها وهي : هل القومية العربية اشتراكية بطبيعتها ؟

اذا كانت القومية العربية فكرا تابعا من التراث الاسلامي وواقع الامة العربية الحديث ، فان الاشتراكية (العدالة الاجتماعية) لن تكون غريبة عن القومية العربية ، بل هي مفهوم من مفاهيمها ومضمون يتصل بالجانب الاجتماعي والفكري لها ، لان مبادىء الاسلام وتشريعاته تدل دلالة واضحة على الاهداف التي يسعى الاسلام لتحقيقها في اقامة مجتمع العدالة الاجتماعية والحرية الانسانية • اما اذا اردنا بالاشتراكية العربية

مجموعة الافكار والتعاليم الماركسية ، فاننا سنقع في تناقض واضح لاسباب مهمة هي :ـ

(١) ان الشيوعية او الماركسية لا تقر مبدأ القوميات ، وتقف منه موقف العداء ، فكيف نوفق بين اتجاه قومي وآخر شعوبي ؟

(٢) اننا دعاة قومية عربية وهي فكر نابع من وجودنا العربي فكيف نوفق بين هذا الفكر العربي الناتج من تجربة الامة العربية وفكر دخيل ناتج من تجربة امة اجنبية ؟

(٣) ان الماركسية تفسر المجتمع على اساس اقتصادي وتعتبر القيم والمثل الانسانية متغيرة بتغير البنية الاقتصادية للمجتمع ، فكيف نوفق بين هذا التفسير والقومية العربية التي تضم بين دفتيها القيم والمثل العربية الاسلامية الخالدة •

نستنتج مما تقدم ان القومية العربية ذات اطار اشتراكي يتفق في المبادىء والاصول مع الفكر القومي النابع من الثقافة العربية والتراث الاسلامي • واذا جابهت الامة العربية في معركتها القومية من اجل تحقيق الوحدة اعداء تنكروا للقومية العربية المتحررة ، فان هؤلاء الاعداد التقليدين يقفون كذلك في وجه التطبيق الاشتراكي واقامة مجتمع الرفاهية والعدالة الاجتماعية ، لذلك لابد من تجريد هؤلاء الاعداء من اسلحتهم لتستطيع القومية العربية ان تبني بفضل العرب الاحرار مجتمع الاشتراكية العربية والوحدة الشاملة •

واذا كنا نبحث الآن البناء الفكري العام لاشتراكيتنا العربية ، فمن الضروري ان نبحث في الجوانب المختلفة التي تؤلف هذا البناء • ومن الضروري ان نشير هنا الى ان الاشتراكية العربية لا تعني التأميم ، وانها تتصل بجميع جوانب الحياة ، فهي تسعى الى اعادة بناء المجتمع على اسس علمية وعادلة ، وهي تقوم بالتمهيد لايجاد علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة بدلا من العلاقات والمؤسسات القديمة التي لا يمكن ان تتفق مع عملية

التحويل الاشتراكي • ان تأميم وسائل الانتاج ما هو الا وسيلة من الوسائل التي تتخذها الاشتراكية العربية لتحقيق مجتمع الكفاية والعدل ، وهذا معناه ان الهدف الاساس الذي تسعى اليه اشتراكيتنا هو تحقيق العدل في مجتمع صناعي وزراعي متطور ، ومفهوم العدل هنا واسع يشمل جميع جوانب الحياة ، وبذلك تكون الاشتراكية العربية منهجا في الحياة الحرة البعيدة عن التحكم والاستغلال • واذا ارتبطت الاشتراكية العربية بالوجود العربي ، فمن الضروري ان تكون متجاوبة مع آمال الامة العربية واهدافها التي تجاهد من اجل تحقيقها •

ولكي نكون على بينة من الاطار الفكري العام للاشتراكية العربية ، يجدر بنا اولا ان نفصل بتحليل واضح الجوانب الآتية :ـ

(١) الجانب الفلسفي الذي تستند عليه اشتراكيتنا في منطلقها •

(٢) الجانب الاقتصادي الذي يمثل التقدم والتطور في حقل الزراعة والصناعة •

(٣) الجانب الاجتماعي الذي تظهر اهميته في المؤسسات والعلاقات

(٤) الجانب القانوني الذي يمثل مبادىء عدالة التوزيع وضمان حقوق المواطنين •

(٥) الجانب الروحي الذي يؤلف مجموعة القيم والمثل الانسانية •

(٦) الجانب التاريخي الذي يبين لنا الجذور التاريخية للاشتراكية العربية واصولها في التراث الفكري والحضاري للمجتمع العربي •

ان للجانب الفلسفي اهميته في البناء ، لانه يقدم لنا العوامل الايجابية ويكشف العلاقة بين العلة والمعلول ويبين دور الحركة الاجتماعية والاقتصادية في بناء المجتمع ، كما يفلسف الافكار ويعطي التجارب اطارها النظري فينتقل من التجربة الى التعميم ، ومن التطبيق الى الفكر وبالعكس • ولهذا الجانب اهميته في تحويل المبادىء والخبرات والتجارب الى فكر اديولوجي يحفظ الاشتراكية العربية من ان تنزلق في اتجاهات تناقض فكرنا القومي وتسعى

الى القضاء عليه • وهذا معنـاه ان الجانب الفلسفي يعصم الفكر القومي الاشتراكي العربي من ان يقع في تناقضات تؤدي به الى ازمات فكرية تقضي عليه وتشل حركته •

ان المجتمع الانساني يتألف من افراد تربطهم علاقات ، ومن مجموعة الافراد والعلاقات يتكون التركيب الاجتماعي او تتكـون البنية الاجتماعية العامة ، وتختلف المجتمعات تبعا للطريقة التي يتم بها التركيب الاجتماعي • واذا اردنا ان تتفهم طبيعة المجتمع ، فمن الضروري ان نقوم بعملية تحليل للعلاقات والتركيب الاجتماعي ، لان العلاقات تظهر لنا الاتجاهات الحقيقية في البناء ، ويظهر لنا الركيب الاجتماعي الصورة العامة التي كونتها هـذه الاتجاهات • وتحليل العلاقات يبين لنا العوامل المتعددة التي ساهمت في دور البناء ، لاننا سنكتشف العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والفكرية ، ومقدار تأثير عامل على آخر • واذا ظهرت ظاهرة اجتماعية ما ، فان علينا ان نضع يدينا على مجموعة العوامل التي شاركت في اخـراج الظاهرة الى حيز الوجود • وعلى العموم لا يمكن تفسير ظاهرة ما بعامل واحد ، لان العوامل متشابكة بحيث يصعب علينا ان نحدد بوجه الدقة اهمية عامل من هذه العوامل • وهذا معناه ان نظرية العوامل المتشابكة في تفسير الظاهرة الاجتماعية هي الحل الوحيـد لتزويد الانسان بالمعرفة العلمية • وبذلك نكون قد خالفنا رأي كارل ماركس بان العامل الاقتصادي او المادي هو العلة الاساسية في التغييرات الاجتماعية ، ولكننا في الوقت نفسه لا ننسى اهمية العامل الاقتصادي مع العوامل الاخرى ، ولا نقلل من اهميته • ومن المحتمل ان يكون العامل الاقتصادي في بعض الحالات هو العامل الاقوى في التغيير ، كما يمكن ان يكون العامل الديني او الاجتماعي او النفسي او السياسي العامل الاقوى في حالات اخرى ، ولكن ذلك لا يعني انفـراد عامل واحد ، بل قد تتشابك العوامل المختلفة ويطغى عامل او اكثر على بقية العوامل دون ان يكون علة للعوامل الاخرى •

ومن ناحية اخرى لا نقر علميا وفلسفيا بالنظرة المادية التي اجتاحت

الفكر والمجتمع الاوروبي في القرن التاسع عشر واصبحت حجر الزاويه في نظرية كارل ماركس في المادية التاريخية والديالكتيكية التي تؤلف القاعدة الفلسفية لنظرية ماركس في الشيوعية • لقد استقى ماركس هذه النظـرة من التقدم العلمي والنظريات الميكانيكية لتفسير حركات الكواكب وسـلوك الاشياء المادية • ولكن هذه النظرة سرعان ما تبـدلت جـذريا في القرن العشرين ، ولم يعد للاتجاه المادي البحت السيادة التامة في النظريات العلمية والفلسفية بعد ان عرف علماء الفيزياء التركيب الداخلي للذرة وابعاد الكون الشاسعة ، وبدأ تقهقر الطريقة التجريبية في العلم واتجاه الدراسات نحـو الطريقة الرياضية • وهذا يدل دلالة واضحة على ان العلم لم يعد يهتم بالظواهر المادية قدر اهتمامه بالحوادث ، خاصة بعد ان استطاعت النظرية النسبية لالبرت اينشتاين ان تجعل من المادة اقل واقل مادية على حد تعبير برتراند رسل في مقدمة كتابه « تحليل العقل The Analysis of Mind" . كما استطاع العلم الحديث ان ينقلب على مذهب الحتمية السببية متخـذا مذهب الاحتمال بديلا عنه ، وهذا الاتجاه بحد ذاته ما هو الا ثورة على المفاهيم العلمية التي سادت القرن التاسع عشر واصبحت جزء اساسيا من فلسفة ماركس • وهكذا نجد انهيار الاساس المادي الذي اتخذه ماركس لتفسير الظواهر المختلفة ، كما ان تفسيره المعتمد على عامل واحد وعلى مبدأ الحتمية لم يعد مأخوذا به في فلسفة القرن العشرين العلمية •

نستنتج من ذلك ان التفسير المادي ومبدأ الحتمية لا يمكن الاعتماد عليهما علميا في تفسير ظواهر المجتمع وظواهر العلم معا • وبذلك ايضا نكون قد دحضنا فرضية ماركس القائلة بان المادة اساس الفكر ، ووضعنا بدلا عنها الفرضية العلمية القائلة بتفاعل المادة والفكر وأثر الواحد على الآخر • واذا تسلسلنا في هذا التفكير العلمي نكون قد دحضنا رأي ماركس القائل ان وسائل الانتاج وتبدلها اساس لتبدل الفكر والمؤسسات • ان وسائل الانتاج لم تكن موجودة قبل الفكر الانساني ، بل انها في الحقيقة من تصميم العقل البشري وقدرته على الابتكار والابداع ، فالفكر هو العامل الذي تفاعل مع

المادة في سبيل تطوير وسائل الانتاج ، وان هذه الوسائل لم تكن لتوجد لولا وجود الفكر ، كما انها لم تكن تخرج الى حيز الوجود لولا وجود المادة الاولية •

يتصل بهذا الفكر الفلسفي الجانب الاقتصادي للاشتراكية العربية ، الذي يؤكد على اهمية الفكر في عملية التنمية الاقتصادية واهمية الفرد في المساهمة في عملية التحويل الاجتماعي ، وبذلك تكون الاشتراكية العربية موفقة فلسفيا في عملية ربط الفرد بالمجتمع والفكر بوسائل الانتاج ، فلا يوجد تناقض ظاهر او باطن بين الحرية والاشتراكية •

واذا رجعنا الآن قليلا الى الوراء لنبحث واقع المجتمع العربي ، فاننا نجده يتميز بالتخلف في جميع جوانب الحياة اضافة الى وجود احتكارات اجنبية تستثمر ثروة البلاد لمصلحة قوميات أجنبية ، ووجود اقطاعيات كبيرة يسيطر عليها نفر قليل من شيوخ العشائر ومن الذين باعوا أنفسهم للاستعمار • ان مثل هذا الواقع لا يسمح في تقدم المجتمع أبدا ، لان اكثرية الشعب محرومة واقليته تنعم بالرفاه ، فلا يجد ابن الشعب ما يسد رمقه ، بينما نجد ابناء الطبقات الغنية يصرفون الاموال على اتفه الاشياء • لذلك لابد من تغيير شامل في البنية الاقتصادية للمجتمع ، ولا يكون ذلك على اساس الحرية الاقتصادية دون رقابة ، لان هذه الحرية ستقودنا الى مجتمع رأسمالي تتحكم فيه فئة قليلة في رقاب الشعب • اذن لابد من بناء مجتمع ينعم فيه جميع الافراد بالرفاهية الاقتصادية والاستقلال الذاتي بعيدا عن تحكم فئة او طبقة ، ولا يتم بناء هذا المجتمع الا بعد دراسة وتخطيط علمي لأوجه الحياة لمعرفة الاسباب الاساسية التي تمنع عملية بناء مجتمع العدالة الاجتماعية • وعلى هذا الاساس تصبح الخطوة الاولى في هذا البناء الجديد تجريد القوى التي عرقلت تحقيق مجتمع العدل ومنعت الافراد من ابداء كفاءاتهم وقدراتهم العلمية والعقلية • فالقضاء على الاقطاع شرط ضروري لاتاحة الفرصة لهؤلاء الذين كانوا عبيدا لان يكونوا اسياد انفسهم وارضهم ،

كما يجب القضاء على رأس المال المستغل كخطوة للقضاء على الفـوارق الطبقية الهائلة وتحرير الافراد من سيطرته • اما الخطوة الثانية فتكون في تكوين قطاع عام يساهم في عملية التطوير والتنمية مع اتاحة الفرصة لرأس المال الوطني الذي يمثل القطاع الخاص لان يساهم كذلك في دعم التقدم الزراعي والصناعي • وهذا معناه ان الاشتراكية العربية تقر مبدأ الملكيـة الفردية في الحدود التي لا يكون لهذه الملكية تأثير على حريات الافراد ، لان الملكية في المجتمع الاشتراكي وجدت لتكون ذات نفع للمجتمع ، ولا تستعمل للاضرار بالافراد وحرياتهم •

ان تحسين وسائل الانتاج في الحقول الصناعية والزراعية شرط اساسي لتحقيق كفاية الانتاج ، لان الوسائل القديمة في الصناعة والزراعة لا تستطيع ان تقوم بمهمة عملية التقدم والتنمية • وفي مجتمع متخلف كالمجتمع العربي لابد ان يكون تحسين وسائل الانتاج بشكل سريع ومطرد لنستطيع ان نكون ما نحتاجه ، لان العلاقة بين الوسائل والانتاج هي علاقة طردية • ولكي يكون الانتاج كافيا ، لابد من وجود خطة اقتصادية شاملة تشمل الصناعة والزراعة معا • فالتخطيط الاشتراكي القائم على دراسة علمية لاحتياجات المجتمع هو الحل الوحيد الذي يستطيع ان يدفع مع وسائل الانتاج المتطورة المجتمع العربي الى التقدم ، فينقله من مرحلة التخلف الى مرحلة التطور • ان الدولة هي المؤسسة الوحيدة في المجتمع المتخلف التي تستطيع ان تقوم بعملية التطوير لما لها من امكانيات مادية ضخمة ، وهذا معناه ان القطـاع العام هو الكفيل الذي يحقق مجتمع الكفاية والعدل ، وان دور القطـاع الخاص يساهم كذلك في عملية التطوير ضمن خطة الدولة الاقتصادية وتبعا للتخطيط الاشتراكي •

اما الجانب الآخر من الاشتراكية العربية فيتمثل في عدالة التوزيع • فاذا كانت كفاية الانتاج الجنـاح الاقتصادي للاشتراكية العربية فان عدالة التوزيع تمثل الجناح الحقوقي لاشتراكيتنا • ومفهوم العدل هنا واسع يشمل

جميع وجوه الحياة • ولكن عدالة التوزيع لا تعني مطلقا توزيع الثروة القومية بشكل متساوٍ على جميع الافراد ، لان مثـل هذا المبدأ يناقض طبيعة الانسان واختلاف قدرات الافراد • ان توزيع الثروة يتم تبعا لمبدأ الكفاءة والقدرة ، فيتفاوت الافراد في العمل والاجور تبعا لهذا المبدأ •

واذا كان من اهداف الاشتراكية العربية بناء مجتمع صناعي وزراعي متطور ، فان على هذه الاشتراكية ان تضمن حقوق العمال والفلاحين ، وذلك بتحقيق الضمانات المختلفة الصحية والاجتماعية ، كما يجب ان يكون للعامل حد ادنى في الاجور يمكنه من العيش كانسان مترفه يضمن لنفسه وعائلته حياة طيبة •

ان من اهم مميزات الاشتراكية العربية انها تقر الملكية الفردية ولا تلغيها الا في حالات معينة ، عندما تصبح هذه الملكية ذات تأثير سيء وضار بالمجتمع ، وان التأميم في الاشتراكية العربية ليس اغتصابا للثروة او الملكية الخاصة ، بل ان الاشتراكية العربية تقوم بتعويض عادل للـثروة المؤممة ولا تقضي الا على جانب الربح الفاحش الذي تقدمه الثروة • واذا انتقلت الملكية الخاصة الى ملكية عامة ، فان ذلك معناه انخفاض في اسعار البضائع، لان الدولة لا تسعى الى الحصول على الارباح التي يحفظهـا الرأسمالي لنفسه ، كما ان انتقال هذه الملكية الى الدولة من شأنه ان يقضي على جميع الوسطاء الذين يعيشون على رفع سعر البضاعة • وبذلك تستطيع الدولة ان تقدم السلع الى الشعب بسعر مناسب يحفظ سعر التكليف والعمل ونسبة قليلة من الارباح لتعمل على رفع مستوى العمال والفلاحين •

ومن المميزات الاخرى لاشتراكيتنا العربية هي انها تضمن للعمال نسبة عادلة من الارباح التي تحصل عليها الشركات ، كما تسمح باشراك العمال في الادارة ، وبذلك تحقق اشتراكيتنا ديمقراطية اوسع بمشاركة الشعب في الاجهزة الادارية وانتقال السلطة شيئا فشيئا من الدولة الى الشعب •

واهم ميزة امتازت بها الاشتراكية العربية هي انها تعترف بالاديـان

ورسالات السماء وتجعل من شريعة الاسلام قاعدة قويمة في تحقيق مجتمع العدل الاجتماعي • واذا كانت الاشتراكية العربية تعترف بالاسلام وشريعته، فان ذلك لا يعني غير حقيقة مهمة هي ان الاشتراكية العربية لا تناقض الاسلام ، فهي لا تقر الالحاد وترى في الاسلام اول تجربة اشتراكية في العالم سبقت زمانها بقرون قبل ان تصبح الاشتراكية املا للمعدمين والفقراء وحلا للقضاء على الازمات الاقتصادية المرافقة للنظام الرأسمالي •

واخيرا نجد الاشتراكية العربية في التطبيق الاشتراكي تقر مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بخير المجموع ، ولا تنكر اهمية الفرد وحريته في تدعيم عملية التنمية والانطلاق نحو بناء المجتمع الافضل • كما انها بذلك تحقق مجتمع الديمقراطية السليمة بجناحيها السياسي والاجتماعي دون ان تسمح لفئة أو فرد أو طبقة في التسلط على رقاب الناس والتحكم في مصير الشعب وتظهر اهمية الجانب الاجتماعي من الاشتراكية العربية في تكوين المؤسسات الديمقراطية السليمة وفسح الحرية للافراد في اختيار العلاقات التي تربطهم بالمؤسسات والافراد • ويجب ان ترتفع هذه المؤسسات الى المستوى الذي تستطيع به ان تساهم في عملية التطبيق الاشتراكي ونقل المجتمع من طور التخلف الى التقدم والرفاهية • وتلعب هذه المؤسسات دورا ايجابيا في توجيه سياسة الدولة والاقتصاد القومي ، لان اشتراكيتنا لا تؤمن بسلطة الدولة المطلقة ، كما لا تفرض ديكتاتورية فرد او فئة او طبقة على الشعب، بل ان ايماننا بالديمقراطية النابعة من ارادة مجموع الشعب كله ، تجعل من فكرة سيادة الدولة المطلقة مجرد وهم لا يمكن تحقيقه • لذلك تسعى الاشتراكية العربية الى خلق مؤسسات تقوم على اسس ديمقراطية لتستطيع ان تشارك في مسؤولية الحكم •

فالدولة في مجتمع الاشتراكية العربية مؤسسة ديمقراطية تخدم مجموع الشعب وتتيح الفرص الكثيرة لكي يمارس الفرد حريته في حدود المجتمع ، وهذا معناه ان وظيفة الدولة الاشتراكية تكون في تنظيم احوال المجتمع

وتنسيق جهود الافراد والمؤسسات بشكل يؤدي في النهاية الى خدمة المجتمع باسره • وان حقوق الدولة في ادارة شؤون المجتمع فرض ، لان الدولة بدون هذه الحقوق لا تستطيع تحقيق ابسط الاشياء ، ولكن هذه الحقوق في الوقت نفسه تجسيد لحقوق الشعب في الاستقلال والحياة الحرة الكريمة •

وتلعب الاخلاق والعادات دورا مهما في تكوين المؤسسات ودفعها في الخط الديمقراطي الصحيح ، لذلك يجب ان يكون الوعي والشعور بالمسؤولية والواجب من الامور التي يعرفها المواطن ، كما يجب ان تكون الاشتراكية كفكر معروفة بشكل صحيح لدى جميع الافراد ، لانه يجب على الفرد الذي يعيش في مجتمع الاشتراكية العربية ان يعرف دوره في هذا المجتمع ويشعر بمسؤولية في اختيار الافراد والانضمام الى المؤسسات •

ان الصعوبة في التحويل الاشتراكي لا تكمن في الجانب الاقتصادي ، بل ان جل المشاكل تظهر في الجانب الاجتماعي والاخلاقي ، والاشتراكية العربية تسعى كذلك الى تكوين بنية خلقية واجتماعية تساهم في التقدم • ان العلاقات الاجتماعية القائمة على الاخلاق والشعور بالواجب والمسؤولية تستطيع ان تقدم للمجتمع ثمرات تخدم الكل • واذا اكدت الاشتراكية العربية على اهمية الاخلاق والمثل الانسانية السامية ، فلاننا نشعر بحقيقة مهمة هي : اننا نستطيع اقامة اشتراكية مثالية بين الحيوانات اذا اخذنا بالجانب الاقتصادي وحده ، وذلك بتوزيع عادل من الاطعمة يتناسب مع تكوينها وجنسها • ولكننا في المجتمع البشري نتعامل مع افراد لهم فكرهم وشعورهم وارتباطاتهم ، لذلك لا يمكن ان يحقق التوزيع العادل وحده مجتمعا اشتراكيا ، لان المهم في الاشتراكية هو ادراك الافراد لهذا التوزيع وتقديرهم له ومحافظتهم عليه ، كما تلعب الاخلاق دورها في البناء الاقتصادي الجديد ، لان الفرد هو الذي يقوم بتقييم الاشياء واعطائها قيمتها الحقيقية • وبالاخلاق الاجتماعية يقوم الفرد بالمحافظة على حقوقه وحقوق الاخرين ، فلا يتعدى على الافراد ولا يحاول خرق الاسوار او الحدود الاجتماعية

التي تقرها الاشتراكية • وعلى هذا الاساس يظهر لنا ان الجوانب جميعها من فلسفية واقتصادية واجتماعية وقانونية وخلقية تلعب دورا مهما في التطبيق الاشتراكي ، وانه لا يمكن تفضيل عامل على اخر ، لان لكل جانب واجبا معينا يؤديه في البناء الاشتراكي العام •

واخيرا اود ان اشير الى اهمية الجانب التاريخي في الاشتراكية العربية، لانه يقدم لنا الجذور التاريخية لهذا الفكر • فالعدالة الاجتماعية هدف اساسي من الاهداف التي سعى لها الاسلام ودعا الى تطبيقها على جميع المستويات • ان تحقيق هذه العدالة قبل ما يقرب من اربعة عشر قرنا ، يجعل من الاسلام اول تجربة اجتماعية في العالم تحقق العدل الاجتماعي في الوقت الذي لم يكن لهذا التطبيق وجود في التاريخ البشري • ان القواعد او التشريعات التي جاء بها الاسلام لتحقيق مجتمع العدالة الاجتماعية لا زالت حية ، لانها لم توضع لظرف واحد او زمان معين ، بل ان في تعميماتها المنطقية ما يجعلها حية وقابلة للتطبيق • فلقد ربط الاسلام ملكية الارض والسماوات بالله ولم يجعل للانسان حق في الملكية الا بما يهبه الله ، فالملكية الفردية ما هي الا اقتطاع من الملكية العامة ولله ، فلا يحق للفرد استعمالها في الاضرار بالمجتمع والافراد ، لذلك وجب على الدولة ان تضع حدا للملكية الفردية التي يستعملها صاحبها للاضرار بالمجتمع ، وذلك بمصادرتها او الضرب على يد صاحبها ضمانا لسلامة المجتمع • وبهذه الطريقة يكون الاسلام قد حقق بتشريعاته المختلفة التي تزيد كثيرا على ما تقدم مجتمعا ترفرف عليه العدالة الاجتماعية ورحمة السماء •

مفهوم
الوحدة العربية الشاملة

ان الطابع الظاهر للقومية العربية في سيرها نحو تحقيق الاهـداف تأكيدها الدائم على اقامة دولة الوحدة العربية ، دولة لامة عربية تمتد في وجودها من المحيط الى الخليج • واجتاز شعار الوحدة مراحل سياسية ونضالية مختلفة حتى تبلور على شكل فلسفة وعقيدة واضحة في ايامنا هذه • وكانت المقومات الاساسية لامة العرب تشكل الجانب التكويني والايجابي لحركة القومية العربية • فاللغة والوطن والتاريخ والدين والفلسفة الحياتية والمصالح المشتركة تؤلف وحدة تكوينية للامة العربية وقاعدة اساسية نحو انطلاقهم لاقامة دولة الوحدة • وكانت التحديات الاستعمارية وعوامل التخلف والتجزئة حافز لامة العرب لصهر الفكر العربي في البودقة القومية ، ليكون أساسا فكريا قويما لوحدة الصف •

واذا كانت الحركات القومية في العالم تتوخى توحيد الامة الواحدة تحت سيادة دولة واحدة ، فان القومية العربية اضافة الى كونها تنشد وحدة الامة العربية في دولة واحدة ، اصطدمت بعراقيل وتحديات واجهتها في حركتها السياسية والاجتماعية ، لذلك اكتسبت القومية العربية في سيرها الوحدوي صفة كونها قومية تحررية تنشد تحرير الاراضي العربية من الاستعمار والصهيونية ، واسترداد الاراضي العربية التي سلبتها قومياتأخرى • وهكذا اصبح من شروط النضال القومي نحو اقامة دولة الوحدة مقارعة الاستعمار والوقوف أمام جميع محاولاته ، وتحرير الاراضي العربية •

ولكي يكون مفهوم الوحدة العربية واضح المعالم من الضروري ان ناقش بعض البديهيات التي توجه حركتنا الوحدوية ، لان في هذه الديهيات تكمن عناصر القوة والهدف • ولاجل الكشف عن جوهر هذه البديهيات

نضطر ان نلقي السوآل الذى يطرحه كل فرد من داخل الوطن وخارجه وهو : لماذا تريد الامة العربية وحدة من المحيط الى الخليج ؟

وللاجابة على السوآل نضع أمام اعيننا البديهيات الآتية :ـ

١ ـ تتوفر في الامة العربية عناصر الوحدة وذلك لوجود الرباط الوثيق والقاسم المشترك بين جميع افراد الشعب العربي وهو وحدة الفكر التي تضم التاريخ المشترك والعادات التي هي تجسيد للمثل والقيم ، والدين الذي يصنع ضمير الانسان وقانون المجتمع ، والتقاليد التي هي ثمرة البنية الاجتماعية ، واللغة التي تعبر عن الفكر فتوحد اطاره وتنقله عبر الاجيال ، فتسطر الامجاد وتروي لنا ما حققته الامة العربية من جهود في جميع الميادين ، كما تعبر هذه اللغة المشتركة عن الآمال التي تحفز الفكر لوضع الاهداف القريبة والبعيدة • واذا كانت الآمال والمقومات مشتركة بين جميع افراد الامة ، فان الارادة التي تحقق الآمال وتجعل من التخطيط واقعا متوفرة ، لانها القوة التنفيذية لكل تشريع يخطط له الفكر لدعم حركة الامة العربية نحو بناء المجد •

٢ ـ تتوفر في الامة العربية عناصر الوحدة ، وذلك لوجود وحدة الصف التي تضم القوة البشرية للشعب العربي الممتد في الشمال الافريقي والشرق العربي • وهذه الوحدة ضرورية لجعل الفكر واقعا لانها تمثل عنصر الارادة في التنفيذ • واذا كانت الوحدة الفكرية ضرورية لوحدة الصف ، فان وحدة الصف لا تتحقق في ظل تجزئة الفكر وصراع الايديولوجيات ، لذلك لابد من وحدة الفكر ، لانه هو الذى يصنع وحدة الصف • فعندما بدأ الاسلام بزحفه الفكري بقيادة الرسول الاعظم من قلب الجزيرة العربية نحو العراق وسوريا ومصر والشمال الافريقي ، فانه سرعان ما خلق وحدة بشرية ـ ثقافية كانت اساس الوحدة العربية وقاعدتها• وبذلك أصبحت كثير من المناطق التي لم تكن عربية من قبل بفعل هذه الثورة الفكرية وحدة عربية •

٣ ـ تتوفر في الامة العربية عناصر الوحدة ، وذلك لوجود وحدة

الهدف التي تضم تطلعات هذه الامة لبناء المستقبل وازالة جميع العوائق التي تقف في طريقها • ان اختلاف الاهداف معناه عدم قدرة الامة على الالتقاء في وحدة ، لان هذا الاختلاف من شأنه ان يخلف الوسائل المختلفة ، فيصبح الطريق متشعب المسالك • واذا اختلفت الوسائل والطرق والاهداف، فان طريق الوحدة سيعتريه اختلاف في وحدة الصف ، لان الاهداف والوسائل تؤلف جزء من الوحدة الفكرية التي يصحبها تجزئة الصف عند تجزئتها •

فاذا توفرت في الامة العربية هذه المقومات ، فان طريق الوحدة حتمي لابد منه • ولكننا ربما نثير سؤالا آخر هو : اذا كانت هذه المقومات موجودة ، فلماذا لا تتم الوحدة العربية ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يجدر بنا ان نتعرف اولا على العلل التي تعوق مجرى الوحدة الطبيعي •

١ ـ وجدت الامة العربية نفسها تحت سيطرة قوميات اجنبية بعدما بدأت السيادة العربية بالانهيار في أواخر العصر العباسي • واستطاعت القومياتالاوروبية ان تجزّيء الوحدةالعربية بعد انهيار الامبراطوريةالعثمانية الى مناطق نفوذ تحكمها عروش عميلة وعملاء • وبهذه الطريقة استطاع الاستعمار الحديث ان يصنع الحدود والكيانات ويسبغ عليها نوعا من الاستقلال والذاتية • وبذلك تجزء الوطن الى دويلات متعددة تعارض مصالح حكامها مع كل عمل وحدوي ، ويجد الحكام سبيلا كثيرة لاعاقة طريق الوحدة بتبريرات قصد منها الوقوف ضد الوحدة •

٢ ـ بدأ اتصال الاستعمار الغربي بالوطن العربي في القرن التاسع عشر ، فكان الشمال الافريقي ومصر من أوائل الاقطار العربية التي سيطر عليها الاستعمار • وبدأت مصر تطرد الغزاة المستعمرين ، وانبرى قادة التحرير العربي يقفون بكل قوة أمام الغزو • يصدون كيد المستعمرين • وكان لهذا الاحتكاك اثره ، لانه اظهر لعرب مصر مقدار تخلفهم عن المدنية الاوروبية الصناعية ، فكان ذلك حافزا للتقدم و البناء وعندما سيطر

الاستعمار الاوروبي على الشرق العربي بعد الحرب العالمية الاولى وبعد انهيار الدولة العثمانية ، وجد العرب انفسهم مرغمين على حمل السلاح في وجه الغزاة والعملاء • وهكذا تفاوتت معارك التحرير والتقدم ، فأخذت الاقطار العربية تطور نفسها منفصلة الواحدة عن الاخرى ، فاختلفت الثقافات باختلاف الاستعمار ، وخلق الاستعمار جملة من المثقفين يخدمونه ويخدمون ثقافاته لاجل القضاء على الثقافة العربية الاصيلة •

٣ ـ ونتيجة لاختلاف الثقافات وتفاوت الاقطار من ناحية التقدم ، ونتيجة للتجزئة التي فرضها الاستعمار نجد الحكام ودعاة الانفصال يروجون الاقليمية ويخلقون لها الاداة والفكر • فالرجوع الى اللغة الفينيقية وترك اللغة العربية حركة تريد تدعيم الاقليمية والقضاء على الوحدة • واحياء الهيروغليفية والمجد الفرعوني حركة تريد خلق حضارة بعيدة عن الوحدة الحضارية التي تمتعت بها مصر مع الاقطار العربية في ظل الدولة العربية ـ الاسلامية • واعتبار قطر عربي مثل الجزائر جزء من الاراضي الفرنسية وامتداداً لحضارة فرنسا دعوة يروجها بعض المثقفين في الجزائر ويجدون لها المبررات التي تهدف الى القضاء على عروبة الجزائر •

٤ ـ ان اختلاف مراحل الثورة العربية بسبب التجزئة ادى الى اختلاف الاسلحة الفكرية التي اتخذها الثوار ضد الاستعمار والرجعية والانتهازية والشعوبية وتحالف الاقطاع مع رأس المال المستغل • فظهرت حركات سياسية في القومية العربية اختلفت في الفكر والتنظيم ، فكانت هذه الحركات ودوافعها من الأسباب التي عملت على تجزئة الفكر القومي ، فنجد تيارات اديولوجية تهتم بالجانب السياسي دون النظر الى المقومات الحضارية والفكرية للامة ، واخرى تعتمد على المقومات ولكنها ترى في الحركة السياسية مجرد وسيلة لتحقيق الوحدة العربية بمقوماتها الاساسية • واختلفت التيارات الفكرية في الاشتراكية العربية ، فمن الناس من يرى فيها اشتراكية ماركسية ، عربية التطبيق ، بينما يرى اخر انها

لا يمكن ان تلتقي مع الماركسية من بعيد أو قريب ، لان الماركسية فكر صهيوني معدم للاخلاق والقيم الانسانية التي تتحلى بها العقلية العربية • وهناك فريق اخر يرى المزج بين الفكر الماركسي والعربي لتوضيح الاطار الفكرى للاشتراكية العربية • هذه التيارات المختلفة في الفكر القومي والاشتراكي ادت الى وجود تكتلات حزبية وحركات سياسية لا تلتقي في صف واحد ، لان التمزق الفكري من شأنه ان يقود الى تمزق وحدة الصف •

٥ ـ لقد ساعد الاستعمار القوى العميلة في المنطقة العربية لتقوم بدورها في العمل لمصلحة الاسياد • واختلفت الانظمة السياسية والاجتماعية بسبب تدافع الشعب العربي نحو الاستقلال والقضاء على القوى العميلة • فكانت الثورة العربية تظهر في أراضٍ كثيرة ، ولكن بصور متفاوتة ، لذلك نجد عروشا أو حكومات ملكية واخرى جمهورية ، كما نجد مجتمعات تخطت مرحلة الاستقلال وهى الان في سبيل بناء مجتمع الاشتراكية ، بينما نجد مجتمعات عربية اخرى لازالت اقطاعية واخرى متروكة لتحكم القصور الملكية ورأس المال المستغل • ان هذه الاختلافات في النظم السياسية والاجتماعية يجعل الالتقاء الوحدوي غير ممكن ، لان التناقضات سرعان ما تنشط اذا اقمنا مجتمع الوحدة بهذه الاختلافات لتقضي بالتالي على الوحدة وتدعم الانفصال •

٦ ـ تواجه دعوة الوحدة اعداء داخل الوطن العربي وخارجه ، فتتحالف القوى الشعوبية والقوميات غير العربية على محاربة هذه الدعوة متوسلين بحجج انفصالية ، لابقاء الوطن العربي مجزء الاوصال • ويجب ان نميز هنا بين القوى القومية الوحدوية التي تشخص داء الانفصال في سبيل القضاء عليه وعلى جميع العراقيل التي تقف ضد الحركة الوحدوية ، وبين القوى الشعوبية الانفصالية التي تحاول تدعيم الانفصال وتراه أمرا طبيعيا لابد من بقائه • ان ابتعاد القومية العربية عن مقومات الوحدة والالتزام بالحركة السياسية وحدها معناه فسح المجال لظهور

حركات سياسية قومية وحدوية في الظاهر ولـكنها انفصالية في الباطن ، وفي هذا الصدد تلتقي هذه الحركة مع الانفصال وتقوم بتدعيمه •

هذه بعض العلل الاساسية التي تعوق مجـرى الوحـدة الطبيعي ، لاننـا نجد فيهـا تجزئـة في الصف والفـكر والهدف • وهنا يظهـر جواب السوآل الذى اثرناه في بداية هذا التحليل وهو : اذا كانت مقومات الوحدة موجودة ، فلماذا لا تتم الوحدة العربية ؟ فلقد ابتعدت بعـض الحركات القومية والاشتراكية عن الاصول الاسـاسية المكونة للوحدة ، فأخذت بفكر شعوبي بديلا عن الفـكر العربي الاسلامي ، وهناظهر التمزق الفـكري في الحركات السياسية • لذلك اذا أردنا ان نقيم الوحدة العربية على أصول متينة ، فمن الضرورى ان نرجع الى الوحدة الفـكرية التي صاغتها الاجيال العربية منذ بداية الدعوة الاسلامية ،لان هذه الوحدة متوفرة عند جميع الافراد العرب عدا الشعوبيين والحاقدين على التراث الفكري والحضاري لامة العرب • وهذه الوحدة التي جعلت العرب في صف واحد وربطتهم بوثاق واحد قادرة على ان تصنع المعجزةمن جديد،فتدفع الامةالعربية نحو الوحدة والاشتراكية العربية النابعة من تراث الامة العربية وتجاربهـا الحضارية ومبادىء الاسلام الحنيف تجنبا للمزالق الفكرية والايديولوجية التي يمكن ان تقود الوحدة الى انفصال ، والاشتراكية العربية الى شـيوعية ماركسية • ومن هذا المنطلق يتحتم على جميع القوى القومية في الوطن العربي ان تعمل على توحيد الفـكر وتحديد حـركة الامة سياسيا واجتماعيا •

ان توحيد الفـكر القومي الاشتراكي في اطار اديولوجي وعمـلي من شأنه ان يخلق التنظيمات الشعبية المتشابهة التي تقوم بتحقيق القيـادة وتلاحم القاعدة في الوطن العربي • واذا تحققت الوحدةالفكرية والتنظيمية، فان ذلك أمر سيعجل بالوحدة ويقضي على جميع الحلفاء والاعداء مـن استعمار وشعوبية وقومية رجعية وقوى انفصالية واقليمية وتحالف للاقطاع مع رأس المال المستغل •

وظهرت الى جانب دعوة القوى القومية الى الوحدة دعوة تدعو الى الاتحاد • لذلك لابد لنا ان نقف هنا على ماهية الاتحاد والوحدة واين يمكن اتفاقهما مستفيدين من بعض التجارب • لقد رفع الشيوعيون في العراق شعار الاتحاد الفيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة ، وكانوا يريدون من ورائه القضاء على فكرة الوحدة ، لان هذا الاتحاد ما هو الا تدعيم للاقليمية والانفصال • وبعد انهيار الحكم الشعوبي برزت القوى القومية لتحقق الوحدة ، فكان ميثاق السابع عشر من نيسان سنة ١٩٦٣ حصيلة المحادثات التي تمت في القاهرة بين ممثلي حزب البعث في العراق وسوريا وبين الجمهورية العربية المتحدة • ولقد نص هذا الميثاق على تكوين دولة اتحادية تضم العراق وسوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة • ولكن الاحداث التي جاءت بعد تصديق الميثاق ادت الى القضاء عليه وهو لمّا يزل جنيناً • لقد كان في الميثاق مواد مهمة في طريق الوحدة واخرى ضعيفة تبين بقاء رواسب اقليمية ، وعلى الرغم من ذلك فانه كان محاولة مدروسة في طريق الوحدة •

واذا نظرنا الى تطورات الدستور الامريكي اتخذنا منه درسا وعظة ، فقد كان دستور اول مارت سنة ١٧٨١ خطوة اولية ، وكان دستورا مقيدا لانه لم يخلق حكومة مركزية ولم تسلم الولايات من سيادتها وسلطانها الا قليلا ، فاحتفظت باقليميتها • ولكن مؤتمر انا بوليس سنة ١٧٨٦ كان خطوة جديرة بالتقدير لمشاركة كبار القوميين الذين اقتنعوا بوجوب تغيير دستور سنة ١٧٨١ • ثم جاء مؤتمر الدستور سنة ١٧٨٧ الذى اجتمع في فيلادلفيا ، حيث برزت فكرة السيادة القومية المشتركة ضد السيادة المحلية • وظهرت في المؤتمر تيارات سياسية مختلفة يدعم فريق منها السلطات المحلية للحكومة ، وفريق آخر يقول بحكومة مركزية قوية • وكان هذا المؤتمر دعما للحركة القومية الولايات المتحدة •

واذا رجعنا الان الى الامة العربية فاننا نجد فيها مقومات الوحدة والقومية أكثر بكثير من تلكم التي حصلت عليها الولايات المتحدة

في اثناء الثورة والتحرير ، واذا اتحدت الولايات في أمريكا بدستور قوي وبرلمان يمثل الشعب ، فان وحدة الامة العربية امر لا مفر منه • ان النوازع والمصالح الاقليمية تجعل الكثيرين يرون في الوحدة خطرا عليهم ، ولكنهم لو درسوا جوانب التكامل بين اجزاء الوطن العربي او دويلاته لاقتنعوا بان الوحدة قوة لكل جزء وحياة لكل فرد عربي وتعاون اجتماعي واقتصادي تام • ان القوى القومية لا تعارض تكوين دولة اتحادية قوية تكون اساسا لدولة الوحدة ، ولكنها تعارض ان يكون الاتحاد بديلا عن الوحدة •

ومن الضروري ان نشير هنا الى ان الوحدة العربية لا تعني عملية ضم الاقاليم أو الاقطار مع الاحتفاظ بكياناتها الاقليمية السياسية والاقتصادية ، لان مثل هذا العمل لا يختلف عن عمل الجامعة العربية • فالوحدة العربية يجب ان تقضي على الاقليمية وتصهر الكيانات السياسية المستقلة في دولة حقيقية واحدة •

ولما كنا في معرض الحديث عن الوحدة فيجدر بنا ان نشير الى الاشكال المختلفة لاقامة الوحدة والتي ظهرت على المسرح السياسي العربي :ـ

١ ـ وحدة القوى الرجعية في دولة تحمي مصالح الاقطاع ورأس المال المستغل وتكون عونا للاستعمار في تحكم اكبر وسيطرة اقوى على الوطن العربي ولقد حقق هذا الاتحاد نوري السعيد لبناء الدولة الهاشمية التي تضم العراق والاردن • وكان نوري السعيد من مؤيدي اقامة الهلال الخصيب تحت زعامة بريطانيا •

٢ ـ وحدة القوى الحزبية في دولة تحمي مصالح الحزب ، غايتها اقامة دولة تقف ضد تيار القومية العربية • فكانت دعوة الحزب القومي السوري لاقامة سوريا الكبرى خير برهان على التحالف الشعوبي ضد الامة العربية ، كما انه تعزيز اقليمي واقتطاع جزء من الوطن العربي في ظل قومية فينيقية قديمة بدلا من قومية عربية • وبرهن حزب البعث على ان وحدة القيادات الحزبية هي الطريق السليم لاقامة الوحدة • ولكن المضامين

الفلسفية والفكرية لحزب البعث في الحرية والاشتراكية والوحدة كانت تتعارض في كثير من الاحيان مع مقومات القومية العربية الحضارية ، لان البعث حركة سياسية لا تمت لتراث القومية العربية بصلة • وينطبق هذا التحليل على جميع الحركات السياسية المشابهة •

٣ ـ وحدة قوى الشعب العاملة في دولة تحمي مصالح الشعب وتدافع عن استقلاله وحريته ، دون ان تكون العوبة بيد الرجعية والاقطاع وراس المال المستغل ودون ان تكون اداة لتحقيق مآرب حزبية • كما يجب ان يكون فكر هذه الوحدة قوميا عربيا اشتراكيا اسلاميا بعيدا عن الافكار الشعوبية الحاقدة • وان تكون السلطة في دولة الوحدة للشعب بعد تخليصه من القيود والرواسب ليستطيع ممارسة حياة ديمقراطية صحيحة من الوجهة السياسية والاجتماعية •

والآن وبعد ان عرفنا شكل الوحدة الصحيح المتمثل في وحدة قوى الشعب العاملة ، أرى من الضروري ان نجيب على السؤال الآتي :ـ

لماذا تسعى الامة العربية نحو الوحدة ، وكيف تكون هذه الوحدة بشكلها العام ؟ •

من ابسط البديهيات القومية مثلا ان العرب لا يمكن ان يتحدوا مع قومية أخرى في دولة قومية واحدة • ولكن العرب جميعا تؤلف بينهم قومية ، وان أية تجزئة معناها اصطناع غير طبيعي ومخالفة لابسط الحقوق القومية ، فالامة العربية تسعى الى وحدة شاملة ، لانها امة واحدة ذات فكر واحد وهدف واحد ، وان عليها واجب تصحيح الاوضاع غير الطبيعية التي خلقها الاستعمار •

ان الوحدة أو الاتحاد قوة ، لانه يحقق تكاملا اقتصاديا وبشريا واجتماعيا وثقافيا وحركة سياسية واحدة • فالامة العربية واجهت تحديات الصهيونية والاستعمار لانها مجزءة لا تستطيع مقاومة الاعداء • ولكنها بالوحدة ستحقق الانتصارات وتطرد الصهيونية والاستعمار ، وبذلك يكون الاستقلال •

ان الموقع الجغرافي والعسكري الذى يتمتع به العالم العربي يجعله محط انظار العالم لانه يصل بين آسيا وافريقيا واوروبا ، كما ان موقعه البحري يجعله على جانب كبير من الاهمية • فلكي تلعب الامة العربية دورها في التاريخ المعاصر ، من الضروري ان تكون في دولة واحدة تضع يدها على جميع المنافذ الاساسية والمواقع الستراتيجية المهمة •

ان الثروات الاقتصادية من معدنية وحيوانية ونباتية التي يتمتع بها العالم العربي تجعل من امة العرب دولة صناعية بفضل تكامل هذه الثروات واهميتها بالنسبة لاوروبا ، فالوحدة العربية ضرورية لاقامة مجتمع صناعي وزراعي متطور يمسك بيديه عصب الحياة الصناعية في اوروبا بفضل وجود معظم الموارد النفطية واحتياطاته في العالم العربي •

وعلى هذا الاساس تكون الوحدة ضرورة قومية وحضارية وصناعية واقتصادية وسياسية ، انها قوة لكل العرب ، فيها تتجسد ارادتهم النابعة من ارادة الله وفيها يكون للعرب دورهم الخطير في التقدم البشري والسلام العالمي •

أما كيف تكون هذه الوحدة بشكلها العام ، فان الاجابة تكون مستمدة من التجربة العربية وهي انه لا يمكن للوحدة ان تتم الا بتوحيد الفكر والصف والهدف ، لان اختلاف الاقاليم في الفكر معناه عدم الالتقاء على الصعيد القومي الوحدوي • كما ان اختلاف الاهداف يشتت القوى القومية ويفرق الطرق في سيرها ، فيجعل الالتقاء صعبا ومستحيلا • والوحدة لا تقوم ولا يكتب لها البقاء والاستمرار اذا اختلفت الاقاليم في تنظيماتها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لان هذا الاختلاف في دولة الوحدة من شأنه ان يترك الفرصة أمام القوى المعادية لاستغلال عوامل التناقض وتوسيع شقة الخلاف الذي يؤدى الى القضاء على الوحدة • لذلك اكتسب مفهوم الوحدة العربية في عصرنا الحديث مفهوما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا • وكان لزاما على جميع القوى القومية ان تدرك جيدا ان تحقيق الوحدة لا يتم الا بعد تجريد القوى الرجعية من قوتها ، لان

ترك القوى المرتبطة بالاستعمار تعمل على المسرح السياسي معناه اتاحة الفرصة أمام هذه القوى وغيرها للقضاء على الوحدة • لذا أصبح من مستلزمات العمل القومي ان تتجمع القوى القومية الوحدوية في صف وفي تنظيم واحد يدعم حركة القومية العربية في تحقيق الوحدة ، ولا يدع للقوى المعادية مجالا للتسلل والعمل ضد القومية العربية العاملة الا بعد ان يتم توحيد الفكر ، لان وحدة الفكر ضرورة عملية لكل ثورة قومية تسعى نحو اقامة الوحدة • ان اختلاف الفكر واقامة التنظيم معناه ايجاد اجنحة فكرية مختلفة متصارعة ، وهذا أمر يؤدي حتما الى تفتيت وحدة الصف • ولا يمكن ان تتم الوحدة في ظل الاستعمار والرجعية والاقطاع ورأس المال المستغل ، لان هذه الوحدة ستحقق مآرب هذه القوى وتتحكم في رقاب الشعب • وبهذا يجب ان تكون الوحدة في ظل حكم ديمقراطي سليم تحققه مبادىء الاشتراكية العربية • وعلى هذا الاساس تكون الوحدة في اطارها الفكرى وحدة النظرية القومية الاشتراكية النابعة من تراث الامة وعقيدتها الاسلامية وواقع العالم العربي • وهذه الوحدة الفكرية كفيلة بتحقيق الوحدة السياسية والدستورية • وبناء على ما تقدم نضع الان الخطوات الاساسية في درب القومية لتحقيق الوحدة :

١ ـ التحرر من الاستعمار وانتزاع الاستقلال بالقوة والتضحيات•

٢ ـ تصفية العناصر الرجعية ، لانها بفعل ارتباطها بالاستعمار تحاول حكم البلاد منفذة بذلك ارادة الاسياد •

٣ ـ تصفية رأس المال المستغل وتحديد فعالياته ، لكي نضمن للفرد حريته السياسية والاجتماعية •

٤ ـ قيام التنظيمات الشعبية الوحدوية المؤمنة بالقومية والاشتراكية لصيانة مكاسب الشعب ولتجنب النكسات •

٥ ـ تحقيق وحدة الصف بتلاحم جميع القوى الثورية في الاقاليم العربية بعد تحقيق وحدة فكرية تحدد شكل النظرية القومية الاشتراكية وتخطط طريق الكفاح والبناء •

٦ ـ توحيد النظم الاقتصادية تبعا لمقتضيات النظرية القومية الاشتراكية •

٧ ـ تحقيق الوحدة الدستورية بين الاقاليم ، لان هذه الوحدة تمثل الجانب التشريعي للوحدة •

٨ ـ تحقيق الوحدة السياسية بقيام مجلس الامة العربي تبعا لكثافة السكان في الاقاليم ، لان هذا المجلس يعكس ارادة التنظيم القومي والشعب العربي وانتخاب السلطة التنفيذية للامة التي تتولى قيادة الشعب نحو تحقيق الاهداف •

الدكتور ياسين خليل

عضو وفد العراق

الأدب والاشتراكية

بقلم
مصطفى الفارسي

منذ ما يقارب من ثلاثين سنة وقف أبو القاسم الشابي على عتبة الموت يسائل نفسه والحياة التي نكبته في الكثير ممن يجب وما يجب وكان من تساؤله حيرة وكان من تلك الحيرة يأس •

نحن نمشي وحولنا هذه الاكـ ـوان تمشي ، لكن لأية غاية ؟
نحن نروي حكاية الكون للـ موت ، ولكن ماذا اختتام الرواية ؟

كان للشابي ان يتساءل وكان له ان يحتار في ان يحتار في أمر شعب انهالت عليه الكوارث والصق الاستعمار بظهره أوزارا كأثقل ما تكون الاوزار واهدر الدخيل دماء خير ابنائه في أيام نحس • كان للشابي ان يتأوه وكان له ان يصرخ ، فهو الشاعر المؤمن برسالته ، المؤمن بانحلال القيم في وطنه ما لم يرسل الله اليه بنبي من نوع جديد يوقظه من غفلته ويأخذ بيده ويسير به في طريق النور •

كنا في تونس على عهد الشابي ، كمن كان ينتظر المهدي في لهفة واشتياق ، ويبدو هذا الانتظار وذاك الاشتياق في أكثر من بيت من قصائد شاعرنا العربي المشهور • وقد ذهب الناس في تفسير هذه الابيات شتى المذاهب وقالوا فيها ما قالوا ولم يتفطن الا القليل الى ما تحتويه هذه الصرخات من أمل وايمان يتضاءل أمامها اليأس • وذلك ان الايمان مبدؤه شك وان الشك لا يقعد عن الفعل وان الفعل من شوق الانسان الى الحرية وان

الحرية هدف الانسان الاسمى وان هذا الهدف سهل المنال اذا وجد الايمان.

ومن الايمان بالفعل الى الايمان بتحقيق الاهداف عبدت الطريق الى الاشتراكية الدستورية فاذا هي هدف ووسيلة للوصل الى ذلك الهدف في آن واحد • فهي ترمي الى التخفيف من حدة الفوارق بين البشر وتقريب الشقة بينهم ، وهي في الوقت نفسه وسيلة وطريق للوصول الى الانماء والازدهار ورفع مستوى الافراد في عمل مشترك يزيدهم التحاما وانسجاما ويساعد على بعث روح التضحية والحماس والبذل في نفوسهم وهي في اعتقادنا أقرب وانجى في الظروف الحالية •

وبالنظر لوضعيتنا التونسية للوصول الى اهدافنا المنشودة باقل ما يمكن من التكاليف ، وان ما بلغته الجماهير عندنا من نضج ووعي يجعلنا في غنى عن الالتجاء الى ضروب والضغط والازدهار •

وقد طبعت هذه الطريقة الحياتية الادب التونسي ، فتكيف بها ودعا لها وعمل على تقريبها من النفوس ، فاذا الادب عندنا رسالة ودعوة واذا هو من الشعب والى الشعب يحدث بانسانيته جديدة يأبه بمترجات الطريق ما دامت أهدافه ووسائله الموصلة الى تلك الاهداف مستقيمة راسخة في القلب والعقل على السواء في الفكر والمشاهر في كل وقفه وقعود ، في انسجام أبيات القصيدة رشاقة العقد الفريد •

وما عبقرية الشابي الا في انسانية شعره وفي تلك الفلسفة الازلية التي طبعت ذلك الشعر فجعلت منه أبيات يمكن ان نرددها في كل عصر ••• في كل فترة من فترات حياتنا •

كنا نمشي بخطى متعثرة في ظلام الجهل والرجعية وحب الذات والانانية والتهافت على المناصب والمكاسب وكان المستقبل بعيدا ومن يفكر فيه قلة • وما كان يدعو الى التفكير فى المستقبل ما دام الحاضر سيبسم في وجه المحضوضين منا من أذناب الاستعمار والرجعية •

وقليل من كان يؤمن بان المستقبل للحرية وانه للاشتراكية وان الحق لمنتصر ، وان القيد لمنكسر •

كان لابد من توعية الجماهير من تعبئة عامة جارفة من سلسلة تتصل حلقاتها من بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا • وكان لابد من الكفاح ومن التضحية فدخلنا معركة التحرير بزاد كبير فكان النصر وكانت نخوة الانتصار • ولم يفتنا ان نيل الحرية يسر وان العسر في الحفاظ على الحرية وطدنا دعائم الدولة واعددنا العدة لخوض المعركة الكبرى معركة القضاء على الجهل والفقر والمرض ، معركة الانسان لاستكمال انسانيته بالعلم بالعمل الدائب بالسير الحثيث في طريق الازدهار والتقدم بالفعل الفاعل في اسمى واجل معانيه بالحركية التي لا تأتي بالاندفاع بالتحمس بالاشتراكية • فاتى الادب مساعدا للسياسة على خلق المجتمع الجديد على دحض آراء المتطرفين وأساطين الركود فى آن واحد ليتم لنا الاتزان والانسجام فتغنى الشعر بايامنا وخلدت القصة حركيتنا (وسابقت الساق الساق وتهافتت الايادى على تشييد مجتمعنا الجديد هذا •

الادب عندنا تتمة لعوامل الضغط الديموقراطي والنقابي التى دعا اليها الحزب الاشتراكي الدستورى طوال ربع قرن من الكفاح • فهو يدعو الى الحد من الثروة الفاحشة والفقر المدقع وهو يدعو الى الاقتراب فاكثر من العدالة الاجتماعية التي أصبحت هدف القرن العشرين في كل الانظمة بما فيها الرأسمالية نفسها • فأدبنا بهذه الصورة عامل في السياسة ، متفاعل معهد تعتمده ويساندها ، كل منهما يؤثر ويتأثر بالاخر اذ كلاهما وجهان لحقيقة واحدة شأنهما في ذلك شأن النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعي ، لا يمكن الفصل بينهما وجهان لحقيقة واحدة هي التطور والتوازن • كلاهما يستهدف توفير الاحتياجات ومواجهة الصعوبات التي تواجه الفرد والجماعة خلال تفاعلهم داخل الهياكل المعقدة للمجتمعات السائرة في طريق النمو •

اذا كان للادب وظيفته ، فوظيفته شوق الى الخلق الى البناء الى التجديد الى الاصلاح وكم من فسادورثناه عن العهد البائد يحفزنا للعمل ويدعونا الى التكاتف والاشتراك •

عصرنا عصر تخطيط واقناع وادبنا من وحي ذاك التخطيط يحاول

اقناع البشر بضرورة تبديل ما بانفسهم ليبدل الله ما بهم • الثقافة عندنا معركة انصهرت فيها ارادة المثقفين في وحدة النضال التاريخي ووحدة الذود عن الحرية يدعم أسس الدولة عن طريق الاشتراكية ولبناء مجتمع أفضل ، فنحن نجد القوى الشعبية الحية عن طريق المكلمة المنفعلة بحياة البشر وآلامهم وآمالهم ذلك ، لاننا نعتقد ان المجتمع ليس مجموعة أفراد موضوع أحدهم بجانب الاخر كجنود بين أصابع الاطفال والسفهاء ، بل ان المجتمع شكل من العلاقات الاجتماعية التي تربط الافراد في أرض معينة فتخضعهم لحياة معينة ومصير واحد ، فهم محكوم عليه بالاشتراكية في تلك الحياة وذاك المصير مرغمون على التمتع بالحرية التي ينشدها البشر بطبيعتهم على صعيد واحد يتساوى فيه الفرد بالفرد كما يتساوى ركاب الطائرة في مسيرتهم من تونس الخضراء الى بغداد الخالدة • وعبثا يحاول البعض اقناعي بان مصير ركاب الرتبة الاولى غير مصير الرتبة الثانية فهم في السماء متساوون في السراء والضراء مقيد مصير الواحد بمصير الاخر في مركبتهم الفضائية الى حين •

فحاضر الناس وواقعهم المعاشي هو ذاك الشكل من العلاقات الاجتماعية الذى اشرنا اليه وهو مصيرهم المشترك الذى هم مرغمون على ان يقرأوا له الف حساب • وهو المستقبل المرتبط بحاضر البشر وارتباطا مطلقا احبوا ذلك أم كرهوه ، فما من ثانية تمر الا وتقربنا من المستقبل الذى نحن مسؤولين عنه وما من أدب يمثل المجتمع تمثيلا صادقا الا وقد اتسع ليمثل صور الحاضر والمستقبل حاضر يعمل الاديب على ابقائه ومستقبل يعد العدة له ليكتمل نموه وتزداد قوته ومن ذلك انعكاس لعملية التطور التي لا تقف •

ويلاحظ ذلك في أدب ما بعد الاستقلال ، فهو أكثر طواعية واوسع شمولا لمحتوى المجتمع الجديد ، وما التجديد فيه الا نتيجة حتمية لتغير الواقع الاجتماعي ولبروز مفاهيم جديدة لحياة البشر ومصير البشر •

وليس في عزمي ان اتبع تطور المجتمع التونسي ودراسة أدبه في

هذه الكلمة القصيرة ولو شئت ان أحلل كل هذه الظواهر لما قدرت ، اذ لست ممن يرى الاكثار في المحاضرات رأيا ولا القيم بها أحسن الوسائل لنشر المعرفة واحتكاك الآراء • والغاية هنا ان تناقش في بعض المفاهيم الجوهرية وقلما تأتي المحاضرات بفائدة ذات بال ان لم تراجع فتسمع أو تطبع فتقرأ • ان المحاضرات في كثير من الاحيان مضجرة تضجر المحاضر والمستمع اليه • وما أخال اننا جئنا الى بغداد للاستماع الى المحاضرات ، واملي ان يقوم في مكانها مناقشات ومجادلات حول مواضيع معينة تفيد الكل ، ونحن كل مشاكلنا واحدة واهدافنا واحدة ، فما تونس الا اصبع من تلك اليد الممتدة الى الخيروالاسعاد والاصلاح وان تباينت الاشكال وتناءت الاقطار واختلفت وسائلنا في الوصول الى نفس الغاية وهي النهوض بشعبنا العربي باقلامنا بافئدتنا بعقولنا ومواكبة التطور للالتحاق بركب الشعوب المتقدمة •

فبقدر ما كان الوعي في البلاد العربية متفاوتا في قوته واصالته ومتانة نفسه يعكس الظروف الاجتماعية السائدة ومقدار تهيئها للانتفاضة ضد الاوضاع الفاسدة كان الادب في بلادنا متفاوتا في القيمة والوجود والاصالة بعكس ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والانسانية بصورة ومقدار التزامنا وثبتنا الفكرية ضد الركود والجمود • فكلنا يفهم الدور التاريخي المعد له ويقدر مسؤولياته أمام ضميره وشعبه ووطنه • وكل ما اتمناه ان يصلكم انتاجنا كما وصلنا انتاجكم وان تطلعوا عليه وتراجعوه كما نطلع ونراجع وان تحفظوا من اسماء قادة الفكر عندنا ما حفظنا نحن من اسماء متقدميكم والمحدثين • فبذلك وبذلك فقط يكون لهذه الملتقيات معنى ويتم النفع وتعم الفائدة • لقد برز وجه مصر في كتابات طه حسين وتوفيق الحكيم وابراهيم المازني وهيكل وابي شادى وشوقي وحافظ ومئات من الشباب المناضل في الادب وبرز في العراق الرصافي والزهاوي والجواهري وغيرهم كثير ، فهل تعلمون ان وجه تونس برز في كتابات الحداد والدوعاجي واحمد خيرالدين والزروقي والريسي المطوى ومحمود المسعدى وفي اشعار الشابي

وكرباني والنقاش والطاهري بن عاشور ومصطفى بن عاشـــور ومصطفى خريف وغير هؤلاء ممن نعرف وتجهلون • ولامجال هنا لتبسيط ما عافكم في ابلاغ هـــذه الرسالات الانسانية اليـكم فذلـك من صنع الماضـــي ومستقبلنا شاء الله للتعارف والتفاتح والمـكالمة • وانما يؤلمني تباعـــد الاقطار رغم الـكتب السيارة والطائرات النفاثة والاذاعة والتلفزيون •••

مصطفى الفارسي
عضو وفـد تونس

الأدب والوحدة العربية

بقلم

الدكتورة سهير القلماوي

لم ير العرب في آل عثمان يوم جاؤا مدافعين عن بيت المقدس الا انهم مثلهم مسلمون • فلم يحاولوا أن يقاوموا حكمهم الا يوم انحرفوا عن الاسلام فاستبدوا وبطشوا وتعالوا بطورانيتهم وتركوا بلاد المسلمين نهبا لقوى الاستعمار الغازية • لذلك كانت أول مقاومة لاستبداد الترك وفساد حكمهم باسم الاسلام على يد الوهابيين في القرن الثامن عشر • وكان العرب يحسون عروبتهم واسلامهم في آن متمازجين مختلطين حتى أنه لما جاء ابراهيم بن محمد على أوائل القرن الماضي ليوحد بين مصر وسوريا ويناهض الوهابيين لم يستطع أن يحرز نصرا الا يوم أكد للعرب أنه عربي مثلهم •

وتداخل التعلق الديني فى مفهوم العروبة وعسر ميلاد القومية العربية قرنا أو يزيد • لقد كان العثمانيون الدولة المسلمة الوحيدة بين ثماني عشرة دولة مسيحية في أوربا • وبدأوا في اخر ايامهم يحاربون الروس والبلقان والطليان • وحاولوا أن يحملوا الامبراطورية من تسلل الانجليز أو الفرنسيين ولكن فرنسا تضع رجلها في مصر ثم تنزح لتثبيت نفسها في الجزائر ثم تتدخل باسم حماية استقلال لبنان فتفرده وتوطد انجلترا اقدامها حربيا في مصر بعد ثورة عرابي وتتسلل الى العراق والى الجنوب العربي • وما تكاد تذر الحرب العالمية الاولى التي أطاحت بامبراطورية آل عثمان تظهر حتى وقع العالم العربي كله نهبا لتسللات الاستعمار باسم الحماية والوصاية والانتداب وما شاء الاستعمار من اسماء • وهكذا دخل

آل عثمان أرض العـــرب فاحالوها بلادا متخلفة فريســـة للمستعمرين وجيوشهم •

وابان هــذا التحول وفي أواخره خاصة تنبه العـــرب على الخطر المحيق بهم فبدأوا عملية التجمع • وتنبه العثمـانيون في الوقت نفسه الى الخطر المحيق بهم فحاولوا تجميع المسلمين • واختلط الامـــر في الثلث الاخير من القرن الماضي في المجال الفكري والعقائدي وأحيطت القوميـــة العربية بضباب كثيف غذته الاحداث فازداد قتاما •

تجمع العرب وظلم آل عثمان وتعاليهم وموجات التتريك تغذي هــذا التجمع ولا تفرق فيه بين مســـلم وغير مسلم ولكن تجمع العـــرب ايضا والعثمانيون يخوضون حروبا عثمانية ضد نصارى أوربا سموها حروبا دينية •

فاذا كثير من العرب يحبون آل عثمان ويكرهون • يسخطون عيهم ويميلون اليهم يرون الظلم والاستبداد فينادون بالانفصال ثائرين ثم يرون تحديات الغرب المستعمر فتخف حدة الثورة ، وتؤجل الى حين الرغبة في الانفصال • وتكثر حـــروب تركيا حتى أن أول جمعيـــة تألفت للمناداة بالانفصال عن تركيا اشترطت الا يحارب العـــرب الا في بلادهم • ولكن الحوادث تترى واوضاع البلاد العربية تختلف من حيث الصلة بالحكومـة المركزية في الاستانة فاذا الادب يعكس هذا الخضم المتشابك من الاحداث في صور شتى •

وكان الادب والشعر خاصة أصدق رؤية وأوضح نظرة من حيث مايجمع العرب ويجعلهم أمة فريدة هي خير أمة اخرجت للناس خيرها في أنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أي أن خيرها مستمد من قدرتهـا على السلوك المثالي • لذلك اصطفاها الله فاختار منها خاتم النبيين وخـير المرسلين بل اصطفى لغتها فجعلها وسيلة التعبير عن الوحي المنزل • ولكن القدرة على التفتح للغير التي كانت مصدر قوة للعرب طوال تاريخهم والتي منها دخل المسلمون من غير العرب حاكمين في أرضهم تتدخــــل في علاقة العرب بآل عثمان فتضعف من شأنهم اذ تطيل عمر تعلق العرب بالعثمانيين وتمد في رجاء أن يحققوا مصالحهم معهم وبهم ولا يخيب الظن الا بعـــد

تجارب طويلة عديدة مريرة •

وصور الأدب تعلق مصر بالدولة العثمانية مع الاعتراف بالوحدة العربية بل مع التعلق بالوطنية والاقليمية • لقد نادى عمر مكرم بالانفصال عن تركيا فلم تجد دعوته قبولا ولكن عرابي لما نادى بالجمهورية المصرية في ظل الدولة العثمانية ناصره الشعب كله في قوة اسطورية وتشبث خيالي • ونادى عرابي ومصطفى كامل بحق المصريين في أن يحكموا انفسهم ولكن فى ظل آل عثمان ، فتغنى شعراء مصر هذا الوجه من الوطنية والعروبة لأنهم لم يعانوا استبداد الترك لانفصالهم عن الامبراطورية عملا ولم يكن يقويهم في حربهم جحافل المستعمرين الا شعورهم الديني الذي يربطهم بآل عثمان رباطا وثيقا•لذلك لم يرث العثمانيين من الشعراء احد قدر ما رثاهم شعراء مصر •

اما الشام الكبير واما العراق فقد أحس استبداد الترك وفوضى حكمهم وتمييزهم العنصري والعقائدي ومن هنا نبتت بذور الادب القومي المستقل عن الترك والدين في الشام صافية خالصة وان كانت ابان ظروف معينة نراها تتحد مع مصر في خلط القومية بالولاء الديني او شبه الديني لآل عثمان • وكان دخول فرنسا لتأكيد الكيان اللبناني وحمايته تعد حرب الستين ١٨٦٠ أول خطوة دامت لفصل بلد عربي عن سلطان آل عثمان تحت راية اجنبية وكان دخول الجيش الانكليزي مصر سنة ١٨٨٢ لتأييد البيت المالك ثاني فصل استعماري لقطر من الاقطار العربية عن الامبراطورية • وكان الاستعمار الفرنسي قد حل في الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ ولكن المغرب العربي لم يكن يعاني من حكم آل عثمان بقدر ما كان يعاني من فوضى الحال وعدم وجود حكومة فعلية • وعانى الادب القومي من عمليات البتر تلك زمانا ولون الوضع صوره بالوان دخيلة ولم يقو الادب القومي فى هذه البلاد الا بعد أن زحفت موجات التحرير وخف التغني بالكيانات المستقلة • ولئن ظلت وثائق السياسة تنطق بآثار الكيانات المستقلة حتى أن ميثاق جامعة الدول يعترف باستقلال الاجزاء ، فان الادب استطاع فى سرعة أن يثور على هذه النغمات ويخفتها في تياره القوي الجارف • وهذا لا ينفي

وجود شذوذ للقاعدة ولكن موجة التحرر ومــوجة الالتقاء على طريق الوحدة وخاصة بعد ثورة مصر وتحرير الجزائر قضت على هذه النعرات وعلى غيرها ، وبين الانتصار على التفكك انتصار العروبــة على الكيانات والطائفية والاقليمية وغيرها وبين الميلاد المضبب في النصف الثاني من القرن الماضي نجد تراثا ضخما للادب يرسم الخطوات واحدة واحدة ، ويقف بمقومات الوحدة يدفعها ويقويها ويقوي العرب بها •

ولقد ألف الذين كتبوا في هذا الموضوع أن يقفوا مع هــذا التراث الادبي القومي حادثا حادثا في تاريخه يعدونه ويستعرضون ما الف مــن أدب حوله •• منذ تأليف الجمعيات السرية لمقاومة الاستبداد العثماني وقد توج شعار أول جمعية بابيات ابراهيم اليازجي المعروفة الى ان انتهى العرب من تحديد معركتهم مع الاستعمار وخوض غمار اهم خطواتها في انتصار • ولكن تقسيم هذه الفترة الى مرحلتين مرحلة آل عثمان ومرحلة الاستعمار لم يحظ باكثر من الاعتراف به كتقسيم لمرحلة تاريخية •

ولكن مرحلة الادب القومي في مقاومة آل عثمان وابان الحرب العالمية الاولى تتسم بخصائص فنية وموضوعية واضحة بينما مرحلة الادب القومي في مقاومة الاستعمار منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى الى فجــر التحرير والوحدة تمتاز بدورها بخصائص أخرى فنية وموضوعية مغايرة •

وسنقف ببعض هذه الخصائص لاننا لا نملك في هذه العجالة أكثر من مجرد الوقوف وبالبعض • ففي مرحلة الثورة على العثمانيين نجــد موضوعات بعينها تسيطر على الشعر خاصة هي بمثابة ارتياد الطريق نحو تحديد مقومات القومية لتكون سبيل وحدة وتجمع • فالعرب يتكلمون لغة واحدة هي أقوى رباط فهي تتعرض لمحنة فيزداد التعلق بها لانها لغة ولا كاللغات لها قداسة ولها تاريخ • بل ان للعرب ايضا تاريخا ويقف مع اللغة هذا المقوم الاخر على استحياء وفي عموم اول الامر • انه ارث مشترك وهو مما يفخر به الجميع بل هو مما يحفز على الثورة ويأبى الضيم والذل •

وضروري أن يتحد المسلمون وغير المسلمين لانهم في ظلم آل عثمان اخــوة •

ان فرق الايمان بين جموعنـا فلساننا العربـي خير موحد •

ويقول الوليد بن طعمة في مهاجره :

عيسى واحمد بلواهما اعتنقـا والناطقون بحرف الضاد اخـوان

ويقول غيره :

اتباع أحمـد والمسيح هـوادة ما العهد ان يتنكـر الاخـوان
مهما يكن من فارق فكلاكـما ينمى الى قحطـان أو عدنـان

ولو تتبعنا الشعر الذي قيل في الدفة العربية على انهـا الرباط الاول والاسمى والاقوى في القومية العربية لوجدنا هذا الموضوع يعـكس بدوره ما هو به من أحداث حتى الاستعمار الغربي السافر • ففي محـاولة الترك تتريك البلاد بتتريك الدواوين والمدارس واهمال أو منع تدريس اللغة العربية وفي محاولة الاستعمار أن تحل لغته محل لغة البلاد يقف الشعر موقفا صلدا ضاغطا على عظمة اللغة وجمالها وتفردها من بين سائر اللغات • لغة القرآن الكريم ولغة امة حية أكثر من ستة عشر قرنا وفي حياتها الطويلة يتداولهـا التعبير الادبي فيزيد جمالها ويثري من طاقاتها ، يقول شوقي :

ان الذي مـلأ اللغـات محاسنا جعل الجمـال وسـره في الضاد

ويقول بدوي الجبل :

كل الربوع ربوع العرب لي وطن ما بين مبتعـد منهـا ومقتـرب
للضاد ترجع انساب مفرقـة فالضـاد أفضـل أم بـرة وأب
تفنى العصور وتبقى الضاد خـالدة شجى بحلـق غريب الدار مغتصب

ويقول غنيم :

وما وحـد الجمـع مثل اللسـان ولا اتحـد الجمـع الا غـلب
اذا اتحـد الفكـر في معشـر تجمع من شـمله ما انشعب
قد انتظمت امم الضـاد طـرا فكانت كعقـد وكانوا كحـب
فـذا كاتب من اعالي الفـرات وذا من دمشق وذا من حلب

ويقول شفيق جبري :

تضمنا لغة لم يمـح رونقهـا زحف السنين بآلام وأشـجان

لولا قواف بوادي النيل ننشدها في غوطة الشام او في ارز لبنان
لقطعت بيننا الاوهام واضطربت بنا الوساوس في وصل وهجران

بل انه قيل لسعد يوم تزعم مصر :

امدد يديك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلهم

ولما تعرضت اللغة لحملات الاستعمار قال حافظ ابراهيم قصيدته المعروفة :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي

وهكذا يرسم الشعر لهذا المقوم الاول في القومية العربية تاريخا طويلا هو قصة انتصار العرب في معركة التتريك وافناء الاستعمار لشخصية العرب.

ولكن مرحلة الاستبداد التركي تضغط على موضوعات أخرى غير اللغة والتاريخ فتقارن بين العرب والترك في الحضارة وتشيد بالاحداث الجارية على اختلافها وتقف من استبداد الترك مواقف أكثرها ضعيف بسبب تعلق ما يزال بالترك المسلمين .

فانتصار اليابان على الروس يرى على أنه نصر على اعداء تركيا من جهة وعلى أنه أيضا أمل فى نصرة الضعيف على القوى اى في انتصار على تركيا نفسها . فاذا الشعر يمجد اليابان في قوة لا يبررها الحادث نفسه ويقفز الاجتماع بالفرحة بنصر اليابان ليضخم الموضوع الى ما يجاوز حقيقته بكثير . ويأتي اعلان الدستور العثمانى بعد ذلك بأربع سنوات ١٩٠٨ مسويا بين الترك والعرب فيهلل له الشعراء والأدباء لانه يحفظ كرامتهم ويؤاخي بينهم وبين الترك .

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا

ولم يبق شاعر معروف أو غير معروف لم يهلل للدستور في مصر والشام والعراق وكأنما أعلانه قد انقذ الحيارى واوجد الحل الذى يجنبهم اراقة الدماء . ولكن سرعان ما يتنكر حزب الاتحاد فاذا الثورة أشد وأقوى.

وهنا مرحلة الشعر المستنفر الذى يحض على ثورة ويدعو الى جهاد الاتراك . ويتجلى الشعر القومي فى اجلى صورة شعر ينضح بالعواطف الجياشة وبالاباء والعزة العربية ويرسم التاريخ في أبهى صورة وكأنما هو

يقول هذا تاريخكم ايها العرب فكيف ترضون الذل من بعـــد ، ويساهم الكتاب كالكواكبي في أم القرى وطبائع الاستبداد في هذا التيار ، ويدفق أدب الاصلاح الديني من جديد ويسهم في توضيح وجوب الثورة • وما تكاد تركيا تقف في الحرب مع الالمان حتى ينقطع آخر خيط يربطها بالوجدان العربي • لم تعد حربها للذود عن الاسلام وانما هي حروب مصالح وامبراطوريات فلا بد للعرب من أن يستقلوا • وتأتي حادثة ضحايا الطغيان التركي شهداء العروبة على يد السفاح جمال باشا الذين شنقوا في ساحة دمشق وساحة بيروت فاذا لهيب يتفجر في رثائهم ويمتلىء الشعر ثورة عـــارمة • وتأتي ثورة الحسين لتلهم الشعراء بدورها ثورة عربية لهذا ابن النبي يقود آمال العرب الى الاستقلال ويلتقى الساخطون على آل عثمان مـــع الذين كانوا يتعلقون بهم في تيار واحد لا يشذ عنهم الا قلة قليلة يعود بعضها فيما بعد الى التيار العام•وتحيا في الشعر صور عربية قديمة وفي الثورة آمال دينية ودنيوية تتحقق ثم يأتي خلف الوعد والخيانة والغدر وفي شعر يقدس اهله الوفاء بالعهد يجد الشعراء خضما من المعاني والاخيلة والصور ويؤلف كل هذا ديوان شعر حول الحسين يؤكد الطابع العربي القديم ويرسم صورة قديمة قد لونتها العواطف العربية بالوان حديثة من الرومانسية •

وبثورة الحسين تنتهي الفترة الاولى لهذا الشعر وأهم خصائصها الى جانب لصوقها بالموضوعات الحية انها استطاعت في جزالة عربية وبمزيج من غنائية العرب ورومانسية الغرب ان تجمع القوم حول فكرة الكيان الواحد وان تلهب الشعور والوجدان حول مميزات هذا الكيان ووجوب الثورة من أجل استرداد العرب لمكانتهم • انها في تاريخ القومية العربية تمثل حركة استطاعت أن تستنفر الناس وان تثور على ظلم آل عثمان وان ترد عـلى تعصبهم بتعصب أقوى واسمى وان تحافظ على كيان الامة بالمحافظة على لغتها ودينها وتراثها وان تستنقذ من العبودية عزمها لتنطلق بآمالها •

وما تكاد الامة العربية تستبدل آل عثمان بالاســـتعمار الغربي حتى يتدفق الشعور في تيار جارف واضح لا شبهة فيه ولا مهادنة • واخذ الادب يعلو فوق التقسيمات الجغرافية التي اصطنعها الاستعمار ليتعانق العرب في كل مكان حول أدبهم وشعرهم خاصة • فما تكاد تحدث ثورة هنا أو هناك

الا الهبت حماس الناطقين بالضاد وبدأت الدائرة العربية تفتح لتضم العرب في شمال أفريقيا عبر مصر بل أصبح أدب المهجرين الشمالي والجنوبي جزءا لا يتجزأ من أدب الامة العربية الحديثة ترن أصداء احداث الامة عبر المحيط لتنطق الياس فرحات وسليم الخوري وزكي قنصل وابو الفضل الوليد في الجنوب وايليا ابو ماضي ورشيد ايوب وجبران ونعيمة في الشمال . وفي سان باولو مثلا يقيم العرب لكل حادثة اجتماعا وسوق شعر يقيمون حفل تأبين لسعد زغلول وفي مناسبات النكبة والجزائرية والسويس والوحدة بل يقيمون اخيرا حفلا ابتهاجا بنصرة اليمن يقول فيها الياس فرحات :

تعالى زئير اسود اليمن فرج السفوح وهز القنن

الامة العربية من الخليج الى المحيط ليكون ديوانا واحدا وأدبا واحدا .

وبرزت في هذه الفترة الكيانات الداخلية وحاول الاستعمار أن يشجعها لتكون عامل فرقة بين العرب . فنيقية لبنان وفرعونية مصر وبابلية العراق تطفو على السطح وتلهم الشعراء قصائد ودواوين أحيانا ولكن ماتكاد مؤامرات الصهيونية تتخذ شكلا منذرا باخطارها قبيل الحرب العالمية الثانية حتى تخف كل هذه النعرات الطائفية لتختفي حينا ثم تظهر بعد التحرير وقد ذابت في الكيان العربي الموحد تقوية وتثبت اركانه .

وما تكاد النكبة الفلسطينية تقع حتى يبدأ الادب مرحلته الجديدة المغايرة للمراحل السابقة ففيها الرؤية الواضحة المحددة التي تؤكد حدود العروبة من الخليج الى المحيط امة واحدة وجسدا واحدا . ويخفت التيار الرومانسي ازاء الاستعمار الذي ظهر في الثورات الاولى منذ ثورة مصر ١٩١٩ الى أن وضح الامر امام نكبة فلسطين . ان الاستعمار ماكان يمكن أن تثبت له قدم في أرض الامة العربية الا لان حكم العثمانية قد خلفها منهوكة مفككة . فسرعان ما استطاع الاستعمار ان يجد أعوانا من الحكام فتحالف الاستعمار والحكام على محاربة التيار القومي . ودقت اجراس الخطر رهيبة حزينة في مأساة الارض السليبة . ولئن تكن الاسكندرونة التي بكاها الشاعر الحلبي سليمان العيسى في أكثر من قصيدة لم تحرك شعراء العروبة قاطبة فان مأساة فلسطين السليبة قد كشفت عن العيون الغطاء

واذا مسرحية لم تتم فصولا ، زاخرة بالموضوعات والمواقف تبهر الشعراء فيخرج فيض يواكب النكبة فصلا فصلا • يخرج شعر ابراهيم طوقان عاطفيا حزينا مستنفرا للجهاد عارضا صورة الحكام الدجالين مصورا الفدائيين باكيا انه ليس منهم • ووسط هذا الشعر وغيره تتجه الثورة العاطفية الى الواقع لترسم صورة هذا الوطن الذي يتحرق الشاعر شوقا الى العودة اليه • ويأتي عبدالرحيم محمود من طبقات الشعب الدنيا ليستشهد بعد أن يقول :

سأحمل روحي على راحتي والقي بها في مهاوى الردى
فاما حياة تسر الصديق واما مماة يغيظ العدا

وابو سلمى صاحب القصيدة المعروفة :

ايه ملوك العرب لا كنتم ملوكا في الوجود

والتي يذكر فيها ملوك العرب ملكا ملكا ويفضح موقفهم في حرب فلسطين :

قالوا الملوك وانهم لا يملكون سوى الهيد

ويقول خليل زقطان في نفس المعنى :

جيوش السبعة الاصفار كل **تراجع حاملا غار القيود**

وانجلت المعركة عن وضوح بُعْد جديد للمعركة واضح محدد حكام خائنون • ولكنها انجلت ايضا عن لاجئين بؤسهم يبرع يوسف الخطيب في وصفه وحنينهم الى أرضهم تبرع فدوى طوقان في تصويره وتطلعهم الى الثأر والعودة يصفه هارون وعلي هاشم رشيد وغيرهما في كل قطر عربي •

ومن النكبة يتفجر الشعر الواقعي الجديد يحكي القصة السودا • وهذه ابيات الخطاب وقد أدركته النكبة وهو ابن سبعة عشر عاما :

انا مشعل انا مارد جبار لا الريح تخمدني ولا الاعصار
لو شئت جمعت النجوم مشاعلا ودفقت منها الموت حين اثار

ثم يعود فيرى حاله ويثور :

يا انا يا سلعة هينة للمشترين
يا انا يا قدحا في سهرات المترفين
يا انا يا شمعة تحرق ليل الكادحين

في ضلوعي اي اعصار من الحقد دفين

حتى يسرف فيقول :

أصلى ؟ لمـــن تكون صـــلاتي   لاجيء ليس لي هشـــيم حيـــاة

ليس لـــي شـــفرة تضم رفاتي

ويرد عليه شاعر القاهرة محمد بدرالدين :

هي نكبتي فالقدس كانت قبلتـــي   ان لم أكن فيها ففيهـــا أمـــتي

واللاجئون من الضحايا اخـــوتي   يوما سأكتب في ثراهـــا قصـــتي

بدمي وانسف قيدها بعزيمتـــي

فاذا صرعت اخـــي فوسدني هناك   انا من هنا لكن روحي مـــن هناك

ويرى الاديب العربي في وهج لهيب المعركة قضية الالتزام في الادب واذاكل شاعر يسهم في تصوير المعركة حتى شعراء الغزل الرقيقين حتى نزار قباني يكتب للصغار قصة راشيل تاجر الاعراض وكيف حلت محل امـه واخته الشهيدتين في عزة المؤمنين وكرامة للعرب •

وفي هذا الضوء يرى العرب أسباب التخلف ويرون العدل الاسلامي في ثوب عصري جديد • وتبدأ نداءات الثورة على النظام الطبقي تفتـح العيون على ركائز الاستعمار وفساد الحكام وبؤس الفقراء وتعطيل طاقات الشعب تحت وطأة الامتيازات الطبقية • واذا نعمة الاصلاح عند الشـعراء القدامى مثل حافظ ابراهيم والزهاوي تأخذ عند شعرائها بعد النكبة أمثال بحر العلوم والجواهري والراوي لونا داميا حاقدا ثائرا حتى يخرج الشعر عن اطار الدين واطار القومية العربية •

وحول النكبة يبدأ القصص الملتزم قصص تصور النكبة وهولهـــا وأخرى تصور البطولات ويؤلف عيسى الناعوري طريق الشوك وعائد من الميدان ويؤلف أمين فارس ملحس وحليم بركات وبديـع حقـي وجبـرا ابراهيم جبرا وسميرة عزام وغيرهم كثيرون وفي مجموعات قصصهم اطوار المأساة رثاء وبكاء واستفازا وهولا ونذيرا وتطلعا واخيرا ثورة على تجميد الوقف ثورة على الاعالة والاغاثة والخيام والتشريد • وفي مجموعةسميرة عزام الاخيرة الانسان والساعة قصة « لأنه يحبهم » قصة عن نسفمخازن الدقيق لانها تنيم القضية •

وتأتي ثورة مصر مبشرة بفجر وتأتي حرب السويس لتقـــوي تيار الواقعية • ان العرب قد تضافروا فعلا وكسبوا حربا مع الاستعمار وقـال الزعيم العربي جمال للمستعمر « لا » مجلجلة قوية وانتصر العرب وجاء بعد النصر انتصارات الاخوة في الجزائر استقلوا واذا بلد المليون ونصف مليون شهيد تبرز في الشعر والادب لتصور البطولات بطولات الشعب بطولة جميلة التي تغنى بها الشعر في مصر والشام والعراق والف الادباء حولهـا شعرا ونثرا ومسرحا واوبرا • ولكن أروع ما نقرأ في حرب الجزائر صورة مأساة الشعب الذي تحالفت قوى الاستعمار قرنا ونصف قرن على ابادة شخصيته كما يصورها الجزائريون انفسهم بالفرنسية ، باللغة التى يعانون منها مأساة الغربة كما يصفها شاعرهم مالك حداد • ان للجزائريين تجربة فريدة وصورتها من الرافد التي يجب أن تغذى القومية العربية لتشحذ الهمم نحو تحقيق كيان الامة العربية متوحدا قويا حتي تنتهي هذه الصـور البائسة المريرة الذليلة للانسان العربي • هذا محمد ديب يصف الذين نزع الاستعمار منهم ارضهم في ريف تلمسان وتركهم دون عمل نهب الفقروهم يزحفون الى المدينة •

« لم يعد اي حائل يحول دون زحفهم المتلاحق الذي أوصل جحافلهم الى الاحياء النظيفة الاسواق التجارية واقسام المدينة الشريفة حيث بيوت الاوروبيين التي تعكس انوارها في الليل الحياة الهانئة • يهيمون دون هدف وكثر عدد الموتى بينهم • كم من مسكين لفظ نفسه الاخير دون دمدمـة وكان الموت يفاجيء بعضهم وهو يزحف دون وعي نحو مخبأ مجهول ثم يغيبون عن الانظار • ان هؤلاء الناس كانوا يودعون الدنيا في تحشم مثالي وكأنهم بذلك يعتذرون عن موتهم » •

ويصور ادريس الشرايبي بؤس العمال الجزائريين في مصانع فرنسا كالعبيد في رواية « التيوس » ويصور مولود المامرى بؤس الشباب الذى يساق الى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل لتسمن فرنسا • ويصيح الشاب انا جزائري ولكن الجزائر كلها سجن كبير رهيب • وكاتب ياسين ومالك الوادى ومولود فرعون ومالك حداد لنقد صور كل هؤلاء المأساة العربية المشتركة مأساة الاستنزاف الاستعمارى لطاقات العرب وشن حرب الابادة

عليهم وتحالف الاستعمار مع الطغاة والرجعيين للقضاء على عروبة الشعب العربي حتى بات الجزائرى يسأل ما الوطن ؟ وما لغتي ؟

وما تكاد الجزائر تتحرر حتى تمد يدها الى العرب لتسير مع اخوتها في الركب الصاعد نحو الوحدة •

ويوحد العرب سياستهم الخارجية في الحياد الايجابي وعدم الانحياز وتتحرر اليمن بفضل المبادرة بالمساعدة التي تأتيها في سرعة وفي سخاء وتدخل الامة العربية بذلك طورا يأخذ من تجربة الوحدة وانفصالها درس ضرورة التخطيط • وفي السنوات الست التي مضت زخرت المكتبة العربية بروافد ضخمة من الدراسات المفصلة سياسية واقتصادية كلها تكشف عن وجه الاستعمار في وضوح • ان الاستعمار ما يزال يلعب ادورا خطرة في الخليج وفي الجنوب ، وما يزال يلعب دورا خطرا في السياسة وفي الاقتصاد اذا ما عجز على لعب دوره حربيا • وكل هذه الدراسات تفتح أمام الادباء آفاقا على الحقيقة الكبرى حقيقة الامة العربية التي كانت وستظل ابدا امة واحدة تجاهد لتحرير كل شبر من ارضها وفي الوقت نفسه تجاهد لتبني في سنوات وتمحو ما فرضه عليها الاستعمار من تخلف عشرات السنين •

ويتطلع الادباء الى هذه الآفاق الواسعة الى دور الامة الواحدة وقد اطلقت طاقاتها الحرة لتؤدي مرة أخرى رسالتها الفريدة في تقدم الانسانية فيؤلفون بوحي من هذا شعرا ونثرا ولكن هذه الآفاق لا تشغلها عن تصوير الواقع القريب • لهذا الاتجاه الواقعي الذى فرضته النكبة ما يزال سائدا يصور الواقع الداخلي لكل قطر ويحدد مراحل البناء ويركز بطبيعة الحال على هذا الفرد العربي اينما يكون على الارض العربية ليعرف ماذا هو والى اين يسير • لقد فتح الفرد العربي نوافذ الثقافة كلها وعلى مصراعيها وراح ينهل بينهم من قد حرم طويلا فأحس كيانه احساسا جديدا ويرى في نفسه صفات الانسان العربي القديم بكل ما فيها من طاقة وقوة مذكرة اياه باجداده الذين فتحوا ليعمروا ولينشروا السلم والامن والحضارة والرخاء وفتحوا قلوبهم وعقولهم للانسانية كلها دون تعصب أو تحزب ليبلغوا أقدس رسالة وليحيوا وليحيا معهم الجميع دون تمييز أرفع المثل الانسانية واسماها •

الدكتورة سهير القلماوي

عضو وفد المتحدة

ادب الوحدة

بقلم

فؤاد الشايب

دعوة الى البحث[1]

يجب عليّ القول في مستهل الكلام ، ان الموضوع المقترح للبحث ، أمام المؤتمر الخامس للادباء العرب ، تحت عنوان (الادب والوحـــدة) ، لا يمكن ان يستوفى بمحاضرة أو حديث ، ضـمن تقاليد المحاضرات والاحاديث المعهودة ، مهما بذل واضعو العنوان من مجهود توضيحي ، لتقسيم العنوان الى فروع ، يبقى الواحد منها ملازما للاخر ، لا ينفع معه تقسيم وتفريع • وأولى بي ان اسارع الى الايضـــاح بانني عندما اخترت الموضوع ، عزمت على ان يكون سهمي فيه ، دعوة الى البحث ، لا بحثا ، ولا محاولة لا معالجة • ولعل هذا ، يصلح مدخـــلا للتعرف الى جلال الموضوع وقدره •

وعندما مضيت في التخطيط لهذه المحاولة ادركت انني في جانب النقد ، أكثر ما أكون في جانب العرض • وان البحث لجدير بان يتجه نحـــو : (كيف يجب أن يكون أدب الوحدة) بدلا من ان يكون (كيف كان الادب في الوحدة) • وان يكن لابد للباحث من ان يجيب عن السؤال الثاني ، ليتيسر له بالحق ، أن يعالج السؤال الاول ـ فلابد في الوقت نفسه ، أن نبادر الى طرح سؤال طالما فرضه الاجانب ، من زائرين وباحثين ، ورجال أدب ، واصحاب فضول : (ماذا لديكم من أدب الوحـــدة ؟!) وماذا تنصحون لنا أن لنا أن نقرأ ، لنفهم حقيقة الوحـــدة اجتماعيا ، وثقافيا واقتصاديا ، وبشريا ••• ماذا اعددتم وماذا يجب ان تعدوا • الخ ••

---

(١) قدم لمؤتمر الادباء العرب الخامس المنعقد ، في بغداد شباط ـ ١٩٦٥•

وفي كل مرة ، كنا نجيب عن الاسئلة بالصمت أو كانت أجوبتنا مثارا لاسئلة ، تضاف الى اسئلة .

وغالبا ما يعني الاوروبي بكلمة أدب ، في موضوع ما ، كل ما هو مطبوع من علم فيه واعلام ، فلا يقصر لفظ الادب على الشعر والنثر الفني ، مادة لعلمه وتعليمه . وعندما أشرت مرة على مستشرق اوروبي ، هو بالواقع شاب طالب استشراق ، بقراءة مجموعة من كتب في الشعر القومي ، أعرض عن اشارتي ، بقول الخصه مع الحوار فيه بما يلي :

١ ـ الا تزالون في مرحلة قراءة الشعر لفهم ادب الحدث ؟!

٢ ـ ان الشعر الوجداني القومي هو لكم وحدكم تطربون له وتقومون وتقعدون ، ولا تستطيعون ان تزعموا انه لنا مثلما هو لكم ، لبن وخمر ..

٣ ـ كان الشعر ديوانكم فيما سلف لكم من ايام . فو نشيدكم الحماسي ، وصحافتكم السياسية ، يوم لم يكن لكم اذاعة دائرة وصحافة سائرة . واليوم وقد تنوعت الاداب ، واغتنت بالعلوم ، واصبح الادب ، كما شاء ، وكان عليه ادباؤكم المعلمون الاوائل ، اخذا من كل شيء بطرف ، علما بالفقه واللغة ، وعلما بنجوم السماء ، وبلدان الارض ، واخبار الاولين واحوال البشر ، فلا أقل من ان يتخفف الشعر من طموحاته التقليدية لتستطيع فنون النثر ان تتولى باساليبها الواسعة وبحظوظها المتفاوتة من الافصاح والافهام والابلاغ ، ترجمة مثلكم ، وتحليل واقعكم ، واعادة تدريس تاريخكم ، والتعريف برسالتكم .

قد يبدو ان هذا المدخل الى محاولة البحث في أدب الوحدة ، نقدا للشعر العربي ، وصدا عنه . والحق انني لا احط له من قدر ، فيما نقلته من نظر اجنبي الى عربي بل أميل بالعكس الى التأكيد ان الشعر في مرحلة من مراحل وعينا الثقافي ، والى ان يفتح الله علينا فنون الكلام ، هو منبرنا ، وندوتنا ، وافصح مبشر ومنذر ، ومذكر باحيائنا وامواتنا ...

فاذا جنحت الى قول فيه نقد وتعريض ، فليس لانني انتقص من قدر هذه الثروة القومية ، بل لانظر اليها بالعين التي ينظر بها مراقبونا ودارسو

أيامنا ، من كوكب غير كوكبنا ، وعصر غير عصرنا •• من اجانب اصدقاء أو خصوم الداء • ولخير لنا أن نرى أنفسنا في أعينهم ، قبيلا ، من ان نظل نرى أنفسنا في عين انفسنا ، جذعا عظيما • وانهم على حق اذ يستاءلون عما بين ايدينا من عتاد ثقافي يليق بطموحنا ، ويرافق خروجنا ويدل على انفتاح آفاقنا وزوال اوهامنا ومخافنا ، وهل نحن في المعركة ، نحمل سلاح المعركة؟!

تعيش الامة العربية ظرفا تاريخيا ، رميت فيه بالتحدى في أوانه أو قبل اوانه ، فقبلته ، وكان لابد ان تقبله ، تحت طائـلة الهزيمة والقبول بها • وخرجت الى ساحة التحدى لا لتقابل عدوا واحدا ، مسمى موصوفا ، بل حالة عداء غامرة محيطة ، ليس لها رسم واحد أو وجه واحد ، لانهـا مجموعة الاقنعة التي تحيط بها ، والاصوات الخفية التي تناديها والحراب المشروعة التي تزرع سياج طريقها ، والاوهام التى تتراقص في الظـلال ، والسراب الذى يخادع في الاضواء ، وليس الاستعمار نفسه في هذه الاجواء التي تقابل الخارجين اليها ، سوى الخضراء في طين السموم ، أو العقبان التي تحوم فوق روائح الدماء •

في معركة التحدى التي تخوضها أمتنا ، مع حالة العداء الغامرة التي وصفنا ، ليس عليها ان تحارب أعداءها الاقوياء فحســـب ، ممن يمثلون العنصر الاجنبي السافر ، فيما هي مقبلة عليه من هول التجربة والمعركـة ، بل عليها في الوقت نفسه ان تتعلم ممن تحاربهم كيف يحاربون ، فتقبل عليهم وهي تناجزهم ، وتقبل سلاحهم بينما هي تحطمه في أيديهم • وان يـكن هذا التناقض العجيب ، عبثا قاصما ، لا تطيقه ظهور الجبناء ، فهو قدر الذين يستجيبون للتحدى ويخرجون الى لقائـه • انه ناموس تاريخي أن تتفاعل الحضارات وتتلاقح ، سلما وحربا • ويأخذ مستجد من مستقر ، بالحسنى أو بالقسر • وليس التلاقح دائما فعل تلاق ومحبة ، اكثر ما هو فعل كسب وقسر • وسواء أكانت المعركة بالمطاولة أو بالمناجزة بين مستقر ومستجد باصطلاح ابن خلدون ـ فلابد من ان يستعمل المستجد سلاح خصمه ، وابقى السلاح وافعله ليس الحديد والقوة ، بل سلاح الثقافة ، قبل كـل سلاح من اجل هذا ـ يؤكد المؤرخ توينبي ـ نجحت روسيا بدءا من بطرس

الكبير في خوض معركة التحدى مع اوروبة مستعملة حديدها وثقافتها ، بينما رسبت الدولة العثمانية على هامش المعركة ، برغم انها استعملت حديد الخصم ، ولبست بزته العسكرية ، دون أن تبلغ من ثقافته شأوا بعيدا أو قريبا •

ولنحذر من الوقوع في التوهم بان استعمال السلاح الثقافي في معركة التحدى ، يؤخذ من ترسانة الغير ، انما يعني التماثل الثقافي لزاما بين الآخذ والمأخوذ عنه كتماثل الاصل والنسخة بل ان المستجد غالبا ما يميل الى توكيد ذاته بتخطي ثقافة خصمه ، ثم بتمثلها في حياته الذاتية ، قوة دافعة ، تتخذ لها مجرى جديدا ، يكاد يقطع الصلة بينابيعه •

وليس الا ان نلقي نظرة متأملة على المجتمع الروسي لنرى كيف تقبل الحضارة الصناعية ، والمثالية الاوروبية معا ، وكيف خرج منهما بثقافة ترسل التحدى ، بدلا من ان تستقبله • ونظرة مقابلة على المجتمع الياباني أيضا ، لنعلم كيف تمثل الحضارة الصناعية ، واتخذها سلاحا ، بينما استطاع ان يوازن بين تقاليده وعصريته موازنة بارعة الحركة والنشاط والاستمرار •

ان تجارب الشعوب أمامنا حافلة بالدروس التي يجب الا تخفي علينا، والا نجهلها أو نتجاهلها ، تحت اى ظن من الظنون او زعم من المزاعم • وان من شأن تفتحنا على الحركة الكونية التي أغلق علينا دونها ، خلال حقب طويلة من جاهلية عثمانية جهلاء ، ان يؤدى بنا حتما الى طرح سؤال اولي بين شتى ما يعرض لنا من اسئلة • على اى اسس تتكون الثقافة العربية في تماسها وصراعها مع الحضارة السائدة • وما هي مقاييس ما يجب ان نأخذ ان نطرح ؟! والسؤال كما نعلم ، مطروح مفروض ، ولكن الاجوبة عليه ، كما نعلم ايضا ، أجوبة اعتباطية مرتجلة ، تتأرجح بين العصبية للسلفية من طرف والتحرزية المستهترة بالقيم الموروثة من طرف آخر • وان يكن ليس في نيتي او طموحي أن اجيب على السؤال الكبير ، فلا اقل من يطرح السؤال ويعاد طرحه • اذ كثيرا ما انفرج الجواب ، عبر اسلوب طرح السؤال !!

بل بوسع الامة العربية ، أن تفيد حتى من تجارب الشعوب الصغيرة المتخلفة عنها كالشعوب الاسيوية والافريقية ، التي شبت على الطوق منذ عهد قريب ، وظفرت باستقلالاتها الوطنية على مستويات متفاوتة من الجدارات والكفاءات ، لان هذه الشعوب على ضحالة مياهها الثقافية قد استطاعت خلال عشر سنوات أو أقل ان ترسي قواعد تحررها الثقافي ، بله السياسي ، على اسس نظرية وعملية من صفاء الفكر وحسن التدبير • ولقد قيل ان نجاح هذه المجتمعات الفتية ، في التعرف الى طريقها مبكرة ، يعود الى الوعي الثقافي الذى تتميز به قيادات نضالية ، نشأت مع الشعب وولدة في حضنه ، بالاضافة الى أن الحركة النضالية بالذات ، عبر أدوار المجالدة والالتحام مع الاجنبي اجرت تيارات اجتماعية ثقافية في حياة المجتمع ، بما يعده فعلا لمستوى المعركة ، وضروراتها ،وهذا هو رأى الدكتور فانون ، في ثورة الجزائر • كذلك يعزى نجاح بعض هذه المجتمعات الناشئة ، في اكتساب ثورتها طابعا ايجابيا ، انها مجتمعات غير ذات جذور عميقة في الارض ، وغير ذات اعباء من التراث العريق ، تنوء بحملها ، لان اصحاب الجذور لا يمشون الا باقتلاع الخطى اقتلاعا ، واصحاب الاعباء من الامجاد ، كثيرا ما تبهظهم امجادهم ، وتتعثر خطاهم وهم اكثر اهل السرعة ، حاجة الى السرعة •

انا اذ نضع الوحدة العربية ، وهي الهدف القريب من اهداف الامة في حركة التحدى ، على ما وصفنا ، فلكي نقدرها بجميع ابعادها في كونا معركة وثقافة • اى انها رفض وقبول ، ودفع وجذب فى آن واحد • ان قبولها شروط المعركة يفرضها الخصم القوى ، لا يعني هزيمة لها ، بل يعني انها قد وعت حجم المعركة ، فتعد لها ما استطاعت • ومثلما ان المعركة حشد آلي وبشرى ، وحصار هندسي ، ورصد نفسي ، كذلك فهي تعبئة اقتصادية ، وتنظيم اجتماعي وسياسي • وما من شيىء قديم اتقنه الانسان بالممارسة العملية ، وغذاه بتقنيات التقدم ، كفن المعركة • وليس الا ان نعلم بان غزو النجوم في افلاكها غدا مجرد مناورة لتجربة طاقات الغزو في مجالات الارض ، حتى ندرك اى مدى بلغه فن المعركة بعلومه

الالية وانفسية والاجتماعية • والمعارك في التاريخ مثلما وطنت الخـراب ونقلت الاوبئة ، وطنت الخبرات والتجارب ، ونقلب العلوم والفنون •

ان فرض شروط المعركة من أعلى الى ادنى ، لايعني اتقان فنـون التعارك فحسب ، بل التوضع في مستوى المعركة ومعناها ، وعصرها ، وهذا هو الاهم فيها كمعنى ثقافي • فالكاتب الفرنسي من أصل افريقي ـ الدكتور فانون ـ يرى في ثورة الجزائـر غنما ثقافيا كبيرا لاهل الجزائـر ، من بعض مظاهره ان المرأة المحافظة ، خرجت الى المعركة ، وكان لزاما عليها ان أن تطرح حجابها تحت الظرف والحركة ، ففعلت ومارست عملهـا النضالى ، وشعرت بقيمة ممارستها ، كما شعر الرجل المناضل بجانبها • وايقن الاثنان من بعد ان المشركة ليست من فروض المعركة فحسب ، بـل من فروض العصر وثقافته الاساسية ايضا •

يبقى ان المجتمعات المحاربة ، تقبل شروط المعارك ، بردود فعـل مختلفة متفاوتة • فاذا قبلتها ، فانا لابد مدركة سلفا انها مغايرة لتقـاليد القوم ، وتربيتهم ولنوع من راحة نفسية يألفونها • واذا رفضتها ، وهي تؤلف بمجموعها ثقافة المستوى والضرورة ، كان ذلك امعانا من القوم في جاهلية ليس يبروها مبرر • انما الجاهلية كما رجمناها ، نحن العرب ، غرور وعناد ، الى جهل واسراف ، ليس يجملها تفاخر ولا غلو ، ولا بيان فني جميل في مثل هذا القول الفروسي الفحولي الرنان ، للشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

اذا بلغ الفطـــام لنـــا صبي   تخر له الجبابر ساجـدينا •••

بل يقرعها ويصغر من شأنها قول بكري في التغالبة :

ألهى بني تغلب عن جل امرهم   قصيدة قالها عمرو بن كلثــوم
يفاخرون بها مذ كان أولهــم   يا للرجال لشعر غير مسـؤوم

نعود الى تلازم المعركة والثقافة ، في حركة الامة العربية نحو الوحدة ، لنذكر ان الثقافة ، مثلما هي عمل بناء ، يرص لبنة فوق لبنة ، وراء النصر السياسي ، ويحفظه من التبعثر والضياع من جهة ، ثم ليؤمن لــه سلامة حركته واتصاله ، كما يقال باللغة الحضارية ، من جهة أخرى ـ كذلك فان الثقافة بمعنى الخطاب ، والتعبير ، هي البلاغة المكتسبة من فهم أحـوال الزمان والمكان ، لتقوم بدورها المزدوج : الفني والاجتماعي •

بهذا الجانب من معنى الثقافة ، لا نخرج عن دستورنا العربي العريق في فهم البلاغة ، كما قرره لنا معلمونا الاوائل ، وفي مقدمتهم الجاحظ • اذ لم يحددوا البلاغة على انها لفظ ومعنى فحسب ، بل هي كما قالوا(انطباق اقدار الكلام على اقدار المعاني ، واقدار ، على اقدار السامعين وحالاتهم)• وهو ما يعبر عنه عادة بجملة (لكل مقام مقال) أو مطابقة الكلام لمقتضى الحال) • والرقة ، واجتباء اللفظ والمعنى فحسب ، بل هو الى ذلك ، خطاب موجه الى نوعية المستمع ، وحالته النفسية ، وظرفه التاريخي • وما لم يأخذ التعبير الادبي بهذا الدستور لا يعدو كونه ارسالا في الهواء أو جعجعة تلتهمها اصداؤها •

* * *

مقارنة مؤجلة

رغبة في اختصار حجم البحث ، حذفت في هذا المكان ، دراسة مقارنة ، بين قصيدتين مشهورتين في الجاهلية ، لـكل من عمرو بن كلثوم (ألا هبي بصحنك واصبحينا) تمثل الجاهلية بكل تفاخرها وتكثرها ، وهياجها العصبي القبلي ، وعدوانيتها السلبية ، وقصيدة بن حلّزة ، تمثل العقل والحـكمة مع علم بأحوال البشر ، والتاريخ ، والنفس الانسانية ، وحرص على القيم كالحـق والعدل والامانة والوفاء ، ضد الجهل والغرور ، والظلم والغدر والنـكث بالعهود • ومعلوم ان القصيدتين القيتا أمام ملك المناذرة عمر بن

هند في حادثة احتكام قبيلتي عمر بن كلثوم ، وابن حلزة الى الملك ، فلما اطلع على القصيدتين اثارته الاولى ، واقنعته الثانية ، فحكم لبني بكر ، على بني تغلب • وتوصف قصيدة ابن حلزة الهادئة ، بانها أدب نموذجي في مطابقة الكلام لمقتضى الحال) اى قد تمثلت فيها ثقافة المعركة، في مستواها وضروراتها ، وبلاغه القول في معنى ان البلاغة ، ابلاغ المعنى الى الموجه اليه ، بقسط من الفصاحة المناسبة لمستواه •

(يقع القسم المحذوف من البحث ، في حوالى صفحتين من ورق الآلة الناسخة ـ المؤلف ـ) •

* * *

سنحاول ، فيما بعد ، ان نتحدث بايجاز عن نوع الثقافة التي يجب ان تلازم نضال الامة العربية ، في سبيلها الى الوحدة • ونطرح السؤال : هل وجدت تباشير هذه الثقافة في تاريخنا الحديث ، وهل لها في تاريخنا التليد جذور ؟! وهما سؤالان ، يؤلف الجواب عليهما بحثين كبيرين ، من بحوث ادب الوحدة ، اقترحهما على نفسي ، وعلى من يعني بمثل هذا الموضوع من الباحثين ودارسي التاريخ •

وقبل ذلك ، علينا ان نعود الى منطلق الحديث حيث نقلنا رغبة طالب الاستشراق ، في أن نصله بادب عقلي علمي ، يرافق نضال العرب ، لتوكيد حريتهم بوحدتهم ، على أساس اننا تحاورنا حول اعتبار الوحدة قوة ثورية ، لا تمنح الحرية ، جميع العرب ، فحسب ، بل توسع لهم منها بالقدر العزيز ، الذى يتيح لهم ، تفتيح جميع طاقاتهم وتحشيد جميع مواهبهم ، من اجل غاية تتخطى الوحدة والحرية ، الى ازدهار المجتمع ، وسعادة الانسان العربي فيه • ويعني ذلك ان الحرية والوحدة ، غير مقصورتين على جانب النضال السياسي ولا تقومان الا في الحدود المرحلية من الهدف الابعد، وهو الانسان العربى في مجتمعه الافضل • وبمثل هذا ترتبط ثقافتنا ونضالنا ارتباطا قوميا ، بالمجهود الانساني المشترك ، وبقيمه الخالدة •

قلنا ان الشاب الاوروبى ، طالب الاستشراق ، اعترض على ان تكون

دراسات في الشعر العربي ، مراجع له في تقصيه أدب الوحدة ، مشيرا الى ان عددا غير قليل من الاجانب طفق يدرس نوعية المجتمع العربي في طريقه الى لم شعثه واجزائه ، واكتشاف شخصيته وتحليلها • واشار علي بكتاب تحت عنوان (العالم العربي) للمؤلف الامريكي (مورو برجر) ، فبادرت الى اقتنائه كما ذكرنا معا كتاب المستشرق الفرنسي (جاك بيرك): (العرب بين الامس واليوم) ، على انه محاولة جريئة ؛ في دراسة الشخصية العربية • واتفقنا على أن مثل هذه الدراسات ، هي المراجع ، عندما تفتقد المراجع ، لاسيما اذا كتب المؤلفون العرب انفسهم تحت مثل هذه العناوين وعندما استعرضنا بعض ما يعرف من الآثار الادبية ، التي قد تجدى في دراسة المجتمع العربي واحواله وأمانيه السياسية ، وجدنا ان بعض الباحثين الاجانب ، كالمستشرقين (بيرك) انما يفضلون القصة على اى نوع اخر ، في دراسة الفرد والمجتمع ، والنفس ، في الحياة العربية ، اذا لم تكن القصة ، عملا فنيا يقلد فيه كاتبه عملا فنيا غربيا ، تحت تاثير المطالعات العابرة • وقد استشهد بيرك في كتابه (العرب بين الامس واليوم بطوائف من القصة والرواية في الادب العربي الحديث : مسترشدا بها كتيارات اجتماعية ، وثقافية ، ونزعات رجعية أو تقدمية • وفي هذا ما يدل على صبر المستشرق ، ودقته ، ومشقة عمله ، موضوع يعتبر الخوض فيه مغامرة وكشفا ، في منزلقات خطرة •

وقد لا يصيرنا ، هنا ، ان نستطرد الى ذكر فصيلة من نوع المشكلات التي يطرحها الاستاذ جاك بيرك ، في تحليل الطاقة الثقافية العربية ، اذ يبدى تخوفه من ان تكون اللغة العربية ، التي ادت دورها بالفعل كأداة حفاظ على الشخصية العربية ، وتحد للاجنبي الدخيل ، ـ من ان تكون لغة جمود ، وعناد ، وحرون ووقوف بوجه التقدم ، وسير التاريخ ، بل ان المستشرق يحمل اللغة الضخمة تبعات الكثير من تخلف العرب ، في مرافق الحياة السياسية والاجتماعية ، بله الادبية(*) •

(*) عرض الى جانب من هذا الموضوع ، الدكتور عبدالسلام العجيلي في مقاله ، في مجلة المعرفة العدد ـ ٣٦ ـ •

كذلك يبدو لي من حواري مع طالب الاستشراق ، أن الباحثين الاجانب الذين يستشهدون بنماذج من الشعر العربي المعاصر ، عندما لايجدون سواه مرجعا للتنقير والتقصي ، يقعون على مادة اقرب الى تضليلهم ، منها الى ارشادهم ، في تفهم نفسية المجتمع العربي •

وقد تذكرت بالفعل انني في اعداد هذه المعالجة ، نقلت بعض ابيات من الشعر للشاعر المهجري الياس فرحات – سترد بعد قليل – يتغزل بها بالصحراء ، ويدعو اليها • بينما هو ، كأديب مهاجر ، يقع في الطرف المناقض من حرفية شعره ، فهو مجدد في اسلوبه وابتكار معانيه وفي اهدافه القومية والاجتماعية • يبقي ان مبعث دعوته الى الجاهلية والصحراء في بيت من الشعر ، لا يعني سوى انه يتحدى ازياء الفرنجة والفينقة في موطنه الاصلي ، ويفضل على جديدها ، وترفها ، ومعسول حياتها ، شظف الصحراء ، وجهل الجاهلية ، تمسكا بعروبة أصله واهله • ولا يعني شعره بأى حال ، انه في حقيقته ، عدو التقدم ، وثقافة العصر ، يمثل نموذجا للعربي المضحي مستقبله وطءا تحت اقدام ماضيه •

فاذا أخذ الشعر بحرفيته حقا على مائدة التشريح ، مجردا من ظرفه التاريخي ، ومن شخصية قائلة ، وحالته الاجتماعية ، وهو ما قد يقع فيه المستشرقون يصبح الشعر حقا ، مضللا لا مرشدا •

اضيف تحفظا آخر ، مسألة التمثل بالشعر او القصة ، في العصر الحديث ، لدراسة الشخصية والمجتمع العربيين ، هو ان صاحب الدراسة ، لا يستطيع ان يتفرد ببعض النماذج الادبية ، للاتكاء عليها دون أن يحيط بالمشهد العام للانتاج الادبي ، في حقبة من الحقب التاريخية ، اذ قد يوحي المشهد الادبي العام ، بعناصر دراسة المجتمع والشخصية البشرية ، بينما اللقطات المنتزعة لذاتها ، لاتشير الا الى العناصر الدخيلة أو العارضة فالشخصية العربية الملحقة ، بالثقافة الغربية ، خارج المجتمع العربي بالذات ، لا تدرس مثلا في ابيات شعر للشاعر المهجرى الياس فرحات مجردة عن مجموع انتاجه اولا ، وعن مجموع الانتاج الادبي المهجرى ، ثانيا •

* * *

كل هذا لا يمنعنا من القاء نظرة على مشهد عام من الشعر القومي الحديث ، خلال نصف قرن مضى ، بصرف النظر عن اعتراض الاوروبي طالب الاستشراق ، الذى سبق ان لخصناه بأن الاجنبي ، لا يطرب لجرس الشعر ، ولا يتأثر بوجدانيته ، ويفضل عليه مرجعا عقليا دراسيا ، يسهل مهمة صاحب الفضول الذى يريد ان يطلع بأهون او بقعقل سبب لا ان يلقي نفسه في مغامرة استكشاف بدءا من نقطة الصفر •

يبقى الشعر ، على كل حال ، جزءا ضخما ، من ثروتنا القومية ، وقد احتوى مفاهيم الوحدة كلها خلال نصف قرن ، كتعبير ادبي قوى ، شبي المنبر ، مرهوب المقام نضالى السمات ، الى جانب التعابير الاخرى التى يمكن حصرها : بالبان السياسي ، والمقالة الصحافية ، وبكتابة التاريخ ، وببعض المحاولات في البحوث الاجتماعية ، الجانبية ، كبحث في القرية أو العشيرة ، وآخر في المرأة ، أو نظام الارث ، أو حق التملك ••• الخ • ولعل اجزل البحوث فائدة من هذا النوع من البحث الديني الاجتماعي ، الذى تناول الديد من الاغراض الاجتماعية ، كما رآها الدين ، بتطوير أو دون تطوير ، وبأخضاع لحكم العصر بدون ذلك • مثل هذه البحوث ، ليس له عناية بموضوع وحدة الامة ، بقدر ما له عناية بالدفاع عن وجهة نظر اجتماعية ، دفاعا ذهنيا بحتا • وذلكم هو جانب حساس من جواب (ثقافة الوحدة) مقترح للبحث والباحثين •

كذلك فان كلا من البيان السياسي ، والمقالة الصحافية ، يتطلب بحثا خاصا فيه • لاسيما وان بعض البيانات السياسية ، والمقالات ، قد ارتفع الى سوية الامهات الفكرية التي يصح ان تكون صوى ومعالم توضحية ، في طريق الخط العربي المتصاعد • بينما اسف بعضها الاخر ، وهو القسم الاعظم ، الى دنية الحياة اليومية ، والمشاغل السياسية والشخصية ، مما حملته اطنان ورق الصحافة والبيانات ، فذهب مع الهباءات الصغيرة التي تعيش وتموت بين ريح وريح • ولعل جمع المقالة والبيان ، كعمل دراسي ، لايقل أهمية عن جمع الشعر القومي ، والاجتماعي ، في تيسير مهمة الباحث •

وسنلم بمشهد العام للتاريخ القومي ، والبحث الاجتماعي ، عندما نعالج الموضوع ، من حيث نوع الثقافة العقلانية التي يجب ان ترافق الحركة العربية فيطريقها نحو الوحدة •

اما الشعر القومي فسنخصه الان ، بوقفة قصيرة لانه التعبير الادبي الارقى الذى عكس الفعل في الحركة العربية ، بقدر ما عكس ردود الفعل واكثر ، ولانه كان سجلا مقصودا او عفويا لكثير من الاحداث والمواقف المعادية لحركة التجمع العربي ، بل يمكن القول ان الشعر كان حتى نهاية النصف الاول من هذا القرن ، أى حتى توضحت للعرب ملامح الوحدة ، توضحا ذهنيا ، وأصبح التميز - مثلا - بين كلمتي (شعب) و (أمة) ضروريا للخاصة من المتنورين ، قبل العامة(*) أقول كان الشعر او كاد ان يكون أقوى التعابير الفنية ، عن المد والجزر في الحركة العربية ، وبالاخص انه كان تعبيرا عاطفيا ، عن عمل سياسي عاطفي من جهة ، ومن جهة ثانية انه كان تخطيا لليومي ، والشخصي ، نحو الكلي والمطلق ، في بعض الجيد منه •

وبهذا يمكننا التعرف على المشهد العام للشعر القومي الحديث - خلال نصف قرن مضى - بالملامح التالية :

وبهذا يمكننا التعرف على المشهد العام للشعر القومي الحديث - خلال نصف قرن مضى - بالملامح التالة :

أولا - انه مشى وراء الاحداث لا امامها ، وتلكأ احيانا في مواكبة طلائع العمل القومي العربي •

ثانيا - في بعض ظروفه الزمانية والمكانية ، استطاع ان يعبر عن

(*) ورد في خطاب مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر في حفل اقيم لوضع بروتوكول - ميثاق - الاسكندرية الممهد لقيام الجامعة العربية عام ١٩٤٤ ما يلي : (يطيب لي أن اشيد بما يربط بين الامم العربية في مختلف البقاع من صلات قوية) •

ومعلوم أن الاصطلاح الذي يتناسب مع العلم والواقع والفهم الذهني هو أن العرب امة واحدة لا مجموعة أمم •

ضمير الامة في مواقف لـم يكن لهذا الضمير سلطة او قدرة على التعبير • وهنا ارمي الى القول بانه كان أقرب الى ضمير الامة ، منه الى رأيها العام • بل قد تحدى الرأى العام في بعض مواقفه ، عندما كانت تخترقه اختلاطات مريبة ، تمنع اندفاعه القومي •

ثالثا ـ تميز الشعر القومي ، بانه لم يقصر انشاده على عناصر القومية ومقوماتها من وحدة الاصل ، واللغة والتاريخ ، والتراث ، فحسب ، بل قد تغنى بروح النضال العربي ضد القوى التي تهدد سلامة الكيان ، أو الحدود ، من عثمانية الترك ، الى تمدينية الانتداب ، الى ويلسونية المبادىء الخادعة والالفاظ الضخمة • فاضاف الشعر القومي اضافة فعلية ، عامل النضال ، الى عوامل الوحدة • وفي تحليل لكثير من أحداث التاريخ الانساني ، يؤكد الفيلسوف المعاصر (ارنولد توينبي) ان بعض المجتمعات وحدها عامل (السلامة القومية) المهددة ، ولم يكن لها أى عامل اخر من مقومات الوحدة •

وقد لجأت الى هذا التصنيف بحسب الملامح العامة ، للاشارة الى قيمة الشعر القومي ، مقابلا بالحدث • ثم ان هذا التقسيم يمكن ان يساعدنا في القاء نظرة عامة على المشهد ، دمن تفاصيله ، مما هو شأن الدراسات الخاصة فى الشعر(*) •

على ان هذا لا يعفينا من توضيح بعض المعالم في رقعة المشهد العام • وهذا التوضيح من شأنه ان يقرن الادب بالحدث ، فنطلع بذلك على أهم وقائع الصراع والتحدى ، في حركة الوحدة •

١ ـ من حيث الشعر مشى وراء الاحداث العربية فغالبا ما ضربت الامثال بشوقي ، أمير شعراء العصر كشاعر طالما تغنى بالشرق وبالعثمانية نفسها ، قبل ان يتصل أدبه بالجوار ويتأثر بالاحداث الجارحة التي تمر

(*) من الدراسات الواسعة في موضوع الشعر العربي ، كتاب (الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث) للاستاذ عمر الدقاق ـ حلب ـ و (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية) للشاعر الاستاذ جورج صيدح •

بساكني الديار ، وقبل ان يزور دمشق بصفة خاصة ، ليبكي جراحها ، ويستندى الامجاد العربية في تاريخها ، بشعر من ارق شعره ، واحفله بعاطفة الانسان والمواطن ، بل قد كان دأب معظم الشعراء وانبههم ذكرا ان يمجدوا الشرق حتى عندما يأتون على ذكر اوطان عربية ، نسجا على طراز شوقي قصيدته (الجلقية) المشهورة :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام اخوان

ان هذا البيت الرائع الجامع ، على جلال قدره ، وقدرته ان يجمع عناصر الوحدة ، في اطارها الجغرافي والتاريخي كشرق ، وفي مفهومها كلغة، وكرحم ثم في واقعها كجرح وألم ـ لم يعرف كيف يفصح عن كل ذلك بكلمة (عدوبة) كأنه يخشى اللفظ ومعناه ، ويشيح عنه كلما رآه واصطدم به وجها لوجه • قيل ان امتلاءه باسلامه قد غلب عليه ، فلا يشعر بعصبية قومية ، وقيل ان ضعف الخيط العربي في نسب الشاعر قد اضعف شعوره بالعروبة • وقيل ان الرأى العام السائد في مصر آنئذ ، كان يؤلف وطنية مصرية ضد الاحتلال الانكليزى ابان ما كان العرب يحالفون الانكليز ضد بني عثمان • وقيل ان الفرعونية ، اصابت هوى من الشاعر وكان لها في مصر دعاة وانصار • وكل ذلك صحيح حقا ، مجتمعا لا منفردا •

على ان شعراء امجادا ، خارج مصر ، لم يسلموا من سحر الشرق ، حتى عندما راحوا ينادون بلاد العرب الى الجهاد في مثل دعوة رضا الشبيبي •

هاجدى يا أمم الشرق الألى قتلونا جاهديهم اجمعا •••

ولم يكن (الشرق) و (الامم) في كلام الشاعر سوى قومية العرب •••

حتى عندما انشئت (الجامعة العربية) عام ١٩٤٤ وترنم بها الشعراء ، بقي الشرق تعبيرا عن العرب ، في مثل قصيدة لعلي الجارم :

سنا الشرق من اى الفراديس تنبع ... ومن أي آفاق النبـوة تلمـع
تذوب حشاشات العواصم حسرة ... اذا دميت من كف بغـداد اصبـع
ولو بردى أنت لخطب مياهه ... لسالت بوادي النيل للنيل أدمـع

وفي رأينا ان هذا الامتناع اللغوى ، لا يصدر عن هفوة لسانية عريضة بل هو ينبع آنئذ ، والى ما قبل عشرة أعوام او خمسة عشر عاما ، من أعماق الذهنية الثقافية وهي ذهنية ان تكن تدرك ادراكا ماديا ان الاخوة يتضامنون والجيران يتشاكون ، ويتكفكفون ، فليست بقادرة ان تنتج من هـذه العلاقات الطبيعية تكوينا عاما أو تتصور لها مفهوما واضحا يتسامى ذهنيا حتى يقين العقيدة • كما ان جهل التاريخ ـ كما قيل ـ ليس علة ذلك الحذر من العروبة ، لان شوقي وكبار مثقفي العصر ، لا يجهلون تاريخ الاسلام وامة العرب بل هو قصور ذهني عام عن ادراك الكليات تحت تأثير التزوير العقلي والعاطفي الذى كان ممتدا في حياة العرب ، من حكم الجاهلية الهمايونية الجهلاء •

ومثلما أن الحدث العربي في الراق والشام ، كان سباقا تاريخيا ، كان الشعر في الميدان الفكرى وراء الحدث ، سباقا ايضا في هذين الموطنين من المواطن العربية • اذ بينما كان العرب هنا في ثورة ضد الدولة العلية ، وفي حلافة مع الحلفاء المحاربين كان العرب في مصر يئنون تحت النير الانكليزى ، ويتأبون على حلافة الاحتلال تحت اى حجة من الحجج • في هذه الحقبة التاريخية ، كان شعراء الشام والرعاق ، شعراء الدعوة القومية، لاسيما بعد ان غدر الحلفاء بحليفهم العربي ، ففقدوا الحرية والامل المعقود على أدعياء الحرية ، في وقت واحد معا •

فمن شعراء العهدين : عهد الثورة العربية ، فعهد الاحتلال الفرنسي ،

خليل مردم ، ومحمد البزم ومن بعدهم شفيق جبري ، وبدوي الجبل ، وخيرالدين الزركلي • وقـد تميزت مدرسة الشام الشعرية في النطاق القومي بفحولة اللفظ وبعروبة المضمون ، ومنبرية الالقاء ، فكانت المناسبات القومية في الشام وقفا على شعرائهـا ، كما كانت المنابر في العراق آنئذ ، والرصافي والـكاظمي والشبيبي ، الذين اشتعلت ببواكير شعرهم لفظة الامة العربيـة ، فانارت مساحات من الشـعور القومي ، برغم ضيق الرقعة التي كان ينتشر فيهـا الادب العراقي والشامي •

في نفس الفترة هذه طلعت في أندلس الاغتراب في الامريكيتين ، مدرسة شعراء المهاجر ، الذين انشدوا العروبة أجمل اشعارهم ، ومنحوها من قلوبهم وعقولهم أخلد روائـع الادب القومي في القرن العشرين • لقد كانوا ، مثل زملائهم في مصر والعراق والشام وراء الحدث السياسـي حقا ، ولـكن شعرهم كان أكثر استجابة للحدث ، والتفافا حوله ، حتى ليغدو الشعر بالنسبة لجماهير العرب في المهاجر ، قيادة وتبشيرا وتهذيبا •

قيل ان السوريين واللبنانيين ، هاجروا وهـاجرت معهم في مركب واحد ، احقادهم ، وعصبياتهـم ، وخلافاتهم ، فما كادوا ان يستقروا ، حتى طلعت بينهم صحف ووريقات يتنازلون بهـا ويتناحرون • وعندمـا ارتفعت بينهم منابر الشعر القومي ، خرست لاغنية السوء واشرأبت اعناق القوم نحو المنابر وروادهـا الاوائـل ، تاركين وراءهم سموم الصحافة واحقاد مستغليها ، ثم ما لبثت ان توارت كأن يدا سحرية مسحتها من اللوح الاسود • وتمت السيادة المطلقة لحناجر الدعوة القومية التي ما كانـت اغانيها تتعالى في (ساناولو) ، حتى تتردد بعد اسابيع في دمشق ، تنشدهـا حناجر المنشدين • وكان شيئان مشهوران ،ايام الثورة السورية عام ١٩٢٥ : سيف سلطان الاطرش ـ وقصيدة الشاعر القروي في سيف سلطان •

فيالك غارة لو لم تدعهـا　　　اعادينـا لكـذبنا المذيعـا
ويالك اطرشـا لما دعينـا　　　لثأر كنت اسمعنا جميعـا

وفي القصيدة ، خطاب مشهور ، للسيد المسيح :

ألا انزلت انجيلا جديدا يعلمنا أباء لا خنوعا
أجرنا من عذاب النير لا من عذاب النار ان تك مستطيعا

وأخيرا تمت المعجزة في أرض الوطن العربي ، بعد طول ارتقاب • وصمت وذهول ، وجاء الحدث العربي الكبير في ثورة مصر عام ١٩٥٢ لا ليدعو اليه الادب واعجاز البيان شعرا ونثرا ، بل ليخرج الى الحياة العربية خمسة عشرين مليونا من العرب ، قبعوا زمنا طويلا وراء السد الكبير ، الذى حجبهم عن أهلهم واخوتهم في مشرق الوطن العربي ومغربه • كان تهديم السد الكبير اول اعمال الثورة • ثم بدأ لقاء فكرى جديد ، على نطاق واسع وعمق بعيد ، يشهد التاريخ العربي مثلهما منذ الف عام •

ان الحديث عن اللقاء الفكرى العربي ، بعد ان تدفقت مصر على الخوض العربي ، وسبقتها في التدفق اقطار المغرب العربي – ليس حديث كشف عن التاريخ وتنقيب في آثار الماضي ، انه حدث ، تدرس فيه بالحق ، صورة تكوين المستقبل العربي • وهو جزء من الموضوع المقترح على الباحثين •

وكل ما يمكن قوله في حديثنا السريع ، بينما نطوف حول بعض المعالم البارزة في المشهد العام ، ان الثورة العربية الجديدة ، لم تطفىء (سنا الشرق) ولم تمس عزة الاسلام ، بل قد انقذت الفكرة العربية من سراب سنا الشرق ومن تمييع العروبة اى دعوة وحجة • واما الاسلام بالذات • فلا يخشى عليه ان يضعفه العرب ، بل اولى بالمسلمين ، اينما كانوا ان يخشوا على اسلامهم من ان يضعف العرب •

٢ – ان ما بلغه معنى القومية العربية ، اليوم من وضوح في اذهان الخاصة ، لم يبلغه الا بعسر وتباطوء ، وسط محاولات مصممة لتمييعه

وتضييعه • وقد حارب تجليه اقارب واباعد ، ووطنيون ، واجانب •

وسنلم فيما يلي ببعض ما لقيته الفكرة القومية في مآزقها ومخانقها ، ونحن نستعرض بعض الشعر القومي ، الذى وصفناه بانه عبر عن ضمير الامة ، في مواقف لم يكن لهذا الضمير من سلطة أو قوة على التعبير •

يمكن القول أن الشعر المهجرى كان سباقا الى التشهير بالحكم العثماني ، الذى هرب السوريون واللبنانيون من مظالمه ومجاعاته ، الى ديار الاغتراب • اذ بينما كان رعايا الدولة ، تحت النير ، وقد اشتدت مظالمها باشتداد مخاوفها ، وبانهيار قوتها في الحروب والثورات ، كان المهجريون يتمتعون بالحرية التي نفخوا في بوقها اول اناشيد الدعوة الى خلع النير والشعور بالوجود القومي • قال ابو ماضي ، وهو من كبار النافخين في البوق ، أيام الحكم العثماني :

ألم كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
السنا نحن اكثرهم رجالا اذا عدوا وارفعهم مقاما

واهاب بالقوم ان يتشبهوا بالثائرين من أصحاب القوميات المحشورة في الدولة العثمانية •

ابناؤكم لهفي على ابنائكم يلهو بهم ابناء جنكيز خان
ثوروا عليهم واطلبو استقلكم وتشبهوا بالصرب واليونان

حتى اذا شبت الثورة ، استشرى الظلم ، وعصف الهول في كل مكان، وظن السفاح انه يروع العرب باعدام احرارهم والتشهير بهم على أعواد المشانق ، تدفق معنى العروبة ، متمزقا عن الخلافة ، والولاء للدولة وعبر جميع شعراء العروبة في المواطن والمهاجر عن هذا الانفصال بالانفعالات شتى • قال الزهاوى ملخصا مأساة المشانق في دمشق :

لعمرك ليس الامر ذنبا اصابه قصاص ـ ولكن يعرب ومغول

وخطب الشاعر القروى ، في حفلة اقيمت في صنبول البرازيل ، تكريما لشهداء الاعواد المطهرة ، فقال في قصيدة طويلة :

قد علقتكم يد الجاني ملطخة — فقدست بكم الاعواد والمسدا
اكرم بحبل غدا للعرب رابطة — وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وظهرت العروبة في شعر حافظ ابراهيم ، اثر نهاية الحرب العظمى ، مقرونة بالشرق ، بحسب تقاليد الشعر ، ولكنها منفصلة عن القومية التركية: قال حافظ :

واها على دولة بالامس قد ملأت — جوانب الشرق رغدا من اياديها
والله ما غالها قدما وكاد لها — واجتث دوحتها الا مواليها
لو انها في صميم العرب قد بقيت — لما نعاها على الايام ناعيها

وبذلك عبر الشاعر العربي عن عصبية قومية في الموالي شعوبيين يعادون العروبة وكائدين لها وحاطبين في دوحتها .

أما اللغة العربية ، فقد قام لها الشعراء في لاميع ديارها ، بلا استثناء ، ينتصرون لها من دعاة التريك والطورانية ، عندما اسفر العنصر التركي في الدولة عن عصبية حاقدة ، وتصدى للغة القوم ، اول ما تصدى لمجابهة العرب وقهرهم . ولعل ابرز سمات الشعر في أواخر العهد العثماني ، انه قد بدأ يتلمس طريقه الى القومية عن طريق الاحساس اللغوى . اذ ليس مسلما نم يدنس لغة القرآ . وقد حشد الشاعر حشود العرب في جميع ديارهم ، على اعداء العربية فقال فؤاد الخطيب :

جاروا على لغة القرآن فانصدعت — له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية ، والشام شاكية — وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

وفي هذا القول وسواه عزل للعثمانية عن العروبة في جميع ديارها .

ولعل طريق اللغة نحو التبشير القومي ، عند نفر غير قليل من شـعراء الديار ، كان ايسر للسلوك ، واقرب الى الذهن ، في البدء من مجرد الدعوة الى قومية عربية متميزة ، انشد لها شعراء المهاجر افانين من شعرهم ، واطلقوها حقيقة ذات جوهر خالص ، ثمين ، تكرم اللغة به ومن اجله • وليس يخاف ان وجود المهجريين خارج حدود السلطنة ، من جهة ، ثم تأثرهم الفكرى بالدعوات القومية السائـدة عصرئـذ في اوروبة ، ثم ما اتيح لهم من اجواء الحرية للتعبير عن الفـكر والوجدان ، ثم الحنين الذى الهب مشاعرهم واذكى قرائحهم ، الى جانب ما حل بهم من هوان في غربتهم وهم مشردون متضورون ، ينسبون الى الترك ـ توركو ـ ويسـبون بهم ، امعانا في اذلالهم ـ كل ذلك جعل النسب القومي أكثر من لغة ودين ، وان تـكن اللغة والدين ، من بعض ما تمثلوه فيه عزة وجلال • انه ، بالواقع ، صرخة وجودية يكررها العقل والوجدان ، كلما تلمس المشرد انسانيته في أهاب وجوده القومي • او ليست القومية في أعمق معانيهـا وانبلها ، تجمعا انسانيا ضد الضياع •

وعندما استقر الامر لمن سموا بالحلفاء في الديـار التى جزأوها ، وتوزعوها فيما بينهم ، بلغ الشعر اوج احتدامه ، ضد الغاصبين الخـادعين لولا ان طفق المستمرون والمخدوعون يزينون لفئات من الجماهير العربية ، دعوات جديدة الى عصبيات اقلمية حاولت ان تقلع الوعي القومي العربي من جذوره ، لتغرس في مواطنه قوميات سورية ، وفينيقية وفرعونية وآشورية ، كاد ان يستتب لها بعض الشأن ، لو لا ان اوهنها حمقها مرة ، وظهـور اجنبي غير مقنع وراءها ، مرة اخرى ، فانحسرت عنها الجماهير ، وقام لها كتاب وشعراء يهزون جذوعها ويمرغون في التراب افواه دعاتها •

لقد اصيب الشعر العربي بالتشرد ، حقا ، عندما تسربت هـذه الاختلاطـات الموبوءة الى الجسد العربي في دور نقاهته ، اذ مثلما قام بعض الـكتاب في مصر والعراق والشام ، يستنكرون الدعوات المشبوهة ، كان كتاب آخرون يمضون في اناشيد وثنية خادعة ، يهللون بها لامجاد مزيفـة ،

لم تترك اى أثر في حياة الناطقين بالضاد ، اينما كانت مساكنهم • فليس للفينيقية سمات وتقاليد في حياة السوريين واللبنانيين ، كذلك ليس للفرعونية ، برغم هياكلها العجيبة وآثارها المادية فوق التراب اى اثر ، يشهد أو يعقل في حياة المصريين • على انه مما يجب ان يذكر ان ليس كل الهوى الشعرى والادبي نحو التاريخ الفينيقي ، كان تفينقا ، ولا الهوى نحو التاريخ الفرعوني ، تفرعنا • فقد ذكر لبنانيون مقيمون مغتربون أمجاد عابرى البحار ، ومخترعي الابجدية ، دون ان يقصدوا الى اذكاء عصبية ، او بعث وثنية • وانشد شوقي ، وحافظ ومطران ، كثيرا من امجاد الفراعنة ، ولكنهم لم يذهبوا قط ، الى تصديق دعوة جاهلية كتلك التي صدرت عام **١٩٣٢** عن بعض كتاب مجلة (السياسة الاسبوعية) تزعم ان مصر ورثت من غزاتها العرب اللغة والاسلام ، ولكنها حافظت على قوميتها ، وان للشعوب الشرقية ، ان تبعث آدابها القومية ، من عراقية وسورية ، ومصرية ، بمعزل عن لغة الضاد •

في الرد على هذه الدعوات التي تلافت منذ ثلاثين سنة ، فوق الارض العربية كأنها على ميعاد ــ وكانت كذلك ــ قامت قيامة النثر ، في مصر ، قبل الشعر ، وقام على رأس الحملة المضادة ، قلم جبار كقلم مصطفى صادق الرافعي ومن في مدرسته من شباب • وللمرة الثانية يعود النبض الى قلب العروبة ، مهتزا بنشوة الضاد ، محزونا لما يراد وبأهلها • وكان لصيحات حافظ والرصافي ، ومردم ، والبزم ، ذودا عن العربية ، اصداء بعيدة ، اثلجت قلوب الملايين من العرب الذين كانت نحز في نفوسهم ، دعوة الى وثنية ضالة تصدر عن البلد العربي الذى حفظ للصفي قدسيتها وثقافتها وخضارتها عندما كادت ان تبيد في جهالات الحكم التركي • وكانت قصيدة حافظ ، مشهورة في يومها :

ايطربكم من جانب الغرب ناعب	ينادى بوادى في ربيع حياتي
واسمع للكتاب في مصر ضجة	فاعلم ان الصائحين نعاتي

أما الفينيقية ووراءها كل أحقاد المهزومين في الحروب الصليبية ،

فقد قام لها في سورية ولبنان والمهاجر اللاتينية ، من لا يقصرون نثرهم وشعرهم على توهينها والازدراء بها ، بل يذهبون الى أبعد من ذلك ، في التعبير بادرة جديدة من بوادر الاخلاص للقومية العربية ، هي وضعهم التراث الاسلامي في جبين العروبة موضعا كريما • لقد انقلب الشاعر المهجرى من خيال ناحل يتلمس وجوده في ديجور الشقاء ـ كما أسلفنا ـ الى عملاق يتحدى الاوهام المتطاولة • وانه الان ، فوق وجوده ليشعر بمجده وتفوقه • انه ليس المشرد الهارب من ظلم الخلافة العثمانية ولا الفرارى الهارب من عسكرها ووبائها ، انه العربي الذى استوى على قدميه ، واصبح وهو النازح الامي ، مبشرا ورسولا ، وصاحب بيان • لقد أصبح جزءا من الهيكل الذى طالما تعبد فيه ، واسلم قلبه الى ربه • وان لهذا المهاجر المناضل ، فضل الصدارة ، على زملائه الشعراء المستوطنين ، يحميهم وطنهم وقومهم ، وقانونهم ، ودولتهم ، ويحيط بهم مجتمعهم ، فيلازمهم ويلزمهم ••• ولكن من لهذا المشرد ، الهائم ، على الشاطىء المهجور ، يحمل من ماضيه ذكريات الاضطهاد ، ومن حاضره وقائع الاذى والهوان يتعلم العربية ، بين الجوع والعطش ، وانطفاء السراج ، حتى اذا تمتمت شفتاه بصلاة الدموع ، كان بعض صلواته ، شعرا يمجد به أهله وقومه وأمته ، وانه ليزداد وجدا وايمانا ، كلما اضعفوا مذهبه ، وأثاروا نعرته ونخسوا طائفته :

انى على دين العروبة واقف قلبي ، على سبحاتها ولساني
انجيلي الحب القديم لاهلها والذود عن حرماتها فرقاني

ومثل هذا النشيد المتعالي ، الملقى من عل ، ليس مقصورا على لهاة الشاعر القروى ، سيد منابر الشعر القومي في المهاجر الامريكية انه واحد من عشرات ، ظلوا يزرعون الحنين في تراب الغربة ، شعرا ونثرا ، حتى اخضرت الصخور ، وازهرت الاشواك ، ومشى الدم الغزير في عروق السيوف : ابو ماضي ، فرحات ، صيدح الشرتوني ، الجر ، آل المعلوف ،

وآل فنصل وسواهم ، ممن لهم في الشعر فرائد غير مجموعة قيلت في مناسبات قومية ، ودينية ، كان يشترك فيها مسلمون ومسيحيون ، على اسواء •

وهذا الياس فرحات ، يذكر ابناء وطنه بأن الصليب لا تجوز معه تجارة ، وباسمه سياسة وامارة ، ويقول لهم :

نار المحارق في اسبانيا اكلت ... باسم الصليب نتاج العلم والعمل
لسنا نجادل عميا يطلبون على ... ضوء النهار دليلا والنهار جلي
ان العروبة في لبنان سائدة ... من اخمص البحر حتى مفرق الجبل
ان كان يسمع فيه همس فرنجة ... بيض الصوارم لاتخلو من الفلل

وكأن محبوب الشرتوني ، يغيظ المارقين ، يطلبون حماية فرنسا الدائمة ، او ينتسبون الى فينيقية الضالة ، عندما يقول لهم :

قالوا تحب العرب قلت احبهم ... يقضي الجوار علي والارحام
قالوا لقد بخلوا عليك اجبتهم ... اهلي وان ضنوا علي كرام
قالوا البداوة ، قلت أطر عنصر ... صفت القلوب هناك والاجسام
ومحمل بطل البرية كلها ... هو للأعارب اجمعين امام

حتى عندما انطلقت الحناجر تدعو للتجديد ، في أرض الوطن العربي، فعلا و كلاما ، كان المجددون انفسهم في ديار الاغتراب ، يدعون الى الصحراء تعصبا لتراث عروبتهم وتقاليد امتهم ، ضد الفينيقة والفرنجة ، لاخصومة لتجديد حقا : فعندما كان حافظ ابراهيم يقول :

تغيرت الدنيا وقد كان اهلها ... يرون متون العيس الين مضجع
ونحن كما غنى الاوائل لم نزل ... نغني بارماح وبيض وادرع

كان فرحات ، يولي وجهه شطر الوطن المنكوب بدعاة تغريبه ، وبتر صلته بعروبته لغة ووطنا :

حي البداوة نوقهـا وخيامهـا | والجاهليـة رمحهـا وحسامها
حيتك اشباح القـديم وسلمت | فمن العدالة ان ترد سلامهـا .

وفي مكان آخر من قصيدة آخر :

فلينظر الناس هل من امة فعلت | للمجد فعل رعاة الشاء والابـل

اما القروي ، الذى مثل بروحه وسنه ، روحا وعقلا عربيين ، وعاش عروبته كما غناها ، فانه يأخذ بيد الضال الحيران ، يفتش عن نسـب له في فينيقية قائلا :

أتريد اعظم من ابي بكر ومن | عمر ، اذا انتسب الكرام ومن علي

فـكأن يأخذ طفلا أمامه ، ويفتح له الواقع الـكبير ، ويقرر بالسؤال جوابا لا مرد له ، ولا رد عليه .

قلت اني لا أقوم بدراسة أدبية ، في الشعر القومي ، ولن اتمكن في حديث قصير من الموضوع استشهادا واحاطة ، على نحو ما فعلت بزاوية من الشعر المجرى ، الذى احببت ، بالواقع ان اخصه بوقفة صغيرة ، أجمل فيها رأيي بأنهذا الشعر ، لو خلا حوله كثير من الشعر ، لـكفى وحده دليلا على وفاء الشاعر لنفسه ، وولاء العربي لعروبته . فهنا قد عبر الادب عن ضمير الامة ، في وسط لم تتوافر فيه قط أسباب التعبير ، او حتى أسباب التكوين البدائـي للشعورالقومي ، لاسيما اذا كان المغترب المهاجر ، قد حمل معه ذكريات الخروج ما حمل ، ولقي . بل قد عبر الادب فـي تفجيره مواهب أهله ، عن قوة الرفد الحضارى العربي عندما تتغذى بـه الطاقة الانسانية . لذلك انهارت الدعوات الغربية ، وغدت تحت اقـدام الجماهير التي سرعان ما تجمعت غريزتها حول هذا الهتاف القومي ، وتكون منه كثير من الـكفاية والغبطة .

ومما لاريب فيه ان اللغة العربية في البدء ، كانت طـــريق الادباء المهجريين الى التماس النجاة ، وجهاد الضياع • وقد بلغوا باللغة ، تاريخ الامة ،وبلغ بها التاريخ تراثها العظيم ، فانخرطوا في عمقه ، وتولت الطبيعة عندئـذ عملها في اعادة تكوين الانساني العربي • فـلم تكن اللغة لديهم ، غاية يقفون عندها لان طموحهم في غربتهم ، بعد ان تزودوا خير زاد ثقافي قـد بلغ بهم القمة التي اشرق منها فجر كامل من الشعور القومي الغامر ، بعيدا عن التيارات التي كانت تعكر صفاء الشعور القومي ، في ارض الوطـــن العربي نفسه ، وأبرزها التشاد الطائفي •

أقصد الى القول بان التكوين القومي الجامع الذى تم للمهجريين وادبهم ، مرده الى عاملين : الاول هو انغمارهم بالتراث العربي ، عن طريق اللغة العربية تمسكا بالنجاة ، وتمكنا من الوجود • والثاني ، هو حصول التجربة في جو توافر لـه الصفاء في البعد ، فسلم من تيارات البيئة الفاسدة ، وبهذا يكون جو الاغتراب عنصر صفاء في تبلور الشعور القومي ، لا عنصر تشويش وتعكير ، يضاف الى هذه العوامل ان الحضارة في المجتمع الامريكي الجنوبي لم يكن لها طابع مميز يدمغ الداخلين فيه ، كما هو الشأن في المجتمع الامريكي الشمالي ، حيث كاد ان يتلاشى الطابع العربي تحت تأثير عاملين : بعد العربي عن تماسه بتراثه ـ وقوة الطابع الحضارى في المجتمع الذى ارتمى في احضانه •

فاذا ما تقابل الطابع الحضارى الاجنبي مع التراث العربي ، كانـت الغلبة للتراث بقدر ما يحمل منه حامله في ذاته ، بصرف النظر عن مسـكنه ومقامه • ولعل أبا ماضي والريحاني ، وجبران ، ـ نماذج للتجربة واضحة فالاولان نموذجان للتأثر بالتراث تأثرا عميقا ، يشمل العـــقل والقلب واللسان(*) • واما الثالث فهو نموذج للانسان الشرقي ، المتمرد على لغتـه وتقاليد قومه ، الا ما تبقى له من نزعات روحية ، اسبغ عليها اضواء ثقافية

(*) يروى عن الريحاني ، أنه اجهد نفسه كثيرا في تعلم اللغة العربية، بعد اتقانه اللغة الانكليزية •

غربية ، فغدت كقوس قزح تجربة جديدة من تجارب التلاقح بين الشرق والغرب .

* * *

٣ ـ لن اتحدث طويلا في الوجه الثالث من ملامح الادب القومي ، وهو الوجه النضالي بتبسيط وتفصيل ، اذ قد لخصت فيما اوردت من شواهد ملامح الادب النضالي . والمقصود بهذا الجانب من الشعر ، عدم اعتماده على مقومات الوحدة من نسب ولغة ، وتراث حافزا له وغذاء . فهو دعوة الى النضال ، والقتال ضد العدو المشترك ، وانذار بان الغنم واحد ، والغرم كذلك فاما الفناء للقوم أو البقاء لهم جميعا . وقد حاول العقاد في قصيدة (تعليمية) جمع عناصر الوحدة في خمسة ابيات من الشعر ختمها بدعوة النضال المشترك والمصير المشترك :

شكواكم شكواي او سلواكم ... سلواي او اشغالكم اشغالي
ومطالب الغازين في بيدائكم ... كمطالبي وماآلكم كماآلي

بل بدأ هذا الشعر ، ينصرف عن التغني بامجاد الاسلام ، وذكريات الماضي ، ليتمكن العربي من مجابهة المستقبل والتفرغ له . وفي قصيدة مشهورة قال الرصافي :

تقدم أيها العربي شوطا ... فان أمامك العيش الرغيدا
واسس في بنائك كل مجد ... طريف واترك المجد التليدا
وخير الناس ذو حسب قديم ... أقام لنفسه حسبا جديدا

وكان رضا الشبيبي ، اقسى عندما نزع نزوعا عنيفا نحو التقدم ومجاراة الامم :

يا أمة من جهلها ... تأبى مجاراة الامم
ذلت حديثا أمة ... ابدا تفاخر بالقدم
وأحال منها رمة ... طول التباهي بالرمم

ومعنى هذه النماذج الشعرية ، أن الدعوة النضالية ضد الاجنبي الدخيل ، غدت دعوة تقدمية في الوقت نفسه • ولعل ابرز ملامح الادب القومي النضالي ، في هذه المرحلة ، انه بدأ يقرن النضال القومي بحركة الجماهير ، تعزيزا له ، وتنظيما لها ، وطفقت كلمة (جمهور) تتخذ مادة معقولة محسوسة ، أكثر مما كانت اللغة تعطي سابقا كلمة (شعب) •

وكان طبيعيا ان ترافق دعوة الجماهير العربية الى تسلم زمام النضال ، حركة قلمية تدعو الى النظر في واقع هذه الجماهير ، واوضاعها المادية والروحية وتحديد علاقاتها الاجتماعية ، الجديدة • وكان الشعر الذى عقب كارثة فلسطين ، يحمل طعم المر والدم في كثير من دعواته النضالية لاضد الاعداء الغاصبين فحسب ، بل ضد من قادوا الشعب من حكامه وخدعوه وباعوا جهاده ، ومثل الشاعر عبدالكريم الكرمي - ابو سلمى - في معظم شعره مدرسة (الشعر الحر) • ولا يمكن حصر عدد شعراء هذه المدرسة ، اذ قد انتشرت بين شباب العرب في جميع ديارهم ، وعلى الاخص خلال العشرة الاولى بعد منتصف هذا القرن ، كآبة وحزنا وتمزقا وغضبا •

أما انشغال الاديب بمشاغل قومه سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، فقد أعرب عنه شعر مهجرى اخترت منه ، هذه الابيات الحاشدة الجامعة للشاعر صيدح :

ياولاة الامور سمعا لشكوانا	وسعيا •• ان المهم المقدم
أوثقوا عروة العروبة فينا	ذهب ريح امة تتقسم
وجهونا فنحن قوم حيارى	بالزعامات والطوائف نأتم
افهمونا كنه السياسة إنا	قد شقينا في حب ماليس نفهم
عللونا بوحدة الروح تأتي	بعدها وحدة التخوم فتسلم
ارشدونا الى السبيل المؤدي	لامان القطيع في غاب ضيغم
دربونا على انتزاع كفاف العيش	من قبضة الثري المنعم
وانصرونا على غلاة اساؤوا	فهم طه وفهم فيسى بن مريم
شهد الله ما أردنا وليا	غير من حرر البلاد ونظم

وانه لجلي من سياق هذا الشعر ، ان الفكر طفق يلازمه ، والعقل ينظمه ويبصره بواقع المجتمع ، وتبعات اولياء امره وانه لذو اغراض غدت ابعد من نخوة وحماسة ، وانتساب لانها تتناول كل ما يعني الامة ، والشعب، واولياء الامر ، من مشاغل الجاد الى مشاغل العمل والتنظيم ، فاذا لم يكن الولي محررا أو منظما ••• ففيم ولايته ••• ولمن ؟! ان الشعب لا يريده اسما اذا لم يكن فعلا •

أرجو ان أعذر اذا اقصرت في الاستشهاد بطوائف واسعة من شعر الشعراء ، اذا قدمت بعضا ، واخرت بعضا ، وسهيت عن بعض • فانني كما قلت لا اقوم بدراسة ، ولست ابتغي التقصي • انما ما رويت من نماذج شعرية ، كان محاولة لتوضيح الملامح في المشهد العام • وقد اصررت على تتبع الشعر المهجرى ، لانه بالواقع تعبير بليغ عن المقومات الثابتة والمتحركة معا في تيار القومية العربية ، واتجاهه في طريق الوحدة ـ اولا ـ ولانه قد اتيحت له الظروف الزمانية والمكانية ليتسامي عن الاختلاطات التي رافقت الحركات والمحاولات القومية في أرض الوطن العربي بالذات ـ ثانيا ـ

ومهما يكن من شأن الشعر في حياتنا القومية ، فيجب ان نؤكد ان عنايتنا به ، لم تكن قط دون قيمته وقدره ، وأحيانا بلغ من تقديرنا هذا الكلام الفني الرشيق ، ان نسينا واجبنا نحو أنواع شقيقة من التعابير الادبية الاخرى •

فكم باحث ، حصر جهده وعناءه في جمع الشعر ، ودراسته وتحليله، وقصر في جمع فنون النثر ، والافادة منها فيما يبتغيه من دراسة التاريخ او حياة المجتمع(*) •

وبالحق اننا لا نستطيع ان نفي البحث حقه ، امام الاجيال ، اذا اعتبرنا ديوان الشعر ، تاريخنا ، ومرجع ابحاثنا • ففي الموقف اللبناني ـ مثلا ـ ضد نزعات الفرنسة او الفينقة ، او القومية السورية الناهضة

(*) من الكتب المفيدة في جمع الشعر وتحليله ، كتاب للدكتور عبدالكريم الاشتر (الشعر المهجري) •

للعروبة ، آثار رائعة من النثر بأقلام الفئة الممتازة من الادباء والباحثين •
اما المعركة ضد الفرعونية فقد اسفرت عن آثار قلمية اسلامية ، تعتبر ذروة في الابداع الفني ، والعلم التاريخي • فكيف يمكن ان ندرس تاريخ نشوء هذه الدعوات وموتها ،واسبابها ، فيما وصل الينا من قليل الشعر ، ولا ندرسها في الكثير من النثر الذى عالج المشكلة واحاط بها ، وسجل وقائعها للاجيال ، • ومن اجل هذا ، ذكرت في مدخل اللمحة العامة عن الشعر القومي ان فكرة الوحدة العربية انما تدرس في مظانها : في المقالة ، والبيان السياسي ، وكتابة التاريخ القومي ، والبحث الاجتماعي ، والشعر • واعتقد ان دراسة القومية العربية بحركتها الجديدة المعاصرة في هذه المظان الرئيسية، من شأنه ان يكشف لنا عن دقائق نموها وتطورها ، مقارنة ابدا بالظرف السياسي ، والبرهة التاريخية ، والمستوى الاجتماعي والاقتصادى • ومن شأن هذا البحث ايضا ، ان يساعدنا في كشف مستقبلها مثلما ساعدنا في كشف ماضيها ، لاسيما وان علوم التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، والنفس ، والانسان ، اصبحت ذات قواعد ، لا نزعم انها نهائية او حسابية ، بل دقيقة بما يكفي لقياس الواقع ، وتحديد تخوم الممكن من غير الممكن ، والموهوم من المعقول ، بأقل تقدير • لاسيما اذا استرشد هذا العلم بتجاوب الشعوب •

أما ان يتجلى القصور عن العلم المعاصر ، بالسلبية العزيزة على قلوب بعض مثقفينا ، التي تتخذ شعارا لسلبيتها ، عنوان الدكتور الكسي كارل (الانسان ذلك المجهول) ، فلا اقل من ان نرد على هذه السلبية المخدرة للعقل العربي والمريحة في آن واحد ، بأن ندعو الى بلوغ ما بلغوه من شأو في المعرفة لنتعرف على حدود العلم والجهل • والجاهل لا يحق ان يقرر حدود العلم •

بهذا أعود الى الشعر ، كرة ثانية ، لاجمل ملامحه ، بنوعين ؛ لا أظنه يتعداهما ، على تنوع اغراضه وفنونه واساليبه • وهما أنه غناء ، وخطاب وكثيرا ما كان غناء وخطابا معا في مواقفه القومية •

ولا نكران ان الغناء والخطاب لاءما ذوقنا ، وشعورنا ، ومستوى تفكيرنا فيما مر بنا من أحداث ، حيث كنا بأشد الحاجة الى نوع من الحداء لنسلو ، ونوع من الغناء لنصفو ، ونوع من النشيد لنشتد ، ونوع من الخطاب بالصوت المدوى ، لنتحرك ، وتنفعل وترهف السمع ، ونجلو البصر • وان الشاعر والسياسي والخطيب ، والقائد ليعلمون أن التوقيع على نغم يهز الفكر ، أو القلب ، لا يبلغ مهما كان جميلا الا اذا خرج الى هدفه بالصوت العالي ، وبالسهم الحاد • حتى أن التطرف في أداء كل فكرة أو مذهب ، ليس سوى جنوح الى التأثير بالتعبير الصاعق لان صاحب التعبير يعلم سلفا انه ليس ببالغ هدفه في النفس الا ان يقرع بابها قرعا عنيفا ، مهما كان رد الفعل من بعد ، وحسب القارع انه اسمع ، وشق الى الغفلة واللاوعي ، والجمود المثير ، طريقا لصوته وعقله وقلبه •

انا نعترف بهذا الواقع النفسي ، على انه نابع من واقع اجتماعي وثقافي ، يضاف اليه واقع الحدث الطارىء ، الذى كما قلنا واقع المعركة • والصراخ بالصوت العالي جزء من سلاح المعركة وتكوينها •

ومع اعترافنا بواقعنا النفسي الاجتماعي ، لامندوحة من التأكيد بأن التعبير بالغناء والخطاب ، ليس سلاح المعركة وحده ، او هو ليس سلاح الميدان ، بالاحرى • لان الميدان اوسع افقا ، وابعد اتصالا بالمواقع الكثيرة ، التي تغذى المعركة من قريب او من بعيد •

ومع تسليمنا بأرجحية المعركة في حياتنا القومية وبحالة الطوارىء التي تسود ظروفنا المعاشية والروحية ، يجب ان نستدرك بادراك ان المعركة ليست مجرد اصطدام عابر بغزوة ، بل هي امتداد نضالي مستمر عبر أجيال واجيال ، لان العدو الذى ندخل معه معركة المصير ، ليس مجرد عدو معروف موصوف ، بل هو الى جانب ذلك وقبل ذلك حالة عداء غامرة شاملة تحيط بالامة وتبتدىء منها وتتداح دوائرها حولها • والامة معها في حالة دائمة من قبول التحدى ، والاستعداد للصراع • وان من شأن حالة الصراع ان تفرض حركات رياضية ، يمارس بها الجسد المتصلب المتخشب ، تمارين

الكر والفر ، والمضاء والالتواء ، والاستقامة والالتفاف • يعني كل ثقافة الفروسية الاصيلة التي هي تمارين روح وجسد ، وعقل وخلق •

وليس كاللغة العربية من يعي قيما مادية ومعنوية متماثلة ، لالفاظ الترويض ، والتأديب ، والتثقيف ، والتهذيب • وليس كالسلف من يقرن الادب بالعلم والعلم بالعقل ، والعقل بالاخلاق •

لعل هذا المتكأ من الحديث ، يجيز لي ان أعود الى السؤال عن ثقافة الوحدة وكيف يجب ان تكون •

لابد ان عرض المشكلة ، منذ البدء ، قد اوضح الغاية من طرح السؤال ، ورمى بعض خيوط الجواب •

وسأطوف حول السؤال بعض الطواف عسى ان يزيد الجواب وضوحا • مع الاشارة دائما ، انني لا ابحث ، بل اقدم للبحث •

اننا لا نجهل بان علوم التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد ، والتدبير السياسي ، تدخل الى معالجة شؤون المجتمع من أبواب مختلفة ، كل من باب اختصاصه وتخرج كلها أمام الهدف الواحد وهو ضبط واقع المجتمع وتخطيط السلوك الانساني ، وانماء القدرة البشرية على تغطية القدر الاوفر من المجهول ، وتمكين هذه القدرة من رصد المستقبل ، كأنه بين يدى صانعه ، وتسليط ارادة الخير على العالم •

حتى ان العلوم الطبيعية نفسها التي تجعل المادة موضوع العلم ، لا تتمكن من التصرف بالنتائج التي تبلغها ، وبالحقائق التي تعطيها ، فقد تزيح القنبلة جبلا من طريق المدينة ، وقد تزيح مدينة من طريق الوجود • لكن العلوم الاجتماعية التى تجعل الانسان موضوعها ، فان هدفها اعظم طموحا وقدرا ، لانها ترمي الى التحكم بالطبع الانساني الذى تطوف حوله • صحيح ان الانسان طبيعة ، وهو امنع معاقل الطبيعة ، على العلم المادى والعلم الاجتماعي معا • والصحيح ايضا ان العلم المادى ، يحاول ان يغرس الفضيلة في دمه ، ونسيج مادته ، غرسا صنعيا ، يشبه صنع الآلات بينما يحاول العلم الاجتماعي ، ان يكشف له عن ارادة انسانية ، بها وحدها

يمارس فضيلته بطوعه واختياره • ان العلوم الاجتماعية لا تنتظر نتـائج العلوم الطبيعية في الانسان ، لانها لا تهدف الى تغيير طبيعته ، بل الى تطويعها• تلك تؤمن بالخـلق وهذه تؤمن بالتهذيب • لعلهـا أكثر طموحا أو ادنى ، ومن المؤكد انها اكثر انسانية ، واسمى غرضا •

ان هذه العلوم الاجتماعية ، قد سلطت انوارها على الوجود الانساني ، والمجتمعات البشرية ، وكشفت خلال مئة السنة الاخيرة عن غياهـب ، لـم يكن يجروء العقل عليها الا بالظن والتوهم • من العائلة الصغيرة ، فـي الـكوخ حتى الامة الضخمة في عين الشمس ، تدرجت العلوم صعـودا ونزولا ، وتوسعت وتعمقت في نطـاق شعب معروف ، وقبائل مجهولة • عوالم تعيش ، مندثرة ، تدرس فيها حياة الانسان • ينظر المؤرخ الى ماض شعب ، ليفهم في ضوء معارفه ، حقيقة واقعه وحاضره ، ثم طريق مستقبله • أما العالم الاجتماعي ، وان يكن لا يجحد أثر الماضي في تلاوين الحاضر ، فان مذهبه في البحث ينطلق من كشف الحاضر ، ليفهم فيه أثر الماضـي ، وامكانية المستقبل •

كذلك يتعارض الاقتصاد الفردى ، علما وعملا ، مع الاقتصـاد الجماعي • واحد ينطلق من الفرد ليصعد نحو المجتمع ، واخـر يبدل اتجاهه منطلقا من المجتمع الى الفرد •

ومثلما يغوص العالم الاجتماعي ، والمؤرخ وسط تجربة المجهول ، ويخرج كل منهما حاملا بين يديه ، أثرا او دليلا على أثر ، وغنما أو بعض غنم • كذلك يتنافس الاقتصاد ان في حياة المجتمع وثروته ، كأنهما فارسان يحثان جوادين ملتهبين ، في حلبة لاعدد لاشواطها ولا نهاية •

ان ما كسبه الفارس الواحد من اخطائـه ومن مهارة خصمه اجزل مما كسبه بالواقع من علمه ومعرفته وصوابه • والتحـم النظام الفردى بالنظام الجماعي ، التحاما عقائديا خرج بالمعركة من طور العلم ، الى طور المذهب والعقائـد وظل الواحد يأخذ من مكاسب الاخر سواء اقر بذلك أم لم يقـر • وليس السبق في نهاية الشوط ، ان كان لـه نهاية ، بـين

الفردية والجماعية الا لمصلحة الفرد والمجتمع معا •

متى يجوز ان يرجح مذهب المؤرخ على مذهب العلم الاجتماعي ، في دراسة أحوال المجتمع اى متى نبدا من الماضي صعودا الى الحاضر او من الحاضر ، نزولا الى الماضي ؟! •• وما فائـدة كل من الاسلوبين •

ما هي الطبيعة الطبقية في المجتمع العربي • اهي ثقافية ، أم اقتصادية أم اجتماعية • وبم نعـالج عندما نعترف !؟ هـل صحيح ان التخلـف الاقتصادى والاجتماعي ، عرض لمرض التخلف الثقافي ؟! ما هي حوافـز التقدم ، وعوامل التخلف بين مجتمع عربي واخر ؟! هل تنجع حمـلات التنوعية ، في الاوساط الامية ؟! وما هو اثر الامية في فشل القيادات المتنورة ، وفي نشر الرأى العام الواعى ؟! وهل الامية في بعض المجتمعات ضرورة سياسية لاستتباب الحـكم واستقراره •••! الخ ••••

في أى حال من الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، ينجع الاقتصـاد الفردى ، أو الاقتصاد الجماعي • هل يجب ان يتمذهب العربي بمذهب اقتصادى أم يجب ان يكشف عن اسرار علم الاقتصاد ، ليعمل سـحر العلم في تحصيل الثروة • وهل الثروة قوامه على الانسان أم الانسان قوام على الثروة ؟! وهل المجتمعات سواء في تقبل المبادىء وتطبيقها •• الخ الخ •

ان اى سؤال من هذه الاسئلة ، يجذب نحوه حشودا من الاسـئلة والاجوبة • ولسنا نحسب المجتمع العربي ، الذى نبنيه ونوحده بغنى عن الاسئلة والاجوبة لان الجهل بها ادعى لراحة نفسه واستقراره من العلم بها ! كما لا يهم اباحث العقلاني ، ان يأتي الجواب فورا على راس اللسان بان هذا الاقتصاد اجدى ، وذاك الاسلوب في التوجيه والتخطيط ؟! لان أقل جواب يجذب اليه هذه الاسئلة : لماذا ؟! وكيف ••• ومتى ••• واين ••• ومن أجل ما ••• ومن أجل من ؟! ولان الجواب يجب انيكون قاعدة ، لا اهتزازا ، ويقينا ، لا رجما • وعلما لا غناء ولا حداء •

كذلك يبدو للمتأمل احيانا ، ان العربي في طريقه الى وحدة أمته ، انما ينظر بالواقع الى وحدة ذاته ، ووضوح هويته ، فيتمنى ان ينقذ ذاته

من التناقض ، وهويته من الغموض •

ان الاسئلة لا حصر لها ، مما يعرض للمواطن العادى والمثقف على السواء • وقد يطرحها العادى كأنها أغنية (اللاأدرى) لابي ماضي ، وقد يتعثر ويزداد تمزقا وحيرة وانطواء •

انا اذ نشير الى هزال ما قام لدينا من البحوث الاجتماعية ، التي تثقف المجتمع العربي ، وتبصره بموقفه الاجتماعي والتاريخي ، وتثبت في عقله وضميره ، وحدة الامة ماضيا ومستقبلا ، نضرب مثلا واحدا على ذلك بان تاريخ العرب ، كوحدة ، لم يكتبه كاتب بعد ، ولم تتوله حكومة بما يستحق من رعاية ، سواء اوقع موقع التفكير منها أم لم يقع • وليس جمع التاريخ ، باسلوب أحمد أمين ، ولا التركيز على بعض جوانبه وعبقرياته باسلوب عباس محمود العقاد ، بالتاريخ العام للحدث العربي على ما في المجهودين المذكورين من عمل فكرى وادبي رائع •

لقد اغنى بعض الكتاب والمؤلفين مكتبة العصر ، ببحوث في التاريخ ونشوء القومية العربية ، وتحليلها ، وادوارها الحديثة ، كالاساتذة فريد أبو حديد وساطع الحصري ، وعزة دروزة ، وكتب في التاريخ العام ، جزئيا أو كليا مؤرخون كالاستاذين فيليب حتي ، وجورج انطونيوس في امريكا الشمالية ، فكانت هذه الاعمال التاريخية ، اعمالا مقدورة احسن الله الى اؤليائها ، ولكن حاجة الامة غدت اوسع مطلبا ، وابعد مدى ، لاسيما وان الاجيال العربية المتابعة ، لا ترى ، أمامها اثرا قوميا تاريخيا جامعا ، ملزما ، ينعقد حوله اجماع المثقفين والموجهين ، واهل الرأى ، على انه الاثر الفكرى ، الذى تعاون له ، علماء التاريخ والاجتماع ، ورسموا له العمود الفقرى الذى يحدد اتجاهه ويشد اليه مجموعة ، ويختار لكل من الاحداث في السلك مقاومه ومكانه •حتى ليبدو التاريخ وحدة فقده وارتفاعه ووحده في جزره وانحداره • لانه تاريخ مجموعة بشرية جغرافية ثقافية واحدة •

وفي كل مسكن من مساكن العرب ، يحاول مؤرخون ، وجامعو عاديات ، ان يكتبوا شذرات من التاريخ ، كل بما ترغب قبيلته ، وتهوى

كأن التاريخ مقبرة مباحة عظام أمواتها للدارسين ، يبعثرونها تحت الاقدام أو يعلقونها في الصدور ويزينون بها جدران القاعات ، وانهم ليعلمون ابناء العشيرة ان هذا ما يجب ان يحبوا وذاك ما يجب ان يكرهوا ، كأن التاريخ مدرسة للحاقدين والاحقاد •

لسنا وحدنا بالامة العريقة التي تحمل التاريخ على ظهرها عبئا ثقيلا ، وتبعة تنقض منها المناكب ، وليست المخازي والمجازر ، بوقائع تلازمنا كخصائص او تدمغنا كطبائع • ففي تاريخ الاقوام ، شرقية وغربية ، ما هو ادهى منها ، وادمى • فكيف استطاعت تلك الاقوام ان تتغلب على انقلاب الموجات المظلمة من اعماق التاريخ فتنقذ الاجيال من طغيان الاشباح ، وعويل الدمار ، واثقال الاوبئة •

ليست كتابة التاريخ وحدها ، هي التي تقف الاجيال ، وادخلت التاريخ مادة حية في مستقبل الحياة • يبقى القول ان كتابة التاريخ القومي نفسها غدت في كل أمة ، دليلا من أدلة مجدها ، واثرا من آثار ذكائها ، وعاملا من عوامل وحدتها • وقد خلدت الشعوب مؤرخيها ، حتى ليغدو التاريخ القومي ، جزءا من كتبها المقدسة •

ونحن اذا عزمنا على الوحدة ، فلنعزم بلا وناء وفي البدء على كتابة تاريخ الامة دليلا للاجيال المقبلة على النضال المتصلة حلقاته ، جيلا بعد جيل وبناء فوق بناء • وليس فهم التاريخ القومي دليلا الى الوحدة فحسب ، بل تعميقا للوحدة وتوضيحا ، بما لا تعود معه بحاجة الى دليل •

ان المستشرقين ورواد البحوث في تراثنا وتاريخنا ، قد كشفوا لنا الكثير من مزايانا وعيوبنا • منهم من نظر بغرض ومنهم لم يكن له سوى غرض العلم ، مقرونا بمتعة الكشف وتحقيق الانتصار على المجهول ، وفي صناعة التاريخ القومي ، يحفل المؤرخون وعلماء الاجتماع ، بالنقد قصدا الى المزيد من البحث واكتساب اليقين وليست قدسية التاريخ في ان لا يمس ، بل في ان يخرج من أهماره ، وينفض من كهوفه ، وينشر للنور • ولعل كل ما عابه علينا المستشرقون أو طعنوا به علينا ، ليس ابلغ اذى من بعض ما

رمانا به مؤرخنا ابن خلدون ، عندما نظر الى ما وراءه في تاريخ العرب ، من نقطة خراب وظلام ، فظهرت في مقدمة الصورة وكأن كل شيء في حياتهم ، توحش وبداوة : أوتاد خيام مقلوعة ، وأثافي موقد ترحل عنها أهلها ...

وفي رأينا ان جملة من المجهود الفكري يجب ان يوجه نحو تآلف المستشرقين لاجراء الحوار بينهم وبين المثقفين العرب ، على ملأ من الجمهور العربي والاجنبي . لان الحوار عدا عن انه يوسع لاولئك الدارسين سبل الاطلاع ومتابعة الكشف في تراثنا فانه المدى الخارجي تعريف بأمجاد الحضارة العربية ، عن طريق النخبة من هؤلاء العلماء . وقد قال احد باحثينا لاجانب ان العرب مكروهون في كثير من الاوساط الاجنبية لسبب رئيسي انهم مجهولون ، على شهرتهم !

وليس الا ببحوث المجتمع العربي وباعادة كتابة التاريخ في ضوء الطاقات العلمية التى عرفت المجتمعات بالمجتمعات ، والشعوب بالشعوب ، ولقحت التجارب بالتجارب ـ ليس الا بمثل هذه العلوم نكشف واقعنا لانفسنا قبل العالم باسره ، وللعالم في الوقت نفسه دفاعا عن قومية انسانية غالبا ما تتهم بلعدوان وظراوة الاحقاد ، والتوحش ويرمى تاريخها بكل اقذاع وتشنيع ، وحاضر مجتمعها بانه ليس شديد التخلف فحسب ، بل شديد الاصرار على التخلف والولوع به ، لانه جزء من فطرة القوم وتكوين سعادتهم وراحة نفوسهم .

كيف يمكننا ان نرد على تهمة التخلف ، والاخلاص لروح التخلف ، وهى تهمة أمر وادهى ؟!

ان العلوم الاجتماعية التي نحن بحديثها ، وكان يسميها ابن سينا ، بالعلوم العملية ، كعلم تدبير المنزل اى التربية ، وعلم تدبير المدينة ، أى نظام الحكم السياسى ، وعلم الاخلاق ، والصناعة الشارعة اى التشريع ـ ان هذه العلوم العملية حقا ، ليست بحكم هذه التسمية العربية من ثقافات الترف والكماليات ، بل هى تولد بقدر ما مع كل دولة ناشئة ، وتنمو بالممارسة

والتجربة واقتباس خبرات الشعوب • ولقد تنامت شعبيتها بصفة خاصة في اوروبة ، خلال الحرب الاولى ومن بعد وان تكن منابتها الاولى موازية لتفاقم العصر الصناعى ، ولظهور رأس مال ماركس في أواسط القرن التاسع عشر • ولقد بلغت من اهتمام الرأى العام بها أن كانت مشاداتها الفكرية والسياسية احداثا يتابعها الجمهور ويترقبها •

وان يكن ظهور بعض الكتاب الاجتماعين وقادة الاصلاح في مصر وبعض البلاد العربية ، مثل محمد عبده وأحمد فارس الشدياق وأديب اسحاق ، والكواكبي ، والشميل وقاسم أمين وأمين الريحاني في الجيل الاول ، وخليل مطران وعباس محمود العقاد والمازني وسواهم في الجيل الثاني ، ان يكون ظهور بعض الادب الاجتماعي على يد فئة من المثقفين ، دليلا على بلوغ تيارات العصر ، بعض الاوطان العربية ، فلا أقل من القول بان موجة الجديد ، ما لبثت ان انحسرت ، فمن هؤلاء الاصلاحين النقاد من صمت أو تقهقر ، أو تبدل ، ومنهم من لاذ بالشعر والادب الفني ، واخرون أخذتهم الصحافة اليومية السياسية أو العمل السياسي بالذات •

فقد عرف خليل مطران في طلعته الاولى ، على انه شاب مثقف يترجم شكسبير من جهة ، ويكتب في علم المالية والاقتصاد ، وله ترجمات مشتركة في هذه الشؤون مع زميله العقاد ، كما عرف في نشأته بان كاتب اجتماعي ، يلاحق تيارات العصر ، ويرصد الاشتراكية بصفة خاصة ، وفي رد له على الدكتور غوستاف لوبون الذى ترجم بمصر تحت عنوان (سر تطور الامم) يحمل العقاد العربي ، على الفيلسوف الفرنسي ، لانه عدو المساواة والاشتراكية ، ومع الفرد ضد الجماعة ، ويبدو العقاد ذا نزعة اشتراكية واضحة •ثم يزول مطران الباحث الاقتصادى ، والعقاد الناقد الاشتراكي •

بل ان الخط البياني الممتد من القرن التاسع عشر ، حتى منتصف القرن العشرين ، في مضمار البحث الاجتماعي والنقد الاصلاحي يميل نحو الهبوط ،دون الصعود ، كما هو مفروض • فمن يقرأ احمد فارس الشدياق – مثلا – ١٨٠٥ – ١٨٨٧ في مطلع القرن التاسع عشر – اى قبل ان يتجه

علم الاجتماع والاقتصاد في اوروبة نفسها نحو الجماهير - يلمح في تفكير هذا الرائد ، نزعة علمية تحررية اجتماعية ، ترسم زاوية حادة لانطلاق جديد في التأليف العربي • فاذا ما بلغ المتتبع عصر محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥ و ١٩٠٢ - وجد ان الخط لا يزال في اتجاه الصعود ، بحيث ان مطلع القرن العشرين سيسجل زاوية جديدة للانطلاق • وبرغم تنوع ثقافة العصر ، وغناها بالترجمات عن الاثار العلمية، في هذه المرحلة ، واتصال عدد كبير من المثقفين بالمجتمعات الغربية بمعنى ان الباحث يفرض احتمال التصاعد الدائم لا يلبث ان يلاحظ الفكر الاصلاحي ، الذى هو فى عهده وزمانه ، فكر ثورى حقا في اجواء باردة مائعة ، وتنعدم ملامح الجرأة ، أو الثورية في التفكير العربي ، مقاسة بوثباتها السابقة في عصر مضى • والشواهد القليلة التي تثبت العكس ، لا تقلل بالحق من قيمة هذا الواقع : وهو ان الفكر العربي طفق يتجنب التماس بالمشكلات الاجتماعية ، التى هى مشكلات قومية • ونعني هنا بالمشكلاف القومية ، انها ليست مقصورة على مسكن عربي دون اخر ، بل هى عامة تشمل جميع اجزاء الوطن العربي ،الذى تحكمه تقاليد واحدة ومقاييس اجتماعية واخلاقية واحدة على ما بين جزء وجزء من درجات التفاوت •

ومع الاعتراف بأن السوية الاجتماعية والثقافية في عصر الشدياق ، دونها في عصرنا نحن ، فان طاقة التوتر الفكري التى انطلق منها الشدياق ورواد الاصلاح منذ منتصف القرن التاسع عشر ، هى التى تدنت نسبتها من بعد ، تدنيا واضحا امتد حتى منتصف القرن العشرين • ولو استمر الانطلاق الفكرى العربي من نقطة التوتر التي انطلق منها الشدياق منذ الثلاثين الاولى من القرن التاسع عشر ، لكان يجب أن يكون تفكيرنا على سوية التفكير الاوروبي • فماذا حصل ؟! وما هي علة الانتكاس ، والركود ، والهروب ؟!

قبل الجواب لابد من ان نتعرف بسرعة على مصير الدعاة الاصلاحيين

والمفكرين غير العاديين • كل منهم ، بدءا من الشدياق الى الكواكبي ، ومحمد عبده وأديب اسحاق وولي الدين يكن وسواهم ، لقي السجن والهوان والنفي والتشرد • ثم خرجت موجة من بعد ، لتخذف بعض الآثار الى النسيان على أنها ضلال وتضليل(*) كأن يدا مأجورة ، مديرة ، قد دخلت في التاريخ ، لتقطع الخط المتصاعد ، وتمحو آثار الخطى ، نحو التقدم •

وعلى هذا فان الجواب عن سؤال : أين علة الانتكاس ؟! انها في المجتمع الظالم والحكومات الجاهلة • ان اولئك الذين اذنوا بالفجر ، لم يكونوا أئمة صلاة الصباح • والذين قرعوا الاجراس ، لم يشاهدهم المصلونو في الهيكل ، لانهم كانوا قد شنقوا بحبل القبة • بل قد جار المجتمع على قادة الفكر اكثر مما جار رجال الحكم • اذ كان يصعد الى منبر السلطة بين الحين والحين ، حاكم متنور ، أو دعي التنور على الاقل ، فيدعو الى صلاح واصلاح ، ولكن المجتمع العربي ، او بالاصح المجتمعات العربية كلها ، سادها غباء مظلم وانغلاق عنيف ضد أفكار الاصلاح ولعل كثيرين من المثقفين عرفوا وزراء دول ، يحملون أفكار الاصلاح وبذور التقدم في صدورهم ، واسرارهم ، فلا يجهرون بها ولا يقدرون • فاذا ما خاطبهم المتنور سرعان ما اجابوا بأنهم عاجزون او أن الامر ليس بين ايديهم ••• انه للناس ، للمجتمع ••• لهذا الشيء الضخم ، المنبح ، كليل امرىء القيس ، للجمهور •• هذا الجمهور الممتنع ، المجهول ، الذى يأبى عليك أن تتعلم لتعرف به ، او لتعرفه بنفسه ، فكيف يبيح لك ان تزحزحه عن راحته ، او أن تبدله تبديلا •

ثم قد نشأت من وراء هاتين العلتين اعراض مرضية ثقافية وبرزها

(*) ان جمع (النثر الاجتماعي) ، لنخبة من أدباء القرن التاسع عشر – في النقد والاصلاح والتوجيه – اصبح ضرورة قومية تلفت اليها انتباه المحققين والباحثين ، ولا سيما ، ما ظهر منه في صحف اصدرها هؤلاء الرواد ، وكانت منابر للشعب •

هروب المثقفين من قضايا مجتمعهم ، بما ان معالجتها مغامرة وغرم عداما يبذل لها المثقفون من جهد وعناء وعلم • واقترن ذلك بما يوازيه من اهمال الحكومات للبحث الذى يكشف عن موطن التخلف ويرشد الى سـبيل التقدم •

ثم قد اتسعت دائرة المجتمع ، فشملت معارف شتى ، تزداد يوما بعد يوم ، حتى اصبح البحث الاجتماعي نظـريا وعمليا ، ممتنعا على قدرة الافراد ، وصار لزاما له حكومة متنورة ، تكفيه وتحميه معا ، والا استمر انحدار الخط البياني ، في الفكر العربي ، حتى في النصف الثانى من القرن العشرين ، وهو المرحلة التي نشط فيها الحكم العربي وبدأ ينهض على قاعدة واسعة من مصالح الجماعات ، وتقويم المجتمعات •

كنت منذ شهور في حديث مع البحـاثة الموسوعي الاسـتاذ عثمان الكعاك ، عما قام به العرب في هذا العصر ، وما يجب ان يقوموا به ، سواء من ناحية الكشف عن الجليل المفيد من تراثهم او من ناحية التحصيـل العلمي لشؤون حاضرهم ومستقبلهم • فذكر لي الاستاذ الكعاك نموذجا من اهتمام الاجانب بشؤون البلدان التي ينزلون فيها ، ويستعمرونها ، وكيف يتحول هذا الاهتمام المصلحي ، الى علم وبحث علمي • فقال انه قد صدر باللغة الفرنسية ثلاثمائة بحث جيولوجي عن تونس • وخمسة وخمسون كتابا عن (النملة الحمراء) وهي حشرة ذات خصائص علاجية طبية ، كما ان هناك ثمانية آلاف رسالة عن الحشرات المضرة بالزراعة في ليبيا ، باللغة الايطالية ••• الخ الخ •••

فالطريق واحدة اذن ، وليس هناك طريقان لمن يريد ان يستعمر ، ولمن يريد ان يتحرر من الاستعمار ••!! وان يكن ثمة من فروق بيننا وبين مستعمرينا ، فهو أنهم برغم المجهول أمامهم يزرعون ، ونحن في جو الصفاء والمستقبل المعلوم ، لا نكاد نزرع شيئا •

* * *

قد يعترض أحد على أن هذا البحث ، يمكن ان يوضع تحت عنوان

(الادب والمجتمع العربي) او عنوان (الادب والعلـوم الاجتماعية) أو (الادب والثقافة العامة) ، اكـثر مما يمـكن أن يوضـع عنوان (الادب والوحدة) • فاذا ورد مثل هذا الاعتراض ، فانني اجيب بأنني ما قصدت سوى ادب الوحدة وثقافتها ، بالعنوان وبما تحته ووراءه •

ولقد اخترت الطريق ، الى الوحدة من مدخلين :

الاول وهو النظر في مقومات الوحـدة ، واعتبار النضـــال القومي المشترك ، عنصرا اساسيا ، دينمائيا من عناصر الوحدة الى جانب العناصر الثابتة ، من أصل ولغة وتاريخ ، وتراث •

والثاني اعتبار النضال تثقفا وتثقيفا ، لا مجرد معركة ذات زوبعة ، تنتحر في دوارها عند اقرب أفق •

وعندما يثبت لدينا ثبوتا ذهنيا وعمليا أن الوحدة ، معركة وثقافه ، كما قلنا ، يكون قد تأكد لنا معنى المناجزة والمطاولة ، في معركة ، ليس لميدانها حدود الا حدود اقصى طاقات الامة مادة وروحا ، حاضرا ومستقبلا• والعلوم التي نقترحها على انفسنا ، هي علوم تأهيل المجتمع العربي ، لمعركة نضالية كبرى ؛ يدخل فيها مادة حية ، لا حطبا ولا هشيما •

ان العنصر النضالي ، كمولد للطاقة الدائمة ، في حركة الوحدة ، هو خير عناصرها ، لا سيما اذا استطاع ان يقبس من العناصر الثابتة ، طاقات مولدة ، وحركة مستمرة • ولقد تداعت شعوب افريقية المستقلة ، الى وحدة النضال ، للتخلص من الاستعمار ، والتخلف ، وليس لديها من مقومـات الدعوة سوى الغنم المشترك ، والغرم المشترك •

ولقد ضرب نكروما ، رئيس غانا ، مثلا بسيطا في دعوته الى الوحدة الافريقية ، بأن اوضح للافريقيين أن سدا للمياه على أحد انهر بلاده ، يكفي ، فيما عدا الري ، لتوزيع قوة كهربائية تغطي افريقية كلها ، على أن مشروعا ضخما لكل افريقية ، لا يمكن أن تنهض به الا كل افريأية •

فالدعوة الى الوحدة ، دعـوة الى مكافحة التخلف والاستعمار في الوقت نفسه •

يبقى أن تستطيع القيادة رفع الشعب الى مستوى الدعوة • وهذه هي رسالة الوحدة •

ويبقى ان ينعقد العزم ، على ان الانسان ليس غاية الوحدة فحسب ، بل هو السبيل اليها ايضا •

فؤاد الشـــايب
عضو وفد سورية

– انتهى –

الادب والوحدة العربية

بقلم

محمود الروسان

حضرات السادة المؤتمرين ....

احيي جمعكم هذا أطيب تحية . احييكم باسم العروبة والاسلام ، وخير تحية تقدمها الانسانية وتتوق لها البشرية ، ان يرفرف على ربوعها لواء السلام عاليا غير منكس غير مدحور ... فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

وانه ليسعدني ان اقف بينكم في هذا البلد الطيب المضياف الذى ضمخ أجواء أمتنا العربية العريقة على فترات متعددة من التاريخ بين متباعدة ومتقاربة باروع عطر واكرم شدى من البطولة والابداع والروعة والفخار ، والكرامة والمجد ، راية خفاقة ، وسيفا مصلتا ومنارا للعلم لا ينطفيء .

هذه دار السلام ملتقى القادة العظام ... دار الرشيد .... مختبر المأمون فيلق المعتصم محراب ابي حنيفة ... يسير فيها وعلى هدى وبصيرة وبأيمان عميق عميق ، مستمد من رسالة امتنا الخالدة الماجدة وقوميتنا الراسخة الشامخة المنطلقة نحو السوءدد والعزة رسالة امتنا في الوحدة والحرية وتحقيق الاماني القومية .

ابن العروبة البار السيد الرئيس ، مجردا من كل لقب الا لقب الخير والنبل والرجولة والاقدام والوفاء بعيدا عن كل زخرف تحف به القلوب

المؤمنة كلما اقبل على ربه في محراب صامت وركن وقور ، وتتعلق به العيون المتطلعة ، كلما بعثها صرخة مدوية لتوحيد الصف وجمع الكلمة والتضامن العربي ورفع مشعل العروبة عاليا خفاقا وانقاذ الوطن السليب من أيدى المغيرين ومخالب المستعمرين وتزين جبينه اكاليل الغار والفخار كلما انطلقت من حنجرته دعوة العروبة والقومية الرائدة تتعانق مع راية الاسلام ... ذلكم هو عبدالسلام محمد عارف ....

ومن تلك التربة الطاهرة المقدسة المضمخة بالنجيع ، نجيع الشهداء الذين تستصرخ ارواحهم قادة العرب ورجالاتها للثأر والكرامة ، من رحاب الاقصى المبارك وجنبات المهد والقيامة ... من هناك من قلب الاردن ، أردن العرب ، وجنوده البواسل ابناؤكم واخوانكم جنود بواسل من ابناء العروبة يقفون على خط العروبة الاول وهم يحملون رسالة امة ويحرسون كرامة قومية ، وينتظرون يوم الثأر ليكونوا من طلائع الفداء وفيالق امتنا العظيمة ومن كتائب الزحف المقدس وليؤدوا الرسالة مع جيوش العروبة في انقاذ من استلب من وطننا ، فردوسنا الغالى ، فلسطين العرب ... من هناك من ميدان التجمع الكبير ومركز الانطلاق المتلهف ، من ضفتي الاردن ، النر الخالد ، المستغيث نهر العرب ومن تربة فلسطين الجريحة انقل اليكم التحية تحية الوفاء تحية الامل تحية الفداء واحيي العراق الشقيق ، وشعب العراق العظيم وابطال العراق المؤمنين الصامدين واى تحية اسمى من ان يذيب رجال الفكر والقلم عصارات عقولهم وسمو مثلهم في بغداد لتكون عطرا للقلوب المؤمنة وغذاء للارواح العطشى وافكارا تنير الدروب وتهدى الى الرشاد وتوجه للمجد والخلود ... مثلا تسرى الى كل اجزاء الوطن العربي الكبير فتحيي الامال وتحقق الاماني ...

اخواني

ان وحدتنا ... وحدة امتنا العربية الكبيرة ... وحدة شعوبنا المتلهفة للوحدة المتحفزة ... واذا كان حملة القلم ورجال الفكر هم رسل

التوجيه السديد والرأى الرشيد فمن واجبي في موقفي هذا بينكم ان اتناول موضوعا طالما تعرضت له الاقلام ، وبحثت تفاصيله العقول المستنيرة والافهام المدركة ذلكم هو (الادب والوحدة العربية) خاصة وان الفكر العربي الحركان دائما طليعة النضال العربي وسيظل ضوءا غامرا يهدى كل ضمير وطني ويدفع كل يد تعمل بصدق وكل قلب ينبض بالوفاء في هذا الوطن الكبير •

ان الاخطار المحدقة بعالمنا العربي الذى فرض وجوده ، وقال كلمته ، والتحديات التي تواجهها امتنا العربية التي ادركت حقيقة عظمتها وكريم رسالتها وقررت اين ستقف في هذا الوجود ، وكيف تحافظ على كرامتها ، كل هذه تفرض على رجال الفكر ان يجعلوا من اقلامهم ومن عقولهم المستنيرة الواعية ومن انتاجهم الفكرى عصارت وغذاء ينمي الشور بالقومية العربية وبالايمان بها ، وان يستلهموا من رسالة السماء ومن اقداس الكلمة المنزلة روحا تطوف بالطهر والحق واليقين • فيساعد الفكر بذلك على تكوين رأى عربي عام يحس احساسا مشتركا باهداف الامة العربية ويشارك ايجابيا في تحقيق هذه الاهداف وعلى تنمية شعور المواطنين بالمشكلات والصعاب التي تواجه وطنهم واحساسهم بمسؤولياتهم في مواجهتها ، وتحصين المواطنين ضد كل تسلل اجنبي بالرأى الدخيل المستورد لافساد الروح العربية وتوهين الشعور بالقومية العربية ومنابذة المثل العربية ••• كما ان من واجبهم تبصير المواطن العربي بالاخطار الخارجية التي تهدد كيان امتنا وتستهدف طهر رسالتنا وتشويه مثلنا ، اخطار الاستعمار والتبعية والصهيونية المجرمة وخلق روح النضال والارادة الايجابية لرد هذه الاخطار وحفزهم على العمل الايجابي لاستخلاص حرية الاجزاء السليبة من الوطن العربي وفي طليعتها فلسطيننا الحبيبة ••• ومن الضرورى كذلك العمل على تأكيد المقومات والاصول التي تستند اليها القومية العربية وتقوم بها ، وتأكيد حقائق التكامل العربي وتربية الضمير والسلوك الوطني بحيث تهدف كل هذه الاقداس الى بناء جيل عربي واع مستنير مؤمن بالله ، مخلص

للوطن العربي مدرك لرسالته القومية والانسانية واثق بنفسه وبأمته متبصر لقدسية هذا الوجود ، عامل للحياة وللخلود ••• ومن احق من الانسان العربي ، وهو صانع التاريخ وقد شائت ارادة الله ان تكون انطلاقته المجنحة ورسالته الكبرى من صميم تراثه ومن اعماق اقداسه ومن التربة التي كانت وستظل مهد الحضارات والديانات وللعربي فيها النصيب الاكبر في دفع عجلة التقدم الانساني والحضارى منذ فجر التاريخ الى هذا اليوم الذى يشرف فيه هذا العربي نفسه على نهضة حضارية كبيرة زاهرة تقوم على التحرر والتقدم وتحقيق العدالة الاجتماعية والايمان بالانسان العربي وبحقه في الحرية والمساواة والتنمية والعدل ، وقد عرف مكان وطنه من العالم ومركزه من التيارات ، والسياسات المعاصرة •••

ان القومية والعروبة ، وقد اشرقا برسالة الاسلام ، قيادة فكرية منبثقة من صميم دعائم الانسانية روحا ومصدرا هما المحور الضخم الذى تدور عليه احداث التاريخ كما انهما كل متكامل لنضال امتنا والنور الذى يجمع كفاحها على صعيد واحد ويحشد امكانياتها الضخمة في قنوات تنطلق من حصائل جهود العاملين من رجالاتها كما انها الخط الخط الوحيد لسير شعبنا العربي في الدروب والمسالك حيث التقى العرب بانفسهم على انبثاقه نور الحقيقة واشراقة الفجر الباسم الذى اضاء قلوبهم ••• ان عجلة التاريخ لا تدور الى الوراء وحتمية التاريخ لا يمكن ان تتجاهلها العصور او ان توهنها أو تدحرها قوى الشر وهي كثيرة وطامعة وستبقى قوميتنا المؤمنة النامية شرارة الحياة المتقدحة وجذوتها المتقدة كما ستظل الوحدة العربية الشاملة السبيل الوحيد لحل قضايانا القومية وفاتحة سجل خلود امتنا وعنوان وجودها وقد احتضنتها رسالة الهدى والنور ، وجبلت ذرات تربتها بدماء الشهداء •••

ان اللغة العربية ايها السادة هي وجه الامة العربية المنير ، وانعكاس خصائصها الدالة على الصدق والحق ، والمرآة المجسدة التى تعكس الصورة الطبيعية لقوميتنا ، انها روح الشعب العربي نحو المجد بقدر ما هي صوت

الحرية المجلجل ••• انها لغة الانسانية وجوهرها قدسية الكلمة ، وانها لغة الخلود ، انها اللغة التي توشحت خلال الصور بالاجلال والوقار والهيبة، فكانت حلقة خليقة بمد التواصل الانساني بالاستمرار جديرة بنقل الحضارة العالمية ، وبها مرونة لا تجاريها مرونة في اية لغة أخرى ، فما روعها من رسالة وما اعرقها من قومية وما اعظمها من وحدة وما اقدسها من لغة في وطن تجمعه اقدس الروابط وتنتشح قلوب ابناءه وتنير بأسمى المثل وتظلله ارفع سماء وتضمه اطهر تربة ويخلده تاريخ حافل بالبطولات ويسير لتحقيق اشرف الاماني والامال ونبل الغاية يتدفق كبريا واعتزازا فيحلق بالكلمة ويستلهم من الكلمة ويصور الحقيقة والحياة وهو يؤمن ان الكلمة والكلمة وحدها قادرة على التعبير وقد كانت وحدها منذ ان عرفت الانسانية وستظل وحدها نبراس الوجود وطريق الخلود ••• وبالكلمة وقد انطلقت مع الايمان مشت في ركاب امتنا العظيمة عندما كانت جيوشها تملأ الارض وتندفع وهي تدك عرش قيصر وتطيح بايوان كسرى وتبني للمجد وتصنع للوجود • عليها لواء العدل ويظللها رحمة السماء •••

اخواني :

لا اظنني بحاجة الى الاسهاب في سرد ذلك الصراع الذى كان يدور في ارجاء الجزيرة العربية بين قبائلها المتناحرة على بئر تستسقي منه أو كلأ ترعاه الماشية أو انعام تحمل القبيلة الى بلد بعيد ولا الحروب الطاحنة التى دارت عندما لم يكن للكلمة بعد ذلك القدر العظم ولا تلك القدسية التي يدركها رجال الفكر والقلم في يومنا هذا او في العصور التي تلت ذلك التناحر عندما كان يقول الشاعر :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان

او حين يردد اخر :

انا بنو نهشل لا ندعى لاب   عنه ولا هو بالابناء يشرينا

الى ان ولدت الكلمة الخالدة التي جمعت شملنا ووحدت كلمتنا وبدأ أثر الادب العميق في وحدة امتنا وبدأت مفاهيم الوحدة تتبلور منذ تنزل على قلب قائدنا العظيم الرسول العربي الامين محمد صلى الله عليه وسلم « وان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ... وكان طبيعيا ان يقوم المجتمع العربي على أساس من الفكر العميق في وحدة متماسكة واخاء شامل لا يجمعه مال ... ولا توحده مادة وانما تدفعه امال مشتركة يقررها من لاينطق عن الهوى ، مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .... ومن مستوى هذه الكلمة الرفيعة ، ومنطلق الادب السامي بدأت زحوف أمتنا تحمل مشاعل الهدى وتزين صدر الوجود بأقباس الخير والمحبة ... وكان ان تتلمذ على الرسول العظيم عظام افذاذ كانوا طلائع النور وكتائب الايمان واساتذة البشرية ... فكانت علاقة الفكر ورابطة العقيدة اساسا لاقامة مجتمع فذ انطلقت فيه اقلام الادباء والشعراء تدعو امتنا ان تلتقي على صعيد واحد من الفكر الى ان جاء عصر بني أمية وفيه كانت وحدتنا تقوم على كلمة الحق يقولها شاعر صادق او كاتب بار وبلغت العروبة ما لم يسبق ان بلغته من قبل ، وبلغ التمازج بين الحضارة العربية والحضارات اذخرى الانسانية في هذا العهد شاوأ جديدا ... وفي عصر بني العباس الزاهر بدءا من ابي جعفر المنصور وانتهاء بسقوط بغداد كان للادب اثر كبير في وحدتنا ونحن نرى جيوش الرشيد والمأمون تمضي فاتحة . وجيش المعتصم يزحف ظافرا « وابو تمام » يصور بالكلمة فيهتف .

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

مبينا انصار المعتصم لامرأة في المغرب استغاثت بجيش المعتصم ، جيش الامة جيش الوحدة ليقول لها لبيك ... وليمضي ابو تمام في ركابه يصور بالكلمة النيرة اروع مواقف البطولة والوحدوية الخالدة ... وفي العصر العباسي اصبح تمازج الثقافات ظاهرة بارزة في حياة العرب واخذ اسمى

اشكاله لان الفتوحات العربية كانت فتوحات ثقافية روحية ، ومن هنا فالعرب يمثلون الجسر الحقيقي الذى عبر عليه الثقافات المختلفة في تاريخ الانسانية ••• وفي العصر الاندلسي الزاهر كانت خطبة ، طارق بن زياد » الخطبة التي مهما تعال في تحقيقها تاريخيا ذات اثر بالغ في فتح الارض الجميلة والربوع الطيبة في الاندلس التي اضائتها شموع الفتح وانارتها رسالـة الهدى والنور يحملها العرب ليعلموا الدنيا الاقداس الانسانية وقواعد المحبة والاخاء واقامة صروع العدل ••••

ثم جاء العصر التركي حيث اصيب الادب العربي بنكسة واحاطـه ضعف وانحلال لان الحاكم لم يكن ليتذوق جمال اللسان العربي وروعة وبلاغة الجمل القرآنية حتى أطل علينا العصر الحديث بشعرائـه وادبائـه العمالقة فانبرى كتاب وشعراء يدعون لوحدة امتنا على اسمى سليمة غايتهـا جمع الـكلمة وتوحيد الشمل ومن مفاخر امتنا وعظمة رسالتهـا ان شعوب الارب جميعا تضع وحدتها أو اسس على الارض • اما نحن الامة العربية فقد سطرت وحدتنا في السماء ورسخت على أقدس تراب وفي اطهر أرض ••

ومع اطلالة القرن العشرين وقف أمير الشعر رحمه الله شوقي يشدو للعروبةاشودة الوحدة ويتغنى بها وتصور بعضاسسها تصوير شاعريا مدركا •

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام اخوان

وفي ألم ممض يتحدث شوقي عما اصاب دمشق الابية من عدوان فرنسي غاشم في ثورة العرب السوريين الاحرار على استعمار باريس •••

سلام مـــن صبا بـــردى ارق ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
الست دمشق للاســلام ظئـــرا ومرضعـــة الابـوة لاتعـق
صلاح‌الدين تاجك لم يجمـــل ولم يوسم يأزين منـــه فرق

ثم يحدد جانبا من معالم الطريق واسس الوحدة فيقول :

نصحت ونحن مختلفــون دارا ولكن كلنا في الهـم شـــرق
ويجمـــعنا اذا اختلفـــت بلاد بيان غـير مختلف ونطـــق

ثم يدعو للحرية باعمق معنى ثورى لها فيقول :

وللحـــرية الحمراء بـــاب بكل يـــد مضرجـة يـــدق

انه يشارك دمشق في محنتها ••• ويسكب دمعة حـرى على تراث

الاندلس ويدعو الشعب الليبي ان يقف شامخا عملاقا يحيي بطله عمر المختار:

ركزوا رفاتك في الرمـال لـواء … يستنهض الوادي صبـاح مسـاء
ياويحهـم ركزوا منارا مـن دم … يوحي الى جيل الغـد البغضـاء

ثم ينطلق شوقي شاعرا انسانيا عربيا يدعو للاخاء والمحبة تعم الارض كلها في صورة من العدل والشرف والانصاف :

ماضر لو جعلوا العلاقة في غـد … بين الشعوب مـودة واخـاء

وفي دعوة صريحة لخطوة نحو الوحدة يخاطب شوقي زعمـاء مصر والسودان متسائلا عما وقع بينهم وهم اخوة من خلاف :

الام الخـلف بينكم الامـا … وهذى الضجة الكبـرى علامـا
وفيم يكيد بعضـكم لبعـض … وتبدون العداوة والخصامـا

وها نحن نسمع بلبل النيل المرحوم حافظ ابراهيم في اروع اناشيد الوحدة التي نتحسسها اليوم بكل دفقة دم ، وخفقة قلب :

لمصر ام لربوع الشـام تنتسـب … هنا العلى وهناك المجد والحسـب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهمـا … قلب الهلال عليها خافق يجـب
خدران للضاد لم تهتـك ستورهما … ولا تحول عن مغناهمـا الادب
ام اللغات غداة الفخـر امهمـا … وان سالت عن الابـاء فالعـرب
اذا المت بوادى النيـل نازلـة … باتت لها راسيات الشـام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو الـم … اجابه في ذوى لبنـان منتحـب
لو اخلص النيل والاردن ودهمـا … تصافحت منهما الامـواه والعشب

ثم يسهم الشاعر العربي السورى ابو ريشة في هذا المضمار يتحدث لدينا عن مأساة امتنا في فلسطين حيث يقول :

امتي كم غصـة داميـة … خنقت نجوى علاك في فمـي
اي جرح في ابائـي راعـف … فاته الاسى فلـم يلتئـم
الاسرائيل تعلو رايـــة … في حمى المهد وظـل الحرم
او ما كنت اذا البغي اعتـدى … موجة من لهب او من دم

ونصغي بروعة لهتاف حق وصيحة نذير نادى بها شاعر فلسـطين المرحوم طوقان وهو يؤكد وحدة امتنا •

واذا الرشاد من الضلالة والعمـى … ومن الشقاق تآلف واخـاء

واذا الخيام قصور املاك الـــورى   واذا القفار دمشـــق والزوراء
وعلى ربوع الصين كبر فيلـــق   وبارض قسطنطين رف لـــواء
ناديت قومي لا اخصص مسـلما   ابناء يعرب في الخطوب ســـواء

وتتفتح قلوبنا وهي تعانق الأمل وتعيش للانطلاق عندما ينشد الشاعر المجلي بشاره الخوري ويناجي فلسطين يوقظ الضمائر ويتغنى بأمجادنا فيقول:

يا جهادا صفـــق المجـــد لـــه   لبس الغار عليه الأرجـــوانا
شرف باهت فلســطين بـــه   وبناء للمعـــالي لايدانـــي
ان جرحا سال من جبهتهـــا   لثمته بخشوع شفتانـــــا
يا فلسطين التي كدنا لمـــا   كابدته من اسى نفس اسانا
يثرب والقـــدس منذ احتلمـــا   كعبتانا وهوى العـــرب هوانـــا
شرف للموت ان نطعمـــــه   انفسا جبـــارة تـــأبى الهوانـا

ونعطر افئدتنا بعواطف شاعر بلغ من الشعر مكانة الفحول وعني بالموضوعات السياسية وغنى فلسطين وكانه عاش النكبة قبل وقوعها فالشاعر محمد مهدي الجواهري الذي يسطر بالقلب واللسان بعض أسس وحدتنا الكبرى .

بيافا يوم حط بها الركـــاب   تمطر عارض ودجا ســـحاب
وقفت موزع النظرات فيهـــا   لطرفي في مغانيها انســـياب
وقلت وما أحـــير سوى عتـــاب   ولست بعارف لمن العتـــــاب
احقا بيننا اختلفت حـــــدود   وما اختلف الطريق ولا التراب
ولا افترقت وجوه عن وجـــوه   ولا الضاد الفصيح ولا الكتـــاب
ثقوا انا توحدنـــا همـــــوم   مشاركة ويجمعنـــا مصـــاب

ولنذكر الشاعر المرحوم ابراهيم اليازجي وهو يحلق بشعره القومي التوجيهي :

سلام ايها العرب الكـــــرام   وجاد ربوع قطركـــم الغمـــــام
لقد ذكر الزمان لكـــم عهـــودا   مضت قدما فلم يضع الذمـــام
لعمرك نحن مصدر كل فضيـــل   وعن اثارنا اخذ الانـــــــام
ونحن اولو الماثر من قديـــم   وان جحدت ماثرنا اللئـــــام

ومن ادب النكبة لنصغ الى شاعرنا ابي سلمى وه ويعيش للعـــودة

والامل يخفق في حنايا اضلعه :

فلسطين الحبيبة كيف احيـــا بعيدا عن سهولك والهضـاب
تناديني الشواطىء باكيـــات وفي سمع الزمان صدى انتحابـي
غدا سنعود والاجيال تصغـــي وفوق شفاهنا حمر الرغـاب
مع الرايات دامية الحواشـــي على وهج الاسنة والحـــراب

ولنتأمل بما تجود به قريحة الشاعر محيي‌الدين الفارس وهو يغني فلسطين بقصيدة نابعة بالحياة يصور بها خيام العائدين بعواطفه الجياشة عندما يبعثها انغاما جريحة‌باكية ليؤكد ان‌جرح‌فلسطين‌يتجاوب‌اسى في تربة‌السودان:

الريح اطفأت السراج وقهقهت خلف الخيام
وفراخه الزغب الصغار تراعشت مثـل الحمام
وتكومت فوق الحصير ، وتكومت مثل الحطام
ناموا على جوع ، فما عرفوا هنا طيف ابتسام
نام الوجود ولم تنامي ....
وتوقفت في ناظريك دميعتان من الضمام
وهمست ثائرة الضرام
يافا الجميلة لم تزل دنياك ماثلة امامي

ولنصغ الى شاعر الحرية والتجديد والمحلق المبدع جميل صدقـي الزهاوي الذي دافع عن العرب وعن الحقوق العربية بضمير ووفاء وهـو يشير الى بعض اسس الوحدة :

بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكـم اليس لكم منكم فم يتكلـــم
لكم ثروة في الارض اتعابهـا لكـم وارباحها للغرب نهب مقســـم
وما بال ابناء العروبة اصبحـــت على الذل اشتاتا تشب وتهـــرم
لالام قومي الصيد نفس تألمـــت لك الويل يا نفسي التي تتألـــم

واذا كنا قد الهينا في ذكر مواقف الشعراء من الوحدة العربية والدعوة لها وهناك من الشعراء المبدعين كثيرون من اخواني الذين ضمهم هذا المجلس او الذين لم تساعدهم ظروفهم من مشاركتنا اعتذر عن ذكرهم لضيـق المقام ، فلابد من الوقوف هنا بكل تجلة وتقدير عند اراء ادباء العربيـة وكتابها ممن عمقوا فكرة الوحدة ودعوا لمفهومها السليم وكانت افكارهم

نورا يضيء للاجيال الصاعدة دروب العمل ويدفعهم الى البذل والعطاء بوعي وادراك ، منهم انتم ايها السادة الافاضل والاساتذة الكرام ومنهم من يعيش بروحه هنا ولم يستطع مشاركتنا كذلك ... ولنبدأ بعميد الادب العربي استاذنا الجليل الدكتور طه حسين وهو يحدد معالم الوحدة اروع تحديد ويصر على مفهومها السليم حيث يقول :

« واذا كانت هناك وحدة يحاول العرب ان يعودوا اليها ويقيموا عليها وهم في الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة فالقرآن هو اساس هذه الوحدة الجديدة كما كان اساسا للوحدة القديمة ... الى ان يقول والعرب اجدر الناس ان يفهموه وينفذوه فهو انزل فيهم وانزل في لغتهم واتجه اليهم اول ما نزل » .... ص ٩٦١ - ٩٦٢ قرآن الاسلام

ويقول سيد قطب وهو غني عن التعريف

« ليست الحياة لهوا وعبثا وليست الحياة سلامة كسلامة الاذلاء وليست الحياة راحة واسترخاء وتعطيلا للطاقات الكامنة في الروح والذهن والعصب والعقل انما الحياة هي كفاح في سبيل حق وجهاد في سبيل خير وانتصار لاعلاء كلمة الله او استشهاد في سبيل الله ورضوانه ، هذه هي الحياة » .

ولفتياتنا الاديبات في هذا المضمار صوت صارخ مدوى مشاركة منها لرسالة العظيمة وهذه الحقيقة تحدثت عن نفسها ونحن نقرأ ونحتفظ بتلك الثروة الادبية الهائلة من مؤلفات مجموعة كبيرة من اخواتنا وهن يضعن عصارات افكارهن لخدمة العروبة ورسالتها الكبرى فلنستمع الى ما قالته الايبة الكاتبة الانسة مي زيان مخاطبة الشرق العربى ايها الشرق :

يا شرقي الكبير الرؤوف . يا شرق الطرب والحمية والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم انك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة فارى منك الفقر والجهل والاضطراب والاحتدام والانفعال الى ان تقول : ورغم ذلك فاملي بك عظيم كالحياة والحرية ... اى قوة هذه التي تشد وثاقي اليك ؟ لماذا اهوى من لغتك الشدو الشجي النواح والنبرة السريعة الحادة والهتاف الابي الحار ؟ انك ايها الشرق اصطفيت لتكون ارض الابطال ومنشأ الجبابرة واليوم قد آن ان ترتفع موجتك الجديدة وتمتد ، وهناك فجر

منتظر ولم يلح بعد .. انت برج الفجر ايها الشرق ....

وهناك كثيرون من رجال الفكر والادب الذين جعلوا التاريخ السنة تنطق لتذكرهم بسمو افكارهم وغزير ادبهم وتفهمهم للقواعد الاساسية للوحدة العربية الشاملة امثال اديب العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي والاستاذ الجليل العقاد والدكتور نظمي لوقا وهم يدعون الى الوحدة ويناقشون مفاهيمها والروابط التي تربط بين اجزاء امتنا الواحدة لتكون امة طلائعية تقود الجماهير نحو الظفر والمجد والفخار .

ومن هذا الذى ذكرناه مستعرضين ، نصل الى ان مقومات وحدة امتنا تترابط في وثاق واحد وفي بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا على اسس ثابتة راسخة من الفكر العميق وهي امور ليست بالمصطنعة وانما جذرية اصلها ثابت وفرعها في السماء مما يؤكد حتمية الوحدة بين ابناء هذه الامة الكريمة وكم يسعدني ان انهي كلمتي هذه لجمعكم الطيب هذا ان نشق طريقنا نحو فكر واع وعقيدة وعقيدة خالصة ندفع الاجيال الصاعدة ليستوحوا من قضاياهم القومية ومن جراحات العائدين واستغاثات ما استلب من اوطاننا سبيل العمل بالتوجيه الفكرى السليم فننظم شعرا ونكتب نثرا لنصور بالصدق والحق والضمير وبالقلم المبدع والفكر المدرك حقيقة قوميتنا البناء العريقة وصفاء عروبتنا المشرقة المنطلقة وهما تتعانقان مع رسالة الاسلام الخالد في ظل حياة حرة كريمة ، ويقف العرب بعد ان ينفضوا عنهم كل ما انتابهم من عوامل القلق والبلبلة ليؤدوا الرسالة وليحملوا الامانة ، وليكونوا مرآة جيل الغد الذى تنتظره مسؤوليات جسام ... نكتب ونصور بالكلمة ، ومنطلقنا في وحدتنا الكبرى ، ومعركتنا المقبلة ، الارض التي بارك الله حولها لتكون اغنية كل شاعر وترتيلة كل ثائر ، حتى ننقذ جسم امتنا من الاخطبوط الاستعماري الصهيوني البغيض ، فتبدأ يومئذ اقلامنا تكتب لتتحدث عن الرخاء والكرامة ورغد العيش مثلما كتبت وتحدثت عن البؤس والفاقة والحرمان وعن النكبة والتشرد والجراحات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته   محمود الروسان

عضو وفد الاردن

الأدب وحتمية الوحدة

بقلم

عبد الرزاق البصير

مجد تاريخ امتنا العربية وعراقتها في الحضارة ، وما قدمت للانسانية في جميع ميادين الحياة وحبها للحرية ، كل اولئك من الامور التي اجمع عليها الباحثون في مشرق الدنيا ومغربها • وهي فوق هذا وذاك غنية بافرادها الذين يعدون ثمانين مليونا • وقد عرفوا بقوة الشكيمة ومضاء العزم وهي غنية بما تحتويه أرضها من خيرات قل ان تتاح مثلها الا لقليل من الامم •

وامة هذا شانها كيف تصبح عرضة لطمع الطامعين وانتهاز المنتهزين ؟ وكيف تمكن اعداؤها من انتهاك حقوقها وهدر كرامتها واغتصاب قطع عزيزة من بلادها ؟ وما هي الوسائل التي استعملوها حتى تمكنوا من فعل ذلك بها ؟

هذه الاسئلة لابد وان تدور في جميع الاذهان • وليس من شك ان هذه الاسئلة تلح الحاحا شديدا على الاذهان لما للقضية من أهمية عظيمة • وفي اعتقادي ان كل من يطرح هذه الاسئلة على نفسه فانه لابد وان يجد بان الجواب سيكون واحدا • واعني به تفريق الكلمة وتفريق الشمل • أو ان شئت الشمول في العبارة فقل هو التجزئة العميقة التي صورت لبعضنا اننا شعوب مختلفة اشد الاختلاف مما يجعل وحدتنا من الامور التي تكتنفها العقبات حتى كادت ان تصبح من الامور المحالة •

لقد ادرك اعداؤنا انهم لن يتمكنوا من ان ينالوا مآربهم منا الا بتعميق التجزئة . كما ادرك المفكرون منا اننا لا يمكننا ان نصل الى ما نصبوا اليه من القوة والمنعة ، واننا لا نستطيع ان نحتل مكانتنا اللائقة بنا بين الامم الحية الا بالوحدة .

لذلك كان الصراع عنيفا بيننا وبين اعدائنا لان ايمان مفكرينا كان عميقا بالوحدة حتى جعلهم لا يتوقفون عن السخاء بالحياة في سبيل هذه العقيدة . وكان اعداؤنا يدركون ان الوحدة هي التي ستقضي على مصالحهم وهي التي توصلنا الى ادراك حقوقنا واسترداد كرامتنا . فقاوموا الداعين اليها مقاومة شديدة وسلكوا في ذلك شتى السبل من سفك دماء المفكرين وتضليل الجماهير بتسخير الذين حرفوا الكلم عن مواضعه . وما يزال الصراع عنيفا بيننا وبين اعدائنا . فاين يقف الادب من هذا الصراع ؟

من الملاحظ ان كتابنا المؤمنين بامتهم قد رأوا ان من الاجدى لقضيتنا ان يسلكوا سبيل التوضيح والنقاش في كتاباتهم لما يعرفونه من ان التجزئة قد أخذت طريقها الى الناس في كثير من العمق . لانها ترتكز على مصالح مادية وثقافية . فكثير من يؤثر مصلحته على مصلحة امته . وكثير من الناس من غذى عقله بغذاء غير صالح حتى اصبح لا يعرف طريق الحق في قضية أمته ، ولا يدري انه يعيش في المتناقضات . ولست اعني ان ادباءنا لم يقولوا شيئا في الدعوة الى الوحدة والتشويق اليها . وانما الذى اعنيه هو ان معظم الجهد الفكرى قد سلك طريق البرهنة والاستدلال .

وفي رأيي ان كتابنا قد وفقوا كل التوفيق حين اتخذوا هذا الاسلوب في الدعوة الى الوحدة ذلك لان اعداءنا ادركوا بان للكلمة وقعها في القلوب وتأثيرها على العقول فبادروا الى تسخير بعض الكتاب الذين ماتت ضمائرهم فنشرت مؤلفات وصحف مملوءة بالاضاليل والاكاذيب لتغرير الجماهير . وما ينبغي لنا ان ننسى ان التجزئة قد مضى عليها زمن طويل مما يشكل عنصرا قويا سواء كان للكتاب النفعيين أو لبعض الناس الانتهازيين الذين لا يهمهم الا مصالحهم الخاصة .

من هذا كله تجمع ضباب كثيف حول قضية الوحدة • وتبديد هذا الضباب لا يمكن الا بابراز الحجج التاريخية والمنطقية • وانا بطبيعة الحال لا استطيع ان اتعرض في هذه العجالة لكل الشبهات التي حشدها المضللون حول قضية الوحدة لانها متشبعة كثيرة • وانما اريد ان اشير اليها اشارة موجزة • لان الكتب التي ألفت في اثبات صحة العقيدة القومية كثيرة يسهل الحصول عليها لكل من يريدها •

ولعل اول ما يثيره المشككون هو انها غامضة غير واضحة المعالم بدليل اننا لا نعرف تعريفا للقومية متفق عليه بين المفكرين • وانها من الافكار المستوردة اذ اننا لا نعرف لها جذورا في تاريخنا الطويل • والذين يثيرون هاتين الشبهتين يعتمدون التضليل لانهم يعرفون بطلانها بكل تأكيد • فليس كل شيء لم يتفق على تعريف واحد له يصح لنا رفضه أو انكاره لان كثيرا من بديهيات الحياة لم يتفق على تعريف لها بين المفكرين كالحق والعدل والجمال • فالفلاسفة مختلفون في تعريف هذه الاشياء مع ان كل احد يحس بها اعظم الاحساس حتى انه لا يمكن ان يحيا بدونها ، لان الحياة بدون هذه الاشياء **أو عدم الاحساس بها يعني فقد الحياة •**

أما القول بانها عقيدة مستوردة جاءتنا من الغرب ، ومن الافضل لنا ان نرفضها كل الرفض ، لانها شيء **لا يمت الينا بصلة • فهو قول مردود** يدل اما على الجهل أو على تعمد الخداع • اذ ان الصراع بين الشعوبية والعرب أمر معروف لانه سلك الطريق الفكرى والمادى • فنحن نعرف جميعا ان كثيرا من الدماء البريئة قد اراقها الشعوبيون وان كثيرا من الارواح الطاهرة قد ازهقت لا لذنب اقترفته وانما لانها عربية خالصة • وقد سلك أعداء العرب في هذا السبيل طرقا عديدة كان الكثير منها يتخذ الغدر أسلوبا في تنفيذ مآربه •

ونحن نعرف ان كتبا كثيرة قد الفت في الحط من العرب والتحقير من شأنهم ونشر مثالبهم على يد اناس اتصفوا بالانحدار الخلقي كزياد ابن ابيه وعلان الوراق وابي عبيدة وحمزة الاصفهاني وسهل بن هارون

وغيرهم من الشعوبيين • وان كثيرا من الشعر قد شارك في هذا الغرض مشاركة قوية • وان المفكرين والادباء من العرب أو المنصفين للعرب قد الفوا كتبا تنقض ما قاله اولئك المتغرضون • وما اظن اني في حاجة الى القول بان ظهور الشعوبية يعني وجود قوميات مختلفة منها العربية وغير العربية • والصراع بين الشعوبية وغيرها يعني الصراع بين هذه القوميات • وما اظن اني في حاجة الى ايراد أمثلة على هذا الصراع لان معرفة ذلك سهلة ميسورة وهو من الامور الواضحة التي لا تحتاج الى تبيين •

كان بحث هذا الموضوع فيما مضى لا يكاد يوجد الا في كتب المراجع ككتاب البيان والتبيين للجاحظ وفي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه • أما في عصرنا الحاضر فان مفكرينا قد رأوا تجديد هذا البحث بحيث يسهل على كل من يريد معرفته ان يرجع اليه لما للقضية من أهمية • فالفوا في ذلك كتبا سهلة الماخذ يتوجب على كل واع معرفتها والالمام بها •• يتجلى ذلك فيما كتبه الاستاذ الجليل ساطع الحصري والدكتور عبدالرحمن البزاز والدكتور عبدالعزيز الدورى والاستاذ عبدالصاحب الدجيلي وغيرهم من الباحثين •

لقد بحث كتابنا المخلصون كل ما يتصل بالعقيدة القومية أو كل ما يحوم حولها من الشبهات كتعارض القومية والدين • أو ان القومية خلو من المحتوى الاقتصادى • وما هو موقف الوطنية من القومية • أو ان القومية العربية تعني العنصرية الى غير ذلك من الحجج والشبهات التي ينشرها اعداؤنا ليخدعوا سائر الناس •

لقد بحث كتابنا هذا كله واثبتوا ان العقيدة القومية عقيدة تتمشى مع العقل والمنطق • وانها قابلة للتطور بعيدة عن الجمود • وانها اهل للبذل والتضحية وان شهداءنا كانوا على حق حين بذلوا أرواحهم في سبيل أمتهم •

ولقد اجمع هؤلاء الباحثون على ان اللغة هي من اقوى الروابط في العقيدة القومية • فاللغة هي روح الامة وهي الاساس الذى تعتمد عليه في

التعبير عن شعورها • وهي المرآة التي تعكس تقدم الامــة وتجربتها في الحياة • وليس من شك ان الشعر كان ولا يزال من أقوى العناصر لتقوية اللغة • ولقد كان من أهم الاسباب في توحيد لهجات الامة العربية • كمـا انه من أقوى العوامل لتوثيق رابطة هذه الامة • فنحن نعلم ان العرب حينما كانوا يجتمعون في اسواقهم سواء اكان ذلك في الجاهلية أو الاسلام كانوا لا يكتفون بما كانوا يتزودون به من حاجاتهم المادية • وانما كانوا يغذون عقولهم وافكارهم بما كانوا يستمعون الى ما يلقى فيها من خطب واشعار •فلقد كانت تلك الاسواق بمثابة الاندية التى تلقى فيها المحاضرات في عصرنـا الحاضر •

ومعنى هذا ان المثقفين كانوا يقومون بمهمتهم في تلك العصور وهـي صقل وتقوية اللغة ونشر الثقافة حســب مقتضى تلك الفترة • ولم يقف نشاط الادباء في تلك الفترة وانما امتد الى جميع العصور الا انه اخذ يتطور بتطور الحياة •

فالافـكار التي كانت تتضمنها الاثار الادبية في الجاهلية واوئل الاسلام أخذت تتوسع على مر الايام وذلك بما يلائم الثقافة العربية الاسلامية بعد ان امتزجت بالثقافات المختلفة حتى اصبحت على ما هي عليه في عصرنـا الحاضر •

وهناك عنصر اخر كان له الفضل الاكبـــر في تقوية اللغة العربية وغرسها في النفوس ونشرها في مختلف البقاع • واعني به القرآن الكريم • فان فضل القرآن على الامة العربية لا يقدر اذ انه طور هذه الامة في فكرها ولغتها وسلوكها واخلاقها • ولولا القرآن لاندثرت هذه اللغة لان أعـداء هذه الامة قد بذلوا جهودا لا تحصى في اضعاف هذه اللغة لـكن القرآن الـكريم هو الذى كان يقف سدا منيعا بينهم وبين ما يحاولون لما له من مكانة مقدسة في النفوس •

من هذا يتبين ان اللغة العربية قد اعتمدت في تطورها وتقويتها على

كتاب الله العزيز وعلى الادب العربي العظيم • وظل شعراؤنا المخلصون يعبرون في كل عصر عما يجيش في ضمير الانسان العربي •

على اني لا استطيع ان افصل في هذا المقام ما ذكرت وانما اكتفي بان اورد بعض ما قاله شعراؤنا في تصوير ما كان يعتلج في النفوس يوم ان بزغت شمس اليقظة العربية على يد اولئك الذين جادوا بنفوسهم في سبيل أمتهم • واعني بهم اولئك الشهداء الذين ازهق أرواحهم الطاهرة السفاح جمال باشا التركي •

يقول المرحوم جميل صدقي الزهاوي :

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنة وعويل
لعمرك ليس الامر ذنبا اصابه قصاص ولكن يعرب ومغول

وهذا هو الشهيد فؤاد حجازي احد الذين استشهدوا على يد السفاح جمال باشا التركي يوضح للناس أسباب بذله لنفسه :

غضبت لامتي ، ومضت حياتي فداها في وهي عند الله قربي
سلاما زائري حيتك روحي وحي العرب حيا الله عربا

وهذا هو المرحوم محمد علي الحوماني يخاطب النسيم فيبثها وجده وشكواه فيقول :

بالله يا نسمات الروض هل بعثت فيك الشذا شامي الفيحاء أم عدن ؟
هيجت وجد فتى لم يدم عبرته منذ الطفولة الا انت والوطن
متى ارى الوطن المحبوب تمنعه هضم العدى : حلب الشهباء واليمن

ولما روعت دمشق بقنابل الفرنسيين ورصاصهم الغادر ضجت شعراء العروبة تخاطب المستعمرين بان هذا الفعل لا يروع الشام وحدها وانما يروع الشام وحدها وانما يروع جميع الاوطان العربية • فهذا الاستاذ محمد بهجت الاثري يصور هذا المعنى فيقول :

ريعت دمشق فضجت مصر واضطربت   بغداد واكتابت في الريف اقوام
نعيا السياسة عن تمزيق وحدتنا   ما دام يجمعنا جذم واسلام

وهذا هو المرحوم حافظ يخاطب كل عربي فيقول :

لمصر ام لربوع الشام تنتسب   هنا العلا وهناك المجد والحسب
ام اللغات غادة الفخر امهما   وان سألت عن الاباء فالعرب

ونحن اذا تاملنا في جميع ما وقع علينا من احداث سواء كان ما احرزناه من انتصارات أو ما وقع علينا من نكبات كانتصار الجزائر وتونس والمغرب على المستعمرين واستقلال ليبيا • وما جرى في الجمهورية العربية المتحدة قبل الوحدة وبعد الوحدة • وكارثة فلسطين •• الى غير ذلك من احداث ، نجد ان ادباءنا قد تاثروا بها اعظم التأثر فسجلوها في صور مختلفة تحرك احاسيس الناس وتهز اوتار قلوبهم •

وهكذا نجد ان ادباءنا كانوا دعامة الوحدة العربية منذ اقدم العصور حتى عصرنا الحاضر وسيظلون كذلك لان هذه من مسئولياتهم •

ومن الملاحظ ان للابيات التي قيلت في الوحدة تأثيرا خاصا على النفوس لانها تعبر عن احاسيسنا تعبيرا فنيا صادقا لذلك نجدها على لسان الكثيرين منا • فهي سائرة مسرى الامثال • فاى فرد لا يحفظ هذا البيت مثلا :

ليس بين العراق والشام حد   هدم الله ما بنوا من حدود

واى حر لا تهتز مشاعره حينما يقرأ هذه الابيات :

حلل الحب ما التعصب حرم   واتحدنا فما خلقنا لنقسم
شرع مجدنا سواء نسبنا   مجد حنين ام تخيل المتعظم
حدثونا عن انفصال فلذنا   باتصال من الطواطف محكم
رب سور على الحدود منيع   ان لمسناه بالشعور تهدم

ما بناه علوج عــهد انتــداب   كيف تبنيه دولــة الخال والعم
شهد الله ما أردنــا زعيمـــا   غـير من حـرر البلاد ونظـــم
والزعيم الــذي يقــود السرايا   يــوم ثـار هو الزعيـم المعظم

والخلاصة ان الوحدة العربية قد وجدت من الادباء والمفكرين كل تايد وتعزيز • وانها لا يمكن ان ترسخ وتثبت الا اذا اهتم بها المثقفون والادباء لانها قامت على اكتافهم • والذى نأمله ان يبذل الادباء والمفكرون كل جهد مستطاع في سبيل تأييد الوحدة العربية لانها مسئوليتهم أمام الله والتاريخ •

عبدالرزاق البصير

رئيس وفد الكويت

دور الأدب العربي في دعم القومية والوحدة العربية

بقلم

محمد خلف الله أحمد

حين يثار النقاش في دور الاديب العربي في كفاح أمته ، تقفز الى الذهن بضعة أسئلة تتطلب البحث والمعالجة :

أولهـــا :

أن الادب الحق هو مـا كان فيض الاحساس الصادق والتجربــة العميقة . فهل للاديب دور غير أن يحس وينفعل ، فيعبر تعبيرا حرا صادقـا جميلا ؟

الثـــاني :

ان الاديب مواطن ، وليس لاى مواطن أن يتخلف عن الصفوف حين تخوض أمته معركة من معاركها الشاملة الحاسمة ؟ فمـاذا يســتطيع الاديب بصفة كونه أديبا أن يساهم في معركة الوحدة والقومية العربية ؟ واذا كان هناك دور يجب أن يقوم به وقصر فيه ، فهل للمجتمع أن يلزمه بأدائه ؟ وهل يمكن التوفيق بين حرية الاديب وهـذا الالزام من جانـب المجتمع ؟

الثـالث :

ما مدى ارتباط الاديب العربي بحياة مجتمعه خلال العصور ؟

الرابـــع :

ما الدور الذي قام به الادباء العرب في كفاح أمتهم منذ بدء النهضة العربية الحديثة ، وعلى الاخص بعد قيام ثورات التحرير العربية ؟ ومـا الذى يستطيعون أن يقوموا به في دعم بناء الوحدة والقومية العربية ؟

وسأحاول في الـكلمة القصيرة التالية أن أرسم الخطوط الاساسية لبحث هذه النقط كما أتصورها .

ان الخلاف حول مهمة الاديب قديم : وقد ظل النقاش حينا بين نقاد الغرب وعلى الاخص في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين يدور حول فكرتين رئيسيتين في الموضوع : اولاهما أن مهمة الاديب أن يعبر تعبيرا قوليا جميلا بصرف النظر عن أثر هذا التعبير في مجتمعه أو وقعه عنده ؟ والثانية أن مهمة الاديب أن يبلغ الناس من حوله ما يحس به • وكلتا الفكرتين تثير خلافا داخليا بين القائلين بها : فاذا كانت مهمة الاديب أن يعبر ، فعم يعبر ؟ عن نفسه ، أم المجتمع من حوله ؟ أم الطبيعة ؟ أم الكون ؟ واذا كانت التبليغ ، فماذا يبلغ ؟ أيصف للناس أحاسيسه الذاتية ؟ أم يقصد الى أن يوجههم وينقدهم ويعلمهم ؟ وكان هناك ـ ولا يزال ـ نقاش من واد آخر : هل الاديب مقيد بمواضعات مجتمعه ؟ أم انه حر في تناول أي موضوع على الطريقة التي يراها ، والتي تناسب فنه وطبيعته ؟

كان هذا النقاش صدى لمراحل من تطور التفكير الانساني ، وتطور البحث في طبيعة النفس الانسانية ، وفي فلسفة الفن وفلسفة الحياة بوجه عام • وكان مما يثيره أحيانا ظهور عبقريات فذة في الفن والادب ، تؤثر بروائع أعمالها على المفاهيم الانسانية وتثير التساؤل الذى أشرنا اليه •

ويبدو أن حكمة الله اقتضت أن يخلق الناس مختلفين في أمزجتهم ، وفي نواحي الحياة التي تجذب انتباههم ، وتنبه قواهم المبدعة : فهذا الاديب أو الفنان أو الفيلسوف من النوع المنطوي ، وذاك من المنبسط ، وهذا واقعي ، وذاك مثالى ، وهذا ينحو بطبعه نحو الوضوح ، وذاك نحو الرمز والغموض ، وهذا يستمد مادته من الطبيعة ، وذاك من الاجتماع الانساني ، وهذا يعتمد على خواطره الشعورية وتفكيره الواعي ، وذاك يمنح من عقله الباطن •

وفي رأينا أن حياة الجماعة تتسع لكل هؤلاء : انها تتطلب أن يكون فيها الاديب العاطفي مبدع الاغنية الرومانسية ، الى جانب الاديب الثائر خالق النشيد الهادر ، والقاص الذي يدير قصصه حول أحداث الحياة ومواقفها ، والروائي الذى يتخذ من ظواهر المجتمع وقضايا الحياة وصراع النفوس نسيجا لحبكة روايته ، وشاعر الملاحم الذى يصور البطولة والكفاح

في أروع صورهما ، وكاتب الرسالة أو المقال الذى يبني أسلوبه على الحجة والاقناع ، أو على التحميس والهاب عواطف الجماهير • وكل هؤلاء مواطنون تصب روافد أدبهم في تيار الجهد المشترك للامة ، وفي اشباع ذوقها ، واغناء حياتها ، والعمل على تحقيق أهدافها •

على أن القرن الحاضر جلب معه ظاهرة أصبح لها تأثيرها على تحويل مجرى النقاش في طبيعة الادب ووظيفة الادب وجهة جديدة : ذلك أن التطور الحديث في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كثير من البيئات الانسانية ، عمل على توثيق الصلة بين الفرد والمجموع ، وعلى ضرورة أن يقوم كل مواطن ـ حسب تخصصه وقدراته ـ بنصيب في المجهود الجماعي المشترك • ومن هنا برزت أهمية الاديب • والفنان ـ بصفة كونه مواطنا يملك أداة ذات قيمة وفعالية كبيرة في اصلاح حياة الجماعة ، وفي زيادة رصيدها من الثروة الروحية والنفسية ، في معالجة قضاياها الكبرى ، والتوعية بفلسفتها في الحياة ، وفي تعبئة قواها لتحقيق أهدافها التي تتطلب صراعا ونضالا • وقد أصبحت تلك المجتمعات تتطلب من أدبائها أن يشاركوا بأدبهم في النضال ، وان يوجهوا نشاطهم الخلاق ـ لا نحو الذات وعواطفها وحياتها الفردية ، ولا نحو الطبيعة وجمالها وروما نسيتها ، ولكن نحو المجتمع وكفاحه ومعاركه وقيمه ، ولم تعد تلك البيئات تستسيغ السلبية أو الانانية الفردية أو الانعزالية من جانب الاديب أو الفنان •

ولهذا التطور منطق يقوم على أساس من طبيعة الفن والادب ، وتأثر النفس الانسانية بهما • ذلك أن الفنون عامة ـ والاداب خاصة ـ حين يتوافر لها الصدق وعمق التجربة وحرارة الايمان ـ تجد طريقها الى النفوس سهلا ميسرا ، وتعمل عملها في العواطف والمشاعر ، وتخلق من الصلات الوجدانية بين الناس مالا تقوى العوامل المصطنعة على اضعافه أو هزيمته ، وبذلك تكون ذات أثر فعال في توجيه مجتمعها الى مقاصد متماثلة في الخلق وفلسفة الحياة ، والى وحدة شاملة في الوسائل والغايات •

ان للكلمة المقروءة أو المسموعة تأثيرا قويا في النفس البشرية ، واذا

ما أخذت الكلمة شكلا فنيا متكاملا : قصيدة ملهمة ، أو خطبة مؤثرة ، أو رسالة مبينة ، أو قصة محبوكة أو تمثيلية من صميم الحياة ، كان تأثيرها في النفوس بالغا وعميقا ، فاذا ما كان موضوع الاثر الادبي بطلا من أبطال الامة ، أو ملحمة من ملاحمها الخالدة ، أو أزمة من أزمات كفاحها ، أو تخليدا لسيرة مصلح من مصلحيها ، أو استنهاضا لهمم أبنائها الى جلائل الاعمال ، أصبح ذلك الادب سلاحا نضاليا ماضيا ، وكان له في الجهد الجماعي للامة آثار قوية ، وعمل عمله في الوحدة المنشودة بين المواطنين ، حتى ولو لم يقصد منشئه حين أنشأه الى غرض آخر وراء الابداع والتعبير الفني •

وعلى هذا الاساس نستطيع أن نقول أن الادب ليس تعبيرا فقط ، وليس تبليغا فقط ولكنه الاثنان معا : فكل فرد عضو في مجتمع ، واللغة أداة الاتصال الاجتماعي ، والفكري بين أفراد المجتمع ، والادب هو لغة التواصل الوجداني والنفسي لأولئكم الافراد ، وكل تعبير أدبي فهو في الوقت ذاته أداء وتبليغ • وما دام للادب تأثيره الذي أشرنا اليه سابقا ، فان من طبيعة الحياة الاجتماعية للانسان أن تفسح للادب مكانا في تجاربها وآرابها ، وأن تنشد عونه في تحقيق أهدافها وغاياتها • واذا تراخت في طلب هذا العون في أوقات الرخاء والاستقرار ، فانها لن تتوانى في افتقاده في أوقات الكفاح والازمات • واذن فمن الطبيعي أن يشتد الالحاح على قيام الاديب بوظيفته في مراحل الانتقال الكبرى في حياة الامم ، كأن تكون الامة مشغولة بثورة على ظلم خيم عليها طويلا ، أو معركة تحرير ضد غاصب اعتدى على مقدساتها ، أو نهضة اجتماعية أو صناعية أو اقتصادية تقيم أركانها ، أو رابطة قومية تحاول أن تبنيها وتدعمها ، أو دعوة انسانية تتبناها في سبيل الاخاء والعدالة والسلام البشري •

ولكي يقوب الاديب بوظيفته هذه لابد أن يتوافر فيه شرط أساسي هو الايمان الصادق بما يعبر عنه ويدعو اليه • ولا جدوى من مطالبة الاديب بالقيام بدوره اذا لم يكن مؤمنا بذلك الدور في قرارة وجدانه • وهو اذا آمن لا محالة منفعل بايمانه ، صادر عنه في أدبه • في تلك سنة الفطرة

وهذه طبيعة الفن والحياة •

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ، ونظرنا الى أدبنا العربي في ضوء الرأى الذى انتهينا اليه من تحليلنا السابق ، وجدناه أدبا خصبا غنيا ، ارتبط منذ نشأته بحياة مجتمعه ، فتطور بتطوره ، واتسع باتساعه ، وتلون بألوان تفكيره السياسي والاجتماعي ، وكان صدى له في حالي قوته وضعفه ، وتحركه وجموده ، وأصالته وتقليده • والذين نشأوا منا على حب الادب العربي الاصيل وحفظ روائعه ونماذجه الخالدة يدركون ما لذلك الادب من تأثير وتوجيه للوجدان ، ومن اثارة للحنين الى مفاخر الآباء والاجداد والاعتزاز بها ، حتى ليصل الامر بالمتأثر به الى درجة التعلق الروحي بالمواطن التي عاش فيها الاسلاف ، والاماكن التي ردد شعراؤهم أسماءها ، والشخصيات الحقيقية أو المتخيلة التى تحدثوا عنها •

لقد كان الشاعر العربي في الجاهلية لسان قبيلته ، المدافع عن حوزتها والمحامي عن شرفها وأعراضها • وقام الشعر والخطابة بدورهما في المراحل الاولى من الدعوة الاسلامية ، وفي معارك العصبيات والاحزاب السياسية والمذهبية ، وفي تخليد البطولات العربية في حروب المسلمين ضد الروم ، وفي حروب الشرق الاسلامي ضد الصليبيين ، كما قام الادب بدوره في تسجيل صور الحضارة العربية الزاهرة ونتاج عقول أبنائها ، والتعبير عن خلجات النفوس فيها زودتها به الفطرة من عواطف وأحاسيس • وفي عصور التأخر والركود كان الادب العربي صدى لحياة مجتمعه الراكدة يعبر عنها في مناسباتها وظواهرها العادية •

فلما جاءت النهضة الحديثة ، وقف أدباء البلاد العربية صفا في معارك القومية والتضامن العربي ، فصور كثير منهم آلام أمتهم وآمالها ، وأحساس كل جزء منها بمشاركته للاجزاء الاخرى في السراء والضراء ، وحفلت قصائد شعرائنا ومقالات كتابنا بنقد الحياة العربية وتوجيهها نحو أهدافها • وقد أمتدت هذه المرحلة من أواخر القرن الماضي الى قرب منتصف القرن الحاضر ، وكان في أدبها كثير من الارهاصات بالوثبة الكبرى التي وثبها العرب في ثوراتهم التحررية في المرحلة التي نعيش أمجادها الان • وفي هذه المرحلة الحاضرة عرف الادباء العرب مكانهم في الصفوف الاولى من

كتائب الثورة بين شاعر وخطيب ، وكاتب مقال ، ومذيع حديث ، ومنشيء قصة أو رواية أو مسرحية ، ودارس لادب الكفاح ، ومؤرخ لتطوره ، وداع الى الحفاظ على الصحفي - وهي الدعامة الكبرى للقومية والوحدة العربية ، وعامل على رقيها واتساعها ووفائها بمطالب الحياة الجديدة • ومن شواهد هذا الاحساس من جانب أدبائنا بمسئولياتهم في الكفاح ، ودورهم في العمل لتحقيق الوحدة العربية هذا الربط الذى ربطوه بين دورات مؤتمرهم وبين موضوعات القومية والوحدة • وهاهم أولاء في مؤتمرهم الخامس وفي بغداد عاصمة الحضارة العربية الاسلامية في عصرها الذهبي ، والقلعة الشرقية للزحف العربي الحديث نحو الحرية والاشتراكية والوحدة - يجتمعون - كما يجتمع المحاربون - بعد سلسلة من الانتصارات في المعركة - يراجعون خططهم وينظمون صفوفهم ويستجمعون قوتهم للجولة التالية من الزحف المقدس • وان ايمانهم بأهداف الكفاح العربي الحاضر - في القومية والوحدة والاشتراكية وتحرير جميع أجزاء الوطن العربي واسترداد الجزء السليب - ليفتح أمامهم الى جانب الآفاق التي جابوها في الادب الثورى آفاقا جديدة يوجهون فيها مواهبهم الخلاقة لتنمية الوعي بمفاهيم الثورة في الحرية والعدالة والكرامة والكفاية ، وتوضيح أصول القومية وعوامل وحدة الوطن العربي الاكبر ، والربط بين مثل الحياة التي ننشدها ، والتقاليد والتعاليم العربية الاسلامية التي صنعت تاريخنا ، والمجادات التى خلدها أسلافنا في معارك الكفاح وميادين المعرفة ، ونجاح قادة ثوراتنا في توجيه السياسة العربية الحاضرة في المجال الدولى ، ونصيب أمتنا في العمل من أجل سعادة الجنس البشري وسلامه • وان أدبنا العربي وقد استكمل فنونه ، وعرف بين الآداب الخصبة الحديثة - كما عرف في القديم مكانه بين الآداب الكلاسيكية الكبرى - لكفيل بأن يكون اللسان الناطق بآمال الامة والمترجم الامين عن مشاعر جماهيرها ، والدليل الحادى لركب العروبة نحو الغايات والاهداف المنشودة •

محمد خلف‌الله أحمد عضو وفد المتحدة

ومدير معهد الدراسات العربية العالية

وعضو مجمعي اللغة العربية والبحوث الاسلامية بالقاهرة

الادب والقومية العربية

بقلم

مصطفى البنداري

لئن كانت بعض اجزاء الدولة الاسلامية في الفترة الثانية من الحكم العباسي ، قد انفصلت واستقلت عن الخلافة فقد ظلت هذه الاجزاء تعترف بوحدتها المعنوية ، وظل الترابط والتعاون والاحساس بينها قائما أمام كل الاخطار الخارجية ، ذلك لان الاسلام وضع لها أسس تاريخها ، وعلى هذه الاسس قامت أصول قوميتها ، هذه الاصول الممثلة في وحدة الوطن العربي ، في لغته وتراثه الفكرى ، في تاريخه المشترك ، في روابطه الروحية ، في آلامه وآماله ومصيره •

ولئن كان العالم الاسلامي قد انشطر بعد الغزو المغولي الى شرق أعجمي ، وغرب عربي ، فان القسم العربي منه ظل محتفظا بكيانه السياسي والعربي ، واصبح هذا القسم هو الامة العربية ، الامة التى انتصرت على عدو مخرب في عين جالوت ، فحفظت بذلك تراث الحضارة الاسلامية المجيدة ، حفظت تراث الانسانية العام من خطر التدمير والتخريب ، وانتصرت في حطين فأبقت للمنطقة اسلامها وعروبتها ، الامة التي احتفظت بوحدتها الظاهرة حتى في ظلام العهد التركي ، أقول بوحدتها الظاهرة لان الوحدة الحقة تفقد حيويتها عندما تتراجع عن صف الصدارة ، وان كان العرب قد نظروا الى المسألة في اول الامر على انها شركة مع الترك في دولة اسلامية يتزعمها أقواهم ، ويدعم هذه الوحدة شعور الاخاء الاسلامي ، والمصلحة الاسلامية المشتركة •

ولم يكن العرب يحسون في هذا الوقت بعقدة التخلف عن الترك ، لانهم كانوا الاقوى في ميزان الثقافة والحضارة ، كما كان الترك أقوى في

ميزان القوة العسكرية • وظل الحال كذلك الى ان سيطر الاستعمار الغربي على الامة العربية فجزأها ، ووضع لها الحدود المصطنعة ، وحمل لبعضنا في ركابه ذل التابع المستكين ، كما حمل التجزئة وتفرق الكلمة ، وما تبعهما من ضعف واستغلال وضياع •

ولكن المحن تشحذ الهمم ، وتبرز البطولات ، فجاهرت الامة العربية منذ وقعت في قبضة الاستعمار الغربي ، بل جاهدت وهي في ظلام الحكم العثماني ولم تستكن في مشرقها العربي ، ولم تهن في مغربها العربي • وبقيت الامة العربية ، لان أرادة الحياة وقوة الروح ، جعلتها تثور وتثور حتى انتهى أمرها الى التحرر أو كاد •

ان كل دولة من الدول العربية تؤمن بأنها جزء من الوطن العربي الكبير ،ولذلك توجب على نفسها مساندة كل حركة تحررية تقوم بها أخت لها يكبلها الاستعمار ، كما تلزم بفتح مجالات التعاون بين جميع الحركات الوطنية والتقدمية ، وتعتقد بان هذا هو سبيل العمل العربي ، العمل الذى أساسه الايمان بأن الوطن العربي لا يتجزأ وبأن الحرية لا تحيا في أرض اذا هي قهرت في أرض تجاورها ، وبأن الايمان بالوحدة رسالة يعمل لها كل من يقدر عليها •

هذا الشعور العربي يرجع الى أيام الحملة الفرنسية على مصر • فمن آثارها انها نبهت العرب ، وفتحت عيونهم على النهضة الحديثة والفكر الحديث ، ولقد انفصلت مصر عن تركيا واصبحت لها شخصيتها ، مما جعل اخواتها العربية يتطلعن الى مثل ما وصلت اليه من الخروج عن الدائرة العثمانية • وأخذ الادباء والمفكرون يجاهرون بان الخلافة لا تكون الا في العرب ، والعثمانيون لذلك ليسوا أهلا لها • وبهذا نشأت وترعرعت فكرة استعادة العرب لمجدهم وسلطانهم وكان الذي يشغلهم هو مصير أمتهم العربية ومستقبلها مما يدل على أن فكرة العروبة سبقت فكرة الدول العربية ، والفضل في هذا التيار الجديد لرجال والفكر والادب ، اولئك الرواد الذين حملوا الراية والجماهير نائمة ، والدخيل متسلط والحكام غافلون أو مسيرون ، ولا سلاح لهم الا الكلمة يقذفون بها كحمم البركان

فهذا الشاعر احمد محرم يستثير العرب ليذودوا عن وطنهم بالوحدة حيث يقول :ـ

هبوا بني الشرق لا نوم ولا لعب حتى تعد القوى او تؤخذ الاهب
ماذا تظنون الا أن يحاط بكم فلا يكون لكم منجى ولا هرب
سيروا بني الشرق في ظل الاخاء عسى ان تفلحوا ولعل الصدع يرتئب
كونوا به أمة في الدهر واحد لا ينظر الغرب يوما كيف تحترب

ومن قصيدة أخرى يقول للامة العربية :ـ

ضمي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي

دعوا الى العروبة في اصرار ، وادركوا بوجدانهم ان حياة هذه الامة في وحدتها ، وما زالوا يحملون اللواء ، ويصارعون اعداء قوميتهم وانصار الاقليمية ، ويدعون رجال السياسة الى ان يتدبروا مصير أمتهم •

ما زالوا كذلك حتى كان الاقتناع ، وبارك الله جهادهم بما ننعم به اليوم من ايمان بالعروبة والوحدة •

وكانت هذه الجماعة اعني جماعة الادباء تمثل حركة البعث العربي ، ولم تقف الطائفية حاجزا يعترضها ، فدعا اليها المخلصون من مفكري الامة وادبائها باقلامهم والسنتهم ، من أمثال نجيب الحداد والرصافي ولويس شيخو وجورجي زيدان والكواكبي ومما قاله اليازجي في الدعوة الى اليقظة العربية :ـ

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم فكم تناديكم الاسفار والخطب
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقا وغربا وعزوا اينما ذهبوا
فمالكم ويحكم اصبحتم هملا ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد ازركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
اقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين ايدى الترك مغتصب

ويقول الشيخ احمد طبارة في مؤتمر باريس العربي :ـ

« نحن نعني بالعرب كل ناطق بالضاد ، لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم »

ويقول ندره مطران في المعنى نفسه :ـ

« ان لعمري فيما ابداه نصارى غسان من العصبية العربية في هـذا الشأن ـ يريد نصرتهم وهم مسيحيون لجيش ابي عبيدة وخالد ـ لاعظم شاهد على ان العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ـ وهي فضيلة الشعوب الحية ، فضيلة الشعوب التي لا تريد ان تموت » •

ويهيب الكواكبي بالامة ان تتحرر فيقول : يا قوم ! كان اجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله ، وانتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين مغموسة بدم الاخوان ، واجدادكم ينامون الان في قبورهم مستوين أعزاء ، وانتم احياء معوجة رقابكم اذلاء ، البهائم تود لو تنتصب قامتها ، وانتم تطلبون الانخفاض » •

وكانت هناك جماعة تدعو الى تقوية الخلافة العثمانية ، مع القيام باصلاحات دستورية ، ووجوب مراعاة حقوق العرب كمواطنين في الدولة الاسلامية • وقد دعاهم الى ذلك طمع الغرب في الرجل المريض وتركته ، مما يؤذن بروح صليبية وحرب صليبية ، وقد حمل لواء هذه الدعوة جمال الدين الافغاني وتلاميذه وشوقي ومصطفى كامل وغيرهم •

ولما فعل جمال باشا ما فعله بالزعماء في بيروت ودمشق استحكم العداء بين العرب والترك ، وضعفت أصوات الداعين الى الخلافة العثمانية ، فلما نشبت الحرب الاولى قامت الثورة العربية بزعامة الشريف حسين بن علي • وقد ابلى ادباء العرب بلاء حسنا في الدعوة الى القومية العربية ، وتثبيتها في اذهان الناس لانها الوسيلة الى القوة ، والمحافظة على الكيان ، والمؤدية الى ما نريده من عزة وكرامة ، فرجعوا الى الماضي يبرزون امجاده ، ومفاخره ، لتكون أمام الناس صورة مشرقة ، تجمعهم حول راية القومية والوحدة •

وحمل الشعر لواء هذه الدعوة ، فقال شوقي وحافظ وطوقان والجارم وعبدالمطلب وابو ريشة واليازجي وشفيق جبري وعبدالحليم المصري وغيرهم ، فصوروا البطولات الاسلامية والعربية ، لتكون نماذج امام شباب الامة •

ولم يتخلف النثر ، فظهرت التراجم والقصص والتمثيليات حول التاريخ الاسلامي والعربي ، للعقاد وهيكل وطه حسين والحكيم وجورجي زيدان وابو حديد وباكثير وتيمور وعزيز اباظه وغيرهم .

كما ظهرت المقالات تستنهض الهمم ، والكتب تتناول جوانب كثيرة من التاريخ العربي ، وفرسان هذا الميدان كثيرون منهم الكواكبي والرافعي وجواد علي والخضري ورفيق العظم ...

قامت الثورة العربية على الحكم التركي ، ولكن عدوا جديدا كان يتربص بالعرب ، ذلك العدو هو الاستعمار الغربي ، فما ان تخلصت العروبة من الكابوس العثماني حتى وقعت في غدر الاستعمار الغربي ، فمزقها وشتت شملها وتوزعها مناطق لنفوذه ، واقام بينها الحدود المصطنعة وصبغها بصبغاته في الثقافة ، فالفرنسيون ينشرون ثقافتهم في الاجزاء التي استولوا عليها ، ويفعل الانكليز والطليان ما فعل شركاؤهم ، بل لقد ذهبت فرنسا الى أكثر من هذا ، فجعلت الجزائر المسلمة العربية الافريقية ، جزءا من فرنسا الكاثوليكية اللاتينية الاوربية .

ولكي يزيدوا فصم العرى بين اجزاء وطننا سخروا عملاءهم لبعث العصبيات الاقليمية ، واحياء التاريخ القديم لكل عربي يحتلونه ، ليحصروا كلا منها في ماضيه قبل ان يجمعها كلها الاسلام تحت رايته ، وقبل ان تنصهر كلها في بوتقة الامة الواحدة ، ذات اللسان الواحد والتاريخ المشترك والتراث الفكرى والروابط الروحية والآمال والمصير .

ولئن كان الاستعمار قد احرز بعض النجاح في هذه السبيل ، فقد كان نجاحا مؤقتا ، اذ ما لبث أدباء الامة ومفكروها ان أحسوا خطر هذه الاتجاهات المرسومة ، وقد ايدتهم الاحداث التي كانت نذرا بما يهدد الامة ، ان هي ظلت على تفتتها وتفرقها . وكان هجوم ايطاليا على ليبيا ، وما صحبه من معارك وحشية وتصرفات بربرية ، كما كانت ميسلون وما فعل الفرنسيون بعدها من ضرب دمشق ، علامة الخطر التي توقظ وتنبه فقال شوقي قصيدته في عمر المختار وفي ضرب دمشق ومنها :ـ

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا ـ اذا اختلفت بلاد لسان غير مختلف ونطق
وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يحق

وكان حافظ ومحرم وعبدالمطلب وغيرهم من الكتاب والشعراء ساخطين على الاستعمار ومتوعدين عدوهم وداعين الى البذل والتضحية والفداء •

وحمل الادباء راية القومية العربية ، لانهم الرواد ذوو الاحساس المرهف ، والثقافة الواسعة والنظرة الثاقبة ، والتحرر من قيود الحكم والسياسة • فهذا الشاعر العراقي رضا الشبيبي يعتز بالعراق والشام معا حيث يقول :ـ

بغداد أشتاق الشآم وها أنا الى الكرخ من بغداد جم التشوق
فما أنا في ارض الشام بمشئم ولا أنا في ارض العراق بمعرق
هما وطن فرد وقد فرقوهما رمى الله بالتشتيت شمل المفرق

وهذا الشاعر العراقي ايضا عبدالمحسن الكاظمي ، يحس حب الشام ومصر والحجاز وغيرها من بلاد العروبة كما يحس حب العراق •

احن اذا قيل العراق وانحني واشهق ان قيل الشآم وازفر
واطرق ان قيل الحجاز على جوى وأعجب اما قيل مصر وابهر
جميع بلاد العرب في القدر واحد اذا وزنوا البلدان يوما وقدروا

وهذا الشاعر الاردني محمد الشريفي يرى الاقاليم العربية وطنا واحدا :

يا سحابا يزجي الينا ركاما فترى الودق فائضا من خلاله
اين تغدو ؟ أشاطىء البحر ترجو أم بواديه ؟ أم رؤوس جباله
ام الى مصر أم الى الشام تصبو والشقيقان واحد في وصاله

وطن العرب خافه كل عـــات | أغرق الفاتحين بحر رمالــه
كفلته الصحراء شرقا وغربـا | ثم فت الاعـــداء في أوصالــه

وهذا شاعر النيل حافظ يرى انه في لبنان قد انتقل من جانب في وطنه الى جانب آخر :

لى موطن في ربوع النيل اعظمـه | ولى هنا في حماكم موطــن ثاني
حسبت نفسي نزيلا بينكم فــاذا | اهلي وصحبي واحبابي وجيرانــي
أنى التقينا التقى في كل مجتمـع | أهل بأهــل واخوان باخـوان

وهذا الشاعر محبالدين بن الخطيب يبرأ من الاقليمية :ـ

لبيك يا أرض العروبـة واسمعي | ما شئت من شدوي ومن انشادي
أنا لا أفرق بين اهلك انهــم | اهلي وانت بلادهـم وبـلادي
ولقد برئت اليـك من وطنيـة | بتراء تؤثر موطــن الميــلاد

وهذه الشاعرة السورية طلعت الرفاعي ، تتطلع الى الوحدة وتأسف لمحن البلاد العربية :ـ

لبيك يا بغـــداد انـ | ـت على المدى مهد العروبة
ما بورسعيد ما الجـــزا | ئـر مـا فلسطين السليبة
ما الارز يخفــق ما عمـا | ن الحر ما اليمــن الخصيبة
هي كلها وطـني الصمــو | د وان تنوعــت المصيبـة
هى كلها وطـني الكـــبير | بوحـدة كبــرى قريبــة

ويطول بنا الحديث لو استعرضنا أكثر من هذا •

ثم كانت جامعة الدول العربية ، فاستبشر بها العرب ، وعقدوا عليها كبار آمالهم ، فقال الجارم قصيدتـه « العروبة » يوم اجتمعت الوفــود لوضع ميثاق الجامعة :

تذوب حشاشات العواصم حســرة | اذا دميت من كف بغداد اصبــع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة | لدك ذرا الاهرام هــذا التصــدع

ولو بردى انت لخطب مياهه   لسالت بوادى النيل للنيل أدمـــع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة   لباتت لهـا أكبـادنا تتقطـــع

وقال علي محمود طه قصيدته « يوم الملتقى » وقال الشاعر السعودي طاهر زمخشري قصيدتـه تحية لميلادها ، وقال الشعراء علي الديب والامين أبو حامد وابراهيم الاسطى عمر من شعراء ليبيا قصائـدهم معبرين عـن ابتهاجهم بمولدها •

وكانت نكبة فلسطين ، وذلك موضوع قائـم له أدبه الخاص ، ادب فيه الحسرة والمرارة والثورة • وكانت النـكبة من أهم اسباب الوحدة •

وقامت الثورة في مصر وهي طليعة النضال العربي ، وشبت نار حرب تحررية في الجـزائر ، وجاءت معركة السد العالي فأممت القناة ، وحـدث العدوان الثلاثي الغادر على مصر العزيزة ، وولدت الجمهورية العربيـة المتحدة ، ورسم العرب لهم سياسة الحياد الايجابي ، رسموها لانفسهم ، وقادوا اليها أمما كثيرة ثم قامت ثورة العراق المجيدة • هـــذه الاحداث الضخمة في تاريخ الامة العربية ، كانت نصرا لم تظفر بمثله أمة من الامم في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، كانت انتصارات متلاحقـــة ، وكانت انتصارات بذلت فيها هذه الامة ، أروع ما تبذل الامم في سبيل مثلها العليـا الحرة الـكريمة ، واجتمعت عليها هذه الامة كما لم تجتمع امة من الامم •

وكان الادب ممهدا لبعض هذه الاحداث فأوحى به ، ومستوحيا لاكثر هذه الاحداث ، فصور وبرع في التصوير ، وسجل في أمانة يصحبها الزهو والفخر وكثر الانتاج الادبي،فهو ملاحم وقصائد واناشيد عن بطولات الجزائر لهاشم الرفاعي وانور العطار ومحمد مهدى الجواهري واحمد السـقاف ونزار قباني • وهو مقالات يكتبها الادباء والمفكرون حول حق الجزائـر في حريتها ، وكان حظ فتاة العرب جميلة بوحريد من أدب هذه المعركـة حظا موفورا ، فقد صور بطولتها كثيرون منهم الشاعرة العراقية نازك الملائكة، وسليمان العيسى ومحمد الفيتوري وعبدالرحمن الشرقاوي في مسرحية لـه

كما أخرج لها فيلم سينمائي • ومن قول الشاعر الكويتي أحمد السقاف :ـ

توحدت المشاعر في كفاح	فريد لم تر الغبراء مثله
وما ارض الجزائر غير أرضي	بقلب تفتدى مني ومقله
أقبل من ثراها كل شبر	بكل جوارحي مليون قبله

ويقول الشاعر القطرى « سلطان العلي » في شعره النبطي :ـ

والجزاير بغالي الروح نفديها	عمرنا دونها للموت نسخى به
دونها النار وشعب دوم يحميها	من شباب ومن كهل ومن شيبه

وكانت ثورة مصر والسد وما تبعه من تأميم وعدوان ميدانا خصبا يانع الثمر في ميدان الادب على اختلاف صوره واشكاله • اخذ الادب في هذه الفترة يركض وراء الاحداث ، ساخطا على الاعداء ، ملهبا للعزائم ، مبتهجا بالنصر ، يبارك الحرية التي ظفر بها الشعب العربي ، واصبح للادب الثوري هدف ، فهو يعيش في واقع الامة ، يستمد موضوعه من وثباتها وتطورها السريع ، مؤمنا بمستقبلها وحيويتها وقدرتها على الحركة الدائمة والصمود في وجه اعدائها •

لقد كانت هذه المعارك معارك القومية العربية ، وكان النصر فيها نصرا لكل عربي ، كما كان توقع الهزيمة من وجهة نظر الاعداء نهاية الامة العربية بكل آمالها ، ولهذا خاضها الشعب العربي من محيطه الى خليجه ، خاضها بقلب رجل واحد مؤمن شجاع بمصيره وحقه في الحياة ، وتحركت اجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وخطابة ومؤلفات فقرأ الشعب العربي مقالات ادبائه ومفكريه ، وسمع الشعب العربي خطبا نارية لقيادته الواعية الملهمة ، ولخطبائه في بيوت الله ، وفي الاذاعة والاندية حيث يجتمع الناس ، وسمع الشعب العربي شعراءه على موجات الاثير ، وردد الشعب العربي اناشيد المعارك ، رددها الطفل والشاب والشيخ في كل مكان • وكان النتاج

خصبا فيما شارك فيه ادباء العروبة ممن لا يحصون عدا من أمثال غنيم ونزار وهاشم الرفاعي وعادل الغضبان وصلاح الاسير والعوضي الوكيل وسليمان العيسى الذى يقول في قصيدته « اهلا بمعركة القناة » :

كنا ملايينا يسـمرهم عـ ‏‏ لمى المذيـاع سـامر
عقدوا بنبرتـك القلـو ‏‏ ب وجلجلت معك الحناجر
في الشام في بغـداد خلـ ‏‏ ف سجوننا السود الفواجر
في القدس تحتضن الصبا ‏‏ ح وتستفيق على البشائر
في قمة خضـراء تـو ‏‏ رق بالرجولة في الجزائر
كنا العروبـة علقـت ‏‏ انفاسـها بزئـير زائـر

وهذا الشاعر السعودي عبدالله الحمد السناني لا يرى ان القناة تعني مصر وحدها بل تعني العرب جميعا حيث يقول :ـ

بني مصر ما هذي القناة تخصكم ‏‏ ولكنها دون العروبة بـاب
أقامتكم دنيا العروبة حارسـا ‏‏ عليه فمن رام الدخول يصـاب

وحين ضربت تونس بكاها الشاعر الليبي أحمد رفيق حيث قال :ـ

أما زال للاعياد في الشرق رونـق ‏‏ وتونس في سيل من الدم تغـرق
فلسطين لم يندمل بعد جرحهـا ‏‏ وها هو في الخضراء آخر يفهـق
شقيقتنا بنت العـروبة تونـس ‏‏ تقلب في جمر الطغاة وتحـرق

ولم يغفل الادب جانبا هاما هو الدفاع عن اللغة العربية وهي أقـوى مقومات قوميتنا كما دافـع عن تقاليدنا ومثلنا ، ودعـا الى المحافظة عليهـا حتى لا تفقد شخصيتها فنفقد وجودنا .

واخيرا كانت الوحدة بين مصر وسوريا فهلل العـالم العربي كله واحتفل بها الادب وتغنى بها الشعراء من أمثال هند هارون وعزمي الدباغ وعبدالله العثيمين وغنيم الذي يقول من قصيدة مطلعها :ـ

عرسان في بنت المعز وجلقـــا   هزا بلحنهما الشـجي المشرقـــا
المارد الجبار اقســـم جاهـــدا   ألا يرى في الشرق شعبا موثقـــا
وغدا نرى التوحيد صار عقيـــدة   وصداه أنجد في البلاد واعرقـــا
قالوا : اتحاديين مصـر وسـوريا   فأجبت : بل حلم القرون تحققـــا

تغنوا بها لانها في نظرهم ونظر الملايين من ابناء امتنا نقطة البدايـة للوحدة الـكبرى ، حيث يستعيد العرب ما فقدوا ، وحيث يقوى جانبهم فيرهبهم عدوهـم ، وتخطب الدنيا ودهم ، حيث ينتزعون شـوكة تدمـي جنوبهم ، ويستعيدون كرامة لن تعود حتى يلقوا بعدوهم في البحـــر ، ويومها يعود المشردون الى ربوعهم ، فيعود السلام الى ارض السلام •

ويوم أعلنت الوحدة الثلاثية ، احتفلت قطر شعبا وحكومة بهذا اليوم الميمون ، كما احتفلت به ارض العروبة كلها ، وانشد الشاعر القطرى حسن نعمة قصيدة من رائـع الشعر يحيي بها ذلك الحدث العظيم :ـ

ومن قبل وقفت مع مصر كما وقفت اخواتها ابان العدوان الثلاثي الغادر، وفرحت بالوحدة كما فرحت الامة كلها ، واستقبلت شاعر الجزائر في يوم مشهود • تفعل قطر ذلـــك لايمانهـــا العميق بانها جـزء من الامة العربية وبانها واحدة من حرس الحد الشرقي لامتنا المجيدة

ان معاركنا لم تنته بعد فليكن ادبنا ملهبا لمشاعرنا ولهيبا على اعدائنا ، لنبعد عنه نغمات البكاء والانين ، ولنصغه عزما وتصميما يقودان جماهير امتنا في معارك التحرير والبناء •

نريد الاناشيد القومية يهتف بها ناشئة الامة وشيوخها ، نريد القصة والتمثيلية تصور البطولة والمواقف التاريخية المجيدة ، وتصور عواطفنا في كراهية الذل والجبن وحب العزة والشجاعة •

نريد أدبا يبني نفوس ابنائنا على الفضائل الاسلامية والرجولـــة والمبادىء القومية ، ادبا يحارب الغزو الفكرى المدمر ، فما زال الاستعمار

يتوسل بأساليب كثيرة ، يجتذب بها عقول الشباب وقلوبهم ليفسدها ، وليفسد أغلى ما تملك الامة العربية ، ليفسد ذخيرة الحاضر والمستقبل ، شباب الامة ، أملها وعدتها •

نريد أدبا عربيا يتغنى بالوحدة ويمجدها ، لانها طريق الحرية والقوة والخلاص •

الشعور بالقومية العربية اصبح ايمانا يملأ قلوب ابناء هذه الامة من المحيط الى الخليج ، يستوى في ذلك البدو حيث يضربون خيامهم في جوف الصحراء حيث الثقافة ونور المدنية ، ونحن لم نصل الى هذا المستوى من الوعي الا بفضل الاحداث التي هزت كياننا وبفضل الادب الذي شحذ عزائمنا وحرك مشاعرنا •

فلتبق شعلة الادب مضيئة وهاجة ، تثبت معنى العروبة وتدعمه ، نملأ به نفوسنا تؤمن بالوحدة وبالقيم الروحية والفضائل الانسانية •

مصطفى البنداري
عضو وفد قطر

القومية العربية في شعر شوقي

بقلم

الدكتور احمد محمد الحوفي

ما كاد القرن التاسع عشر يتنفس صباحه حتى جعلت حماسة العرب الى الوحدة تتأجج ، وأخذت عقول مفكريهم ترسم الخطط وتدبر ، وشرع أدباؤهم يدعون الى الوحدة ، ويبشرون بها ، ويتلهفون على تحقيقها ، بعد ان انفصمت عرى الخلافة العثمانية ، وسارع العرب الى مجاهدة المحتلين ، ليتحرروا من اوهاق الاحتلال البغيض .

وكلما مرت السنون ازدادت الامة العربية شعورا بحاجتها الى تجمع مرهوب ، ووحدة قوية وفيه تجمع شتاتها ، وتقف في مهب الاعاصير العاتية كالطود الراسخ الاشم ، تتحطم قوى الاستعمار دون سفحه فترتد حسيرة مغلولة ، ويبقى الطود وطيد الاساس ، ثابت البناء ، ســـاخرا من اوهام الاعداء .

ولقد طالما جلجل شعراء العصر الحديث بالقومية العربية من الخليج الى المحيط ، حاملين على الاستعمار الذى خرب العـــمران ، وقوض البنيان ، وقعد بالعرب عن مجاراة الزمن ، ونفث في قواهم سموم الضعف والانقسام ، وكاد ينسيهم ماضيهم وعزتهم الموروثـة .

وحسبي أن أعرض بعض ما لشوقي من جهود في هذا المجـــال .

١
وحـدة اللـغة

١ ـ أثرها في الوحـدة

تنبه شوقي الى أن اللغة أقوى رابطة في روابط القومية ، وأعظم سبب في جمع شمل الامة ، لانها تتفاهم بها ، وتقرأ تراثها المشترك ، وتعبر عن مشاعرها ، ولانها سجل أدبها وافكارها •

ولهذا أيأس الترك من محاولاتهم التعفية على القومية العربية ، وتذويب العروبة في التركية ، لان اختلاف اللغة فجوة واسعة تفصل ما بين القوميتين فصلا لا سبيل الى التئامه ، ونصح لهم أن يتعلموا العربية ، ويصطنعوها لغة ثانية لهم ، ليتقربوا الى العرب بوسيلة أخرى مع قربى الدين • قال في سنة ١٩٠١ :

شمل اللغات لدى الاقوام ملتئم — والضاد فينا بشمل غير ملتئم
فقربوا بيننا فيها وبينكم — فانها أوثق الاسباب والذمم

ولم يكن شوقي خياليا في دعوته الترك الى أن يستعربوا ، أو الى أن يتعلموا اللغة العربية ليتدانوا الى العرب ، لانهم كانوا في عهدهم الاول يتعلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ، ويضعون مؤلفات فيها ، مثل الفيروزابادى وابى السعود وملا خسرو والجامي وحاجي خليفة وابن كمال باشا •

وكان بعض ملوكهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها ، ومنهم من كان يروى الشعر العربي وينظمه كالسلطان أحمد الاول •

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية الا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه عبدالمجيد الاول ، اذ احيوا اللغة التركية وسهلوا قواعدها ، وسموها اللغة العثمانية •

ولما ضرب الاسطول الفرنسي دمشق بمدافعه سنة ١٩٢٦ واسى

شوقي سورية مواساة الاخ الوفي الملتاع ، وبصر السوريين بدسائس المستعمر ومكره ،وأنار لهم طريق الجهاد بنصائحه ، ومهد لهذه النصائح بالبواعث التي دفعته الى النصح الخالص ، ليحسنوا الاصغاء ، ويحسنوا الاستجابة ، وكانت وحدة اللغة من هذه البواعث التي تربط قلوبهم بقلبه :

نصحت ونحن مختلفون دارا　　ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلاد　　بيان غير مختلف ونطق

وفي قصيدته التي شكر بها لمكرميه بدمشق سنة **١٩٢٥** توجيه العمل الجاد الدائب المثمر ، وحث على الحفاوة بالعلوم والاداب ، وحث على التآخي والاتحاد ، ثم تعزيز لهذا النصح بأنه صدى لحبه اياهم واخلاصه لهم ، لانهم اخوته جمعته عدة وشائج منها اللغة :

نصيحة ملؤها الاخلاص صادقة　　والنصح خالصة دين وايمان
ونحن في الشرق والفصحى بنورحم　　ونحن في الجرح والآلام إخوان

٢ ـ دفاعه عن اللغة

حينما نجحت المؤامرات الاستعمارية متوخية قطع الوشيجة الوثقى التي تربط العرب على اختلاف ديارهم ، وهي اللغة العربية الفصحى ، بايثار اللهجات المحلية عليها ، وباتهام الفصحى بالجمود والعجز عن مسايرة الحضارة الحديثة ، هب الشعراء يذودون عن الفصحى ما يراد بها من كيد ويبصرون العرب بما يبيت لهم من شر ، ودعوا قومهم الى الاستمساك بوحدة لغتهم ، والاعتزاز بماضيها ، والفخار بما خلفته من تراث عظيم خالد ، وفندوا دعاوى الاعداء وأبطلوها .

من هؤلاء الشعراء شوقي ، فقد دافع عن الفصحى بانها ليست كالعامية في أن قدرتها منوطة بالتعبير السهل عن الشؤون العادية في البيت والسوق ، مع عجزها عن التعبير العلمي والادبي ، بل ان الفصحى

وحدها هي القديرة على الافتنان الادبي ، وعلى جلاء التعبير العلمي ، وهو بهذا يرد على الذين اتهموها باطلا بالجمود والتخلف وزعموا أن العامية أكثر منها قدرة ومرونة .

ثم عزز حجته بان الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهما المصدران الاولان للتشريع الاسلامي ، وهما ذروة البلاغة العربية ، وارتباط الفصحى بهما يحيطها بهالة من العظمة والقداسة، فكيف يتهاون العرب في حمايتها من العدوان ؟ ولماذا لا ينهضون بها الى الاوج الذى تستعيد فيه حيويتها وقدرتها على مسايرة العلم والحضارة ؟

وأضاف الى هذا أنها لغة ثرية مرنة صالحة للتعبير عن حاجات كل عصر ، اذا ما لقيت من ابنائها حدبا عليها ، ورعاية لها ، واعتزازا بها .

ثم طالب الشاكين في هذه الحقيقة أن ينهضوا بانفسهم ، وان يرتقوا في سماء العمران ، فانهم سيجدونها تصاحبهم في صعودهم ولا تتخلف عنهم ، ومثل لهذا بأن يجعلوا عمرانهم روضة يانعة ، ليجدوا الفصحى تجرى جداول عذبة في هذه الروضة فتسقيها وتحييها ، ونهاهم عن ترقيعها بكلمات دخيلة مسروقة من لغات شتى ، لان الترقيع لا يجدي ولا يغني ، بل يشوه ويزري . ولم يفته ان يدلل على ثرائها بماضيها العريق في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس وفارس وغيرها ، اذ زكت أصولها ، وبسقت فروعها ، ونهضت بمقتضيات العصر في جميع المرافق ، ولم تقصر في شيء مما أراد أهلوها ، فمحت غيرها من اللغات ، واستقرت واستقلت محافظة على خصائصها وكيانها .

قال شوقي :

ان للفصحى زماما ويدا ... تُجْنِبُ السهل وتقتاد الصعابا
لغة الذكر لسان المجْتَبَى ... كيف تعيا بالمنادين جوابا ؟
كل عصر دارها ان صادفت ... منزلا رحباً وأهلا وجنابا
أنت بالعمران روضا يانعا ... وادْعُها تجر ينابيع عذابا
لا تجئها بالمتاع المقتنى ... سَرَقاً من كل قوم ونِهابا

سل بها أندلسا هل قصرت | دون مضمار الفلاحين أهابا
غرست في كل ترب أعجم | فزكت أصلا كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب | غير رجليها ولم تحجل غرابا

وردد هذه الفكرة في قوله يناجي الاسكندرية :

فخذي كأمس من الثقافة زينة | وتجملي بشبابك النجباء
وتقلدي لغة الكتاب فانها | حجر البناء وعدة الانشاء
بنت الحضارة مرتين ومهدت | للملك في بغداد والفيحاء
وسمت بقرطبة ومصر فنالتا | بين الممالك ذروة العلياء

وفي قوله :

ان الذي ملأ اللغات محاسنا | جعل الجمال وسره في الضاد

وفي قوله مشيدا بالقرآن الكريم والحديث الشريف :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت | وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُد | يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرّفة | يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة | حديثك الشهد عند الذائق الفهِم
حليت من عطل جيد البيان به | في كل منتثر في صف منتظم
بكل قول كريم أنت قائله | يحيي القلوب ويحيي ميت الهمم

٢

الوجدان المشترك

يذكر علماء النفس وعلماء الاخلاق ان للوجدانات آثارا عظيمة في حياة الانسان ، وسيطرة قومية على سلوك الافراد والجماعات، ويذكرون أن الوجدان المشترك هو المظهر الوجداني الاجتماعي ، كالشفقة على المصابين ، والحنو على الضعفاء ، ومقاسمة المتألمين آلامهم ، والمحبورين سرورهم • وهذه المشاركة الوجدانية هي المثير القوى لانفعالات المجتمع ،

والدافع الاصيل لكثير من أعماله ، كالذعر عند الخطر ، والغضب عند الاعتداء على الدين أو الوطن ، وهي أساس النهضات الاجتماعية ، والعامل الاقوى في توحيد الميول والعواطف •

وليست هذه المشاركة الوجدانية مقصورة على الانسان ، بل هي واضحة في كثير من الحيوانات الراقية التي تميل بطبيعتها الى التجمع ، فهي كما يقول العلامة (مكدوجل) تربط كل افراد الجنس الواحد من الحيوان معا ، وتوحد اعمالهم وتنظمها بطريقة تجعل منها جماعة قوية تعوض باتحادها في ميدان الجهاد للعيش ما ينقصها من الذكاء وحسن التصرف • وهذا هو السبب في أن اخراج اليعسوب ـ ملكة النحل ـ من الخلية عنوة يحدث في نفس الدَّبْر ـ جماعة النحل ـ انفعالا شديدا ، فتنطلق من الخلية انطلاق السهام للبحث عن اليعسوب في كل مكان ، وكلما طال عليها الوقت تزايد هياجها ، وتعالى طنينها •

ويقول العلامة الامريكي (هولمز) ان جماعة النحل والنمل وكثيرا من الحشرات يظهر عليها الغضب اذا غضب احدها ، فتجعل تتجمع ، وكلما زاد عددها ازداد غضبها ، فتتلف كل ما تجده في سبيلها ، حتى لا تبقي ولا تذر •

ويؤكد العالم الالماني (كهلر) أن صراخ قرد من الشمبانزي أو هجومه على انسان يكفي لاثارة غضب الجماعة فيثب افرادها من كل مكان للمشاركة في هذا الهجوم •

فلا غرابة اذاً في أن يكون الوجدان المشترك دعامة من دعائم القومية العربية •

ولهذا الوجدان المشترك عدة مظاهر •

أ ـ التآلف والتعاطف

ليس من شك في أن للامة العربية وجدانها المشترك في احداثها العامة ،ممثلا فما تتجاوب به من أفراح أو أتراح ، ومن رضا أو سخط ، ومن قلق أو اطمئنان •

وهو في أعم حالاته وجدان حافز الى العمل ، سواء أكان هذ االعمل سخاء بالمال أو المقال ، أم للدماء ومشاركة في القتال ، أم سخطا على المستعمر وتشنيعا بمظالمه وحضا على الثأر منه ، وعلى تحطيم اغلاله ، أم مشاركة في الزهو والفخار ، أم مجاوبة في الفرح والابتهاج .

ولقد برع شوقي في تصوير الوجدان المشترك تصويرا جمع بين الصدق الواقعي والصدق الفني في قصيدته التى حيا بها مبايعيه بامارة الشعر من أقطار العروبة سنة ١٩٢٧ ، اذ وصف المهرجان بانه عكاظ واجتمعت فيه العروبة ـ التي عبر عنها بالشرق على نهج كثير من الشعراء ـ ثم ختم القصيدة بتصوير الامة العربية جسدا واحدا اذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الاعضاء بالسهر والالم ، فاذا تأوه بالعراق جريح أمسك اخوته في الوطن العربي جنوبهم ، كناية عن الالم الشديد الذى يضطر المتألم الى هذه الحركة ، وعرض شوقي لبعض ما يتصل بوحدة الشعور بالآلام من مظالم الاستعمار ، والتنكيل بالاحرار ، والجهاد للاخلاص ، فقال :

ياعكاظا تألف الشرق فيه	من فلسطينه الى بغدانه
شُرِّفَتْ مصر بالشموس من ا	لشرق نجوم البيان من أعيانه
رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم من جيرانه	
بعثتني معزيا بمآقي	وطني أو مهنئا بلسانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر	ح وأن نلتقى على أشجانه
كلمان أنَّ بالعراق جريح	لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم حديد	تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء	كلنا مشفق على أوطانه

وأغلب الظن أن علي الجارم أعجبه فصله وأضاف اليه خطوطا وألوانا وأبعادا ومعالم ، وصور المشاعر مشتركا بين الجمادات والنباتات ، غير مقصورة على الاناسي ، ليؤكد انها بينهم قوية غاية القوة ، لانها استجابة للفطرة لا تزول ولا تحول .

قال الجارم :

تذوب حشاشات العواصم حسرة | اذا دميت من كف بغداد إصبع
ولو صُدِّعَتْ في سفح لبنان صخرة | لدك ذرا الاهرام هذا التصدع
ولو بردى أنت لخطب مياهه | لسالت بوادي النيل للنيل أدمع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة | لبانت له أكبادنا تتقطع

وقال في قصيدة أخرى :

اذا مست البأساء أذيال دجلة | قرأت الاسى في صفحة النيل والكمدا
وان طُرِفَت عين ببغداد من قذى | رأيت بمصرٍ أعينا مُلِئَت سهدا

وقال في قصيدة ثالثة :

بغداد يا بلد الرشيد | ومنارة المجد التليد
اهلوك أهلونا وأبنا | ء العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف | كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخلك | نخل أهلي في رشيد
الرافدان تمازجا | في الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان ظل | الطاق والهرم المشيد

ب ـ فظائع الاستعمار

هب العرب الاحرار يناضلون الاستعمار ، مفتدين وطنهم بالدماء والارواح متسابقين الى ميادين الكفاح ، غير آبهين بجنود العدو الكثيرة واسلحته الموفورة ، ووحشيته المسعورة .

وحينما كان يستشهد بعضهم في الجهاد ، أو تضرب مدنهم بالقنابل ، يهيج أخوانهم في الاقاليم الاخرى ، ويشاركونهم في الاسى والسخط على العدو الغاشم .

ولشوقي في هذا المجال صوت طالما دوى وجلجل .

فلما ضرب الاسطول الايطالي بيروت سنة ١٩٢١ والحرب قائمة في طرابلس بين العرب والايطاليين ، قال شوقي قصيدة صور فيها الابطال

الذين قتلتهم القنابل أسودا ماتوا غدرا في غير معركة ، فليس لايطاليا أي فخر في قتلهم ، لان الليث المقيد يسهل صيده أما الليث الطليق فان صيده مرهوب .

وحزن شوقي على دماء الابطال التي سالت حول المساجد والكنائس والدور ، تمنى لو طال العمر باصحابها ليذودوا عن الحمى ، وصور أسى المصريين مما نزل باخوتهم اللبنانيين بكوا بيروت بدموع لو استطاعوا أن يغسلوا جراحها لفعلوا ، ولكنه عبر عن المصريين بانهم (جيرة) بيروت ، ولو انه قال (اخوة) لاصاب الحقيقة :

بيروت مات الاسد حتف أنوفهم ... لم يشهروا سيفا ولم يحموك
سبعون ليثا أحرقوا أو أغرقوا ... ياليتهم قتلوا على (طبروك)
كل يصيد الليث وهو مقيد ... ويَعِزُّ صيد الضيغم المفكوك
يا مَضرِب الخيَم المنيفة للقِرى ... ما أنصف العُجم الالى ضربوك
ما كنت يوما للقنابل موضعا ... ولو أنها من عسجد مسبوك
سالت دماء فيك حول مساجد ... وكنائس ومدارس وبنوك
كنا نؤمل أن يُمَدَّ بقاؤها ... حتى تبل صدى القنا المشبوك
لك في ربا النيل المبارك جيرة ... لو يقدرون بدمعهم غسلوك

ولما ثارت سورية على الحكم الفرنسي سنة ١٩٢٥ ثورتها الباسلة التي استمرت سنتين ، وضرب الفرنسيون دمشق بمدافعهم في مايو سنة ١٩٢٥ التهبت عواطف شوقي وجزع مما أصابها ، ومجد ماضيها وحاضرها ، وصور عزازتها عليه وعلى الامة العربية ، وحزن لما أحدثه الفرنسيون بآثارها الخالدة ، واستنكر وحشيتهم ، وحمل عليهم وندد بهم ، لانهم تنكروا لاصول ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والاخاء وندد بهم ، لانهم تنكروا لاصول ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والاخاء والمساواة ، وندد بطيش القائد الفرنسي ، ووصفه بأنه أحمق غاشم كان حربا على فرنسا بما جنى ، وبما جر عليها من سبة وسوء سمعة ، ثم انذر فرنسا بأن السوريين لابد أن ينالوا

حريتهم ، وبأن وحشيتها غذاء لحماستهم ، لان شهداء الجهاد خالدون ، وذكراهم تؤرث النضال •

وختم القصيدة بتشجيع السوريين على الجهـــاد ، ونصحهم بأن يحذروا خدع فرنسا ، لانها تحاول ان تصرفهم عن الاستقلال بأوهـــام خداعة كالدولة السورية ، ولبنان الكبير ، ودولة جبل الدروز ، وحكومة العلويين ، وبألقاب توهم بالملك والسيادة وهي في حقيقتها ذل واستعباد ، وصور لهم الحرية حصنا لا يقرع بابه الا المجاهدين المصبوغة ايديهـــم بدماء الجهاد •

ولقد غاظت القصيدة فرنسا ، فمنعت شوقي أن يزور المغرب الذى كان خاضعا لها حينئذ :

سلام من صبا بـــردى ارق ... ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
ومعذرة الـــيراعة والقـــوافي ... جلال الرزء عن وصف يـــدق
وذكرى عن خواطـرها لقلبـي ... اليك تلفت أبدا وخفـــق
وبى مما رمتك به الليـــالى ... جراحات لها في القلب عمـــق
لحاهـــا الله أنبـــاء توالـــت ... على سمع الولىّ بما يشـــق
تكاد لروعة الاحـــداث فيهـــا ... تخال من الخرافة وهي صـــدق
وقيل معالم التاريخ هـــــدت ... وقيل أصابها تلـــف وحـــرق
ألست دمشق للاسلام ظئـــرا ... ومرضعة الابـــوة لا تعـــق ؟
صلاح الدين تاجك لم يجمـــل ... ولم يوسم بأزين منه فـــرق
وكل حضارة في الارض طالت ... لها من سرحك العلوى عـــرق
بنيت الدولة الكبرى وملكـــا ... غبار حضارتيه لا يشـــق
له بالشام اعلام وعـــرس ... بشائره بانـــدلس تُـــدق
سلى من راع غيدك بَعْدَ وَهْنٍ ... أبين فؤاده والصخر فرق ؟
وللمستعمرين وان ألانـــوا ... قلوب كالحجارة لاتـــرق
رماك بطيشه ورمى فرنســـا ... أخو حرب به صلف وحمـــق
اذا ما جاءه طـــلاب حـــق ... يقول عصابة خرجوا وشـــقوا

دم الثوار تعرفه فرنسـا　وتعلم انه نور وحـق
وحررت الشعوب على قناهـا　فكيف على قناها تسترق ؟
بنى سورية اطرحوا الاماني　وألقوا عنكم الاحلام ألقـوا
فمن خدع السياسة ان تغروا　بألقاب الامارة وهي رق
وقفتم بين موت أو حيـاة　فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللاوطان في دم كل حـر　يد سلفت ودين مستحق
ولا يبنى الممالك كالضحايـا　ولا يدني الحقوق ولا يُحِق
ففي القتلى لاجيال حيـاة　وفي الاسرى فِدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء بـاب　بكل يد مضرجة يـدق

ج ـ رثاء المجاهدين

أمة واحدة في وطن واحد ٠

أمة وفية لأبطالها المجاهدين وعظمائها الراحلين ٠

وشعراؤها كلفون بالبطولة وبالمجد ، تياهون بالابطال والمجاهدين ، فمن الطبيعي أن يكون الشهيد في اقليم عربي شهيد الوطن العربي كله ، وأن يكون العظيم في بلد عربي عظيما في نظر العرب أجمعين ٠

ولهذا تجاوب الشعراء برثاء الزعماء والقادة والشهداء والعظماء ٠

وكان شوقي من السباقين في هذا المجال ٠

فلما احتفلت سورية بذكرى استقلالها سنة **١٩٢٨** ، مجد شوقي شهداءها ، واختص بطلها يوسف العظمة بالاشادة ، وقد كان يوسف وزير الحربية في حكومة فيصل بن الحسين بعد فتح سورية بقيادة فيصل ، واستطاع يوسف بعد المناداة بفيصل ملكا على سورية ان ينظم جيشا وطنيا من عشرة آلاف مقاتل ٠ فلما اعلن الحلفاء في مؤتمر سان ريمو سنة **١٩٢٠** فرض الانتداب على سورية ، وتحرك الجنرال غورو ليحتل دمشق ، نهض يوسف العظمة لصده ، وكانت موقعة ميسلون التي ابلى فيها العرب أعظم بلاء ، واستشهد فيها يوسف ، فكان من طلائع شهداء الحرية والعروبة ٠

صور شوقي قبر يوسف العظمة يهتف بالجهاد للثأر له من الفرنسيين، ونوه ببطولته في مناضلة الجيش الفرنسي الباغي المستظهر بطياراته ودباباته، وكيف استهان بها يوسف، وثبت في مكانه كالطود، حتى استشهد أبيا في ميدان الشرف، مبكيا من المسلمين والنصارى جميعا:

سأذكر ما حييت جدار قبر ... بمظاهر جِلَّقٍ ركب الرمالا
مقيم ما اقامت ميسلون ... يذكِّر مصرعَ الاسد الشبالا
لقد اوحى اليَّ بما شجاني ... كما توحي القبور الى الثكالى
تغيب عظمة العظمات فيه ... واول سيد لقي النبالا
ترى نور العقيدة في ثراه ... وتَنشَق من جوانبه الخلالا
ملأن الجو أسلحة خِفافا ... ووجه الارض اسلحة ثقالا
وأرسلن الرياح عليه نَارا ... فما ضل الجَنوبَ ولا الشَّمالا
اقام نهاره يُلقِي ويَلقَى ... فلما زال قرص الشمس زالا
وطاح ترى به قيد المنايا ... ولست ترى الشكيم ولا الشكالا
فكفن بالصوارم والعوالي ... وغيب حيث جال وحيث صالا
اذا مرت به الاجيال تترى ... سمعت لها ازيزا وابتهالا
تعلق في ضمائرهم صليبا ... وحلق في سرائرهم هلالا

ورثى الزعيم السوري فوزي الغزي سنة ١٩٣٠، وبكى فيه بطلا عربيا كان يذود عن الوطن كما زاد اسلافه من بني عبد شمس وبني أمية، وختم القصيدة بدعوة المجاهدين ان يرعوا وحدتهم، واستحلفهم بالله وبمحمد وبعيسى وبالغزى ان يعتصموا بالوحدة، لان خروج واحد من الصف قد يحبط التدبير المحكم، والتفكير السديد، والجهاد المظفر:

جرح على جرح حنانك جلق ... حُمِّلتِ ما يوهى الجبال ويرهق

....

يا مأتما من عبد شمس مثلُه ... للشمس يُصنع في الممات ويُنْسَق
ان ضاق ظهر الارض عنك فبطنها ... عما وراءك من رفات أضيق
لما جمعت الشام من اطرافه ... وافى يعزى الشام فيك المشرق

يبكي لواء من شباب أميـــــة يحمي حمى الحق المبين ويَخفُق
مَن مبلغٌ عني شبولة جلـــــق قولا يَبَرُّ على الزمان ويصـدق
بالله جل جلاله بمحمــــد بيسوع بالغزى لا تتفرقـــوا
قد تفسد المرعى على اخواتهـــا شاة تند عن القطيــع وتمــرق

ورثى سنة ١٩٣٠ الحسين بن علي زعيم الثورة العربية على الاتراك ، واحسن الاعتذار له عن مهاجمته من قبل ، لانه تبين ان الحسين مناضل كان يأمل تحرير العرب ، ولكن الاستعمار خدعه :

قد بعثت القضية اليوم ميتـا رب عظم أتى الامــور العظائـم
أنت كالحق ألَّفَ الناس يقظا ن وزاد ائتلافهــم وهـو نائـم
حبذا موقف غُلِبتَ عليــه لم يقفه للعرب قبلــك خـادم
ذائدا عن ممالك وشــعوب نُقِّلَتْ في الاكف نقل الدراهـم
كل ماء لهم وكل ســماء موطن الخيل او مطار القشاعم

ورثى الشهيد عمر المختار ، بطل طرابلس الذى لقى الايطاليين في عشرات المواقع ، فلما قبضوا عليه اعدموه سنة ١٩٣١ ولم يعطفهم عليه ما عرفوا من بطولته وشغفه بوطنه ، ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين •

وقد حمل في مرثيته على ايطاليا ، وانذرها بثأر اشد وانكى ، وصور رفات الشهيد المواراة بالثرى كنزا من الحماسة المتقدة ، يستنهض العرب في كل وقت أن يثأروا لشهيدهم ، وان يقتدوا بجهاده ، وأيقن انهم سيورثون ابناءهم بغضهم للايطاليين والدأب على نضالهم ، حتى يطردوهم من ديارهم ، ثم ختم القصيدة بنصائح اختص بها الشباب الليبي :

ركزوا رفاتك في الرمال لــواء يستنهض الوادي صباح مساء
ياويحهم نصبوا منارا مــن دم يوحى الى جيل الغد البغضـاء
جرح يصيح على المدى وضحيـة تتلمس الحرية الحمــراء
افريقيا مهد الاسود ولحدها ضجت عليك أراجلا ونســاء
والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عــزاء

والجاهلية من وراء قبورهم يبكون زيد الخيل والفلحاء
لبى قضاء الارض امس بمهجة لم تخش الا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كانه سقراط جر الى القضاة رداء
وآتى الاسير يجر ثقل حديده اسد يجرر حية رقطاء
عضت بساقية القيود فلم ينؤ ومشت بهيكله السنون فناء

د ـ الفرح المشترك

كانت اهازيج البهجة في اقليم من الوطن العربي تتجاوب بها بقية الاقاليم ، وكثيرا ما صور الشعراء افراح العرب المشتركة ، وابتهجوا بها .

فحينما احتفلت سورية سنة ١٩٢٨ بعيد استقلالها حياها شوقي بقصيدة اشاد فيها بالاحياء من الاحرار وبالشهداء والابطال ، ونوه بما بين مصر وسورية من اخاء ومن ضيق بقيود الاستعمار :

بنى البلد الشقيق عزاء جار اهاب بدمعه شجن فسالا
قضى بالامس للابطال حقا واضحى اليوم بالشهداء غالى
يعظم كل جهد عبقرى اكان السلم ام كان القتالا
وما زلنا اذا دهت الرزايا كأرحم ما يكون البيت آلا

ثم حضهم على الاتحاد والعمل الدائب في السلم وفي الحرب ، ودعاهم الى الاعتصام باخاء المسلمين والنصارى ، والى الحرص على التئام الشمل ، وذكرهم بوعود الاستعمار الخادعة وعهوده المنقوضة ، ليأخذوا حذرهم :

بنى سورية التئموا كيوم خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا ؟
وهل نلنا كلانا اليوم الا عراقيب المواعد والمطالا ؟
عرفتم مهرها فمهرتموها دماً صبغ السباسبَ والدّغالا ؟
دَعُوا في الناس مفتونا جبانا يقول : الحرب قد كانت وبالا
وكونوا حائطا لا صدع فيه وَصفّاً لا يُرَقَّع بالكسالى
وعيشوا في ظلال السلم كدا فليس السلم عجزا واتكالا

٣
التاريخ المشترك

لم يكن عن مصادفة هذا الفخار الكثير في الشعر الحديث بتاريخ العرب المجيد وحضارتهم العريقة ، وتراثهم المشرق ، وعظمائهم وأبطالهم .

ولم تكن الاشادة بهذا مظهرا من مظاهر الاقتدار على المعارضات الشعرية ، او تدريب القرائح على التجويد ، بل كان عملا مقصودا صادرا عن عواطف قوية صادقة نبيلة .

ذلك ان العرب افاقوا في أواخر القرن التاسع عشر ، فاذا اعداؤهم ينتقصون اقدارهم ، ويستولون على بلادهم ، ويحاولون ان يطمسوا معالم مجدهم ، ويرخوا استارا كثيفة صفيقة بينهم وبين ماضيهم العريق الحافل بالعظمة والعظماء ، على حين ان هؤلاء الاعداء يحرصون اشد الحرص على التنويه بتاريخهم هم وبعظمتهم وعظمائهم ، ليضعفوا ثقة العرب بأنفسهم .

أفاق العرب على هذه الخدع التي حاكها الاستعمار ، فهبوا سراعا الى إبطالها واحباطها ، فأحيوا تاريخهم المجيد ، واشادوا بحضارتهم الزهراء ، ونوهوا بأسلافهم الذين سموا في كل ناحية من نواحي الحياة ، ليصدوا الدعاوى الاجنبية عن العقول والقلوب ، وليضاعفوا ايمان العرب بانفسهم ، وانهم اهل لان يسودوا كما ساد آباؤهم ، واهل لان ينبغوا كما نبغ اسلافهم ، وليبينوا ان الضعف الذي يعانون جرائره ليس طبيعة فيهم ، بل هو طارىء موقوت ، مناهم به الانقسام والاستعمار والتحلل من المثل العليا التي سنها لهم دينهم ، وارسى قواعدها اجدادهم ، وهم لا يلبثون ان ينهضوا الى ذروة العلا والقوة والمجد اذا ما عرفوا قدر انفسهم ، واهتدوا بالقيم النفيسة السامية التي خلفها لهم سابقوهم .

وقد سلك المستنيرون والقادة الى احياء المجد القديم مسالك متنوعة ، كان الشعر من ابرزها .

فاذا ما رجعنا الى شوقي استرعى نظرنا انه كثيرا ما لهج بماضي العرب المجيد ، واشاد بحضارتهم وتراثهم وابطالهم وعظمائهم ، يقصد بعث العزائم على رفض الذل ، والانفة من الاستعمار ، والاقتداء بالاجداد الذين

كانوا سادة العالم وزينة الارض ، والمثل العالية في القوة والبطولة والعلم والحضارة ومكارم الاخلاق ، فانه لا يحفز الامم على النهوض مثل الجهاد الدائب لاستعادة مجدها الذاهب •

فهو يصف العرب بأنهم امة البيان والعلوم ، سادوا العالم ، وكانوا اساتذته احقابا طوالا ، وكان الحق والعدل والحرية والخير والعلم ترافق فتوحهم حيثما حلوا ، فهم الذين حملوا معهم تعاليم الاسلام الى كل اقليم نزلوا به ، فطبوا البشرية من امراضها ، وسنوا لها أسمى النظم في العقيدة والتشريع والتفكير والاجتماع والحكم وسائر ما يتصل برقي الافراد والجماعات • وليس للبشرية دواء ناجع يقيها ويعالج ادواءها غير الاسلام ، بما قضى من عقائد وتشريع ونظم يقتبس منها اتباعه وغير اتباعه ، وهي نظم يجد فيها المصلحون بغيتهم ، ويجد فيها العلماء والباحثون طلبتهم •

ثم استنكر شوقي من الاعاجم ابناء الخصب والظل والنعيم والترف ان يَعْجَبوا من ان تخرج الصحراء عباقرة في السياسة والعلوم ، وان ينطلق من الخيام افذاذ في الحروب وقيادة الجيوش استطاعوا في زمن قصير ان يدكوا عرش كسرى وقيصر ، وان يقيموا حكما اساسه العدل والحرية والرخاء والخير للمحكومين :

أمة ينتهي البيان اليها ... وتئول العلوم والعلماء
جازت النجم واطمأنت بأفق ... مطمئن به السنا والسناء
كلما حثت الركاب لأرض ... جاور الرشد اهلها والذكاء
وعلا الحق بينهم وسما الفضل ... ونالت حقوقها الضعفاء
تحمل النجم والوسيلة والميزان ... من دينها الى من تشاء
فيه ما تشتهي العزائم ان هم ... ذووها ويشتهي الاذكياء
ايرى العجم من بنى الظل والما ... ء عجيبا ان تنجب البيداء ؟
وتثير الخيام آساد هيجا ... ء تراها آسادها الهيجاء

ثم وقف على آثار العرب بالاندلس ، فغالبه البكاء اذ استرجع تاريخهم الوضاء هنالك ، فترقرق الدمع في عينيه ، ولكن ثناه عن البكاء وعن انحدار الدمع اجلاله لاجداده الاباة ، الذين لم يخضعوا الا لله ، ولم يبكوا الا

في صلاتهم وضراعتهم لله ، وهو بهذا التصوير يضعهم في ذرا العزة والكرامة والاباء في علاقتهم بالاقوياء من الناس ، ويصفهم بالتدين وحب الله والخشية من عقابه والانقياد له ، ثم يعقب على هذا بانهم سادوا العالم ، معتمدين على دينهم ، وعلى اخلاقهم التي اشتهروا بعلائها قبل اسلامهم :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والاجلال يثنينـــا
لفتية لا تنال الارض ادمعهـــم ... ولا مفارقهم الا مصلينــــا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ... للناس كانت لهم اخلاقهـــم دينا

وكذلك ناجى بني امية في دمشق ، فمجدهم ، وباهى بفتوحهم وقوتهم في الشرق وفي الاندلس :

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم احداث وازمـان
هذا الاديم كتاب لاكِفاء لــــه ... رثُ الصحائف باق منه عنـــوان
الدين والوحي والاخلاق طائفـــة ... منه ، وسائره دنيــا وبهتـــان
بنوا امية للانباء ما فتحــــــوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانـــوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهـــم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ؟

ثم كرر الفخار في قصيدة اخرى ، وصف فيها دمشق بانها ظفـر للاسلام ربت كثيرا من رجالاته ، وحسبها من العظمة انها مثوى رفـات صلاح الدين ، وانها كانت عاصمة الامويين الذين مهدوا للدولة العباسية في الشرق ، واسسوا الدولة الاموية في الغرب ، فكانـوا اساسا لحضارة هؤلاء وهؤلاء ، واذ كانت حضارة العباسيين والاندلسيين ذات اثار عظيمة في حضارة الامم الغربية ، فان للامويين اذاً فضلا على هـذه الحضارات لا ينكر :

الست دمشق للاسلام ظئـــرا ... ومرضعة الابوة لا تعـــق ؟
صلاح الدين تاجك لم يُجمـــل ... ولم يوسم باجمل منه فـــرق
وكل حضارة في الارض طالـــت ... لها من سرحك العلوى عـــرق
سماؤك من حِلى الماضي كتـــاب ... وارضك من حلى التاريـــخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكـــا ... غبار حضارتيه لا يشـــق
له بالشام اعلام وعـــرش ... بشائره باندلس تـــدق

وقال في قصيدة اخرى :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببنى العباس بغدان

على ان له ديوانا مستقلا في (دول العرب وعظماء الاسلام) ، واربع مدائح نبوية اشاد فيها بعظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالشريعة الاسلامية ورجالات العرب •

وله قصيدة في تمجيد العرب بالاندلس وبكاء حضارتهم ، مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لي الصبا وايام انسى

وله موشح في صقر قريش عبدالرحمن الداخل ، مطلعه :

من لِنضوٍ يتنزى ألمَا برح الشوق به في الغلس
حن لَلبان وناجى العلما اين شرق الارض من اندلس ؟

كما نجد في ديوانه ابياتا كثيرة تنوه بعظمة العرب مثل الابيات التي في قصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) ، والابيات التي في قصيدته (أيها النيل) • فهو في اشادته بالعرب الذين فتحوا مصر يصفهم بالشجاعة المقترنة بمكارم الاخلاق ، لانهم يجاهدون ليحقوا الحق ويزهقوا الباطل ، فلا بغي ولا جبروت ولا استعمار ولا استئثار بخيرات البلاد ، وبانهم كانوا المثل الاعلى في التسامح والعدل والمساواة ولم يكونوا اصحاب أبهة واستعلاء ، ويرسم صورة رائعة لعمرو بن العاص والى مصر وهو جالس على حصير كما يجلس الناس ، وحوله ابهة روحانية من دينه واخلاقه تفوق ابهة الملك المتوج ، وهو موئل الخائفين ، وملاذ المستضعفين ، ثم يؤكد عدله بأن النصارى واليهود احبوه ، ودعوا له في كنائسهم وبيعهم ، لانه انقذهم من اهوال الرومان ومظالم البيزنطيين • قال شوقي في مناجاة النيل :

وودائع الفاروق عندك دينه ولواؤه وبيانه والمنطق
بعث الصحابة يحصلون من الهدى والحق ما يحيي العقول ويَفتق
احلاس خيل بيْدَ ان حسامهم في السلم من حذر الحوادث مقلق
تُطوى البلاد لهم ويُنجِد جيشهم جيش من الاخلاق غازٍ مورق

في الحق سُلَّ وفيه أغمد سيفهـــم | سيف الكريم من الجهالة يَفْرَق
والفتح بغيٌ لا يُهَوَّن وَقعـــه | الا العفيف حسامه المترفـــق
ما كانت الفسطاط الا حائطـــا | يأوي الضعيف لركنه والمرهَق
وبه تلوذ الطير في طلب الكـــرى | وبيت قيصر وهو منه مـؤرق
عمرو على شطبِ الحصير معصب | بقلادة الله العلى مطـــوق
يدعو له الحاخام في صلواتـــه | موسى ويسأل فيه عيسى البطـرق

ويتحدث شوقي عن بطولة صلاح الدين وحمايته للمسلمين وتحريره الوطن العربي من الصليبيين اذ انتصرت عليهم موقعة حطين سـنة **٥٨٣**هـ (١١٨٧م) • وعن انتصار توران شـاه على لويس التاسع ملك فرنسا والقبض عليه واسره في موقعة المنصورة سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ثم اطلاقه بفدية ، لا لان مصر أغرتها الفدية ، او كانت محتاجة اليها ، بل لانهـا اطمأنت الى انه صار بعد الهزيمة والاسر لا يخشى له بأس • ثم ختم شوقي ابياته بالعظمة البالغة من هذه الاحداث ، وهي ان العرب كانوا أصحـاب هذه الاخلاق العظيمة التي أراد الاستعمار تشويهها ، وباخلاقهم هذه سادوا وشادوا وخلدوا انباء يتناقلها التاريخ في زهو بهم وفخار :

يعرف الدين من صلاح ويدرى | من هو المسجدان والإســراء
انه حصنه الذي كان حصنـا | وحماه الذي به الاحتمـاء
يوم سار الصليب والحاملـوه | ومشى الغرب قومه والنسـاء
يضمرون الدمار للحق والنـا | س ودين الذين بالحـق جاءوا
وَيُهدُّون بالتلاوة والصـلبان | ما شـاد بالقنـا البنـاء
فتلقتهم عزائم صـدق | نُصٌ للدين بينهن خبـاء
مزقت جمعهم على كل ارض | مثلما مزق الظلام الضيـاء
وسـبت أمرد الملوك فرته | وما فيه للرعـاية رجـاء
ولو ان المليـك هيب اذاه | لم يخلصه من أذاها الفـداء
هكذا المسلمون والعرب الخـا | لون لا ما يقوله الاعـداء
فيهم في الزمان تلنا الليـالي | وبهم في الورى لنا أبنـاء

واذ خايل شوقي بمجد العرب ، واشاد بابطالهم ، ونوه بفضلهم على العالم كله ، لم يغب عنه ان يعيس الحاضر المتخـــلف الى هذا الماضي السباق ، فيشتد به الاسى ، وتغالبه الحسرة ، ولكن حسرته لـم تـكن استسلاما أو استكانة أو قناعة بحسب الآباء والاجداد ، بل هي وفاء للماضي واعزاز ، وتبصير بما بينه وبين الحاضر من بون شاسع ، ليحفز العـزائم الى العمل الدائب ، وتحطيم قيود الخور والهوان ، فقـــد بكى حضارة الاندلس في سينيته ، وبكى عزة العرب في مناجاته لدمشـــق في نونيته ، وحسبنا من بكائـه قوله :

بنو أمية للانباء ما فتحـــوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
ياويح قلبي مهما انتاب أرسمهـم ... سرى به الهم او عادته اشـــجان
بالامس قمت على (الزهراء) أندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتـــان
مررت بالمسجد المحزون أســـأله ... هل في المصلى او المحراب مروان ؟
تغير المسجد المحزون واختلفـــت ... على المنابر احرار وعبـــــدان
فلا الأذان أذان في منارتـــــــه ... اذا تعـــــالى ولا الآذان آذان

هـكذا كان شوقي يصدح بالعروبة ، ويحمي ذمارها ، وهكذا كان شوقي يتغنى للقومية العربية ، ويعلي منارها ، فليته عاش حتى يراها اليوم وهي تشق طريقها لتحقق ما كان يرجوه لها .

الدكتور أحمد محمد الحوفي
عضو وفـد المتحدة

الادب والبنــاء

بقلم

الدكتور محمد مندور

يقولون ان الاديب هو مهندس النفوس البشرية • ومعنى ذلك هو أنه بانيها • ولكن على أى نحو وبأية وسيلة يستطيع الادب أن يبني النفوس البشرية ؟ وهنا يتبادر الى الذهن ذلك التعريف الذي يقول أن الادب نقد للحياة • والنقد ينتهى الى الهدم • ولكنه في الواقع هدم يعهد للبناء ويعين عليه ولولا الدور الذى يقوم به الادب في نقد الحياة وقيمتها الفاسدة لما قامت الثورات التي تهدم القديم الفاسد لتبني محله الحيـاة الجديدة المرجوة • وذلك لان البؤس نفسه لا يحرك الشعوب وانمـا يحركها الوعى به • والادب هو الذى ينشر هذا الوعى ولا زلت اذكر كيف كان شبابنا الجامعي يقود المواكب الوطنية في شوارع القاهرة احتجاجا على الاستعمار والاستبداد والظلم وهو يردد مع شاعرهم الثائـر عندئذ قوله :

لقد ضاقت بنا الاوطان ما للعبد أوطـــان

ونفس هذا الشاعر الثائر يوجه الى زميله القائه النداء قائلا :

في سماء الخيـال ضم جناحيك ـ تقـع بيننـا فتصبح منا
دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين وارو للكون عنا
انما الفن دمعة ولهيب ـ ليس هذا الخيــال والتيه فنا

وبالرغم من أن الثورة ضد الاستعمار الاجنبى قد اشتعلت نيرانها منذ أن وطىء المحتلون أرض وطننا ، وبالرغم من ان تلك الثورة قد انفجرت على أوسع نطاق في أعقاب الحرب العالمية الاولى وظل لهيبهامتقدا طـوال

فترة ما بين الحربين ـ فانها مع ذلك لم تحقق هدفها وهو تحرير الوطن من سيطرة الاستعمار لان الفساد الداخلي والانحلال الاخلاقي واستشراء الانانية كانت تنخر في عصب الامة وفي سلوك المواطنين الخاص والعام وقد توفر الادب القصصي بنوع خاص على نقد كل هذه المفاسد وتجسيدها وابرزها أمام ضمير المجتمع على نحو ما فعل نجيب محفوظ في ثلاثيته التى تابع فيها ثلاثة أجيال تعاقبت خلال تلك الفترة وعانت من نفس المفاسد ـ وذلك في « بين القصرين » و « قصر الشوق » و « السكرية » • وكل ذلك بعد أن مهد هذا الكاتب لهذه الصورة العامة بعدة لوحات جزئية معبرة مثل « خان الخليلي » و « بداية ونهاية » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » •

واذا كانت السلطات الاجنبية والداخلية المستغلة لم تسمح للادباء الثائرين بأن يفضحوا مخازي ذلك العهد وينقدوها فان الانفجار الثوري الذى أخذ يضطرم في النفوس لم يلبث أن حطم الاغلال والقيود فراح الاستاذ عبدالرحمن الشرقاوي يصور في قصة « الارض » سيطرة الاقطاع على الفلاحين واستنزافه دماءهم شفع نقده لسوءات الحياة الريفية بنقده لسوءات حياة المدينة في قصته الاخرى « الشوارع الخلفية » •

وانطلق الادب في مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ يصور مخازي عهدها قبل الثورة ومظالمه وفساده لا لكي ينفس الادباء عن مكنون صدورهم فحسب بل ولكي يدعموا الثورة الجديدة ويؤكدوا شرعيتها ، بل ضرورتها بالامعان في تصوير تلك المخازي على نحو ما فعل يوسف ادريس في قصة « ملك القطن » التي صور فيها استغلال ملاك الاراضي فعرق جبين الفلاحين المستأجرين • وعلى نحو ما فعل في قصة « الحرام » • التي صور فيها ما كان يعانيه عمال التراحيل عندئذ من ظلم واستغلال وشقاء •

ولما كانت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ قد حرصت على بناء المواطن الجديد بناء سليما باعتباره خالق الثورة وحارسها ، فقد أولت أجهزة الثقافة الجماهيرية الكبيرة أكبر الاهتمام وبخاصة جهاز المسرح فأنشأت دور التمثيل وكونت ما يقرب من العشرين فرقة تمثيلية في القاهرة وحدها فضلا عن

الفرق العديدة التي أخذت تكون وتعمل في عواصم المحافظات مثل الاسكندرية ودمنهور ودمياط وطنطا والسويس وغيرها من العواصم وكان لهذا التوسع الكبير في هذا الجهاز الجماهير القوى أثره الفعال في جذب معظم المواهب الفنية النامية اليه حتى اصبح تأليف المسرحيات هو الفن الغالب على كتاب الجمهورية العربية المتحدة بحيث يمكن القول أن هذا الفن الذى نستطيع أن نتابع من خلال دراستنا لانتاجه الدور الكبير الذى ساهم به الادب في بناء حياتنا الجديدة التي تجمع بين القيم الاشتراكية العادلة والقيم الديمقراطية السليمة •

ولما كان الفكر البشري لا يمكن الا أن ينفعل بالتغيرات المادية والاجتماعية التي تحدثها الثورات الجريئة الناجحة في المجتمع وحياته فقد رأينا اديبا مخضرما من أدباء البرج العاجي كتوفيق الحكيم يجذبه الاشعاع الثورى الى سفح الحياة ليشارك في البناء الجديد للمجتمع بمسرحيتين ملتزمتين هادفتين ايجابيتين كتبهما خلال السنوات الاولى من حياة ثورة يوليو المجيدة المديدة وهما مسرحية « الصفقة » التي جعل الفلاحين ينتصرون فيها على اقطاعي منحل جشع في شراء صفقة أرض زراعية كانت شركة بلجيكية عقارية تملكها في زمام احدى القرى المصرية ثم قررت بيعها موحيا بذلك أن الارض أولى بملكيتها من يزرعها ويعمل فيها حتى لا يستغل غيره جهده ، ثم مسرحية « الايدى الناعمة » التي يوصي من خلال احداثها الطريفة أن الايدى الناعمة المرهفة لم يعد لها مكان في المجتمع الاشتراكي الجديد الذى يطلب الى كل مواطن أن يعمل لكي يعيش وان تخشوشن يداه كما تخشوشن أيدى جميع العاملين والعاملات ذوو الايدي الناعمة جوعا بعد أن قرر هذا المجتمع الجديد أنه لا مكان فيه للتافهين وللمتطلعين بالوراثة كما قال الرئيس جمال عبدالناصر •

وأما كتاب المسرح الجديد فمنهم من ركز جهده في المساهمة في بناء المجتمع الثوري الجديد على مواصلة الكشف عن مساوىء العهد الماضي ومظالمه وفساده تبريرا للثورة ونشرا لمزيد من الاقتناع بضرورتها على نحو ما فعل سعدالدين وهبة في مسرحياته الاربعة (السبنسة ـ كفر البطيخ ـ

المحروسة ـ كوبرى الناموس) حيث يعرض فيها أنواعا من المظالم والقلق والتشوق المضنى للخلاص •

وذلك بينما راح كتاب اخرون مثل نعمان عاشور يتابعون دراسة التغييرات التي أخذت الثورة تحدثها في سلم القيم حيث انهارت قيم انهيارا جزئيا بينما أخذت تنهضه قيم أخرى وان ظلت براعم ، لان تغيير سلم القيم لا يتبع فورا بسرعة تغيير أوضاع الحياة المادية وعلاقات الانتاج وروابط المجتمع • وان يكن من الضرورى الحتمى أن يتغير سلم القيم تدريجيا وعلى مهل نتيجة للتغيير الثورى الذى حدث في ماديات الحياة • ومتابعه هذا التغيير البطىء في سلم القيم ودراسته وابرازه هو ما فعله نعمان في سلسلة مسرحياته الناجحة « الناس اللى تحت » ـ والناس اللي فوق ـ وجهلة الدغرى ففي المسرحية الاولى حاول أن يظهر ما طرأ على عقلية « الناس اللي تحت » أى الطبقة الشعبية من تغيير يتركز حول الايمان بالعمل وبالقدرة على الانتاج ووضعهما في قمة سلم القيم الجديد • وفي المسرحية الثانية صور ما طرأ على عقلية بعض ابناء الناس اللي فوق من تغيير ، بينما ظلت عقول البعض الاخر ترفض حتمية هذا التغيير وتتمسك بعنجهية ماضيها البائد • وفي مقابل ذلك نرى في نفس المسرحية ابن خادمه لا يزال يعاني من مركب النقص الذى غرسه فيه المجتمع البائد رغم أن هذا الابن قد استطاع في عهد الثورة أن يتم تعليمه وان يحصل على درجة ليسانس في القانون ويعمل محاميا ولكنه مع ذلك يظل منكمشا منطويا على نفسه أمام أسرة من الطبقة الوسطى حدثته نفسه بالزواج من ابنتها • ولكنه لا يستطيع أن يفصح عن هذه الرغبة أما أم تلك الفتاة لمجرد أنها تمت بصلة الى أسرة الباشا التي كانت أمه تعمل خادمة عندها • وفي المسرحية الثالثة يصور أنواعا من الجشع والانانية والحذر والشك التي تسيطر على افراد اسرة من الطبقة الوسطى هى عائلة « الدغرى » • واذا كان الادب الذي استعرضنا بعض اتاجه فيما يوفق ظلت مهمته قاصرة أما على التمهيد للثورة عن طريق نشر الوعى بما كان يعانيه الشعب من ظلم وفساد وانحلال نتيجة للاوضاع السياسية والاتباعية الفاسدة واما في تدعيم الثورة

وتقوية بنيانها بعد نجاحها عن طريق مواصلة الكشف عن مساوىء الماضي تبريرا لقيامها وتعزيزا لشرعيتها ، بل لضرورتها الحتمية ، واما متابعة ما أخذت تحدثه تلك الثورة من تغيير في سلم القيم كنتيجة حتمية لتغيير ماديات الحياة وبالتالى أوضاعها الاجتماعية فان القاهرة قد شهدت في العام المسرحي الماضي عملا أدبيا فريدا وجديدا من الناحية الاديولوجية الخالصة، ونعني بهذا العمل مسرحية (حلاق بغداد) للكاتب المثقف الواعي ألفريد فرج • فهذه المسرحية لا تصور مفاسد الماضي ولا تقنع بتسجيل اصداء الواقع الثورى الجديد ، بل تستهدف تربية القيادات الثورية الجديدة التى نعمل اليوم جاهدين في جمهوريتنا العربية المتحدة على تنشئتها ، لتحمل بعد الجيل الحاضر مشعل الثورة وتعدو به الى الامام دائما شوطا وأشواطا • فحلاق بغداد في هذه المسرحية يفوق بكثير زميله حلاق اشبيلية الذى كان من كبار رواد الثورة الفرنسية الكبرى وذلك لان حلاقنا البغدادي لا يحارب الظلم ويتصدى له في هذه المسرحية عن وعي فكرى كما كان يفعل حلاق اشبيلية ، بل يحارب الظلم ويتصدى له بدافع من ضميره ، رغم وسوسة العقل وأنانيته ومحاولته ثنى صاحبنا عن المخاطرة بحياته وراحته في سبيل الدفاع عن المظلومين • فطوال هذه المسرحية يوسوس له عقله هذه الوسوسة الانانية الخبيثة • ولكن صاحبنا لا يلقى لهذه الوسوسة بالا بل يندفع كالسهم نحو المعارك يخوضها بوحي من ضميره الصامت الصامد من أجل المظلومين والمستضعفين في الارض والاذلاء المعتدى عليهم • وبذلك تعتبر هذه المسرحية في نظري انموذجا للعمل الادبي الخلاق القائد الذى يساهم في بناء حياتنا الثورية الجديدة برسمه للصورة المثالية الرائعة للقائد الثورى الذى لا يصغى الى وسوسة العقل الجبان المؤثر للراحة الفردية على الكفاح ضد الظلم والظالمين •

واذا كنت قد قصرت حديثي حتى الان على دور الادب في بناء حياتنا الجديدة عن طريق الواقعية النقدية ثم الواقعية البناءة • فانني لا أستطيع أن أختم هذا الحديث دون الاشارة الى الدور الكبير الذى قام به الادب في حشد العزائم للتصدى للعدوان الثلاثي الغاشم في سنة ١٩٥٦

عندما كان اطفالنا ونساؤنا وبناتنا يحملون السلاح الى جوار جيشنا الباسل ورجالنا المقاتلين ليهرعوا لملاقاة العدو والغادر على ارض المعركة في منطقة القتال وهم يرددون جميعا قول شاعرنا •

الله أكبر فوق كيد المعتدي
والله للمظلوم خير مؤيد
أنا باليقين وبالسلاح سافتدي
بلدي ونور الحق يسطع في يدي
قولوا معي،قولوا معي:الله فوق المعتدي

أو يصيح مع الشاعر الثوري الاخر في وجه العدو :

دع سمائي فسمائي محرقة
دع قناتي فمياهي مغرقة
واحذر الارض فأرضي صاعقة
هذه أرضي انا
وأبي ضحى هنا
وأبى قال لنا
مزقو أعداءنا

—

ثم عندما فتحت مسارحنا أبوابها أمام ابناء الشعب ليشهدوا المسرحيات الوطنية الداعية الى البذل والفداء والاستشهاد في سبيل أعز ما يملك وهو الوطن مثل مسرحيات « كفاح الشعب » (وعفريت الخيانة) وغيرهما •

وكل ذلك فضلا عما سيظهره زملائي عن الدور الكبير الذى نهض به الادب فى معركة بناء حياتنا العربية الجديدة باحتضانه لقضايانا العربية الكبرى كقضية فلسطين وقضية الوحدة والقومية العربية ومعارك محاربة الاستعمار ومناصرة حركات التحرر في كل بقاع العالم والدفاع عن السلام العالمي • العمل فى سبيل كل هذه القضايا يعتبر بلا ريب مساهمة فى البناء بحكم أن مجتمعنا لم يعد منعزلا عن غيره من المجتمعات الكافحة النامية بل ويقف من هذه المجتمعات في موقف الطليعة الرائدة •

الدكتور محمد مندور
عضو وفد المتحدة

الأدب والديمقراطية

بقلم

حسن محمد كتبي

حضرات السادة الاعلام

احييكم تحية الاسلام

التحية التي علمها الله لنا فقال

فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة •

وما دمنا بصدد الحديث عن الديمقراطية فلابد ان نقف وقفة اجلال وتقديس للمعنى القرآني العظيم الذي اشارت اليه كلمة (انفسكم) بعد كلمة التسليم • فانها تجعل الفرد من نفس الجماعة التي يسلم عليها فرد عليه السلام فتجعله هو ايضا من نفسها • ولا يمكن لمتصور ان يتصوّر انه يمكن ان يوجد اي تفريق في الانسان بين نفسه ونفسه فليس بعض نفسه انفس من البعض الآخر ولا اوفر حظا ولا اعلا مقاما ولا اعظم جاها واحق احتراما • كما انه لا يمكن لمتصور ان يتصور ان من يدخل بيتا اي بيت كان على جماعة اية جماعة كانت يجدهم جميعا على مستوى واحد من المال والجاه والمقام والمركز الاجتماعي وغير ذلك مما يسبب تفاوت الطبقات وتمايزها • بل لابد وان يوجد شيء من تلك الاسباب •

وهكذا في اسلوب تربوي لطيف حكيم مهذب يعلمنا الله اسمى معاني

الديمقراطية او ما يعبر عنها الاسلام بالسواسية وعدم التمايز في اصل الخلقة وان الناس في الحقوق العامة سواء لا يفاضل بينهم منشأ ولا مال ولا مركز ولا سلطان ، اما هذه الاشياء جميعها فانها حدود للمسؤوليات الاجتماعية وليس للتفريق بين شخص وآخر وجنس وآخر ولون وآخر ، كما يهيء لنا الالفة بين من عرفنا ومن لم نعرف بواسطة هذه التحية المباركة •

والسلام بين الجماعة لون من الوان الادب الاجتماعي والديمقراطية الحقة • يسلم الواحد على غيره فردا أو جماعة فيردون عليه التحية بافضل منها وكل واحد آخذ في اعتباره ان هذا السلام هو تحية من عند الله مباركة طيبة وهي تعني في صميمها اللقاء على مبدأ المساواة في الالوهيه وفي الحقوق فاذا كان اصل الخليقة واحد والههم واحد فلابد ان تتحد الحقوق فلا تمايز ولا يبقى للعنصرية والطبقية والفوارق الاجتماعية اي أثر فالناس كلهم لادم وآدم من تراب •

واذا كانت السواسية والمساواة في الحقوق العامة يلقنها الاسلام للناس من اي جنس كانوا وبأي عقيدة دانوا منذ أول لقاء يكون بينهم •

واذا عرفنا بان الاسلام جاء على وفاق مع الفطرة العربية وانسجام تام وقابلية كاملة ، وان هذه الفطرة على ما كانت عليه هي (السر) في خروج هذا الدين بين الاميين •

اذا وضعنا ذلك جميعه في الاعتبار نجد ان الديمقراطية في الفطرة العربية طبيعة وسجية غير متكلفة ولا مصنوعة يقوم عليها نظام حكمهم واسلوب حياتهم وطريقة فهمهم لشئونهم • وان التعاليم الاسلامية انما قامت بصقل تلك الفطرة والسجية وتهذيبها وتوسيع مداركها وفتح نوافذها على الحياة الواسعة التي كانت تحياها امم الارض من حولها لتعمل الفطرة العربية السليمة مطعمة ومصقولة بالتعاليم الاسلامية على تقويم ما اعوج من اخلاق وأنظمة الشعوب الاخرى • ونذكر بهذه المناسبة ـ مناسبة صقل التعاليم

الاسلامية للفطرة العربية ـ ذلك الحوار بين الديمقراطية والطبقية بشأن التحية .

فقد دخل سعد بن عبدالله بن النعمان الاوسي الملقب (بالقارى.) على النعمان بن المنذر ملك الحيرة فصاح به الحجاب (الارض للملك) ولكنه دخل رافعا رأسه يقول « ان الله امرنا ان لا يسجد بعضنا لبعض وجعل التحية السلام ، واما تحيتكم هذه فهي تحية جبابرة الملوك .

وبعد هذه النبذة الموجزة عن التحية الاسلامية الديمقراطية او السواسية كما نفضل ان نطلق عليها نعالج باختصار المعنى المقصود من ـ الديمقراطية والادب ـ فنأخذ في تعريف كل ركن من الركنين للموضوع على حدته .

(فالديمقراطية) تنصرف غالبا عند اطلاقها الى المعنى المعروف في نظام الحكم الذي يمكن كل فرد من افراد الشعب تتوفر لديه الاهلية للمشاركة مشاركة فعلية في تشكيل سياسة الحكومة بالتدخل في ادارة دفة الحكم ومراقبة الحكام والاشراف على تصرفاتهم وهذا ينطبق على الحكم الجمهوري او الملكي المقيد . فان الملك في النظام الملكي الدستوري يكون رمزا ، اما السلطة الحقيقية فهي بيد حكومة يحاسبها نواب الشعب .

فالديمقراطية في هذه الحدود تعبر عن نوع من الحكم مصدره الشعب . ولقد عرفها الرئيس ابراهام لنكولن بأنها .

« حكومة الشعب ، بواسطة الشعب ، لصالح الشعب »

وان الغرض من كل ذلك هو ضمان الحرية والعدالة والمساواة للمجتمع البشري .

فاذا قدرنا بأن هذا هو الغرض المقصود من الديمقراطية نجد ان عمر ابن الخطاب كان اصدق احساسا بهذا المعنى واوفى تصورا له وأدق تعبيرا عنه واوسع تطبيقا فيه حين قال لعمرو بن العاص عندما ضرب ابنه احد الاقباط . ـ

يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ،

ثم مكن القبطي بالقصاص من ابن عمرو وقال له ـ اضرب ابن الاكرمين •

وان الديمقراطية بمعناها الحقيقي لا تتجلى في القصاص وحده ولكن في تحطيم الفوارق بين الملوك والعامة أمام الحقوق ولكن سواسية كأسنان المشط •

وهذه الديمقراطية السلسة الطبيعية السهلة الموارد والمصادر كما تبدو في افعال عمر واقواله يطبق بها نظام الحكم الاسلامي والدولة الاسلامية والفكر الاسلامي والتشريع الاسلامي •• هذه الديمقراطية التي تبدو صافية المنابع هي نفس تلك الغاية التي ظل ينشدها في كد وجد ولهث يقطع الانفاس فلاسفة الاغريق والرومان ومن حذا حذوهم وجاء بعدهم فكان منهم من يأخذ الصدف وتفلت الجوهرة من يده ومنهم من يختلط عليه الامر بين الجوهرة والصدف • فلم تقم الديمقراطية اليونانية أو الرومانية الا على أساس من بواعث الصراع الطبقي والنزاع الاجتماعي المرير على مذاهب تقوم وأخرى تبيد اما الديمقراطية العربية فانها فطرة وطبيعة • ولذلك فقد كانت سهلة ومبسطة وواضحة ومفهومة ، وكان اقصى ما يعتور صورها الجميلة هو ان ترتكس في مظاهر المدنية والترف الذي جد على العرب ثم لا تلبث ان تغلب الفطرة والطبيعة وتتكشف الصبغة والطلاء •

وان الفوارق لتظهر واضحة بين كل من الديمقراطية العلمية والديمقرطية الفطرية في ان الاولى تمثل فكرة ناتجة عن فلسفة والاخرى تمثل عملا ناتجا عن طبيعة •

فلقد أراد افلاطون ان يصور المجتمع الفاضل في جمهوريته تصويرا يقوم على توزيع الصفات والفضائل وتقسيم الاعمال تقسيما يحقق لجميع الطبقات المشاركة في تصريف شؤون الحياة والحكم والقيام باعبائه وهو في طريقه الى غايته هذه جعل (الدولة) كل شيء أما (الفرد) فقد اعتبره شيئا عرضيا فجاءت ديمقراطيته مهددة بجور الدولة وانحرافها واهدار حقوق الافراد • أما ارسطو فانه صحح النظر الى الدولة فجعل الفرد

هو الاساس في بناء الدولة وان حرية الفرد هى المحور فى قيامها ودعا الى لزوم تدوين النظام السياسي ليـكون دستورا لنظام الحـكم ونظـام الحياة ومع كل هذه المحاولات في سبيل تحقيق الحـــرية الشخصية للفرد فقد عاشت الشعوب مغلوبة على أمرها وكان بعضها يستعبد البعض الآخر وكانت جميع موارد الارض للسادة اما اصلاحها وخدمتها واخراج كنوزها فهي للعبيد ، وكان الحـاكم هو الذي يملك المـال في الدولة وكذلك الارض ويملك من يعمل فيها من البشر وكان يفيد من يشاء بهباته واعطياته ويبيد من يتعرض للاعتداء على حريتهم •

فالديمقراطية العربية ليست فلسفة ولا تخطيطا أو تنظيما لفك أغلال وتوزيع أعمال ووصف فضائل وخصـــال ولـكنها فطرة وطبيعة ومفخرة وعزة وعمل انساني نبيل ثم جاءت التعاليم الاسلامية فصقلت الفطرة وهذبتها ونظمتهـا وشرعتها أفضل تشريع وأكمل تشريع •

واذا كانت كلمة الديمقراطية في التعابير الاصطلاحية تميل عادة الى تصوير المعاني السياسـية ، فانهـا في الفـكر العربي تعني تلك المعـــاني الاجتماعية السليمة التي تشف عنها هـذه الـكلمات السامية :ـ

اخوانـكم خولـكم • اطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تـكسون ولا تـكلفوهم ما لا يطيقون فاذا فعلتم ذلك فاعينوهم •

وهذه الصورة من الاخاء والتعاون التي تـكون بين المخـدوم وخادمه تـكون أيضا بين المحـكوم وحاكمه وبين العامل وصاحب العمل وبين جميع طبقات الشعب •

ولقـد كانت هذه الروح الـكريمة النبيلة التي يتمتع بها الشعب العربي هي الاساس في ان التشريع الاسلامي جاء منسجما مع الفطرة العربية •

تلـكم ايها السادة ـ هي الفوارق بين الديمقراطية في صورة فـكرة فلسفية اوحتها ونمتهـا ووضعت أصولها الحاجة والضرورة • والديمقراطية في صورة فطرة وسجايا وتربية اجتماعية عامة وحياة تسودهـا روح التعاون ولا يستغنى فيها رئيس القبيلة عن أفراد القبيلة وافراد القبيلة بعضهـــم عن

بعض ولا يجد معها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب غضاضة في حمل صرة بها دقيق على كتفه لينقلها من بيت مال المسلمين الى خباء منعزل لاعرابية مجهولة فقيرة يتضاوى ابناؤها من الجوع لم تطرق باب الخليفة وانما هو الذي طرق عليها خباءها ليتعرف أحوالها ، وقد فوجيء بمسئوليته الدينية والانسانية تختبيء وراء الخباء . بل انه لم يكتف بحمل الدقيق اليها ولكنه قام لها ولاولادها مقام الطاهي وهو الخليفة التي ترتعد خوفا واشفاقا من عدله فرائص الحكام والابطال والاكاسرة والقياصرة ويدوي اسمه من يشاء بحرمانه ومصادرة أمواله ، ويعز ويذل ويرفع ويخفض ويفني ويبقي .

وما زالت البشرية تعاني الشيء الكثير من طغيان القوة وسيطرتها وتعسفها ان لم تكن قوة على الطرق البدائية فانها تكون على هيئة النظم الاستعمارية واخضاع الشعوب المتخلفة للشعوب المتقدمة والضعيفة للقوية والفقيرة للغنية والتحكم في موارد رزقها وفي طرق تطوير حياتها .

هذه صورة من الديمقراطية التي كان ولا يزال العالم يحاول تخليصها من بين انياب القهر والسلطان والجبروت والطغيان وهي تصور الديمقراطية كفكرة فلسفية ونظرية ونظام مدروس مقنن ودساتير مبوبة تكامل نظريا وفلسفيا وتتضاءل عملا وتطبيقا .

اما الديمقراطية كفطرة وطبيعة فانها تتجلى في حياة هذا الشعب العربي الذي يربط نفسه قديما بفلاحة الارض وحمى حريته من كل مغتصب .

ولقد روى ديودورس الصقلي ان الاسكندر أرسل بعض قواده لمحاصرة الانباط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية (البتراء) فابادوه هو وجيشه فأرسل اليهم جيشا آخر بقيادة ابنه ديمتريوس فلما اقترب من ديارهم أرسلوا اليه هدية مع رسالة يقولون فيها :ـ

لماذا تحاربنا ونحن سكان الصحارى التي لا ينبت فيها زرع ؟ اننا نقطن هذه البقاع القاحلة الجرداء فرارا من العبودية ، فاقبل هديتنا

وارجع من حيث اتيت • واذا رغبت في حصارنا حرمت كل هناء ورأيت عجزك عن اكرامنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها ، واذا قدرت على اسر بعضنا فلن تجد واحدا منهم يرضى بحياة غيرها •

وقد عاشوا يتنقلون في صحرائهم الواسعة وراء الغيث والمطر حيث تمرع الارض ويفيض الضرع وتنمو الماشية ويخصب الخيال وتربى الفضائل وحميد الخصال ومن اقام منهم في المدن أقام بنفس تلك الروح الحرة الطليقة ، ولم يزل هذا شأنهم حتى عصرنا الحاضر وهو أيضا شأن بالهول مع الرحمة والانصاف في كل مكان •

هذه الديمقراطية كفطرة تعلوها ملامح الطابع العربي المشرق البهيج • وتلك ديمقراطية ارسطو وافلاطون وتوماس هوبس وجون لوك وجان جاك روسو وغيرهم من أصحاب المذاهب السياسية تعلوها ملامح الطابع الطابع الغربي المعقد المملوء بالتجاعيد والتلافيف نتيجة الكد الذهني والدرس والمقارنة والفلسفة التي تنقل أسوأ ما في حياة المجتمعات من حالات لتضع الانظمة لمعالجتها فتحمل تلك النظم انعكاسات المشاكل التي وضعت لمعالجتها •

هذه هي الديمقراطية الغربية التي تنبع من روح المقاومة للطغيان واستعباد الانسان لاخيه الانسان وعسف الاقوياء بالضعفاء •

وتلك هي الديمقراطية العربية التي تنبع من الفطرة السليمة التي تقوم على أسس من وحدة العشيرة والقبيلة وتحابها ومناصرة افرادها بعضهم لبعض وحسن جوارها لجيرانها واكرام الضعيف واغاثة الملهوف وقضاء حوائج المحتاجين •

فاذا فرغنا من هذه اللمحات الخاطفة عن معنى الديمقراطية الذي يعتبر احد شقي الموضوع فاننا سنعالج في المامة وجيزة معنى الادب لنخلق روح الالفة بين اللفظين حتى يستقيم انسجامها وينفسح المجال لما يؤديه تزاوجهما من معنى مطلوب •

فلفظ (الادب) يعني في اللغة العربية ـ الظرف •• والتهذيب وترويض النفس على الاخلاق والفضائل • والاديب هو الشخص المثقف

المتضلع باللغة وفنونها وطريقة عرض الصور والمعاني والافكار على أساليب رفيعة بليغة تطرب النفس وتنعش الحس •

وكلمة تأدب ـ تعني الادب وجمعه آداب وهو لفظ يطلق على العلوم والمعارف عموما أو على المستظرف منها فقط ويطلق أيضا على ما يليق بالشيء أو بالشخص فيقال آداب الدرس •• وآداب القاضي •• وآداب المجالس •• وآداب المرافعة •• ويعني هذا الاطلاق الوانا بعينها من علوم ومدارك وتعابير وحركات مهذبة تتناسب مع ذلك القصد •

أما بالنسبة الى مفهوم الادب في الاصطلاح العام عند اطلاقه فانه يعنى الكلام الجميل المعبر عن عاطفة أو غرض من الاغراض المعروفة في فنون الادب شعره أو نثره تعبيرا يتمشى مع أصول البلاغة المتعارفة في اللسان العربي والنكات البيانية • ويعبر ابن خلدون في مقدمته عن هذا المعنى بقوله :ـ

ان المقصور من علم (الادب) هو الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومنهاجهم ، الى ان يقول :ـ

ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا (الادب هو حفظ اشعار العرب وأخبارهم والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها •• وسمعنا من شيوخنا في مجلس التعليم ان أصول هذا الفن واركانه أربعة دواوين وهي :ـ

أدب الكتاب لابن قتيبة

وكتاب الكامل للمبرد

وكتاب البيان والتبيين للجاحظ

وكتاب النوادر لابي علي القالي

ثم يقول : وكان الغناء في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن لما هو

تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه ثم يشيد ابن خلدون بكتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني الذي يصفه بانه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ، وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها .

فالادب ـ كما يظهر مما تقدم هو :

تهذيب في الاقوال .. وتهذيب في الاعمال .. وتهذيب في الافكار .. وادراك للتراث العربي الذى يؤدي الى هذه الغاية . وتضاف لفظة الادب الى شأن بعينه فتعني بذلك تهذيبا يتناسب مع ذلك الشأن الذي اضيف اليه وهو أيضا ادراك لاسرار اللسان العربي التي وردت في منشوره ومنظومه وهو ايضا صناعة علم البيان التي يراد بها الوقوف على اسرار الاعجاز في القرآن ومعالجة ما في لغة العرب من الهيئات والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال .

فاذا كانت هذه معاني الادب في اللغة العربية فان اقربها فيما يتعلق بموضوع الديمقراطية هو ما يخص تهذيب الفرد تهذيبا يعين على خلق مجتمع متناسق الافراد متسق الطبقات تربط بين اجزائه روابط من أسباب التفاهم والتعاون والحياة السليمة الكريمة ، وهذا يعني تلقيح الافكار في المجتمع الديمقراطي بمفاهيم وصور ومعاني من الادب تعين على خلق هذه الافكار وتمكينهم من النفوس وتطرية القلوب بها واثارة العواطف للتحقق بها والتمسك باداتها .

وهذا يجعلنا نفسر الموضوع الذى نعالجه (الادب والديمقراطية) بانه البحث عن المعاني والصور الواردة في نصوص الادب العربي التي من شأنها تنمية الديمقراطية في نفوس الافراد والسمو باخلاقهم للقضاء على الروح الطبقية التي تنشأ عن التمايز بين الافراد بعضهم بعضا في مال او سلطان أو علم أو مقام او نسب أو لون أو خلاف ذلك مما يجنح ببعض النفوس الى التعالي أو اذلال الآخرين .

ومن المدهش ان الباحث عن هذا اللون من الادب في الذخيرة العربية

يجد العجب العجائب من النفائس التي لا يمكن لها تقيم ولا حصر • وذلك راجع لان العقل العربي والفكر العربي مهيئان للمعاني الروحية بفطرته فهو مشغول دائما بتتبع كل ما يمكن ان يطرأ على تصرفات الفرد الخاصة أو حتى في نيته من سوء فيعقب على اصلاحه وتطيره •• أو خير فينميه ويصفيه ويضاعفه •

وامر آخر ينبغي التنبه اليه في أسباب هذه الوفرة من أدب التهذيب في اللغة العربية ذلك هو محاولة الادباء ان يجاروا بصنيعهم الادبي آفاق تلك الرسالة الروحية التي جاءت بها التعاليم الاسلامية شمدت اللغة العربية بالوان التفكير والمعاني الاخلاقية والقيم الانسانية العالية لم تكن ضمن ما احتوته اللغة من قبل ، كما انها احتوت على أساليب من الفصاحة والبلاغة حفزت عقول الادباء على الاقتباس منها • ولقد كان الحكام المسلمون يرفعون من شأن الدين ويعتبرونه الدستور الذي يدعمون به سلطانهم ، فكان الادباء يكدون عقولهم فيارضاء السلطان بابراز المعاني الدينية والاخلاقية في انتاجهم الادبي شعرا ونثرا هذا الى جانب الاغراض الادبية التقليدية في الادب العربي الجاهلي والاسلامي •

فمحاولة مجاراة المثل والمعاني والآفاق الروحية والاخلاقية والمثالية التي جاءت بها التعاليم الاسلامية كانت من أهم العوامل التي ضاعفت الثروة الادبية التهذيبية والتربوية في اللغة العربية •

واذا كان القرآن والحديث من أصول وروافد الادب العربي العليا كما جاء في كلمة ابن خلدون التي نقلناها عنه سابقا ،فاننا سنعرض صورا من تلك النصوص الادبية التهذيبية التي جاءت في القرآن والحديث لنرى أي مجتمع ديمقراطي كانت تلك النصوص تدعو الى تحقيقه •

ففي مجال التضحية بالمال بسخاء وطيب نفس وباسلوب يفتح مغاليق القلوب يقول القرآن :ـ

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • قول معروف

ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حـــلبم • يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتـكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء ما كسبوا والله لا يهدي القوم الـكافرين • ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فاتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » •

وفي مجال الخلق العالي والعشرة الـكريمة :ـ

- ادفع بالتي هي احسن السيئة •
- ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم •
- يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء عسى ان يكون خـيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون •
- يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضـــكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم •
- يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمـكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير •
- يا ايها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون •

وفي مجال التربية الفردية :ـ

- واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انـكر الاصوات لصوت الحمير •

● ولا تمشي في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا •

وفي مجال التربية الاجتماعية :ـ

● قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون •

● وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او ابائهن أو اباء بعولتهن أو ابنائهن أو ابناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير اولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون •

● الذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما •

● والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون •

● ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام • واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد • واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد •

هذه صور تبهر القلوب والعقول من أدب القرآن وهي لا تخاطب الطبقة ولكنها تخاطب الناس جميعا • الناس المخلوقين من ذكر وانثى والمقسمين الى شعوب وقبائل ليتحقق بينهم التعارف ، واذا كان بينهم من تمايز حقيقي وتفاوت في المراتب والدرجات فان ذلك يعود الى التقوى • (والتقوى) هي جماع الفضائل ، ولن تتوفر الفضائل مع جهل او غباء أو نقص في الخلقة أو الخلق أو عجز عن سلامة الفكر والتصرف •

ان (التقوى) تحدد معايير من الكمالات فمتى توفرت في النفس الانسانية فانها تمكنها من فهم الفضائل والتحلي بها ومعرفة النقائص والتخلي عنها وهي وحدها الميزة التي يقرها الاسلام •• والطبقة التي يعترف بها ، وقد يصاحب هذه (الطبقية) مال أو جاه أو مركز اجتماعي أو سلطان أو غير ذلك هذه جميعا ليست الميزات التي يقيم لها التقييم القرآني وزنا اوليا ، وانما اذا توفرت هذه الصفات في نفس متحلية بالفضائل متخلية عن الرذائل فان ذلك مما يدعو الى الزيادة في تفضيلها وتكريما والا فان المال والسلطان والجاه وغيرها انما هي مسئوليات اجتماعية لا تؤدي الى تمايز معترف بها في المجتمع الفاضل الذي يدعو القرآن الى تحقيقه • ومن هنا وجد أعرابي مجهول الشجاعة الادبية المستمدة من الروح الديمقراطية حين قال لعمر بن الخطاب خليفة المسلمين على مسمع من المسلمين الذين يخطب فيهم ـ لو وجدنا فيك أعوجاجا قومناه بسيوفنا • فما كان من الخليفة الا ان حمد الله على توفر هذه الروية في الشعب الذى يحكمه ولم ينكر على الاعرابي قوله •

هذا هو أدب القرآن ـ اصدق ما يمكن ان يطلق عليه وأول وآخر ما يمكن ان يقال في وصفه انه اعجاز ـ اعجاز في اللفظ ـ واعجاز في الربط بين الكلمات واعجاز في الاداء والجرس واشراق ديباجة وسمو وتهذيب للنفوس والاخلاق • ومن هذا النبع الغزير الذي لا تدرك غزارته يأتي أدب النبوة الذي نأخذ مثلا عليه من أقوال الرسول عليه السلام ما يأتي :ـ

- المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم •
- ما أملق تاجر صدوق •
- لا تزال أمتي صالحا أمرها ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما •
- دب اليكم داء الامم من قبلكم : الحسد والبغضاء • والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا أقول حالقة الشعر • والذي نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا • الا انبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتهم •

- افشوا السلام • وصلوا الارحام •

- اوصاني ربي بتسع ـ اوصاني بالاخلاص في السر والعلانيـــة •• وبالعدل في الرضا والغضب • وبالقصد في الغنى والفقر •

وان اعفو عمن ظلمني واعطي من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فـكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرا •

ومن أدب النبوة :ـ

- اذا ساد القبيل فاسقهم • وكان زعيم القوم ارذلـــهم • واكرم الرجل اتقاء شره ، فلينتظروا البلاء •

- ان قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لـكل رجـل موضع • فنقر رجل موضعه بفأس فقالوا ـ ما تصنع ؟ قال ـ هو مكاني اصنع به ما شئت • فان اخذوا على يديه نجا ونجوا • وان تركوه هلك وهلكوا •

ومن أدب النبوة ايضا :ـ

- من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله ان يحـرم لحمه على النار •

- ليس من اخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم •

- فضل جاهك تعود به على أخيك الذي لا جاه له صدقة منـك عليه ، وفضل لسانك تعبر به عن أخيك الذى لا لسان له صدقة منك عليه ، وفضل علمك تعود به على أخيك الذي لا علم عنده صدقة عليه ، وفضل قوتك ترده على أخيك الذي لا قوة لـه صدقة منه عليه ، واماطتك الاذى عن الطريق صدقة منك على أهله •

أليس هذا المذاق العذب السلسبيل من ذلك النبع النوراني الاصيل ؟

انها النبوة تتحدث بلغة سامية لتسمو بالبشرية الى اهداف سامية ـ البشرية جميعها من غير تفريق في لون او جنس أو دين ومن غـير تفضيل لجاه أو مال •

فأية ديمقراطية في هذا الادب ؟؟

واي أدب خالد في هذه الديمقراطية ؟؟

ولسنا نكتفي من ذلك السحر الحلال بهذا القدر من الامثال لولا الافاضة لا تقف بنا عند حد ولكنا ونحن بصدد عرض نماذج من هذا الادب الغزير المادة الذي يهدف الى تهذيب عقل الفرد وروحه وخلق المجتمع الفاضل تحت تأثير من العقيدة الحنفية السمحة وتسلطها وقدرتها على تصفية الرواسب في الطبيعة البشرية حتى ترى الخير واضحا وتؤمن به وتقرن الايمان بالعمل الصالح •

أما ونحن بهذا الصدد فنرى لزاما ان نستعرض العهد الذي يمثل أوضح صورة لكل هذه المعاني ـ عهد ابي بكر مؤسس الدولة الاسلامية الى خليفته عمر الموسع لامتدادها والذى نشر ألويتها حيث لم يكن أحد يحلم في ذلك العهد بمثل تلك الفتوح فقد عهد اليه بقوله :ـ

اوصيك بتقوى الله لا شريك له • واوصيك بالمهاجرين الاولين خيرا • ان تعرف لهم سابقتهم ، واوصيك بالانصار خيرا فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، واوصيك بأهل الامصار خيرا فانهم رده العدو وجباة الاموال والفيء لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم • واوصيك بأهل البادية خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام ان تأخذ من حواشي أموال اغنيائهم فترد على فقرائهم واوصيك بأهل الذمة خيرا ان تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، اذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون • واوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومخافة مقته ان يطلع منه على ريبة • واوصيك ان تخشى الله في الناس ولا تخشى في الله • واوصيك بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فان ذلك ـ باذن الله ـ سلامة لقلبك • وحط لوزرك وخير في عاقبة أمرك حتى تفضي من ذلك الى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك ان تشد في أمر الله ، وفي أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ثم لا تأخذك في أحد الرأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمه

واجعل الناس سواء عندك • ولا تبالي على من وجب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، واياك والاثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما افاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك •

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك ، اقترفت به ايمانا ورضوانا ، وان غلبك عليه الهوى ، ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله ومعاصيه • وأوصيك الا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة ، وقد اوصيتك وحضضتك ، ونصحت لك ابتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسي وولدي ، فان عملت بالذي وعظتك ، وانتهيت الى الذي امرتك ، اخذت به نصيبا وافيا ، وحظا وافرا • وان لم تقبل ذلك ولم يهمك ، ولم تنزل معاظم الامور عند الذي يرضي الله به عنك ، يكن ذلك بك انتقاصا ورأيك فيه مدخولا ، لان الاهواء مشتركة ، ورأس كل خطيئة والداعي الى كل هلكة ابليس • وقد أضل القرون السالفة قبلك فاوردهم النار ، ولبئس الثمن ان يكون حظ امرىء موالاة لعدو الله • والداعى الى معاصيه ثم اركب الحق ، وخض اليه الغمرات ، وكن واعظا لنفسك ، واناشدك الله لما ترجمت على جماعة المسلمين ، فاجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضر بهم فيذلوا ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمهرهم في البعوث فتقطع نسلهم (يعني لا تحبسهم في أرض العدو وتمنعهم من العودة الى أهلهم) ولا تجعل المال دولة بين الاغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم •

هذه وصيتي اياك • واشهد الله عليك • واقرأ عليك السلام •

عهد ـ أى عهد ، في موضوعات هى دستور الحكم الذى لن تجد الانسانية حكما أفضل منه ـ من زعيم انساني عظيم ـ من الصديق الذي نهل وروى وفاض اناؤه من نبع النبوة الصافي يعهد به الى عمر بن الخطاب

عبقري الاسلام الذي لا يفري عبقري فريه •

لقد شمل هذا العهد أفضل قواعد الحكم واسمى معاني الاخلاق وابل صفات الانسانية وكمالاتها والقى اضواء على نوع الحكم الاسلامي ورسالته وسياسته وأساليبه •

فالسلطة التي يتبوأها الحاكم هي منزلة من منازل الدنيا والآخرة • فان اقترن بها عدلا وعفة اقترن بها ايمانا ورضوانا ، وان غلب عليه الهوى ، ومالت به الشهوات اقترف به سخط الله ومعاصيه ؟؟

ثم أي بيان اعلا من هذا البيان واي لسان افصح من هذا اللسان •

تلكم أيها السادة هي :

الديمقراطية النقية الانسانية التي لا تشوبها أي شائبة لانها ديمقراطية محصنة بالاخلاق والفضيلة ومراقبة الله الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور •• ديمقراطية شاملة على النحو التالي :ـ

وانشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فاجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضر بهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع نسلهم • ولا تجعل المال دولة بين الاغنياء منهم • ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم •

وهذا هو الادب الذي يصوغ تلك الديمقراطية صياغة بلورية شفافة مغدقة مثمرة تعلو ولا يعلى عليها •

أيها السادة :

ان تتبع مظاهر الديمقراطية العربية في الادب العربي •• ودراسة نصوص الادب العربي الذي يعرض الديمقراطية عرضا كريما سليما مشرقا مبهجا لهو شأن لا يمكن الفراغ منه اذا أراد الانسان ان ينسقه ويبوبه ويعرضه في صنوفه التي تفوق العد وتتجاوز المد ـ ولن يتسع لمثل هذا المقال

ولكنا نكتفي بهذا القدر الموجز على سبيل المثال لننتهي الى العبرة من ذلك وهي :ـ

ان الديمقراطية العربية فطرة وليست فلسفة •

وان التعاليم الاسلامية قد صقلتها فجعلت منها نظاما للحكم ونظاما للحياة وقواعد لخلق المجتمع الانساني الفاضل الكامل •

وان أدب الديمقراطية أو الصياغة الادبية التي عالجت معاني الديمقراطية في اللغة العربية قد جعلت منها أدبا ممتازا مشرق الديباجة سامي المعاني بارع التراكيب يصلح لان يكون زينة تحلى بها جيد الانسانية• وقد رأيتم ذلك فيما نقلناه من صور بارعة تبهر النفس وتفحم الخيال •

وان علينا معشر العرب ان نتفهم هذا التراث العظيم الذى تغمرنا نعمته وتشدنا الى اصوله فنأخذ منه بما يتلاءم مع حياتنا الحاضرة حتى نربط بين أطراف امجادنا التليدة والجديدة •

ان أمة تملك مثل هذا التراث العظيم لا يصلح لها ان تعيش على فضلات موائد الآخرين • ولكن الاليق بها ان تجود بخيرها على غيرها وتضيف أفضل ما يصل اليه العقل البشري من علم وسمو وبر بالانسانية الى حصيلتها وهي اذا فعلت ذلك لا تضيف جديدا على تراثها وانما تفسر هذا بذاك وتفصل الجديد بما اجمله القديم •• وتضفي على هذا الجديد حللا قشيبة من ذلك التراث الخالد العظيم •

حسن محمد كتبي
عضو وفد السعودية

تسمية الخليج بالخليج العربي

بقلم

عبدالرزاق البصير

طالما شكا المهتمون بمقومات هذه الامة المجيدة من تأثير الاعاجم على تلك المقومات كاللغة والادب والجغرافية والتاريخ ••• وكان هذا التأثير في مبدأ الامر ضعيفا لا يكاد يلتفت اليه الا المدققون أصحاب الاذهان الحادة ••• لانه مقصور على اللحن في الكلام ••• وقد كان تلافي هذا الخطأ هو ان وضعوا (على النحو) وكان ذلك على يد ابي الاسود الدؤلي ••• لكن هذه الاخطاء ما لبثت ان زادت وتفرعت حتى شملت كثيرا من الاسماء التاريخية والادبية والجغرافية •

وقد شاعت هذه الاخطاء الى درجة لم يلتفت اليها بعض كبار العلماء والادباء ••• ولا يعني هذا ان جميع العلماء قد وقعوا في هذه الاخطاء فنحن نعرف ان كثيرا من الباحثين قد ألفوا كتبا في التنبيه على هذه الاخطاء نذكر منهم :

علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٩٢هـ ، فقد ألف كتابا اسماه كتاب ما تلحن فيه العوام •

وابن السكيت الكوفي المتوفى سنة ٢٤٤هـ ، وكتابه (اصلاح المنطق)•

وابو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨هـ فقد ألف كتابا اسماه ما يلحن فيه العوام وغيرهم كثير •

غير ان هذا الجهد لم يقف على تلك الاخطاء وانما بقي بعضها شائعا حتى الان •

نجد ذلك واضحا في المجلات التي تصدرها المجامع اللغوية كمجلة المجمع اللغوى في القاهرة ومجلة المجمع اللغوي التي تصدر في دمشق ، وفيما يصدر عن بعض العلماء اللغويين المعاصرين من تآليف عامة • وقد يكون من الخير ان تنقل بعض الاسماء التي أثرت فيها الاعاجم ، فمن ذلك :

١ ـ مارجيل أو نهر معقل :

أصل هذه الكلمة المحرفة ـ أعني مارجيل ـ نهر معقل ، وهو نهر قديم مشهور من انهار البصرة •

٢ ـ المكلا :

هكذا ترد في كتب الجغرافيا والأطاليس وصوابها (مقلة) عاصمة حضرموت الساحلية ، والامثلة على ذلك أكثر من ان تحصى ولعل من أهمها الخليج العربي ••• فقد اشتهر ان اسمه الخليج الفارسي •

قلت ان اصلاح هذا الخطأ من الامور الهامة لما يترتب عليه من أمور كثيرة لها أهميتها البالغة ••• والحق أن كثيرا من العلماء والمؤرخين لم يلتفتوا الى هذا الخطأ ••• وسنحاول ان نثبت بصورة موضوعية ان الاسم الحقيقي للخليج هو الخليج العربي ، معتمدين في ذلك على أقوال مؤرخين حسب تسلسل أزمنتهم التاريخية مثل سترابون الذى عاش قبل الميلاد والمقدسي المعروف بالبشارى الذى عاش عشرة قرون ، وكارستن نيبور الذى عاش قرنين من الزمن •

استعمل (سترابون) وهو جغرافي ، عاش قبل الميلاد ، ويقال انه اشترك في حملة اوليوس غالوس ، استعمل كلمة الخليج العربي في وصفه للحملة التى قام بها الرومان على بلاد العرب[1] •

واستعمل (المقدسي) المعروف بالبشارى ، وهو عالم جغرافي عربي

---

(١) ذكر هذا الدكتور جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الثاني صفحة ٣٨٠ •

معروف اثنى عليه بعض العلماء المستشرقين مثل جلد ميستر وسبرنجر ... وقالوا عنه انه امتاز عن سائر علماء العرب بكثرة ملاحظاته وسعة نظره ... عاش هذا العالم نحو عام ٩٨٥م ، أى منذ عشرة قرون ، استعمل كلمة بحر العرب في تقسيمه للابحر السبعة (فبحر عمان - بحر هاجر - بحر العرب ... الخ)[١] .

يقول (كارستن نيبور) الرحالة الدنمركي « لقد اخطأ جغرافيونا على ما اعتقد ، حين صوروا لنا جزءا من الجزيرة العربية خاضعا لحكم الفرس ... لان العرب هم الذين يمتلكون خلافا لذلك جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصب الفرات الى مصب الاندوس على وجه التقريب ... » .

صحيح ان المستعمرات الواقعة على السواحل الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها ولكن بالنظر الى انها مستقلة عن بلاد الفرس وان لسان العرب وعاداتهم فقد عنيت بايراد نبذة موجزة عنهم .

« يستحيل تحديد الوقت الذى انشأ فيه العرب هذه المستعمرات على هذا الساحل . وقد جاء في السير القديمة انهم انشأوها منذ عدة عصور سلفت »[٢] .

واذا أردنا ان نعرف ما لهذه الاقوال من أهمية علمية فان الجدير بنا ان نتعرف على الشخص الذى أدلى بها .

كارستن نيبور مهندس دنمركي رحل الى اليمن مع بعثة مكونة من خمسة أفراد هو من جملتهم ، وذلك في سنة ١٧٦٢م ، وقد شاء الله الا يعود من هؤلاء الخمسة الا نيبور ، ذلك لانه استفاد من الاخطاء التي وقع فيها رفاقه ، فعوّد نفسه على طريقة المعيشة العربية وذلك ما اكسبه صحة

(١) كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي صفحة ١٧ ، وقد نقله كثير من الاوروبيين الى لغاتهم .

(٢) كتاب (اكتشاف جزيرة العرب) تاليف جاكلين بيرين ترجمة قدرى قلعجي - ص ١٦٦ .

ممتازة ... وبعمله هذا لم يعد يلاقي أية صعوبة مع سكان هذه البلاد ، في حين ان رفاقه لم يفعلوا ذلك .

ولم يكتف نيبور بالتعود على الحياة العربية ، وانما كيف نفسه بحيث نقبل كل ما حصل عليه من مضايقات وبذلك استطاع ان يكوّن لنفسه فكرة عن البلاد البلاد العربية التي زارها .

ولقد نشرت هذه الرحلة عدة مرات باللغات : الالمانية : والفرنسية والانكليزية ، ذلك لان هذه الرحلة قد زادت في معلومات الباحثين عن هذا الجزء من الوطن العربي ، وكانت رحلتهم في بلاد البن من المخا الى صنعاء ... وفي عودته بعد وفاة رفاقه الاربعة مر ببلاد الفرس ، وبين النهرين وقبرص وآسيا الصغرى[1] .

وقد رسم نيبور خريطة للخليج العربي مبينا عليها رحلته عام ١٧٦٥[2] .

وذكر الاستاذ محمد سعيد المسلم ان الخليج العربي كان يسمى بحر القطيف .

أما شبرنكر فينص على انه كان يسمى خليج (القطيف) قبل ان يعرف بأي اسم آخر[3] .

وذكر الاستاذ مصطفى مراد الدباغ انه لم يرد اسم الخليج في الكتابات الفارسية القديمة لذلك لا يعرف ماذا كان يسمى عندهم[5] .

وقال الاستاذ ان نجدة هاجر وسعيد الغز ، ان كلمة الخليج العربي تنسجم مع الحقيقة التي لا مفر من نكرانها ، والتاريخ الذى لا سبيل الى

---

(١) كتاب (اكتشاف جزيرة العرب) تاليف جاكلين بيرين ترجمة قدرى قلعجي – ص ١٤٦ .
(٢) كتاب (اكتشاف جزيرة العرب) تاليف جاكلين بيرين ترجمة قدرى قلعجي – ص ١٦٧ .
(٣) كتاب (ساحل الذهب) لمحمد سعيد المسلم – ص ١٧ .
(٤) كتاب (قصر ماضيها وحاضرها) لمصطفى مراد الدباغ – ص ٢٤

طمسه ، وتستجيب للشعور القومي الذى لا قيمة بدونه لاى وعي ثقافي[١] .

وقال جان جاك بيريبي : « في سنة ٦٣٤م ، في البصرة على الحدود العربية الفارسية جرت معركة السلاسل التي قررت شخصية الخليج العربي ، وقبل هذا النصر المبين كانت شواطىء الخليج وايران وبلاد الرافدين خاضعة كلها لسلطان الاكاسرة ، وازاء الزحف العربي الكاسح ما لبث هذا السلطان حتى تلاشى[٢] .

ولابد لنا هنا من ان نشير الى سبب اطلاق بعض المؤرخين على الخليج بالخليج الفارسي ، فان ذلك يرجع الى ان القائد اليوناني (نيركس) لما عاد مع جنوده من الهند عن طريق الساحل الشرقي للخليج وقدم تقريره لسيده الاسكندر الكبير رأى هذا اطلاق اسم الخليج الفارسي عليه لان نيركس لم يذكر في تقريره سوى الساحل الشرقي الذى مر به ... وبقي الاسم المذكور علما يدل عليه في العصور اليونانية والرومانية[٦] .

ومن المؤسف حقا ان بعض المؤرخين ، كياقوت الحموي وغيره ، وقعوا في هذا الخطأ التاريخي بالرغم من ان الحجج والبراهين التاريخية والعلمية التى قدمنا ذكرها لا تقف أمامها أية حجة أو برهان .

من هذا يتضح ان تسمية الخليج بالخليج العربي أمر يعتمد على الحجج التاريخية الصحيحة التي لا سبيل الى مقاومتها ، كما يعتمد على أقوال باحثين ومؤرخين عرب وأجانب لهم مكانتهم العلمية في أوساط العلماء ... فلا غرابة اذا اعتمدنا على هذه الاقوال المدعمة بالبراهين العلمية والحجج التاريخية . ودعونا هذا الخليج بالخليج العربي .

هذه نبذة موجزة عن الواقع التاريخي ... اما الواقع الجغرافي فان

---

(١) مقدمة كتاب الخليج العربي لجان جاك بيربي رجمة نجدة جاهر وسعيد الغز .

(٢) كتاب الخليج العربي لجان جاك بيربي ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز ص ٢١٠ .

(٣) كتاب قطر ماضيها وحاضرها لمصطفى مراد الدباغ — ص ٢٤ ، ٢٥

الخريطة المرفقة مع هذا البحث تصور لنا بوضوح طـول الساحل الغربي (العربي والساحل الشرقي (الفارسي) ، فالملاحظ ان الساحل الغربـي الواقعة عليه البلاد العربية أطول من الساحل الشرقي ، كما ان الخليج العربي يتصل بخليج عمان العربي ، وهذا الاخر يتصل ببحر العرب والبحر الاحمر .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث لاثبات تسمية الخليج بالخليج العربي .

والله موفق للصواب .

عبدالرزاق البصير

رئيس وفـد الـكويت

دول الخليج العربي وإماراته

بقلم
سيف مرزوق الشملان

مع الاسف الشديد ان كثيرا من أبناء العروبة لا يعرفون شيئا عن امارات الخليج العربي وعن عمان • والواجب القومي يحتم عليهم ان يلموا بذلك الماما كبيرا ، وقبل ان ابدأ في الحديث بايجاز عن دول الخليج العربي واماراته يجدر بي ان اذكر لمحة خاطفة عن تاريخ منطقة الخليج العربي وفي العصور الغابرة اتماما للفائدة • فأقول وبالله التوفيق والعون :

عرف الخليج العربي باسماء متعددة فكان ابو المؤرخين (هيرودوت) يسميه (البحر الاحمر) احيانا عندما يتحدث عن هجرة الفنيقيين من الخليج الى سواحل سوريا • وكان يسمى (ارض الله) ويسمى (ارض البحر) ويسمى (خليج البصرة) ولما جاء الاستعمار اسماه الخليج الفارسي خدمة لاغراضه ، علما بانه عربي فالسواحل العربية الممتدة على شواطئه اطول من السواحل الفارسية والناس الذين يسكنون تلك السواحل اكثرهم عرب لهم صلات مع اخوانهم العرب في الجزيرة العربية • فالاهواز عربية ، والجزر التي تقع في الخليج العربي امام سواحل فارس اكثر سكانها من العرب •

من أهم مناطق الخليج العربي القديمة وذات التاريخ العريق جزر البحرين والتي كان العرب قديما يسمونها (اوال) نسبة لصنم لبكر بن وائل ، سكانها القدامى • وكانت قديما تسمى (دلموه) بالدال او (تلموه) بالتاء ، وفيها كثير من الآثار التاريخية واشهرها الأكام والمدافن وتغطي ما مساحته ثلاثين ميلا مربعا من الارض ، وتقع في جزيرة (المنامة) عاصمة البحرين حاليا • وقد قام العلماء منذ أواخر القرن التاسع عشر

بفتح عدد من هذه المدافن والاكام ومنها الكبير الذي يقارب ارتفاعه النخلة ، السحوق ، والصغير الذى يعلو على الارض نحو ثلاثة امتار • وكان (تيودورنيت) احد الذين اهتموا بفتح بعض هذه المدافن في اواخر القرن التاسع عشر ، ويعتقد انها مدافن فنيقية الاصل ، وقد ايده في رأيه هذا جماعة من العلماء • ويقول بعض المؤرخين بان جزر البحرين كانت مقدسة في ذلك الوقت ، فكانوا ينقلون الاموات اليها من الخارج لدفنها في أرضها •

جاء في بعض النصوص الاكدية اسم موضع يقال له (مجان) والاصح انه (عمان) وورد في اخبار الملك (فرام سين) نحو ٢٧٣٠ سنة قبل الميلاد انه اخضع مجان وتغلب على ملكها واخذه اسيرا • وورد ذكر مجان في الحديث عن الاخشاب والنحاس ونحوها •

من الاماكن الاثرية المهمة في الخليج العربي هي جزيرة (تاروت) ويرى بعض المؤرخين ان اسمها القديم (عشتاروت) نسبة لآلهة الفينيقيين لانه كان فيها معبدا لعشاروت ، ثم حرفت بعد ما حذفت العين والشين فاصبحت تسمى تاروت ولا تزال تسمى بهذا الاسم ، ويعثر فيها على آثار قديمة وهي جزيرة تقع مجاورة لمدينة القطيف ، التي يرى بعض المؤرخين انها هي مدينة (جرهاء) الجرعاء القديمة وتقع في جزيرة تاروت على البحر مدينة أخرى قديمة الا وهي مدينة (دارين) ولا تزال تسمى بهذا الاسم ، وكانت مشهورة لدى العرب بمسكها الدارى حتى انهم كانوا يسمون بائع المسك والطيب بالدارى ، وكانت من اشهر المواني‌ء في الخليج العربي الى العهد الجاهلي وعما يقول فيها الأعشى :

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويخرجن من(دارين) بجر الحقائب

وهي الآن غير عامرة وهجرها اكثر سكانها ويعثرون فيها على آثار قديمة • واما تاروت فهي بالوقت الحاضر اعمر من دارين وفيها النخيل والمياه وفيها قلعة برتغالية قديمة وقد زرت تاروت ودارين بضع مرات آخرها عام ١٩٦٣م •

في الخليج العربي عدة جزر هامة ورد ذكرها في كتب التاريخ والجغرافيا أهمها جزيرة (فيلكا) اعمر جزر الكويت وتعتبر قرية ومياهها

حلوة وكانت قديما تسمى (ايكاروس) وعثر فيها على آثار قديمة هي أهم ما يفخر به متحف الكويت من آثار •

كان الفينيقيون يسكنون في سواحل الخليج العربي من البصرة الى عمان ، ولما هاجروا الى سواحل سوريا سنة ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد لم ينسوا بعض مدنهم في الخليج العزيزة عليهم فمن مدنهم بسواحل الاحساء (الجبيل) اسسوا مدينة في سواحل لبنان اسموها (جبيل) ومن مدنهم في عمان على البحر (صور) اسسوا مدينة في سواحل لبنان اسموها (صور) وهكذا • هذا بعض الطرف عن مدينة (تاروت) مركز آلهتهم عشتاروت •

كان الفينيقيون من امهر الملاحين ولهم فضل كبير في علم الملاحة • كما ان لهم الفضل الاكبر في وضع الحروف الهجائية ومن المؤرخين من يرى انهم حسنوها ولم يضعوها • وقد نشروا حضارتهم في كل البلاد التي استولوا عليها أو اتصلوا بها وخصوصا في البحر الابيض المتوسط •

الحديث عن تاريخ الخليج العربي ، وعن الفينيقيين طويل عريض يحتاج الى مجلد ضخم عله يستوعب ذلك كله بيد انه يكفي من القلادة ما احاط بالجيد والآن لنبدأ الحديث عن دول الخليج العربي واماراته راجين ان نتمكن من اعطاء المستمع الكريم صورة صادقة عن ذلك في هذه المحاضرة علما بان البحث نفسه دقيق يحتاج الى وقت طويل وجهد وان شاء الله ساحاول ان اضع كتابا في المستقبل عن تاريخ الخليج العربي بالاضافة الى الكتاب الذي اعمل على طبعه هذا العام باذن الله تعالى والذي بدأت البحث فيه وجمع المعلومات والصور ونحوها منذ مدة طويلة الا وهو (تاريخ الغوص) على اللؤلؤ في الخليج العربي) حقق الله الآمال •

١ ـ العراق

اكبر دول الخليج العربي ومناط أمله الكبير ولا حاجة للتحدث عنه فالمعرفة لا تعرف وتقع منه على ساحل الخليج العربي مدينة (البصرة) ميناء العراق • وجميع سكان الخليج العربي يعلقون آمالهم على العراق ونهضة العراق •

٢ - الكويت

تقع على ساحل الخليج العربي مجاورة للواء البصرة والكويت حديثة العهد تأسست نحو عام (١١٢٥هـ - ١٧١٢م) على ارجح الاقوال وسميت الكويت تصغيرا لكوت بني خالد ، وكانوا اصحاب السلطة آنذاك على الاحساء وقطر وقسم من نجد والعراق والكوت هو الحصن او البيت المربع ونحوه •

من اشهر اماكن الكويت القديمة والتي ورد ذكرها في كتب العرب واشعارهم هي (كاظمة) ولها ذكر في فتوحات العرب ، ونزل قربها الجيش العربي بقيادة (المثنى بن حارثة الشيباني) كما مر بها في طريقه لقتال الفرس (خالد بن الوليد) ويقع بنواحي كاظمة جبل يسميه العرب (المقر) ويسمى عندنا (مغيرة) وفي المقر قبر (غالب بن صعصعة) والد الفرزدق الشاعر الشهير •

تغنى بذكر كاظمة جماعة كبيرة من الشعراء جاهليين واسلاميين ولو ذكرنا اشعارهم لخرجنا عن الموضوع وفي عام ١٩٥٣ زار كاظمة المرحوم الدكتور (عبدالوهاب عزام) فاوحت اليه بهذين البيتين قالهما ارتجالا وهما :

بكاظمة طوفت في ميعة الضحى وقلبي الى الماضين جم التشوق
اكاد ارى في رملها قبر (غالب) وأسمع بالآفاق شعر (الفرزدق)

تبلغ مساحة الكويت نحو (٦٠٠٠) ميلا مربعا • وجوها قارى حار في الصيف بارد في الشتاء • وامطارها قليلة • ويبلغ عدد سكان الكويت جميعا نوحد اربعمائة الف نسمة • واما عدد الكويتيين الاصليين فيبلغ نحو مئة الف نسمة فقط ، وعاصمة الكويت الكويت نفسها • وكانت الكويت قبل النفط صغيرة وتعتمد في معيشتها على الغوص على اللؤلؤ والملاحة والتجارة ، والكويتيين ملاحون مهرة •

تعتمد الكويت اعتمادا كبيرا على البترول وهو سر ازدهارها وعمرانها وقد بدأ البحث في الكويت عن البترول عام ١٩٣٤م في شمال الكويت في منطقة (بحرة) ثم بعد ذلك انتقلت الابحاث الى منطقة (البرقان) في

الجهة الجنوبية من الكويت قرب مدينة (الاحمدى) فعثروا على النفط بكميات وافرة ، ولكن حالت الحرب الثانية دون استخراجه وفي شهر مايو سنة ١٩٤٦م شحنت اول شحنة من بترول الكويت باحتفال حضرة الحاكم السابق •ولا حاجة للتحدث باسهاب عن بترول الكويت فأمره معروف ومدون في كتب النفط وفي بعض الصحف •

٣ ـ المملكة العربية السعودية

الجزء الرابع المكون للمملكة العربية السعودية هو اقليم (الاحساء) ويسمى في الوقت الحاضر (المنطقة الشرقية) وتقع بين الكويت وامارة قطر على ساحل الخليج العربي ، وكانت تسمى قديما (هجر) ويسمى ساحلها (الخط) ومنه الرماح الخطية وعاصمة الاحساء (الهفوف) وتقع في الداخل ، وللاحساء ذكر طويل في كتب التاريخ والأدب والجغرافيا ، وكانت من ضمن منطقة البحرين الممتدة من البصرة حتى عمان • وكانت الاحساء من مساكن الفنيقيين وفيها كثير من الاماكن الاثرية • وهي عبارة عن واحة خصبة غزيرة المياه وتكثر فيها اشجار النخيل بصفة خاصة ومن اطيب انواع التمر فيها نوع يسمى (الخلاص) •

تعتمد المملكة السعودية في ثروتها على البترول المستخرج من الاحساء في منطقة تسمى (الظهران) قريبة من ساحل البحر وقد بدأ اكتشاف البترول في الاحساء سنة ١٩٣٦م وتأسست مدن بواسطة الثروة البترولية اهمها (الخُبر) و (بُقيق) و (نَجمة) و (رأس تَنَّورة) من اكبر الموانيء في الخليج العربي • وكانت الاحساء قبل ذلك تعتمد في معيشتها على الغوص للبحث عن اللؤلؤ ، والملاحة ، والتجارة والزراعة ، وصيد السمك ، وقد طورها البترول كثيرا من جميع النواحي • ويمتد من الظهران الى البحرين خط انابيب البترول تحت البحر لتصفيته في البحرين وطوله (٣٥) كم كما يمتد خط آخر كبير جدا ويعتبر اطول خط في الشرق الاوسط الى مدينة صيدا في لبنان وطوله (١٨٠٠) كم ويستطيع نقل ٢٠ مليون طن من البترول سنويا •

من اشهر مدن الاحساء (القطيف) وتقع على البحر وهي قديمة ومن مدن (القرامطة) وكانت عاصمتهم وفيها بعض آثارهم و (الخبر) وهي مدينة حديثة كما قلنا و (الدمام) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر وكانت فيها قلعة برتغالية قديمة وهي من اكبر موانيء الخليج العربي ويمتد منها خط سكة الحديد الى الرياض لنقل البضائع والركاب . و (العُقير) على ساحل البحر وكانت منذ اربع قرون ميناء كبيرا للسعودية بيد انها الآن اصبحت ليست ذات اهمية فهجرها جل سكانها والتجار . و (الجُبيل) وتقع على البحر وكانت ميناء مهما للسعودية ثم اضمحلت (وهناك قرى كثيرة لا حاجة لذكرها) . ويقدر عدد سكان الاحساء بنحو مئتي الف نسمة .

٤ ـ امارة البحرين

مجموعة من الجزر تقع قريبا من سواحل الاحساء وتبعد عنها نحو (٢٠ كم وعاصمتها (المنامة) وهي اكبرها وأهمها ومساحة المنامة (نحو ٢٥٠ ميلا مربعا) ومجموع الجزر نحو (٤٠٠) ميلا مربعا . ويتكون سطح المنامة من هضبة مرتفعة في وسطها يقع (جبل الدخان) ويرتفع (٤٤٠) قدما عن سطح البحر . ومناخ البحرين رطب في الصيف ومعتدل البرودة شتاء ونصيبها من الامطار قليل لا يزيد عن ثلاث بوصات سنويا . وهي غزيرة المياه كثيرة النخيل والاشجار والفواكه ، ومن اشهر عيونها (عين عذاري) التي يضرب فيها المثل فيقال (فلان عين عذاري تسقي البعيد وتخلي القريب) .

يسمى بعض الكتاب والمؤلفين البحرين عروس الخليج او لؤلؤة الخليج والحقيقة انه اسم على مسمى ، فالبحرين قبل البترول كانت اكبر سوق لبيع اللآليء في الخليج العربي وكانت مركز التجارة والنشاط الاجتماعي والثقافي .

أول سيارات عمومية كانت في البحرين .

أول سينما عمومية كانت في البحرين •

أول حديقة حيوان كانت في البحرين •

أول كهرباء عمومية كانت في البحرين •

أول بلدية في الخليج كانت في البحرين •

أول نظام للدوائر الحكومية والمحاكم كان في البحرين •

أول اضراب ومظاهرات في الخليج كان في البحرين سنة ١٩٢٨م •

أول مطبعة في الخليج كانت في البحرين للمرحوم الاديب (عبدالله بن زايد) •

أول بعثة تعليمية جاءت الخليج كانت للبحرين سنة ١٩٢٣م وكانت من سوريا ويرأسها الاستاذ (عثمان الحوراني) •

أول ناد في الخليج كان في البحرين •

أول تنقيب عن البترول في سواحل الخليج الغربية كان في البحرين سنة ١٩٣١م وبعد ذلك الاحساء •

أول انتاج للبترول في سواحل الخليج الغربية كانت من البحرين سنة ١٩٣٤م •

كانت البحرين أيام ازدهار تجارة اللؤلؤ في اوج عظمتها وكانت عروس الخليج بلا جدال • وكانت الكويت آنذاك لا تعتبر شيئا بالنسبة للبحرين فكانت تستورد الاشياء النفيسة من البحرين او الهند • وعلم البحرين احمر له شريط صغير ابيض عند السارية له تنؤات •

ثاني جزيرة بعد المنامة هي (المحرق) وفيها المطار ويصلها مع المنامة جسر • ويبلغ عدد سكان البحرين نحو مئة وخمسين الف نسمة • وتقع البحرين تحت الحماية البريطانية • ويحكمها الشيخ (عيسى بن سلمان آل خليفة) •

٥ ـ امارة قطر

شبه جزيرة تقع بين الاحساء وامارة ابي ظبي وتبلغ مساحتها نحو (٤٢٠٠) ميلا مربعا وتبعد عن البحرين نحو (٢٧) كم وعاصمتها (الدوحة)

تقع على البحر وهي اكبر المدن فيها • ويبلغ عدد سكان قطر نحو ثلاثين الف نسمة وتقع تحت الحماية البريطانية ويحكمها الشيخ (احمد بن علي بن عبدالله آل ثاني) •

ورد ذكر قطر في بعض المراجع التاريخية والجغرافية القديمة وكانت من اسواق العرب في الجاهلية وسبق ان نشرت مجموعة كبيرة من المقالات عن تاريخ قطر القديم وجغرافيتها في مجلة (البعثة) الكويتية من سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ الى ان اغلقت المجلة وكنت عازما على تأليف الجزء الاول من تاريخ قطر منذ عهد الفنيقيين الى سقوط الدولة العباسية سنة (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) ولبعض الظروف تركت تأليف الكتاب في الوقت الحالى •

تعتمد قطر في معيشتها على البترول وكانت قبل ذلك تعتمد على الغوص على اللؤلؤ والملاحة والتجارة والرعي ، وقد بدأ البحث عن البترول سنة ١٩٣٥م وتفجر النفط سنة ١٩٤٠م وقلب حياتها المعيشية رأسا على قلب • وحصل التقدم والعمران في البلاد • واشهر مدن البترول في قطر (دخان) مركز آبار البترول و (ام سعيد) ميناء شركة البترول وتقع قريبة من بلدة (الوكرة) وهي ثاني بلدة بعد العاصمة وبعدها مدينة (الخور) • وجو قطر حار صيفا حرارة شديدة في اكثر الاحيان • وشتاؤها قصير دافيء وهي قليلة الامطار • وعلم قطر احمر غامق له شريط ابيض عند السارية وله نتوات •

٦ ـ امارة أبو ظبي

تقع على ساحل البحرين قطر وامارة دبي وتبلغ مساحتها (١٦٤) الف كيلومتر مربع اي قدر مساحة الكويت والبحرين وقطر جميعا • وعدد سكانها نحو عشرة آلاف نسمة ومن الكتاب من يرى انهم اكثر من ذلك • وعاصمتها بلدة ابو ظبي المسماة الامارة باسمها وهي عبارة عن شبه جزيرة قاحلة وفي المد تنفصل عن البحر • وتقع ابو ظبي تحت الحماية البريطانية

ويحكمها الشيوخ (شخبوط بن سلطان بن زايد آل ابو فلاح) •

كانت أبو ظبي تعتمد في حياتها المعيشية على استخراج اللؤلؤ ، والملاحة ، وصيد الاسماك ، والرعي • وظلت منزوية الى ان خرج فيها البترول في نيسان سنة ١٩٦٠ فاحتلت مكانة مرموقة في العالم وقصدها الباحثون عن الثروة وتبدلت الحياة فيها تبدلا كبيرا وازداد عدد السكان • وحدود ابو ظبي متداخلة مع قطر • والمملكة العربية السعودية ، ومسقط ، ودبي ، وعمان ، وليست هناك حدود رسمية واضحة بل متداخلة وكثيرا ما تقوم المشاكل بينها وجيرانها على الحدود واهمها مشكلة واحة البريمي • ويتبع ابو ظبي نحو ثلاثين جزيرة في الخليج العربي اهمها جزيرة (داس) التي تدفق النفط فيها وهي مدينة من مدن البترول وفيها مطار وآلة لتقطير المياه المالحة ونحو ذلك • وعلم ابو ظبي لونه احمر وفي الزاوية العلوية منه مربع صغير لونه ابيض •

٧ – امارة دبي

تقع على ساحل الخليج العربي بين ابي ظبي والشارقة وكانت تسمى قديما لدى العرب (دبا) بالالف وكانت من اسواق العرب المعروفة ولا تزال الى الوقت الحاضر تعتبر ميناء عمان كلها وتعتمد في عمرانها وتقدمها على التجارة حيث الى الآن لم يعثر في اراضيها على البترول • وهي امارة صغيرة المساحة ولكنها اكثر الامارات عمرانا وسكانا ويقدر عدد سكانها بنحو ثمانين الف نسمة اكثرهم من غير السكان الاصليين • وتقع دبي تحت الحماية البريطانية ويقيم فيها المعتمد البريطاني لكل امارات عمان • ويحكمها الشيخ (راشد بن سعيد آل مكتوم) • ولون علم دبي احمر وعند السارية شريط ابيض اللون • وتأتي دبي في الدرجة الثانية بعد البحرين من ناحية التجارة والعمران وسيكون لها مستقبل عظيم ولا سيما بعد ان يعثر فيها على البترول •

كانت دبي تعتمد في معيشتها على استخراج اللؤلؤ وكانت من مراكزه

المهمة في الخليج • ويشتغل الاهالي في التجارة والملاحة والرعي وصيد الاسماك • وقد اخذت دبي تسير بسرعة فائقة في طريق التقدم والاقتصاد ، فارتفعت في سمائها البنايات العالية والفلل فاخذت تحل محل البيوت القديمة الصغيرة والذي لم ير دبي منذ عشر سنوات ويراها هذه الايام يشده العجب لطفرتها الكبيرة من جميع النواحي • ففي السنوات الاخيرة ظهرت كثير من المشاريع الحيوية الى حيز الوجود • كالمطار وتأسيس بنك وطني بالاضافة الى البنك البريطاني ، وانارة البلد في الكهرباء وتوصيل المياه الحلوة الى البيوت ، وانشاء المستوصفات والمدارس للبنين والبنات ، وتعميق (الخور) الذي يقسم مدينة دبي الى قسمين يسمى الاول (الشندفة) والثاني (ديرة) وقد عمل جسر يصل بين البرين لعبور السيارات والمشاة وكان قبل ذلك الاتصال بالقوارب وتسمى (العبرات) وللخورو منظر بديع جدا • والخور لسان من البحر يدخل في اليابسة ولهذا يسمى البعض دبي (فينيسيا الخليج) والعبرات اشبه ما تكون بالجندول الايطالي والحقيقة ان دبي من جهة الخور ذات منظر خلاب فالزوارق والسفن الكبيرة المحملة بالبضائع تروح وتغدو في الخور فتجد السفينة المتوسطة الحجم بحملها ملتصقة برصيف السوق فتجلس على السفينة وكأنك في السوق • والمسافة بين البرين قصيرة وخصوصا في مدخل الخور وبامكانك ان تنادي على الشخص الذي في البر الآخر • ويتسع الخور كثيرا في الداخل ولكنه يقل عمقه كلما توغلت به •

تتصل دبي بالخارج بواسطة مطارها فيأتي اليها الطائرات كل ايام الاسبوع محملة بالركاب • وترسو في مينائها الزوارق البخرية ، والسفن الشراعية ، والبواخر لنقل الركاب والبضائع وقلما يخلو ميناؤها من باخرة • لان دبي اصبحت في السنين الاخيرة يقصدها رجال المال والاعمال والتجارة ونحوها • والضريبة الجمركية قدرها ٤٪ وبلغت ميزانية دبي للعام الماضي اربعة ملايين روبية اي ثلاثمائة الف دينار والعملة الرسمية في دبي وامارات عمان والبحرين وقطر هي الروبية الهندية • وقد عملت

الكويت كثيرا على بذل المساعدات اللازمة لدبي وامارات عمان •

تقع في ضواحي دبي قرية صغيرة بنيت حديثا وبيوتها حديثة وتسمى (بورسعيد) باسم المدينة العربية الخالدة والعجيب في الامر ان اول منزل اقيم فيها كان يوم العدوان الغادر على بورسعيد فلذلك سميت باسمها تخليدا لها •

٨ ـ امارة الشارقة

تقع على ساحل الخليج بين دبي وام القيوين وعجمان • ولها اقسام اخرى تابعة لها ولكنها منفصلة عنها وتقع على ساحل خليج عمان ومنها بلدة (خورفكان) وبلدة (كلبا) • وتشتمل الشارقة على عدة قرى اكبرها الليلة ، وحيرة ، والخان • وتمتد حدودها الى الداخل نحو ٨٠كم ويتبعها بعض الجزر اشهرها (ابو موسى) وتستخرج شركة انجليزية (المغر) منها منذ مدة طويلة • والمسافر الى خورفكان يمر بسلطنة مسقط وعمان وبعض الامارات لان حدودها متشابكة ، وهذا مخطط استعماري رهيب للتفرقة وايجاد الخلافات بين الحكام على الحدود ، ودائما ما تقع الخلافات بينهم • وتقع الشارقة تحت الحماية البريطانية ، وفي الشارقة بخور البلدة العاصمة تقع القاعدة البريطانية العسكرية الجوية • والمسافة قصيرة بين دبي والشارقة وسيارات الاجرة تسير بينهما وبين دبي والامارات كل وقت • ويحكم الشارقة الشيخ (صقر بن سلطان القاسمي) • ويتألف علمها من اللون الابيض وفي الوسط مستطيل ابيض نحو ربع مساحة العلم •

كانت الشارقة تعتمد في معيشتها على استخراج اللؤلؤ بالدرجة الاولى ولما كسدت تجارة اللؤلؤ اخذت الحياة الاقتصادية فيها تضمحل وفرق شاسع بين الحياة الاقتصادية والعمران في دبي وبين الشارقة • ويعمل الاهالي بالتجارة والملاحة والرعي والزراعة وصيد الاسماك • وفي الشارقة بعض المناطق الزراعية واهمها (خور فكان) و (الذيد) و (الفلج) وتنبت فيها الفواكه والخضروات والبرسيم ونحوها • ويبلغ عدد سكان امارة

الشارقة نحو ثلاثين الف نسمة • وتتولى التنقيب عن البترول شركة امريكية واذا ما عثر عليه فسوف تتبدل حالة الضنك التي تعيشها • ويرى البعض ان شركات البترول لا تريد العثور على البترول لاغراض سياسية •

٩ ـ امـــارة عجمـان

تقع على ساحل الخليج العربي وتحيط الشارقة بها من ثلاث جهات • وهي اصغر الامارات واقلها سكانا ويبلغ عدد سكانها نحـو خمسة آلاف نسمة وتقع تحت الحماية البريطانية ويحكمها الشيخ (راشد بن حميد) وعجمان مقسمة الى ثلاثة اقسام متباعدة ومنفصلة عنها ومنها (مصفوت) وهي خصبة غزيرة المياه • و (المنامة) وفيها معسـكر بريطـاني لقـوة السواحل •

تمتاز عجمان بطيب هوائها ، وعذوبة مائها وتسمى مصيف الساحل ويقصدها الناس هربا من الحر • وكانت تعتمد في معيشتها على استخراج اللؤلؤ ويعمل اهاليها حاليا بالزراعة وصيد الاسماك • وعلمها يشبه علم دبي تماما •

١٠ ـ امارة أم القيوين

تقع على ساحل الخليج العربي بين الشارقة ورأس الخيمة والشائع ان معناها ام القوة لانها كانت اقوى الامارات يوما ما وكانت تجلب اليهـا البضائع والتمور لتموين الساحل ولكن تبدل حالها وناء عليها الدهر بكلكله والظاهر أنها هي جزيرة (ابن كاواه) التي كانت عامرة وورد ذكرها في المراجع العربية القديمة •

ويبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة وهي ثاني امارة في الصغر ويجلب الماء اليها من الشارقة ورأس الخيمة • ولقرية ام القيوين العاصمة منظر بديع جدا فهي شبه جزيرة واذا اقبلت اليها تحسبها جزيرة • وتقع ام القيوين تحت الحماية البريطانية • ويحكمها الشيخ (احمد بن راشد المعلا)

وعلمها لونه احمر وفي وسطه هلال ونجمة وعند السارية شريط ابيض •

يكثر السمك في ام القيوين ومن اطيب الانواع • ولو كانت هناك شركة لتعليب الاسماك ونحوها لامكن الاستفادة من هذه الثروة البحرية الهائلة • ويتبع ام القيوين منطقة خصبة تبعد عنها نحو اربعين كيلومترا تسمى (فلج المعلا) •

١١ ـ امارة راس الخيمة

تقع على ساحل الخليج العربي بين ام القيوين وجبال عمان • وتبلغ مساحتها نحو ٢٠ ألف كم ويبلغ سكانها نحو ثلاثين الف نسمة وسميت رأس الخيمة نسبة لخيمة وضعها احد الرؤساء الكبار وكانت تسمى قبل ذلك (جلفار) وهي مدينة قديمة وربما انها من مدن الفنيقين ويكفيها فخرا انها انجبت الملاح العربي الشهير (احمد بن ماجد) وهي موطن قبيلة القواسم التي لعبت دورا مهما على مسرح الخليج وكان لها اسطول حربي كبير بيد ان الانجليز قضوا على ذلك الاسطول كما انهم ضربوا البلدة بمدافع اسطولهم سنة ١٨١٠م وفي سنة ١٨٢٠ عقدت معاهدات عامة بين بريطانيا وامارات الخليج العربي وتقع رأس الخيمة تحت الحماية البريطانية • ويحكمها الشيخ (صقر بن محمد القاسمي) ولون علمها وشكله كعلم الشارقة من القواسم •

اكبر بلدة هي رأس الخيمة العاصمة ويخشى عليها ان يتآكل ساحلها جهة الخليج من جراء الامواج وليس من عمل سوى نقل البلدة الى مكان مرتفع • ورأس الخيمة خصبة وكثيرة الجبال • وفيها عيون حارة • وتسمى (لبنان الخليج) وجوها بارد • ومرتفعاتها مغطاة باشجار مختلفة يأتي اليها النحل ويستخرج منه العسل • ولرأس الخيمة منظر جميل حيث الجبال والاشجار والبحر • ويشغل الاهالي بالزراعة والملاحة وصيد الاسماك ونحوها • وتمون رأس الخيمة الامارات بالحطب للوقود والتمر والخضروات والفواكه • وتشتمل على قرى عديدة اهمها (الرمس)

كما تتبعها بعض الجزر اشهرها (الجزيرة الحمراء) وتسمى ايضا (زعاب) وهي عامرة •

١٢ ـ امارة الفجيرة

تقع على ساحل خليج عمان ساحل الباطنة عند مضيق هرمز ، ولا تعتبر من امارات الخليج العربي ولكننا ادرجناها هنا لانها من امارات عمان وقد اسسها الانجليز عام ١٩٥٢م • وتعد افقر الامارات ويعيش اهلها في شبه عزلة عن العالم ويحيون حياة قاسية شديدة يتحملون المتاعب والضيق • وارضها جبلية • ويعيش سكانها على الرعي والزراعة وصيد الاسماك ويبلغ عددهم نحو عشرين الف نسمة ويمتازون بدقتهم في اصابة الهدف • والفجيرة تحت الحماية البريطانية ويحكمها الشيخ (محمد بن حمد الشرقي) • ولون علمها احمر خالص بدون اي شيء •

١٣ ـ سلطنة مسقط وعمان

وهي البقية الباقية من سلطة عمان الكبيرة التي لعبت دورا مهما في التاريخ الحديث فقاتلت البرتغاليين وفتحت شرقي افريقيا وبعض اقسام من الهند وباكستان وايران وكانت لها صولة وجولة حتى قال فيها احد المؤرخين (لم تقم للعرب قائمة بعد خروجهم من الاندلس الا في عمان) وهو محق في قوله • ولكن الاستعمار البريطاني قضى عليها وجعلها في الوقت الحاضر سلطنة صغيرة عاصمتها (مسقط) وسلطانها (سعيد بن تيمور بن فيصل آل ابي سعيد) وتقع السلطنة تحت النفوذ البريطاني وللمعتمد البريطاني السلطة الكبيرة • وتعيش السلطنة عيشة العصور الوسطى • وعلم سلطنة مسقط وعمان أحمر خالص •

١٤ ـ امامة عمان

تشمل القسم الداخلي من عمان وتمتد الى الربع الخالي وهي اخصب بلاد عمان وفيها (الجبل الاخضر) مما يدعو للفخر والاعتزاز ان الجبل

الاخضر هو المنطقة الوحيدة في البلاد العربية التي لم يستول عليها احد من الغزاة والفاتحين سواء من المسلمين كالترك والعجم او من الغربيين وهو مركز (الآباضية) والحكم فيه جمهوري حيث ينتخب الامام وعلى الجميع طاعته ، وامام الجبل الاخضر الحالي هو (غالب بن علي) الذي يكافح الاستعمار الانجليزي وعاصمته مدينة (نزوى) وهي مدينة قديمة ٠

لولا البترول لبقي الجبل الاخضر على ما كان عليه ٠ ولكن الاستعمار البريطاني يريد ان يستولي على الجبل الاخضر وما حوله فتذرع بعدة اسباب وحرك سلطان مسقط زاعما ان الجبل الاخر يتبع لسلطته وكان ما كان من الحوادث مما هو معروف وتنشره الصحف عن جهاد اخواننا العمانيين راجين لهم النصر والسداد ٠ وعلم امامة عمان لونه أبيض وفيه سيف أحمر اللون وعلى العلم آية قرآنية كريمة وهي (نصر من الله وفتح قريب) ٠

١٥ ـ المدارس في امارات عمان

اوفدت الكويت اول بعثة لها الى ساحل عمان سنة ١٩٥٣م وكانت السباقة في ذلك ثم تلتها الجمهورية العربية المتحدة وقطر والبحرين ٠ واعتذرت ابو ظبي عن قبول بعثات من قبل الاقطار العربية واحضرت هي بنفسها خمسة معلمين من الاردن سنة ١٩٦٠م وأسست الكويت المدارس والمستوصفات في ساحل عمان واقامت لها مكتبا في دبي للاشراف على اعمالها ٠ وفيما يلي احصائية بعدد المدرسين والمدرسات في العام الدراسي ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣م :

بعثة الجمهورية العربية المتحدة	٦٢ مدرسا ومدرسة
بعثة الكويت	٤٨ مدرسا ومدرسة
بعثة قطر	٣٢ مدرسا ومدرسة
بعثة البحرين	١٠ مدرسين
	الجمع = مدرسا ومدرسة

يضاف الى هذا العدد نحو خمسة وعشرين مدرسا تعينهم الحكومات المحلية بالاتفاق معهم وتوزيع المدارس في ساحل عمان فكما يلي :

١ ـ دبي ٤ مدارس بنين ٢ مدرستان للبنات عدد الطلاب والطالبات ٢٠٠٠

٢ ـ الشارقة ٤ مدارس بنين ٢ مدرستان للبنات عدد الطلاب والطالبات ١٣٥٠

٣ ـ رأس الخيمة ٤ مدارس بنين ٣ مدارس للبنات عدد الطلاب والطالبات ١١٠٠

٤ ـ ام القيوين ١ مدرسة بنين ٣ مدارس للبنات عدد الطلاب ٣٠٠ ٠

٥ ـ عجمان ١ مدرسة بنين ٣ مدارس للبنات عدد الطلاب ٣٥٠

٦ ـ الفجيرة ١ مدرسة بنين ٣ مدارس للبنات عدد الطلاب ١٠٠

كانت آخر الامارات التي فتحت فيها مدرسة هي الفجيرة سنة ١٩٦١م٠ ويبلغ عدد الطلاب والطالبات جميعا نحو خمسة آلاف طالب وطالبة ٠ ونسبة عدد الطالبات الى الجميع يعادل تقريفا ٣٠٪ ٠ وهناك مدارس اهلية وكتاتيب وبعض مدارس حكومية لم تتطرق اليها وخصوصا في دبي ٠

أرجو ان أكون قد وفقت في هذه المحاضرة الى تسليط الاضواء على الخليج العربي واماراته خدمة للمصلحة القومية والله ولي التوفيق ٠

والسلام عليكم

سيف مرزوق الشملان

عضو وفد الكويت

المحتويات

الادب والثورة :

الادب والبنـاء :